المدخل إلى

علم الاجتماع

الأستاذ الدكتور

محمد ياسر الخواجة

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب – جامعة طنطا

٢٠٠٦ / ٢٠٠٧


بسم الله الرحمن الرحيم

إهــداء

إلى سمر . . أهدى هذا الكتاب التى ولدت مع مولد هذا الكتاب آملاً من الله سبحانه وتعالى أن يرعاها ويوفقها وهى فى بداية عمر وحياة تشرق على درب هذه الحياة .

المقدمـــــة

المقدمـــــة

لاشك أن تأليف كتاب في المدخل لعلم الاجتماع ليست أمرا هيناً فهي تحتاج إلى خبرة ومران في تدريس هذا المقرر، ومحاورات نقاشية مع الطلاب والدارسين لهذا العلم ، كما تحتاج إلى قراءات واسعة للكتب والمؤلفات الـتي صدرت تحت هذا العنوان ،وهي محاولات هامـة وضروريـة لإثـراء معرفتنـا بالتعريف بهذا العلم ، ولذا جاء هذا الكتاب كمحاولة أقدمها للقارئ المثقف وللدارس المبتدئ حول "مدخـل إلى علـم الاجتمـاع " هدفـها الأساسـى الإلمـام بمضمون هذا العلم سواء من ناحية الموضـوع أو النظريـة أو المنـهج فضـلاً عـن بعض الموضوعات التي ترتبط بطبيعة هذا العلـم ، مـع محاولـة تبسيط هـذه الموضوعات لجـذب اهتمـام الدارسـين لـه خصوصـا وان هـذا الكتـاب يعـرض بوضوح جانبا هاماً من جوانـب هـذا العلـم الـذي مـازالت أدواره قـاصرة عـن الوفاء بحاجات المجتمع العربي الراهنة والمستقبلية . رغم دخول هذا العلـم في مصر واغلب الدول العربية منذ عام ١٩٢٥ م في الجامعات والمعاهد العلمية

لـذا فقـد تزايـد الاهتمـام بعلـم الاجتمـاع المعـاصر علـــي المســتويين المجتمعي والأكـاديمى ، وقـد صـاحب هـذا الاهتمـام تطـور البنـاء النظـري والمنهجي لعلم الاجتماع نحو توظيف المعرفة الاجتماعيــة في خدمـة أهـداف تطبيقيـة عمليـة ، حتـى أصبـح علمـاء الاجتمـاع يؤكـدون أهميـــة الجـــانب التطبيقي لعلم الاجتماع لكي تصبح المعرفة الاجتماعية معرفة قابلة للتطبيــق والاستخدام في مواجهة مشكلات الإنسـان والمجتمـع . تلـك المشـكلات الـتي تزداد يوما بعـد آخـر خاصـة في ظـل تطـور المجتمعـات الإنسـانية وحـدوث

ثورات تكنولوجية ومعرفية وإتصالية جعلت العالم يدخل في إطار مرحلة جديدة وهي مرحلة العولمة ، تلك العملية التي أثرت علي ظهور مشكلات جديدة للإنسان والمجتمع في الدول النامية أو الأقل نموا بشكل خاص وبالتالي فقد ظهرت نوعية جديدة من القضايا والاهتمامات المعاصرة التي يجب أن يتناولها علم الاجتماع المعاصر ، فأصبح علم الاجتماع اليوم يعالج قضايا الصراع الدولي و العولمة و أثرها علي المجتمع ، وقضايا التنمية المستدامة والتلوث البيئي والتنمية البشرية ومشكلات الشباب والمرأة والفئات المهمشة في المجتمع والقطاعات غير الرسمية فضلا عن الحركات الاجتماعية والسياسية وتيارات الغزو الثقافي والإعلامى .ودور المنظمات والهيئات الدولية كمنظمة التجارة العالمية والشركات المتعددة الجنسية و أثرها علي المجتمعات النامية . وانطلاقا من هذا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يعرض الآفاق المعاصرة لعلم الاجتماع ، كمحاولة للجمع بين تبسيط عرض القضايا والمفاهيم الأساسية لهذا العلم ، ونوعية الموضوعات التي تتلاءم مع قضايا مجتمعاتنا ، وان بدا أن بعض موضوعات هذا الكتاب تشبه إلى حد كبير بعض الكتب المؤلفة في علم الاجتماع إلا انه يتناول هذه الموضوعات من منظور جديد سواء في الطرح أو التحليل أو النقد . ويتضمن هذا الكتاب الراهن تسعة فصول أساسية يجمعها خط فكري متسق يتناسب وأوضاع المشتغلين بهذا العلم ، وأوضاع هذا العلم الضرورية التي تلائم دول العالم النامي .

ويتناول الفصل الأول موضوع هذا العلم ومجالاته الأساسية مع توضيح المنظور السوسيولوجي لهذا العلم وعلاقته بالعلوم الاجتماعية

الأخرى .

أما الفصل الثاني فيعرض لقضية نشأة هذا العلم وتطوره مع توضيح الدور النقدي المعاصر لهذا العلم .

في حين يعالج الفصل الثالث أهم الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع فيحدد معنى النظرية ومضمونها موضحا الاتجاهات الأساسية النظرية في علم الاجتماع فيحدد معني النظرية ومضمونها موضحا الاتجاهات الأساسية له كالاتجاه الوظيفي و الماركسي والاتجاه النقدي والتفاعلية الرمزية ونظرية التبادل والاتجاه الفينوميولوجى ، ويحدد الفصل الرابع قضية المنهج في علم الاجتماع موضحا مفهوم المنهج وخطواته والفرق بين المنهج والأسلوب والأداة إضافة إلى عرض أهم الأدوات المستخدمة في علم الاجتماع .

بينما يعالج الفصل الخامس موضوع المجتمع والنظم الاجتماعية المكونة له فيشرح أهم هذه النظم وهي النظام العائلي والاقتصادي والنظام السياسي والنظام الديني والتربوي وتوضيح الصلة بين هذه النظم بشكل عام .

ويعرج الفصل السادس علي قضية التفاعل الاجتماعي باعتبارها محور علم الاجتماع وأهم العمليات الاجتماعية الأساسية ابتداءً من عملية التنشئة الاجتماعية ومرورا بعمليات الصراع والتكيف والمنافسة والتعاون وانتهاءً بعملية التمثيل ، أما الفصل السابع فيناقش قضية الثقافة ومضمونها وأهم أنواعها ووسائلها وأهميتها في المجتمع والحفاظ علي كيانه واستمراره.

ويتناول الفصل الثامن لقضية التغير الثقافي موضحا مفهوم التغير

ومضمونه وعوامل التغير وديناميته ثم النظريات المفسرة للتغير الثقافي في علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

أما الفصل التاسع والأخير فيتناول قضية التكوين المهني للمشتغلين بعلم الاجتماع موضحا الدور التطبيقي لعلم الاجتماع الذي يتعاظم دوره اليوم ودوره التخطيطي والنقدي مع توضيح الأبعاد المستقبلية لعلم الاجتماع في الوطن العربي .

ونأمل أن يكون هذا الكتاب جهدا علميا متواضعا يضاف إلى سلسلة الجهود العلمية المثمرة التي بذلت في تطوير علم الاجتماع نظريا ومنهجيا في سياق المجتمع العربي بشكل عام والمصري بشكل خاص .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

المؤلف

دكتور / محمد ياسر الخواجة

طنطا / ٢٠٠١

الفصل الأول

علم الاجتماع المفهوم والمجالات الأساسية

- مقدمة
- ١- ما هو علم الاجتماع
- ٢- المنظور الاجتماعى لعلم الاجتماع .
- ٣- مجالات علم الاجتماع المعاصر
- ٤- علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الأخرى
- ٥- خاتمة

الفصل الأول

علم الاجتماع : المفهوم والمجالات الأساسية .

مقدمة :

لعل أول تساؤل يطرح نفسه هنا هو : ماذا يقصد بعلم الاجتماع ؟ ذلك المفهوم الذى يحمل فى طياته كثير من اللبس والغموض، وما هى مجالات اهتمام علم الاجتماع ؟ وما هى علاقاته بالعلوم الاجتماعية الأخرى ؟ هذه التساؤلات تمثل الخطوة التمهيدية الأولى للطلاب المبتدئين فى هذا العلم ، كما تهم أيضاً القارئ المثقف الذى يود التعرف على علم حديث النشأة نسبياً مثل علم الاجتماع ، ولا نريد ونحن نحاول تقديم إجابات ميسرة للطلاب ألا ندخل فى جدل شائك يجعل القارئ غير مدرك لحقيقة موضوع هذا العلم وإنما سوف نحاول أن نطرح بشكل مبسط دون أن نخل بمضمون هذا العلم بتعريفات محددة وواضحة لا تثير اللبس أو الغموض .

كما لا نريد ونحن نعالج مثل هذه الموضوعات ألا نخرج عن المألوف من كتابات الرواد بقدر ما نجتهد فى تبسيط موضوعات علم الاجتماع وتحديدها إسهاماً منا فى وضوح الرؤية أمام القارئ العادى والطالب المتخصص .

والحقيقة أن تحديد موضوع علم الاجتماع ومفهومه بدراسة العلاقات الاجتماعية فى مختلف صورها وأنماطها والمؤثرات والقوى التى تتحكم فيها هو تحديد يجعل علم الاجتماع قادراً على استيعاب

مختلف جوانب الواقع الاجتماعى دون أدنى درجة من التعسف .

وعلى هذا فإن تحديد مفهوم علم الاجتماع فى دراسة المجتمع بدقة أكبر هو أمر أساسى ، إذ أن علم الاجتماع هـو أول علـم يـهتم بدراسة الحياة الاجتماعية ككل ، من خلال دراسة النسـق المركـب مـن النظـم الاجتماعيـة والجماعـات الاجتماعيـة التـى يتكـون منـــها المجتمع ، ويعد مفهوم البناء الاجتماعى هو المفهوم الأساسى فى علـم الاجتماع الذى من خلاله صدر اهتمام عالم الاجتمـاع بجوانـب الحيـاة الاجتماعية المختلفة ، وبالتالى فإن عالم الاجتمـاع يـرى أنـه يجـب أن يتـم التخصـص فـى علـم الاجتماع داخـل إطــار تصــور عــام للبنــاء الاجتمـاعى، وأن يرتبـط بوعـى - بتنـوع النظـم الاجتماعيـة والبنــاء الاجتماعى ، القائم على الدراسة المقارنة الواسعة .

أولاً :- ما هو علم الاجتماع :

فى الحقيقة إن الاهتمام بتقديم تعريف محدد لعلـم الاجتمـاع يسهم بشكل أو بآخر فـى توفير أسـس مشـتركة وفـى التقريـب بـين مختلف وجهات النظر التى قد تتصارع فى إطـار هـذا العلـم ، خاصـة وأن تعـدد تعريفـات علـم الاجتمـاع ترجـــع إلى تعـــدد المذاهـــب الأيديولوجية والنظريات التى اتجـهت وجـهات متعـددة فـى تفسـير وتحديد الحقيقة الاجتماعية ، ولذا نلاحـظ أن أوجست كونـت الـذى صك هـذا المصطلـح عـام (١٨٣٠) ربـط بـين الكلمـة اللاتينيـة Socius (وتعنى شعباً أو قبيلة أو مدينة متحالفة مع روما ، ولكنــها أصبحـت

فيما بعد تعنى المجتمع Society والكلمة اليونانيــة Logos وتعنــى العقل أو المعرفــة ، وسـرعان مـا انتشـر هـذا المصطلـح بشـكل واسـع ، وأصبح الآن يستخدم فعليا فى جميع اللغات للدلالة على أى دراسـة واعيـة ودقيقـة نسـبيا للمجتمـع ، أمـا فيمـا يتعلـق بموضـوع علــم الاجتماع ، فكانت من المسائل التى تناولها جدل ساخن ومستمر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولكن انحصر نطاق علم الاجتماع فـى دراسة موضوعين رئيسيين همـا :- الحقـائق الاجتماعيـة والعمليـات الاجتماعية ، ورغم أن هذين الموضوعين يقتصـران علـى علـم الاجتمـاع دون غيره إلا أنه ما زال هناك جدل ساخن . [١]

فمثلا ذهب هربرت سبنسر بأن علم الاجتماع هـو العلـم الـذى يصـف ويفسـر نشـأة وتطـور النظـم الاجتماعيـة كالأسـرة ، والضبـط الاجتماعى والعلاقات بين النظم الاجتماعية وأنه علـى علـم الاجتمـاع أن يقارن بين المجتمعات البشرية على اختلاف أنواعها وأشـكالها أو بين المجتمعات علـى اختـلاف نشـأتها وتطورهـا وأن يـهتم بدراسـة عمليتى البناء والوظيفة الاجتماعية . [٢]

ولكن يرى جورج زيمل أنه يجب التفرقة بين ما هو اجتماعى Social ، والعلم الاجتمـاعى Sociological ، فالمجـال الاجتمـاعى

---

(١) ميشيل مان ، موسوعة العلوم الاجتماعية ، ترجمة عادل مختـار الهـوارى وسـعد عبد العزيز مصلوح ، مكتبة الفلاح ، الإمارات ، ١٩٩٤ ، ص ٦٧٣ .

(٢) Enkeles, A., What is sociology, prentice hill of media, N. delhi, 1961, P. 4-5.

يتضمن ما يدور بين الناس أمـا العلـم الاجتمـاعى فـهو المجـال الـذى يتناولـه الـدارس الاجتمـاعى لتحديـد وتحليـل الجوانـب الهامـة بالنسبة له .(٣)

أما ماكس فيبر فيقدم تعريفاً يتسم بالشمولية لعلم الاجتماع باعتبـاره "العلـم الـذى يحـاول الوصـول إلى فـهم تفسـيرى للفعـل الاجتماعى Social Action مـن أجـل التوصـل إلى التفسـير السـببى لهذا الفعل .(٤)

ويحدد علم الاجتمـاع مـن وجهـة نظـر كـل مـن كـامبل يونـج وريمونـد مـاك ، بـأن علـم الاجتمـاع هـو الدراسـة العلميـة للمظـاهر الاجتماعيـة للحيـاة الإنسـانية والمعرفـة البشـرية المرتبطـة بالمنـهج العلمى بالـتركيز علـى عمليـة التفـاعل interaction (ويعنـى بذلـك المثير والاستجابة المتعاقبة أو المتبادلة بين اثنين أو أكثر من النـاس ، وعلـى هـذا يـهتم علمـاء الاجتمـاع بالإنسـان ، والسـياق الاجتمـاعى والجماعة الإنسانية .(٥)

---

(٣) Jesser, C., J., Social Theory Revisited, The Dryden press, illionis, 1975, P. 190-191.

(٤) Max, W., Protestant Ethics and Thspirit of Capitalism Unwinuni-Books. London, 1974, P. 199.

(٥) Young, K. and Mack, R., Sociology and Social life, American Book Company, N. Y., 1965, P. 1

أما سروكين فيرى أن علم الاجتماع ، هو ذلك المفهوم الذى يشير إلى جميع المعلومات الخاصة بالتشابه بين مختلف الجماعات الإنسانية ، وأنماط التفاعل المشترك بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية الإنسانية ، كذلك عرفه بأنه " العلم الذى يدرس الثقافة الاجتماعية " ، كما يعرفه أيضاً بقوله " إن علم الاجتماع هو دراسة الخصائص العامة المشتركة بين جميع أنواع الظواهر الاجتماعية ، والعلاقة بين هذه الأنواع ، وكذلك العلاقة بين الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية ، فى حين يرى رايت ميلز أن علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس البناء الاجتماعى للمجتمع ، والعلاقات المتبادلة بين أجزائه ، وما يطرأ على ذلك من تغير " ، أما جورج ليند برج فيرى أن علم الاجتماع هو علم المجتمع ، بينما يرى ماكيفر أنه العلم الذى يدرس العلاقات الاجتماعية .[٦]

وهكذا نلاحظ مدى تعدد وتباين التعريفات المطروحة بين علماء الاجتماع ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذا العلم واتساع معارفه ومجالاته المتنوعة ، كما يلاحظ أيضاً على هذه التعريفات أنها أحياناً تحدد نطاق هذا العلم بدرجة كبيرة حتى تجعله يشمل نطاق المجتمع كله ، الأمر الذى يعكس حقيقة صعوبة

---

(٦) محمد حامد يوسف ، علم الاجتماع ، النشأة والمجالات ، المكتب العلمى للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص . ٥٠-٥١ .

الاتفاق حول تعريف محدد وواضح ومتفق عليه بين رواد هذا العلم ، لكننا نستطيع أن نحدد أهم القضايا التى يدور حولها هذا العلم على النحو التالى :-

(١) أنه يركز على العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الناس ودراسة العلاقات تؤدى إلى دراسة عمليات التفاعل الاجتماعى من أجل معرفة مظاهر التماثل ، والتعارف والتنافس ، بين الجماعات المختلفة .

(٢) أنه يهتم بدراسة المجتمع وظواهره وبناءه ووظيفته .

(٣) أنه يهتم بفهم مكونات الأبنية الاجتماعية المختلفة مثل الجماعات العامة ، والعمليات الاجتماعية العامة .

(٤) أنه يحاول المقارنة بين الظواهر والحقائق الاجتماعية المختلفة .

ووفقاً لهذه القضايا الأساسية التى يدور حولها علم الاجتماع فإن هذا العلم يتسم بخصائص أساسية هى [٧]:

أ- علم الاجتماع علم تجريبى بمعنى أنه يقوم على الملاحظة وأعمال الفكر لا على البحث فى مسائل ميتافيزيقية (عالم ما بعد الطبيعة) كما أن نتائجه ليست تأملية .

ب- علم الاجتماع علم تراكمى ، بمعنى أن النظريات الاجتماعية الجديدة تستند على نظريات أخرى قديمة ، فالنظريات الجديدة

---

(٧) محمد سعيد فرح ، ما . . علم الاجتماع ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ ، ص ص ١٥٢-١٥٣.

تصحح وتـثرى وتوضح النظريـات القديمـة ، ويعنـى بالـتراكم أن النتائج التى يتوصل إليها بحث أمبريقى سـابق تكـون هـى نفسـها المقدمات التى يبدأ فيـها بحـث لاحـق . فـهناك إمكانيـة إعـادة إجراء بحث سابق أو التحقق من صحة نتائج سبق الوصول إليها أو لإضافـة متغـيرات جديـدة ، فالحقـائق التجريبيـة فـى العلـم الاجتماعى يقبل الاندماج معاً فى بناء واحد ، وهى ليست بالإنتاج العقلى الذى ينتجه من أوله إلى آخره شخص واحد بمفرده ، ولعـل أحدث وصف للتراكم تشبيهه ببناء مكون من طوابق يكمل إحداهـا الآخر .

جـ- علم الاجتماع علم نظرى ، بمعنى أن علم الاجتماع يحاول تفسير العلاقات العلمية لموضوع البحث .

د- علم الاجتماع ليس علماً أخلاقياً بمعنى أن عالم الاجتمـاع لا يسـأل عما إذا كانت الأفعال الاجتماعيـة خـير أم شـر ولا يصـدر أحكامـاً أخلاقية ولكنه ينشر تفسيرها .

ثانياً :- المنظور الاجتماعى لعلم الاجتماع :

يركز علم الاجتماع على دراسة البيئة الاجتماعية التى نعيش فيها لمحاولة فهم المجتمع البشرى ولمحاولـة التنبـؤ بكيفيـة تفـاعل الناس فى المواقف والأحوال المختلفة ، فكل الكائنـات الإنسـانية هـى اجتماعية والناس تتفاعل مـع بعضـها البعـض لكـى تعيـش وتبقـى ،

وبالتالى فإن سلوك الفرد هو سلوك اجتماعى . [٨] فلا يعيش الأفراد بمعزل عن بعض وكل منهم يبحث فى إيجاد الحلول للمشكلات اليومية التى يواجهها ، كما يشترك الأفراد فى أساليب حياة عامة، تنظم وجودهم داخل الجماعة ، بمعنى أن الأفراد يعيشون بشكل جمعى أو بصورة فردية حسب الموقف الاجتماعى ، وعلى هذا فإنه ينظر إلى كل ظاهرة اجتماعية من عدة أبعاد ، ولكن ما نراه فى الظاهرة يعتمد بالدرجة الأولى على تصورنا لها . فالأساس المنطقى للبعد الاجتماعى السوسيولوجى والأساس المنطقى لكل العلوم الاجتماعية هو ما ينطلق من سلوك الأفراد باعتباره المحصلة أو النتيجة لمواقف اجتماعية معينة ، فنجد أن هناك فروقا بين حياة الطبقة الأرستقراطية والطبقة الفقيرة ، كذلك نجد اختلافا بين شكل أو طبيعة حياة ساكنى المدن الكبرى وأولئك الذين يعيشون فى المناطق الريفية ، كما أن التنظيم الاجتماعى فى المدن الكبرى يختلف عن التنظيم الاجتماعى فى المدن الصغرى ، إذن فعلم الاجتماع هو ذلك العلم يدرس المجال أو العالم الاجتماعى ، وكيف ينتظم هذا العالم ، وكيف يتغير وكيف يختلف من فترة زمنية إلى فترة أخرى ومن مكان إلى مكان وكيف يستمر على شكل معين [٩].وكيف يتداخل وكيف

---

(٨) Young, K., and Mack, R., Sociology and Social Life, Op. Cit., P. 7.

(٩) جهينة العيس ، وكلثم الغانم ، علم الاجتماع ، دار الأهالى ، سوريا ، ٢٠٠٠ ص ١٢

ينفصل .

ويقوم منظور علم الاجتماع على مجموعة من الأبعاد والخصائص الأساسية التالية [١٠]:-

أ- التفاعل الاجتماعى : Social Interaction

يتخذ علم الاجتماع من عملية التفاعل الاجتماعى أساسا فى فهم وتفسير العالم الذى يحيط بنا ، ولذلك كان أول ما يتدرب عليه عالم الاجتماع ملاحظة التفاعل بين الناس والتعرف على أشكاله ، وتتبع شبكة العلاقات التى تنشأ عنه ، والكشف عن نتائجه ، وتحليل التغيرات التى تطرأ عليه ، فالتفاعل هو المفهوم الرئيسى فى الحياة الاجتماعية ، ومن هنا فهو مفهوم حيوى لأى دراسة فى ديناميات المجتمع والثقافة فبدون التفاعل ليس هناك وجود اجتماعى أو حياة جماعية ، ولذا يرى علماء الاجتماع أن التفاعل هو أساس العمليات الاجتماعية ، والمفهوم الأكثر شمولا لوصف ديناميات العلاقات الاجتماعية [١١]، فالتفاعل الاجتماعى هو التأثير المتبادل بين سلوك الأفراد والجماعات من خلال عملية الاتصال ، والتصور البسيط للتفاعل الاجتماعى يقصد به ما ينبع عن الطبيعة البشرية من تأثير متبادل بين القوى الاجتماعية ، والثقافة ذاتها هى نتاج

---

(١٠) غريب محمد سيد أحمد وآخرون ، المدخل إلى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ص ٧٠-٧٣ .

(١١) Young, K., and Mack, R., Op. Cit, P. 112.

للتفاعل الاجتماعى [١٢].

ولذا يهتم علم الاجتماع بدراسة التفاعل داخل الجماعات الاجتماعية ، وبين الشعوب ، وبين النظم الاجتماعية وهكذا ، ويحاول الإجابة عن تساؤلات مثل ، ما هى العوامل الاجتماعية التى تعمل على تحقيق التكامل أو ما هى العوامل التى تعوق التغير؟، ولماذا تختلف سمات الأسرة الحضرية بين الطبقات الوسطى والدنيا ، وما هى العلاقة بين المعتقدات السياسية ، والسلوك الانتخابى بين العمال الصناعيين ؟ وما هو تأثير التصنيع على بناء الأسرة ؟ ، وما هى العلاقة التى تربط بين التاريخ الاجتماعى والنظام السياسى ؟

ب- المقارنة **Comparison**

لقد اهتم علم الاجتماع بالدراسة المقارنة ، وتشير طريقة المقارنة إلى الإجراءات التى يستعين بها الباحث للكشف عن أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر ، وفقاً لبعض المحكات التى تجعل هذه الظواهر قابلة للمقارنة بهدف اكتشاف العوامل المسببة الخاصة بظهورها وتطورها ، وصور الارتباط والتداخل بين كل منها ، ولقد رأى دوركايم أن المقارنة تصلح لأن تكون طريقة شبه تجريبية ، كما استخدمها ماكس فيبر ، لكنه لم يحاول أن يعزل عوامل أو متغيرات معينة ذات آثار واضحة فى عدد كبير من الحالات ، بل حاول أن

---

(١٢) انظر ، عاطف غيث (تحرير)، قاموس علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ٤٢٧ .

يوضح كيف أن خصائص معينة كالبيروقراطية مثلاً تتشابه فى بعض النواحى من حالة لأخرى ، وتختلف فى نفس الوقت من نواحى أخرى، طالما أنها تتأثر ببعض الملامح الأخرى للصيغة التاريخية التى هى جزء منها. وقد أشار بعض علماء الاجتماع إلى أن هناك طرقاً مختلفة للمقارنة أكثر ملاءمة لمشكلات معينة مثلما فعل كل من ليبست Lipset وبندكس Bendix عندما قارنا معدلات الحراك الاجتماعى فى مجتمعات صناعية مختلفة ، ليوضحا إن هذه المعدلات تصاحب وبصورة حتمية مرحلة أو درجة معينة من التصنيع ، وفى دراسة هامة للمجتمع الأمريكى قارن ليبست قيم هذا المجتمع وبناءه الاجتماعى بالقيم السائدة فى مجتمعات أخرى فى أوربا وغيرها محاولاً توضيح الحقيقة التى مؤداها "أن هذه القيم يمكن أن تكون متغيرا مستقلا فى العلبة الاجتماعية . ولقد اكتسبت المقارنة تدعيما قويا بعد أن كتب نادل Nadel بأن هناك حاجة ماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية فى مواقف صناعية تمكننا من المقارنة بينها . وهو يؤكد دائما إن الباحث الذى يتمسك بالسياق الأشمل ولا ينفصل عنه ، يتجاهل الوجود الفعلى لأدوات فكرية تمكننا من عزل العناصر من سياقها دون أن تفقد معناها " [١٣] وعلى هذا يرجع الاهتمام بالدراسة المقارنة إلى عاملان أساسيان يتعلق العامل الأول بأن الدول المستقلة

---

(١٣) نفس المرجع السابق ، ص ص ٧٦-٧٧ .

حديثاً فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية وأسيا والتى تسمى بدول العالم الثالث أو النامى قدمت سياقاً فكرياً جديداً اضطر معه علماء الاجتماع إلى إعادة فحص نظرياتهم وفروضهم التى استخلصوها من دراساتهم السابقة ، والثانى دفع الالتزام بإقامة علم اجتماع علمى من جانبهم دفع بعلماء الاجتماع إلى أن تتجاوز بحوثهم الأمبريقية حدود دولهم، حتى لا يظل مستوى تعميم النتائج التى يتوصلوا إليها بعيداً عن صياغة نظرية للمجتمع أكثر تجريداً .

جـ- التاريخ History

يركز علماء الاجتماع فى دراساتهم السوسيولوجية على البعد التاريخى ، وإن كان التاريخ يختلف عن علم الاجتماع ، ففى الوقت الذى ينظر التاريخ إلى الحوادث بصورة رمزية على أنها سلسلة متتابعة من الحوادث ، فإن علم الاجتماع ينظر إليها بصفة عامة من أجل التوصل إلى المبادئ العامة التى تحكمها وهنا يؤكد جورج زيمل أن الفرق بين العلمين يكمن فى المنهج الخاص لكل منهما ، فالتاريخ يبين الوقائع من خلال الأسلوب الذى يتعامل به الفرد معها ، فى حين أن علم الاجتماع يدرس أو يتناول مكونات الشروط الاجتماعية التى تختلف بالضرورة عن مكونات الأفراد .(١٤)

ولقد شغل علماء الاجتماع منذ نشأته الأولى على يد عبد الرحمن ابن خلدون ، وأوجست كونت وغيرهم الاهتمام بتاريخ

---

(١٤) صهينة العبس وكلثم الغانم ، مرجع سابق ، ص ٣ .

المجتمع الإنسانى وظواهره الاجتماعية والثقافية ، ويأتى اهتمام المشتغلين بعلم الاجتماع بالبعد التاريخى من قناعة علمية بأن الفهم التاريخى لموضوعات علم الاجتماع ، يعوض الكثير من النقائص فى المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية ، ويوفر مادة علمية تلقائية غالبا ، وبعيدة عن التصنع العلمى ، الذى ينتج عن الخصائص النوعية لموضوعات علم الاجتماع وعلاقة الباحث بها ، قربا وبعدا وتداخلا . وهو اهتمام يستند إلى افتراض أساس ينطلقون منه أن الحاضر نتيجة للماضى ومقدمة للمستقبل ، ومن هنا أخذ علماء الاجتماع يطرحون تساؤلات حول نظم معينة أو مشكلات أو ظواهر عرفها المجتمع فى لحظة معينة مجددة ، وكيف أثرت قوى اجتماعية معينة وعوامل ظهرت فى فترات مبكرة من تاريخ هذا المجتمع فى ظهور هذه النظم أو الظواهر بهدف الوصول إلى نتائج عامة ومجردة وبلورة نظرية للمجتمع أكثر عمومية وتجريدا .[(١٥)]

هذا عن الأبعاد الأساسية للمنظور الاجتماعى لكن ما هى السمات المميزة لهذا المنظور ، ويمكن تحديد أهم هذه السمات على النحو التالى :-

(١) **الوعى الاجتماعى** : **Social Consciousness**

بمعنى إدراك المهمة التى ينبغى أن يضطلع بها علم الاجتماع، من خلال التركيز على القضايا التالية :

---

(١٥) غريب سيد أحمد وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

أ- إن العلاقة بين الوعى والوجود علاقة جدلية .

ب- إن الوجود الاجتماعى يضم العلاقات الاجتماعية الأساسية التى يصنعها البشر مع بعضهم البعض - بما فى ذلك البشر خارج المجتمع - والتى يصنعونها مع الطبيعة مع ملاحظة أن للعلاقات الإنتاجية دوراً مهماً وليس وحيداً .

جـ- إن الوعى الاجتماعى يضم الوعى بالمجتمع المعين ، وبالمجتمعات الأخرى خاصة التى تدخل فى علاقة مع هذا المجتمع المعين .

د- إن دور الوعى ليس سلبياً ، وإنما له دوره النشط والخلاق والمؤثر فى الوجود الاجتماعى .

هـ- إنه برغم أن الوعى يعكس الوجود ، فإن ثمة ظروفاً داخلية وخارجية موضوعية وذاتية تؤثر فى عملية الانعكاس هذه دقة وشمولاً، أو اختصاراً زيفاً أو حقيقة . . . . الخ .

و- إنه برغم العلاقة الجدلية بين الوجود والوعى فالأولوية فى فعل هذه العلاقة تعود إلى الوجود .

ن- إن الوعى الاجتماعى والأيديولوجية متمايزان وإن كان كل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به .(١٦)

ويكاد علماء الاجتماع يتفقون على أبعاد أساسية هى وجود

---

(١٦) عبد الباسط عبد المعطى وعادل مختار الهوارى ، علم الاجتماع والتنمية دراسات وقضايا ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ص ٧٥-٧٧ .

اتجاه أو موقف إيجابى أو سلبى نحو القضية المراد استطلاع الوعى بشأنها وهذا ما يسمى بالبعد النفسى الاجتماعى فى الوعى ، ثم إدراك هذه القضية أو ذلك الموضوع من خلال تفسير حالة وإبراز إيجابياته وسلبياته وهو ما يسمى بالبعد العلمى للوعى ، ثم تقديم تصور بديل للواقع الراهن بهذه القضية أو ذلك الموضوع الذى نستطلع الوعى بشأنه ، وهذا ما يعبر عنه بالبعد الأيديولوجى السياسى فى الوعى ويتحدد الوعى بأنواعه بحالة البنية الاجتماعية والمرحلة التاريخية التى تمر بها وما يسودها من علاقات وأوضاع خاصة وتوزيع للفرص الاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخل هذه البنية.(١٧)

وبهذا يتضح أن الوعى الاجتماعى ليس إدراكاً للواقع فقط ، وليس تصوراً له فقط ، بل هو نتاج لحركة جدلية يندمج فيها الفردى فى الاجتماعى والذاتى فى الموضوعى ، والإدراك فى التصور ومن ناحية أخرى تعد الأبعاد النفسية ، والإدراك النفسى الاجتماعى

---

(١٧) انظر : إنعام عبد الجواد ، فى الوعى بمشكلات التعليم فى القرية المصرية ، فى مؤتمر القرية المصرية ، الواقع والمستقبل ، الجزء الثانى فى الفترة من ١٠-١٢ أبريل ١٩٩٤ ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٤٦٣ .

وأيضاً :

- Lichtman, R. Social Reality and Consciousness, in Book Colfax and Roach, (eds) Radical Sociology Basic Books, N. Y. 1971.

مستوىً أولياً للوعى ، وتعد الأيديولوجية مستوىً أكثر تنظيماً وإرادة مرتبطاً بالأساس بالمصالح الطبقية ، ويعد العلم نشاطاً إنسانياً أكثر تجريداً وتنظيراً وتعميقاً ومستوى راقياً من المعرفة . وهى جميعها السيكولوجية، والأيديولوجية والعلم ، يعد كل منها مجالاً نوعياً متميزاً من مجالات الوعى ، يتميز عن غيره من المجالات بوظائفه والدرجة التى يعكس بها الواقع الاجتماعى .

لذا فقد ذهب بيتر بيرجر فى كتابه "دعوة إلى علم الاجتماع" منظور إنسانى ، يؤكد أن علم الاجتماع كشكل من الوعى الاجتماعى ينطوى على شك فى الادعاءات الرسمية والتفسيرات الشائعة للسلوك الإنسانى وبالتالى يقوم المنظور الاجتماعى على بعد النظر فيما وراء دعائم البناء الاجتماعى ويفترض أن هناك فيما وراء التنظيم السياسى والبيروقراطى الظاهر للحياة الاجتماعية ، واقع اجتماعى آخر قد يكون أكثر بقاءً من هذه الأبنية الرسمية ، ويحاول عالم الاجتماع تخطى الواقع الظاهر فى محاولة تتبع الواقع الآخر بحثاً عن الأفعال والأنماط المركبة من العلاقات الإنسانية التى لا يلتفت إليها التفسيرات الرسمية أو الشائعة أو حتى قد ينكرها ، ومن هنا كان علماء الاجتماع مبهورين بما يعرف باسم قاع المجتمع وذلك منذ فترة طويلة ، وكانوا يهتمون بفهم تلك الجوانب من الحياة الاجتماعية التى يسودها أشكال مغايرة ومتناقضة تماماً لهذا الواقع ، وذلك فى المناطق المتخلفة ، وبين الجماعات المنحرفة وداخل الثقافات الفرعية Sub – Cultures ، وبين من يحتلون مكانة هامشية فى المجتمع . فقد يجد الباحث لغة مغايرة، ومعايير وقيم وأساليب حياة أخرى .

وعالم آخر يجذب دائماً وبقوة اهتمام علماء الاجتماع ، وكان وعى منظور علم الاجتماع بهذا الواقع الآخر ضرورى من ناحية لتنمية نظرية للمجتمع أكثر شمولاً وكافياً من ناحية أخرى لإكساب علم الاجتماع طابعاً إنسانياً . وفى هذا الصدد يذهب بيتر بيرجر فى مقالته الهامة عن "علم الاجتماع كنوع من الوعى Sociology as a form of Consciousness أن المنظور الاجتماعى يؤكد على التحليل المتعمق للعناصر الرسمية وغير الرسمية للتنظيم السياسى ، وسلطة التعبير الدينى فى المجتمع المحلى ، وانساق الاعتقاد للحياة الاقتصادية والأسرية ، وعلى هذا فالمنظور الاجتماعى أصبح يعكس بعض الاهتمام الواضح بمضمون مصطلح المجتمع، هذا المصطلح الذى يشير إلى موضوع يعادل أهمية النظام ، وبتعبير أكثر دقة ينظر علماء الاجتماع إلى المجتمع باعتباره نسقاً كبيراً من العلاقات الاجتماعية وبلغة أكثر فنية يشير إلى نسق التفاعل ، لكن كلمة كبير Large هنا من الصعب تحديدها كمياً فى هذا السياق ، فعلماء الاجتماع يتكلمون عن المجتمع باعتباره يتضمن ملايين من الكائنات الإنسانية (مثل المجتمع الأمريكى) ولكن هم يستخدمون المصطلح أيضاً ليشير إلى العدد الأكبر من التجمع الصغير مثل مجتمع المعسكرات Campus لكن اثنين من الناس يتحدثون على ناصية الشارع من الصعب اعتبارهم مجتمعاً فى حين ثلاثة من الناس على شاطئ جزيرة هم بالتأكيد كذلك أيضا ، وعلى هذا من الصعب تحديد الأسس الكمية

للمجتمع بمفردها بل بالأحرى ضرورة وجود علاقات اجتماعية متفاعلة.[١٨]

ب - الخيال السوسيولوجى Sociological Imagination

بمعنى القدرة على التحرك بين التحولات البعيدة وغير الشخصية إلى السمات المرتبطة بالذات الإنسانية فى محاولة فهم العلاقات فيما بينهما أو بمعنى القدرة على الانتقال من ما هو سياسى إلى ما هو سيكولوجى ، وذلك بهدف معرفة المعنى الاجتماعى والتاريخى لحياة الفرد فى المجتمع ، وفى الفترة التى يبنى فيها ويكتسب خصائصه ، ويعنى رايت ميلز Mills بالخيال السوسيولوجى الذى أول من صك هذا المفهوم بأنه فهم الحياة الكلية للأفراد أو تاريخ المجتمعات ، وإن كل منهما يجب أن يفهم من خلال الآخر ، فإذا كنا قادرين على تحقيق ذلك فإننا نكون قد امتلكنا ما يسمى بالخيال السوسيولوجى ، كما أشار ميلز أنه من خلال الارتباط بين الاستاتيكا الاجتماعية (دراسة البناءات والوظائف للمجتمعات والتقسيمات الفرعية (لها) والديناميكا الاجتماعية (تحليل عمليات الاستمرار والتغير) نستطيع فهم المشكلات الخاصة والقضايا العامة والتعامل معها.

فالخيال السوسيولوجى يمكننا من امتلاك الفهم الأكبر للمشهد التاريخى بلغة معناها من الحياة الداخلية ، والمستقبل

---

(١٨) انظر ما يلى :

Berger, P. L., Sociology as a form of cons ciouness in Rose, P. L. (ed) the study of society, An integrated Anthology, A Random House Book, N. Y., 1967, PP. 17-21

الخارجي لأنواع مختلفة من الأفراد ، أى أنه يمكنهم أن يراعوا كيف أن الأفراد فى خبراتهم اليومية غالباً مـا يصبحـون علـى وعـى زائـف بمراكزهم الاجتماعية وعلى هذا فالخيال السوسيولوجي يمكننا من فهم أو إدراك التاريخ والسير الذاتية والعلاقات بين الاثنين داخـل المجتمع ، التى تشكل تلك المهمة وهذا الوعد .

وللتعرف على هذه المهمة وهذا الوعد يجب أن ندرك التحليـل الاجتماعي الكلاسيكى ابتداءً من هربـرت سبنسـر واميـل دوركـايم ، وكـارك مـاركس ومـاكس فيـبر وانتـهاء بكـل مـن ثـور شـتاين فـابلن وجوزيف شومبيتر ، وهذا التحليل الكلاسيكى يركز علـى ضـرورة أن نكون على وعى تخيلى بثلاثة أنواع من الأسئلة المحورية هى :-

(١) ما طبيعة البناء الاجتمـاعى للمجتمـع ككـل ؟ ومـا هـى العنـاصر الأساسية المكونة له ؟ وكيف تتصل العناصر بعضها بالآخر وكيـف يختلف البناء من نظام اجتماعى إلى آخر ؟ وما الـدور الـذى يلعبـه أى عنصر داخل هذا البناء ذاته من أجـل اسـتمراريته أو مـن أجـل تغيره ؟

(٢) أين يقف هذا المجتمع فـى التـاريخ الإنسـانى ؟ ومـا هـى آليـات تغيره؟ وما هو مكانـه ومضمونـه داخـل التطـور الإنسـانى ككـل ؟ وكيف تؤثـر أى ظـاهرة معينـة وتتـأثر بالحقبـة التاريخيـة التـى تتحرك فيها ؟ وكيف يختلف من فترة إلى أخرى ؟ وما الخصـائص الجوهرية لهذه الحقبة ؟ وكيف تختلف عن غيرها من الفـترات ؟

وما هى خصائصها المميزة فى العميلة التاريخية ؟

(٣) وما هى نوعيات الرجال والنساء التى تسـود الآن فى هـذا المجتمع أو ذاك ، فى تلك الحقبة ؟ وما هى النوعيات التى فى سبيلها إلى السيادة ؟

وبأى أساليب هـم يختـاروا ويشكلون الحريـة والقهر ؟ وما أنواع الطبيعة البشرية التى تكتشف السلوك والشخصية التى تلاحظها فى هذا المجتمع فى تلك الحقبة ؟ وما مغزى كل عنصر نقوم بدراسته بالنسبة للطبيعة البشرية فى أى مجتمع؟[١٩]

(جـ) التنظيم المنهجى لعلم الاجتماع :

يركز المنظور الاجتماعى على حقيقة أساسية وهى أن سلوك الفرد هو سلوك اجتماعى ، فلا يعيش الأفراد بمعزل عن بعضهم البعض ، وبالتالى فإن العلم الاجتماعى هو الذى يدرس العالم الاجتماعى وأن الباحث الاجتماعى حينما يدرس هذا العالم الاجتماعى وظواهره المختلفة فإنه يهتم باستخدام المنهج العلمى فى دراسته ، فيقوم الباحث بعزل آرائه واتجاهاته أثناء عملية الملاحظة .

ومن الأهمية هنا أن نوضح ضرورة استخدام طرق عديدة فى دراسته عندما يبدأ عالم الاجتماع فى دراسة ظاهرة معينة ، إذ أن

---

(١٩) Mills, W., C., The Sociological Imagination, in Rose, P. (ed) The study of society, op. Cit, P. 4-7.

الاكتفاء بطريقة واحدة ليس نافعاً وغير مجد وليس مفيداً ، فالعالم يحدد لنفسه قدراته ليفهم العالم الذى يحيط به ، ومن الضرورى توضيح أن كل الفرق البحثية تسترشد بالخصائص العامة للعلم ، كذلك لا بد أن نوضح إمكانية تطبيق مناهج البحث العلمى عند دراسة السلوك الاجتماعى ، فليس هناك ما يمنع من الاستفادة من المنهج العلمى عند دراسة السلوك . (٢٠)

وفى عالم المعرفة العلمية نجد أن الحقيقة الأساسية تتمثل فى أن المعرفة العلمية هى صادقة إلى حين ، فلا توجد نظرية مقدسة أو حقيقة مطلقة غير قابلة للبحث والتحقق منها ، وباعتبار أن العلم الاجتماعى حقل متغير من المعارف ، وبالتالى لا توجد نظرية اجتماعية يمكن أن تبقى جامدة غير محددة ، ولا يتوقع أن تبقى نتائج العلم الاجتماعى صامدة أمام الاختبارات المتلاحقة وبالتالى فإن المنظور الاجتماعى يتطلب وعياً منظماً واستخداماً منطقياً للمنهج العلمى ، والحرص على البحث الواعى عن المعطيات والبيانات وثيقة الصلة بالمشكلة المدروسة والتحليل الشامل والدقيق لهذه المعطيات بهدف صياغة قضايا صادقة نسبياً حول الحقيقة الاجتماعية ، وذلك باستخدام تكنيكات فى البحث ونظام منطقى يتسق ومتطلبات المشكلة

---

(٢٠) انظر ، محمد ياسر الخواجه ، البحث الاجتماعى (أسس منهجية وتطبيقات عملية) ، دار المصطفى للطباعة والنشر ، طنطا ، ٢٠٠٩ ، ص ص ٢٤-٣١ .

المدروسة والوضع المنهجى للعلم . وبدون هذه العقلية المنظمة الموضوعية يصعب التوصل إلى هذه القضايا النظرية أو التعميمات التى نجد ما يدعمها من معطيات ، وهذا الالتزام بالتحليل العلمى يعد أيضاً سمة من سمات المنظور الاجتماعى لأنه يضع ضوابط نظامية على وعى عالم الاجتماع ويجعله يحافظ على سيره فى البحث فى حدود المنطق والشواهد وهنا يجب على الباحث الاجتماعى أن يكون واعياً بقضيتين أساسيتين :- (٢١)

القضية الأولى : - ضرورة الوعى بالظاهرة العلمية ليس كمحض نسق منجز ومنته ، بمنهج متعين وخصائص منطقية محددة ، بل أيضاً الوعى بالعلم كفعالية إنسانية متنامية ومتغيرة عبر تيار الزمان.

القضية الثانية : إن العلم الاجتماعى لا يتقدم ولا ينفسح المجال أصلاً للجهود الأيستمولوجية ما لم ينشأ فى بيئة ثقافية متساندة تملك بواعث هذا التقدم ، لأن العلم لا يعمل وحده من فراغ ، بل هل يفلح أرضاً مهدتها الثقافة السائدة من قبل أو تركتها صعيداً زلقاً ، فإنه كما يقول جون ديوى يعمل فى نطاق مؤسسة ثقافية تستوعب الشئون الثقافية كافة التى كانت قد استقرت حتى يمكن أن يتقدم العلم ذاته ، والدور الأساسى للعبقرية الفردية فى الكشف العلمى لا ينفى بحال

---

(٢١) يمنى طريف الخولى ، فلسفة العلم فى القرن العشرين : الأصول – الحصاد الآفاق المستقبلية ، سلسلة علم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الكويت . العدد ٢٦٤ ، ديسمبر ٢٠٠٠ ، ص ص ٤٤٨-٤٥٢ .

من الأحوال وأن العلم الاجتماعى ليس ظاهرة منعزلة بقدراتها الذاتية أو قوة دفعها الخاصة أو لا تخضع إلا لمنطقها الداخلى البحت فتفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا سبيل لإنكارها، ولا جدوى من هذا الإنكار .

ثالثاً :- مجالات علم الاجتماع المعاصر :

لقد حدد علماء الاجتماع مجال دراسة علم الاجتماع فى فهم البناءات الاجتماعية الشاملة مثل الجماعات ، والعمليات الاجتماعية مثل المنافسة والتعاون ، والصراع ، وغيرها . كما ركز بعض علماء الاجتماع مجال دراستهم على مظهر واحد من مظاهر السلوك الاجتماعى للإنسان ، وبالتالى قدموا أربعة مفاهيم أساسية لأنماط التحليل هى :-

أ- البناء Structure : والذى يتضمن العلاقات بين الأجزاء مع بعضها البعض الآخر داخل البناء ، كعلاقات المراكز فى الجماعة الإنسانية مع بعضها البعض مثل علاقة الزوج بالزوجة ، والموظفين بالرؤساء ، وهكذا.

ب- الوظيفة Function وهو نتيجة البناء بمعنى لو حدث تغير فى جزء من الأجزاء فسوف يحدث تغير فى الوظائف .

جـ- النمط أو النموذج Patterning

ونماذج السلوك هى تلك الخصائص التى تتسم بها الحياة فى

المجتمع والتى تحدث بانتظام ويشترك فيها أعضاء كثيرون داخل المجتمع .

د- **العملية** Process وهى سلسلة التغيرات المشتركة فى طريقة محددة.(٢٢)

وللوقوف على محاولات علم الاجتماع بشكل أكثر تحديداً سوف نستعرض بعض الأمثلة من تراث هذا العلم عند الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع ، حيث يلاحظ أن أوجست كونت كان يميز بين مجالين اثنين فقط من مجالات اهتمام علم الاجتماع الأول هو الديناميكا الاجتماعية Social Dynamics التى تهتم بدراسة قوانين التطور بناءً على الاعتقاد فى أى الأحوال الاجتماعية القائمة تعتبر بمثابة نتيجة ضرورية للأحوال السابقة عليها ومحركة بالضرورة لما يليها من أحوال، وبعبارة أخرى الكشف عن القوانين التى تحكم عملية الاستمرار هذه، والتى تحدد مجرى التطور الإنسانى ، والثانى هو الاستاتيكا الاجتماعية التى يهتم بالكشف عن القوانين التى تحكم أداء الأجزاء المتباينة للتنظيم الاجتماعى لوظائفها . (٢٣)بينما يرى هربرت سبنسر فى مؤلفه علم الاجتماع المنشور عام ١٨٧٧م "أنه يتعين على علم الاجتماع أن يصف كيفية ظهور الأجيال المتتابعة من الوحدات المدروسة، ونموها وإعدادها

---

(٢٢) Young. K. and Mack, R., op. Cit, P. 8-10.

(٢٣) غريب سيد أحمد وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

للتعاون ، ولذلك يأتى موضوع تطور الأسرة فى المقام الأول، ثم يتعين على علم الاجتماع بعد ذلك أن يصف ويفسر نشأة وتطور التنظيم السياسى ، الذى ينظم شئون المجتمع التى تنسق بين أفعال الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع ، والتى تفرض عليهم ضوابط معينة فى بعض معاملاتهم مع بعضهم البعض - كما يتعين عليه بالمثل أن يصف تطور الأبنية الكنسية ووظائفها أو نسق الضوابط الذى ينظم الأفعال الصغيرة . كما يجب أن يدرس المراحل التى مر بها القطاع الصناعى فى المجتمع ، وكذلك نمو الأبنية التنظيمية التى استطاع ذلك القطاع الصناعى أن يطورها فى داخله .(٢٤)

ونلاحظ من العبارة التى أشار إليها سبنسر نجد بشكل واضح أن ميادين علم الاجتماع عنده هى الأسرة ، السياسة ، الدين ، الضبط الاجتماعى ، الصناعة ، أو العمل وقد ذكر سبنسر فضلاً عن هذا صراحة الدراسة السوسيولوجية للاتحادات والمجتمعات المحلية وتقسيم العمل ، والتباين ودراسة الفن والجماليات ، وتدلنا الدراسة غير المتحيزة لقائمة الموضوعات التى أوردها سبنسر فى كتابه الأسس أنها تتمشى مع المجالات المعاصرة لعلم الاجتماع ، كما أكد سبنسر على اعتبار المجتمع ككل ، وحدة التحليل بالنسبة لرجل الاجتماع .

أما إميل دوركايم فقد حدد موقفه دون أى لبس فى الإطار العام

(٢٤) محمد على محمد ، دراسات فى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٣٠ .

الـذى حـدده فـى الحوليـة الاجتماعيـة التـى كـانت أول مجلـة سوسيولوجية متخصصة ، فقد قسم الحوليـة إلى سـبعة أقسـام ينـدرج تحت كل قسم رئيسى عدد من الأقسام الفرعية مثل :-

١- علم الاجتماع العام ويتضمن قسماً فرعياً عـن الشخصية عنـد الفرد وعند الجماعة .

٢- علم الاجتماع الدينى .

٣- علـم الاجتمـاع القـانونى والأخلاقـى ويتضمـن أقسـاماً فرعيـة عـن التنظيم السياسى ، والاجتماعى والزواج والأسرة .

٤- علم الاجتماع الجنائى .

٥- علم الاجتماع الاقتصادى ويتضمن أقساماً فرعية عن :

- قياس القيمة .

- والجماعات المهنية .

٦- الديموجرافيـا وتتضمـن قسـماً فرعيـاً عـن المجتمعـات الحضريـة والريفية .

٧- علم الاجتماع الجمالى . (٢٥)

وعلـى الرغـم مـن أن دوركـايم قد قـدم صـورة عامـة للنظـم والعمليات الاجتماعية التى يجب على علماء الاجتماع الاهتمـام بـهـا ، إلا أنه أكد شأنه شأن أوجست كونـت وهربـرت سبنسـر علـى أهميـة

---

(٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣ .

تحليل العلاقات بين النظم وبعضها من ناحية ، وبينها وبين البيئة الاجتماعية الموجودة منها من ناحية أخرى .

فى حين يرى بيتريم سروكين أن لكل طائفة من الظواهر الاجتماعية العديدة ، اقتصادية ، وسياسية ودينية وغيرها علم يدرسها ويتطابق معها ، ولذلك تظهر الحاجة إلى علم يهتم بالخصائص المشتركة والعامة والشائعة بين جميع أنماط الظواهر الاجتماعية والعلاقات بينها وذلك لأنه لا يوجد علم اجتماعى يستطيع بمفرده أن يؤدى العمليتين معاً بصورة جيدة وسليمة فيناقش ما إذا كان الجانب الاقتصادى من الوجود الإنسانى هو الذى يحدد الأفكار الأخلاقية والدينية (كما يؤكد كارل ماركس) أم أن الأفكار ذات المنبع الدينى تعطى دفعات معينة للنمو الاقتصادى (كما يذهب ماكس فيبر) أم أن العلاقة المتبادلة أكثر تعقيداً وتركيباً مما يذهب إليه كل منهما ، وهذا يعنى أن الإجابة على هذه المشكلة يدخل فى نطاق علم ينهض فوق تقسيم الظواهر الاجتماعية إلى طوائف فرعية ، وهذا العلم هو علم الاجتماع . [٢٦]

ولكن يلاحظ أيضاً أن (أوسيبوف) يرى أن علم الاجتماع لما كان يهتم بدراسة الجوانب العامة والخاصة فى الحياة الاجتماعية، وما

---

(٢٦) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرين (مراجعة عاطف غيث ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٤ – ٣٥ .

بينها مـن ترابـط وظيفـى واعتمـاد متبـادل ، وعلـى هـذا ينقسـم علـم الاجتماع إلى علـم الاجتمـاع النظـرى العـام وعلـم الاجتمـاع الخـاص ، يتناول العلم العام مهمة دراسة القوانين التى تحكم ظـهور وتطـور أى تكويـن اقتصـادى اجتمـاعى معـين ، ودراسـة ميكـانيزم تفـاعل الأنساق الاجتماعية الفرعية فى إطار بناء اجتماعى متماسـك . ويـأخذ علم الاجتماع الخاص مهمة التعمق فى بناء الكائن العضوى الاجتماعى ككل ، ويكشف ميكانزم التفاعل بين عناصره وقواعـد وظائفـه وتطـور كل نسق فرعى – كأن نقول سوسيولوجيا العمل ، والأسرة ، والثقافـة – الخ وكلا العلمين لا ينفصلان ولا يتعارضـان فـهما معـاً يستندان إلى المعرفة العميقة حول الواقع الفعلى للمجتمـع فـى مرحلـة معينـة مـن مراحل تاريخه . (٢٧)

وخلاصة ما سبق أن علم الاجتماع رغم أنه علـم حديـث النشـأة إلا أنه حاول أن يتحسس مجال تخصصه ويبحث عن هويته من خلال أفكار الرواد والمؤسسين له واهتمامهم بتحديد مجال دراسته، وإن بدا أن بينهم اختلافاً فى وجهات نظرهم فهذا شأن كل علم يريد أن يثبت وجوده ويشق طريقه فى محراب العلم لمحاولـة الاقـتراب مـن صـورة العلم بمعناه المتعارف عليه . لكن نسـتطيع – رغـم هـذا التبـاين – أن

---

(٢٧) غريب سيد أحمد وآخرون ، المدخل إلى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

نجد اتفاقاً أساسياً بينهم على المجال الحقيقى لعلم الاجتماع على النحو التالى :-

١- أن علم الاجتماع يدرس النظم الاجتماعية المختلفة وعلاقتها ببعضها البعض ، ابتداءً من الأسرة حتى المجتمع وهم يتفقون على أنه ينبغى تحليل هذه النظم من منظور علم الاجتماع الذى حاولنا أن نقدم له تصوراً واضحاً خلال الصفحات الماضية .

٢- إن علم الاجتماع يجب أن يدرس العلاقات المتبادلة بين النظم المختلفة فيدرس النظام الاجتماعى والاقتصادى والنظام السياسى والنظام الأسرى والنظام الدينى والتربوى ، إذ أن علم الاجتماع يعتبر المجتمع كلاً متكاملاً يتكون من مجموعة من النظم والأنساق وهذه النظم ترتبط ببعضها فى إطار متكامل .

٣- يدرس علم الاجتماع العلاقات الاجتماعية فى مختلف صورها وأنماطها والمؤثرات والقوى التى تتحكم فيها وهذا ما يجعل علم الاجتماع قادراً على استيعاب مختلف جوانب الواقع الاجتماعى دون أدنى درجة من التعسف .

٤- يدرس علم الاجتماع الأفعال الاجتماعية أو السلوك الاجتماعى بغض النظر عن إطار النظام الذى توجد فيه هذه الأفعال أو السلوك

٥- يمثل المجتمع الوحدة الأساسية للتحليل السوسيولوجى ، على أن يأخذ علم الاجتماع على عاتقه مهمة تفسير أسباب أوجه الشبه والاختلاف بين المجتمعات .

٦- يهتم علم الاجتماع بدراسة التصورات الاجتماعيــة للتعـرف علـى جميع أشكال العلاقات التى تدخل فى تشكيل البناء الاجتماعى .

(٧) يدرس علم الاجتماع الظواهر الاجتماعية بأنماطها المختلفـة سـواء كـانت تلـك الظواهـر سـوية أم مرضيـة ، وبخاصـة تلــك الظواهر التى تتصف بصفة العمومية والانتشار .

ويلخص دوركايم مهمة علم الاجتماع فى ذلك فيقول أن مهمـة علـم الاجتمـاع تعنـى بـالبحث عـن الوظيفـة التـى تؤديــها الظــاهرة الاجتماعية ، إلى جانب اهتمامه بالكشف عن أسبابها الكافية .

رابعاً :- علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية الأخرى :

يكشف تحليلنا السـابق لموضـوع علـم الاجتمـاع ومجالاتـه عـن الكثير من الموضوعات المختلفة التى أصبح هـذا العلـم يـهتم بتحليلـها بصورة عامة، وقد أسهم هذا التنوع فى المجالات عــن وجـود علاقـات متداخلة سواء بين فــروع علـم الاجتمـاع العـام أو بـين علـم الاجتمـاع وغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى ، وعلى أى حـال سـوف نحـاول فى هذه النقطة أن نعرض بإيجاز بعض العلوم الاجتماعية التى ترتبط بعلـم الاجتمـاع وتتداخـل معـه فـى نوعيـة القضايـا والمجـالات التـى يعالجها بالفعل ، وإلى أى حد ساعدت تلك العلوم فى تطوير وتحديث اهتمامات عالم الاجتماع، وكيف أدت إلى تعزيز طرق وأساليب البحث المنهجى والنظرى فى معالجه المجالات الأساسية والمشتركه بيـم علـم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى لكن ما هى أهم تلك العلوم

الاجتماعية الأخرى .

ونقصد بالعلوم الاجتماعية هنا مجموعة المعارف التى تراكمت وتكونت من خلال استخدام المنهج العلمى الذى يتناول أشكال ومحتوى التفاعل والمشاركة بين أفراد المجتمع ، فصفة التفاعل والمشاركة من الخصائص التى تضفى على حياة الجماعة الصفة الاجتماعية . وتشمل العلوم الاجتماعية علم الاجتماع ، وعلم النفس ، والاقتصاد ، والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية ، وتضم أيضاً التاريخ وعلوم الاتصال وأحياناً الجغرافيا ، ونحاول فى هذا الصدد تفسير تلك العلاقة بين علم الاجتماع وبعض العلوم الاجتماعية فى الوقت الحاضر

١- علم الاجتماع وعلم النفس .

باعتبار أن علم الاجتماع يهدف إلى تحقيق التكامل المعرفى حول الإنسان والمجتمع ، الأمر الذى يجعل وجود علاقة تفاعلية بين علم الاجتماع وعلم النفس ، خاصة حينما يهتم كل منها بدراسة التنشئة الاجتماعية والجماعة فعلى سبيل المثال يهتم علم الاجتماع بدراسة ظاهرة التنشئة الاجتماعية وهى عملية مستمرة طوال حياة الإنسان يتعلم خلالها القيم الأساسية والمعايير الأخلاقية للجماعة ورموز الأنساق الاجتماعية التى يشارك فيها ، وكذلك المعايير والثقافة وتوقعات الأدوار التى يلعبها والجماعات التى ينتمى إليها وهكذا ويتحول من خلالها من شخصية بيولوجية إلى كائن اجتماعى

يلتزم بالقيم والمعايير التى توجه السلوك . لا يجد علم الاجتماع وهو يدرس هذه الظاهرة ما يمنعه من الاستعانة بما انتهى إليه علم النفس من فهم نظرى للشخصية الإنسانية يعينه على مواصلة بحثه لكيفية تحول هذه الشخصية إلى كيان اجتماعى يكتسب تعاليم المجتمع ، وعندما يهتم علم النفس بدراسة الجماعة ويتفرع عنه علم جديد من فروع علم النفس وهو علم النفس الإجتماعى Social Psychology يهتم أساساً بأثر الجماعة على الفرد ، وعلى سلوكه ، فإن مثل هذا العلم الفرعى لا يجد ما يمنعه من الإفادة بما انتهى إليه علم الاجتماع من فهم نظرى للجماعة يعينه على مواصلة دراسته لأثر الجماعة على سلوك أعضائها كأفراد .[٢٨]

كما يمثل علم النفس الاجتماعى أحد فروع علم النفس العام ذات الصلة الوثيقة بعلم الاجتماع لأنه يركز على علاقة الفرد بالآخرين فلقد اهتم جبربيل تارد بإثبات أن المحاكاة هى العملية الاجتماعية الأساسية أما أميل دور كايم فقد اهتم بصياغة نظرية الضمير الجمعى وهو يشير إلى المجموع الكلى للمعتقدات والعواطف العامة بين معظم أفراد المجتمع ، والتى تشكل نسقاً له طابع مميز ويكتسب هذا الضمير الجمعى واقعاً ملموساً فهو يستمر خلال الزمن ويدعم الروابط بين الأجيال .[٢٩]

---

(٢٨) غريب سيد أحمد وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .
(٢٩) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٧٢.

وهـذا مـا يؤكـد أن التفسـيرات الاجتماعيـة والنفسـية يكمـل أحدهما الآخر رغم أن العلمين – من الناحيـة الواقعيـة – لا يرتبطـان ارتباطاً وثيقاً لكن فى الواقع يمكن اعتبار علم النفس علماً اجتماعيـاً إلى حـد معـين ، طالمـا أن كـل الظواهـر النفسـية تظـهر فـى سـياق اجتماعى يؤثر فيها إلى حد ما .

(٢) علم الاجتماع وعلم الاقتصاد :

يهتم علم الاقتصـاد بدراسـة ذلـك الجـزء مـن النشـاط الفـردى والاجتماعى الذى نكرسه للوصول إلى أحسن الظـروف الماديـة لتحقيـق الرفاهية، ويطلـق علـى هـذا النشـاط الفـردى والجمـاعى اسـم النشـاط الاقتصادى وهو أحـد وجـوه النشـاط الاجتمـاعى بشـكل عـام ، وتبـدو الصلة هنا أكثر وضوحاً بين مجال الاقتصاد ومجال الاجتماع .[٣٠]

وباعتبار أن فهم الجـانب الاقتصـادى البحـت لا يسـاعد علـى الفـهم الشـمولى للحيـاة الاقتصاديـة فـى المجتمـع بسـبب التداخـل والتشابك بين الظواهر الاجتماعية من الناحيـة الوظيفيـة ، فكـان مـن الضرورى على علم الاجتماع أن يتناول هذا الجانب ، فقد أوضح اميـل دوركايم فى كتابه "تقسيم العمل الاجتماعى" أسس الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الغربية فى ضوء العوامل الاقتصادية ومن جانب آخـر

---

(٣٠)محمـد ياسـر الخواجـة، عـم الاجتمـاع الاقتصـادى بـين النظريـة والتطبيـق، دار الأهالى، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ١٥.

إدراك علماء الاقتصاد أهمية العوامل الاجتماعيــة ، فاهتموا بدراسة العلاقة المتبادلة بين المتغيرات الاقتصادية والمتغيرات الاجتماعية فى الوقت الذى يهتم علم الاجتماع بدراسة التأثير المتبادل بين النظام الاقتصادى والنظم الاجتماعية الأخرى وكذلك تحديد العلاقة بين النظم الاقتصادية وبين القيم والعادات ومعايير السلوك فى المجتمع فإن عالم الاقتصاد يهتم بذلك أيضاً فمثلاً يهتم عالم الاقتصاد بمشكلة التضخم **Inflation** من حيث تأثيرها الاقتصادى على ارتفاع الأسعار وتدهور قيمة العملة المحلية بينما يهتم عالم الاجتماع بتأثير التضخم على نسق القيم السائد فى المجتمع حيث فى ظل التضخم ترتفع قيم أخلاقية جديدة كالشطارة والسرعة والخفة والقدرة على انتهاز الفرص وتنمية العلاقات الشخصية بذوى النفوذ ، ويصبح التمسك بالمبدأ وشرف المهنة من قبيل الترف ، وفى ظل التضخم تزداد عجلة الجميع ويقل صبرهم ، كما أن عالم الاجتماع يهتم بدراسة الآثار الاجتماعية للتضخم من حيث تأثيره على ضعف الولاء للوطن والانشغال بأمورنا اليومية عن قضايانا القومية فالخائف من الجوع أو من يفقد مكانته واحترامه بين أهله وجيرانه لا وقت لديه يمكن أن يضيعه فى الاهتمام بقضايا الوطن ، والتضخم كما يصيب معظم الناس بالخوف من الفقر ، يصيب آخرين بالجشع ويسيل لعابهم على تحصيل المزيد من الثراء ، إذ يتيح التضخم فرصاً ذهبية للإثراء السريع عن طريق المضاربة واستغلال النفوذ ، فالتضخم أيضاً

أداة لا تدانيها أداة أخرى فى قدرتها على قهر وإذلال الناس ، فالذى يتحكم فى مصدر دخلك يستطيع أن يقرر ما إذا كنت ستنضم إلى فئة المطحونين بعجلة التضخم أم لا . (٣١)

لذلك اهتم العديد من علماء الاجتماع والاقتصاد بتأكيد الصلة بين علم الاجتماع والاقتصاد فمثلاً لاحظ الفرد مارشال فى محاضرة افتتاحية له بجامعة كمبردج عام ١٨٨٥ حينما كان بصدد فكرة كونت عن العلم الاجتماعى من أنه إذا وجد هذا العلم فلا شك أن الاقتصاد سيكون سعيداً بأن ينضوى تحت لوائه ، كما ذهب لوى Lowe فى مؤلفه الاقتصاد وعلم الاجتماع إلى جود مبدئين سوسيولوجين تنهض عليهما القوانين الكلاسيكية للسوق هما : الإنسان الاقتصادى والمنافسة بل ذهب أكثر من هذا إلى اقتراح مجالات خصبة للتعاون بين الاقتصاد وعلم الاجتماع ، كما يعتبر كتاب ماكس فيبر الاقتصاد والمجتمع "محاولة هامة لإدخال بعض مفاهيم النظرية الاقتصادية ضمن مجال علم الاجتماع وهناك عمل حديث لتالكوت بارسونز ونيل سملر يحمل نفس العنوان "الاقتصاد والمجتمع" يحاول أن يكشف عن أن النظرية الاقتصادية هى جزء من النظرية السوسيولوجية العامة .(٣٢) لكن تتباين اهتمامات الاقتصاديين

---

(٣١) انظر التحليل الرابع للآثار الاجتماعية للتضخم فى كتاب جلال أمين ، مصر فى مفترق الطرق ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ص ٤٣-٤٩ .

(٣٢) انظر كل من محمد على محمد ، دراسات فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٨٣-٨٥

فالبعض منهم يهتم بالنظرية ويصيغ أحكاماً مسبقة عامة عن طريقه تأثير الاقتصاد على المجتمع ، وقد صاغ بعض الاقتصاديين أنواعاً من الافتراضات عن الطبيعة الإنسانية ، وحاولوا أن يقيموا صورة عن العلاقات الاقتصادية وبينوا كيف أن العرض والطب يرتبطان سوياً وكيف تحدد الأسعار . كما درسوا النظام النقدى ليتبينوا العلاقة بين الأطراف المعنية مثل معدل الفائدة ، ودورة النقود ، وكمية التداول ومستوى العمالة ، وتماثل هذه الأعمال الدراسات التى قام بها بعض علماء الاجتماع الذين يهتمون بالقضايا النظرية المجردة والذين يحاولون صياغة نماذج من العلاقات الاجتماعية التى يتزايد تعقدها ، ويستدل على هذه النماذج من مقدمات بسيطة بقصد فهم العلاقات الداخلية لذلك المجتمع فهماً واضحاً . لذا يرى جون ركس أن علم الاقتصاد يهتم بجوانب معينة من التفاعل الاجتماعى ولهذا يتعين اعتباره فرع من علم الاجتماع نفسه [٣٣] وبهذا نستطيع أن نقول أن علم الاجتماع وعلم الاقتصاد يرتبطان ارتباطاً وثيقاً فى السنوات الأخيرة ، ولا يرجع ذلك فقط إلى تطور الدراسات الاجتماعية وإسهامها المباشر فى الدراسات الاقتصادية وإنما إلى تغيرات أساسية شهدها علم الاقتصاد ذاته ، وعلى هذا فالارتباط الوثيق بين العلمين أمر لا شك فيه لكن التطورات الحديثة كشفت عن أن الاعتراف بذلك كان من

- Swedberge, R. Economic Sociology, Currunt Sociology, V. 35. N. L, Spring, 1987, P 11-15.

(٣٣) محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

كان من جانب علماء الاقتصاد الذين أفادوا من المفاهيم والتعليمات السوسيولوجية فى دراستهم للمشاكل الاقتصادية.

(٣) علم الاجتماع وعلم السياسة :

تبدو الصلة وثيقة بين علم السياسة وعلم الاجتماع من خلال ظهور فرع جديد ومتنامى يسمى بعلم الاجتماع السياسى Political Sociology ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع الذى يهتم بدراسة طبيعة العلاقة بين السياسة من جانب والبناء الاجتماعى من جانب آخر ، وقد أكد هذا المعنى جاستون بوتول حيث ذهب إلى أن علم الاجتماع السياسى هو ذلك العلم الذى يهتم بتحليل طبيعة الأنظمة السياسية والظواهر السياسية فى علاقتها بالنظم والظواهر الاجتماعية وعلم الاجتماع السياسى يعد وليداً لفكرة تساند العلوم وخاصة لأكثر العلوم المعرفية اتساقاً وهما على وجه الدقة علم الاجتماع وعلم السياسة، ولعل اهتمامات علم الاجتماع السياسى تتركز اليوم على قضايا مرتبطة بالتنظيم الاجتماعى والسياسى ، والتكامل وحماية الحقوق الفردية فى عصر الدول القومية والمجتمعات الجماهيرية ، ولذلك فمن غير المناسب على الإطلاق أن تدرس بناء السياسة أو توزيع القوة داخل المجتمعات وبينها دون البحث فى الأسباب الاجتماعية والنتائج المترتبة على توزيع القوة، فعلماء الاجتماع السياسى يعنون إذن بدراسة الأصول الاجتماعية المختلفة للقوة وصنع القرار والنماذج المختلفة ، وكذلك عملية صناعة

القرار وتأثيرات هذا النشاط على المجتمع على نحو ما أكد على ذلك كل من دوس Douse وهيجر Hughes .[٣٤]

كما تتأكد الصلة بين علم الاجتماع والسياسة من خلال اهتمام بعض علماء السياسة بتحليل الظواهر السياسية فى ضوء البناء الاجتماعى ، فيفسر عالم السياسة الظاهرة السياسية فى ضوء العلاقات الاجتماعية السائدة فى المجتمع ، واستخدام أولئك العلماء مفاهيم البناء الاجتماعى ، المجتمع المدنى والنسق الاجتماعى كأدوات تصورية يمكن من خلالها تفسير وتحليل الحياة السياسية وظواهرها المختلفة . والواقع أن تأثير علم الاجتماع فى مجال علم السياسة تأثير شديد الوضوح ، فقد بدأ الدارسون تحويل اهتمامهم من الجوانب الرسمية للأنساق السياسية إلى دراسة السلوك السياسى الذى يمكن استخلاص تعميمات تصدق عليه، ويبدو واضحاً فى تزايد عدد الدراسات الخاصة بالأحزاب السياسية، والجماعات الضاغطة والانتخابات ، والسلوك الإدارى ، والأيديولوجيات السياسية وغيرها، ونستطيع أن نلمس الطابع السوسيولوجى لعلم السياسة المعاصر بصفة خاصة فى مجالين هما نمو الدراسات المقارنة ، ودراسة العلاقة المتبادلة بين السلوك والأنظمة السياسية فى علاقتها بالنظم

---

(٣٤) عاطف أحمد فؤاد ، علم الاجتماع السياسى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٥ ، ص ٥٥ .

الاجتماعية الأخرى .

وهكذا يبدو أن العلاقة بين علم الاجتماع وعلم السياسة مختلفة تماماً عن العلاقة بينه وبين الاقتصاد ، فقد تطور الاقتصاد سريعاً وأصبح علماً مستقلاً ولديه نظرية متقدمة ومن ثم ظهرت إشكالية علاقة هذه النظرية الأكثر تقدماً بالنظرية السوسيولوجية الأقل تقدماً ، أما علم السياسة لم يستطع حتى الآن تطوير بناء نظرى متقدم أو ما يطلق عليه النظرية السياسية وبالتالى فقد استعان علم السياسة بالعديد من المفاهيم والتعميمات من علم الاجتماع ، حتى أصبح بصورة أكثر وضوحاً كفرع من فروع علم الاجتماع . [٣٥] فيتناول علم السياسة قضايا التنظيم الحكومى على مختلف المستويات القومية والإقليمية والمحلية ، كما يقوم بمقارنة الأنظمة المختلفة ، والقانون والأحزاب السياسية ودور السلطة وبناء القوة والعلاقات الدولية والسياسية ، أما علماء الاجتماع فإنهم يدرسون النظام السياسى باعتباره نظاماً قائماً بذاته من جهة ، وأيضاً يدرسون العلاقات المتبادلة بين النظام السياسى وغيره من النظم والأنساق الاجتماعية وتأثير كل منهما على الآخر من جهة أخرى . فعالم الاجتماع يتناول قضايا علم السياسة من منظور اجتماعى . حتى أصبحت الصلات الحالية بين علم الاجتماع وعلم السياسة ذات طابع سوسيولوجى واضح

---

(٣٥) محمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ٨٨ .

(٤) علم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

تهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان من جميع جوانبه الطبيعة والسيكولوجية والاجتماعية لأن مضمون كلمة الأنثروبولوجيا هى دراسة الإنسان ، ونتيجة لتنوع الأنشطة التى يقوم بها الإنسان ، فإننا نلاحظ أن الأنثروبولوجين قد أخذوا هذا التعريف اللغوى لعلمهم مأخذ الجد ولذلك يحاولون دراسة الإنسان وكل أعماله ، إلى جانب هذا نجد أن الأنثروبولوجيا تجمع فى علم واحد بين نظرتى كل من العلوم الاجتماعية والبيولوجية فتركز مشكلاتها على الإنسان كعضو فى المملكة الحيوانية ، وعلى سلوك الإنسان كعضو فى مجتمع من ناحية أخرى .

ثم إن الباحث الأنثروبولوجى لا يقتصر فى دراسته على مجموعة معينة من الناس ، بل إننا نجده يهتم بالأشكال الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامه بالأشكال المعاصرة إذ يدرس كل من التطور البنائى للبشرية ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التى وصلتنا عنها أى سجلات أو بقايا ، كذلك يوجه الأنثروبولوجى اهتماماً خاصاً إلى الدراسات المقارنة فى سياق اهتمامه بالجماعات والحضارات الإنسانية المعاصرة . [٣٦] كما تدرس الأنثروبولوجيا

---

(٣٦) محمد الجوهرى الأنثروبولوجيا ، (أسس نظرية وتطبيقات عملية) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ص ٢٨-٢٩ .

مكانة الإنسان فى هذا العالم وكيف تنشأ المجتمعات وتتطور ، وكيف تتغير وكيف تتطور الثقافات ، وتتضح العلاقة الوثيقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من زاويتين :-

الأولى : إن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا يهتمان بدراسة الثقافة، فكلاهما يهتم بدراسة المعايير والقيم ولكن على حين يركز عالم الأنثروبولوجيا أساساً على العلاقات بين مجموعة معينة من المعايير ومجموعة أخرى ، نجد عالم الاجتماع يهتم بالدور الذى تلعبه المعايير فى عملية التفاعل .

الثانية : إن الأنثروبولوجيا الاجتماعية باعتبارها أحد فروع الأنثروبولوجيا العامة تركز على دراسة الجانب الاجتماعى لحياة الإنسان فالأنثروبولوجى يحرص على دراسة الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية من خلال تساندها الوظيفى .

فعندما يدرس الباحث الأنثروبولوجى أحد المجتمعات البدائية على سبيل المثال فإنه يدرس الحياة الاقتصادية والأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية . ونظام العائلة والقرابة ، والمعتقدات والطقوس الدينية والسحر وأنماط ووسائل الضبط الاجتماعى ، أى أنه يدرس الجماعات التى يتكون منها المجتمع البدائى والمراكز والأدوار، كما يدرس الثقافة العامة له . ومن ثم فإن الفروق الأساسية بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية تتمثل فى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تركز على الدراسة الحقلية فى دراسة

المجتمعات الصغيرة والتى تختلف فى طبيعتها عن مجال علم الاجتماع الذى يركز على المجتمعات المعاصرة لكن النظرة إلى المجتمعات البدائية والصغيرة بوصفها موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية أخذت تختفى بصورة واضحة فأصبح هناك عدد كبير من الدراسات الأنثروبولوجية الآن تهتم بدراسة المجتمعات المتقدمة مثل دراسة المجتمع المحلى وجماعات القرابة ومع ذلك فلا تزال التفرقة قائمة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية فى ضوء اختلاف المدخل والمنهج فالدراسات الأنثروبولوجية تعتمد على الملاحظة بالمشاركة بالدرجة الأولى وعلى الإخباريين والمنهج التأويلى الرمزى *.

أما الدراسات السوسيولوجية تعتمد على وسائل أخرى فى جمع البيانات التى تخضع للضبط المنهجى كالاستبيان والمقابلة والبيانات الإحصائية فى دراسة تلك المجتمعات .

(٥) علم الاجتماع والتاريخ :

ارتبطت كثير من التحليلات فى علم الاجتماع بكتابات علماء

---

* المنهج التأويلى Hermeneutic الذى يقوم على التفاعل بين الباحث والمبحوث كمبدأ منهجى أساسى له ، ولذلك يعتمد هذا المنهج على أساليب جمع المادة التى تتفق وهذه الخاصية مثل الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المفتوحة وتاريخ الحياة كما يعتمد على التعمق فى دراسة الحالات الصغيرة بهدف فهم الظاهرة للوصول إلى المعنى ومن ثم فهو يتعامل مع موضوعات أساسية أكثر من تعامله مع متغيرات كثيرة . انظر، السيد حافظ الأسود ، المدخل الرمزى لدراسة المجتمع ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر ، ١٩٩١ ، ص ص ٣٢١ -٣٥٢ .

التاريخ على مختلف العصور التاريخية التى اهتموا بمعالجتها بالفعل، كما جاءت معظم الاهتمامات المشتركة بين كل من علم الاجتماع والتاريخ فى إطار اهتمامات علماء التاريخ والمؤرخين بعلم الاجتماع . ويؤكد ذلك التطور التاريخى للتفكير الاجتماعى خلال العصور القديمة والعصور الوسطى والإسلامية فلقد ساعدت تحليلات علماء التاريخ للكشف عن المزيد من الحقائق التاريخيـة والاجتماعية فى جميع المجتمعات القديمة سواء فى مصر الفرعونية أو الصين القديمة ، والهند وبلاد الإغريق وغيرها .

لذا يلاحظ جورج زيمل أن التاريخ يكاد يقترب من موضوع الدراسة فى علم الاجتماع حين يسعى إلى البحث عن قوانين تاريخية، وهكذا تدخل نظرية كونت ضمن هذه الفئة ، فهى تنتمى إلى التاريخ بقدر ما تنتمى إلى علم الاجتماع .(٣٧)

فالتاريخ يعتبر تسجيلاً لأحداث الماضى الحافل بالأنواع المختلفة للنشاط الإنسانى ، وحتى يتمكن عالم الاجتماع من التعرف على الحقائق والأحداث الاجتماعية وتطورها عبر الزمان وانتقالها من مجتمع إلى آخر باختلاف الحقب الزمنية لا بد من الرجوع إلى التاريخ ليدعم أغراضه من السجلات التاريخية المتنوعة والمداخل التاريخية المختلفة ، فعلم الاجتماع يستفيد من البيانات والوقائع التاريخية فى كشفه عن العلاقات القائمة بين الأحداث التى وقعت فى الماضى والتى

---

(٣٧) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ .

دوّنها ورصد لها علماء التاريخ فى فترة زمنية معينة بهدف الوصول إلى تفسير وتعميم للحوادث المتشابهة أو المتكررة فهنا يمكن للعالم الاجتماعى الرجوع إلى التاريخ لمعرفة أصل الظواهر الاجتماعية والنظم الاجتماعية وتطورها وتغيرها البنائى والوظيفى عبر الزمان والمكان ، ويأتى اهتمام المشتغلين بعلم الاجتماع بالتاريخ وبالطريقة التاريخية من قناعة علمية تؤكد أن الفهم التاريخى لموضوعات علم الاجتماع يعوض الكثير من النقص فى المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية ، ويوفر مادة علمية تلقائية غالباً وبعيدة عن التصنع العلمى ، الذى ينتج عن الخصائص النوعية لموضوعات علم الاجتماع وعلاقة الباحث قرباً وبعداً وتداخلاً، لكن يختلف تعامل الباحث فى علم الاجتماع عن المؤرخ وعن بعض الاتجاهات البحثية فى عدد من الأمور الهامة نشير منها إلى أمرين هما[٣٨] :-

الأول : يتعلق بفهم كل من الباحث فى علم الاجتماع والمؤرخ لمقولة (الزمن) فحيث يهتم المؤرخ غالباً بالتتبع التاريخى المنظم فإن الباحث فى علم الاجتماع يهتم بالمراحل والحقب التاريخية ، ولا يشترط دائماً أن تكون متتابعة بل أحياناً يأخذ مراحل متباعدة للمقارنة العلمية التى تساعده فى الكشف عن العام والمشترك بين

---

(٣٨) عبد الباسط محمد عبد المعطى ، البحث الاجتماعى ، محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٤ ، وعبد الباسط محمد عبد المعطى ، المنهج فى علم الاجتماع : المفاهيم والأسس ، فى كتاب المدخل إلى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

المراحل من ناحية والنوعي والخاص بمرحلة محددة من ناحية أخرى، وفي الوقت الذي يسير المؤرخ مع حركة التاريخ من الماضي في اتجاه الحاضر غالباً فإن الباحث في علم الاجتماع في حالات وأحياناً كثيرة محددة يبدأ من الحاضر ويسير نحو الماضي لتتبع نشأة وتطور ظواهر أو عمليات اجتماعية بعينها .

أما الأمر الثاني فيتعلق بقضية تحقيب التاريخ أو تقسيمه إلى مراحل ، ففي الوقت الذي يهتم فيه معظم المؤرخين بسنوات محددة ، ذات صلة غالباً بالتاريخ السياسي ، خاصة تاريخ الحكام، مجيئاً وذهاباً . ومن ثم نجدهم يقولون بعصر الخليفة المأمون وعصر محمد علي وما إلى ذلك ، فإن الباحث في علم الاجتماع يسعى إلى تحقيب نوعي يرتبط بمراحل وتحولات اجتماعية واضحة المعالم ، ويدرك في الوقت ذاته أن حادثاً ما سياسياً أو عسكرياً كثورة أو حرب، بالرغم من أنه يحدث في تاريخ محدد ، إلا أن وقوعه يكون نتيجة مقدمات وتغيرات سابقة ، وأيضاً تغيرات لاحظة لا تظهر نتائجه إلا بعد وقوع هذا الحادث بسنوات قد تمتد إلى عدة عقود من الزمان .

لكن برغم أن التاريخ لا يعد علماً اجتماعياً خاصاً فإن العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ علاقة وثيقة على أساس أن التاريخ هو دراسة تطور الناس داخل المجتمعات كما أنه أصبح من المعروف أن علم الاجتماع يتيح فرصاً مفيدة للمؤرخ يمكنه من خلال إحدى تلك الفرص أن يدرس مجرى الأحداث بعين فاحصة للعوامل الاجتماعية

بدلاً من تقصى العوامل السياسية أو العسكرية أو الدبلوماسية ، لذا يرى جون ركس أن العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ ، علاقة من نوع معين يصعب تعريفها للغاية [٣٩] غير أنه يمكن القول بشكل عام أن المؤرخ رجل يهتم أساساً بالواقع الأمبريقى أكثر من عالم الاجتماع ، فهو يهتم أساساً بما حدث فى الواقع فعلاً ، فى حين يهتم بدرجة اقل بسبب حدوث ما وقع ، حتى وإن لجأت قلة من المؤرخين إلى التفسير فى دراساتها فإن بعض هذه التفسيرات تعتمد على فروض سوسيولوجية ، وبإمكان علم الاجتماع أن يستفيد بصورة أكبر من محاولة علماء الاجتماع توضيح هذه الفروض واختبارها ، وبالمثل تستطيع النظرية الاجتماعية أن تستفيد كثيراً من إخضاع فروضاً لاختبارات التاريخ .

الخاتمة :

صفوة القول إن علم الاجتماع علم حديث النشأة نسبياً ، وهو يحاول أن يجتهد نحو توفير دعائم استقلاله بصورة نسبية أن يهتم بدراسة النظم الاجتماعية والعلاقات والظواهر والمشكلات وأنماط التفاعل الاجتماعى ، وكذلك الأفكار والتصورات الاجتماعية دراسة علمية تحليلية من خلال الاعتماد على أساليب وطرق المنهج العلمى حتى يمكن فهم ديناميات المجتمع وطبيعة العلاقات السائدة فيه ،

---

(٣٩) محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ .

ومحاولة التنبؤ بظواهره من أجل الوصول إلى القوانين العامة التى تحكمه .

وعلم الاجتماع وهو يحاول تحقيق ذلك يحاول قيام علاقات تفاعلية وتعاون متبادل مع العلوم الاجتماعية المختلفة من أجل الوصول إلى بناء متكامل من المعرفة الإنسانية عن الإنسان والمجتمع، لكن بالاعتماد على المنظور السوسيولوجى الذى يميز هذا العلم فى طريقه التحليل والتفسير للحقائق والظواهر الاجتماعية المختلفة ، فعالم الاجتماع حينما يتناول تحليل ظاهرة معينة دائماً ما يكون له طريقته فى دراسته هذه الظاهرة والمنظور أو الرؤية الاجتماعية التى يحاول من خلالها تحليل هذه الظاهرة لذا فقد حدد سوروكين المجال الذى يركز عليه علم الاجتماع وباقى العلوم الاجتماعية الأخرى قائلاً أن عالم الاجتماع يبحث عن العناصر الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد ، وأنماط التفاعل فى المواقف المختلفة أى أن علم الاجتماع يبحث عن وجه التشابه والاختلاف بين الأفراد فى الجماعات بغض النظر عن انتماءاتهم المجتمعية .

وعلى هذا فإن علم الاجتماع يدرس الجوانب التالية :-

أولاً :- علم الاجتماع يدرس المجتمع باعتباره الوحدة الأساسية للتحليل وهنا يصبح هدفه الكشف عن الصلات التى تربط النظم التى تكون المجتمع فى ظل الأنساق الاجتماعية المختلفة .

ثانياً :- علم الاجتماع يدرس النظم الاجتماعية المختلفة وعلاقتها

ببعض، فيدرس النظام الاقتصادى والنظام السياسى والنظام التربوى ، والنظام الدينى ، والنظام الأسرى ، بمعنى أن علم الاجتماع يعتبر المجتمع كلاً يتألف من مجموعة من النظم التى تؤلف كيانه .

ثالثاً :- علم الاجتماع يدرس العلاقات الاجتماعية حيث تشكل هذه العلاقات الجزئيات الأساسية للحياة الاجتماعية وأن أصغر هذه الجزئيات هى الفعل الاجتماعى الذى يمثل الذرة الحقيقية للحياة الاجتماعية والتى تشكل بؤرة اهتمام علم الاجتماع .

الفصل الثانى

علم الاجتماع وقضية النشأة والتطور

- مقدمة .
- ١- جذور النشأة الأولى لعلم الاجتماع
- ٢- ابن خلدون ونشأة علم الاجتماع
- ٣- أوجست كونت وتحديد مسمى علم الاجتماع
- ٤- هربرت سبنسر وتحديد موضوع علم الاجتماع
- ٥- إميل دوركايم وتحديد الوضع المنهجى لعلم الاجتماع
- ٦- ماكس فيبر وتحديد النطاق الأكاديمى لعلم الاجتماع
- ٧- الوضع الراهن لعلم الاجتماع ودوره النقدى
- ٨- خاتمة

مقدمة :

من الذى أنشأ هذا العلم، وهل يوجد عالم وراء نشأة هذا العلم أم ساهم فى نشأة وتطور علم الاجتماع علماء كثيرون، وكيف اكتسب علم الاجتماع الصفة العلمية واصبح علماً مستقلاً عن الفلسفة؟ وكيف تطور هذا العلم؟ وما هو الوضع الراهن لعلم الاجتماع، وما الدور النقدى له؟

كل هذه التساؤلات وغيرها تمثل خطوة أساسية ليس فقط للطلاب والدارسين لهذا العلم بل تهم القارئ المثقف والدارس المتخصص أيضاً فى التعرف على نشأة هذا العلم باعتباره علماً جديداً يحاول أن يعرف ما هو كائن بالفعل، وبخاصة فيما يتعلق بأبعاد الحياة الاجتماعية، والواقع الحى الذى نعيش فيه، وكيفية اكتساب المعرفة الاجتماعية التى تساعد على حل المشكلات التى تملئ حياتنا الاجتماعية والتى تزداد يوماً بعد يوم مع تقدم الحياة العصرية ونمو المجتمعات الإنسانية وتعقدها.

لذا فقد زاد الاهتمام المعاصر بعلم الاجتماع فى الدول الأكثر تقدماً بل أصبح الاهتمام به يزداد على المستويين المجتمعى والأكاديمى، باعتبار أن المعرفة الاجتماعية هى مرآة تعكس طبيعة العصر وأنماط معيشته، ونظم وأنساق المجتمع، وثقافته وما يعانيه من مشكلات، فالتطور الملحوظ فى مجال المعرفة الاجتماعية الذى شمل مجال الاهتمام بعلم الاجتماع ومناهج البحث الاجتماعى، والقيمة التطبيقية لنتائج البحوث والدراسات الاجتماعية منحت علم الاجتماع المعاصر السمة الثقافية العامة من حيث

البناء النظرى والمنهجى والتطبيقى.

ويمثل هذا الفصل إسهاماً فى التعريف بنشأة علم الاجتماع، بالتركيز على جذور هذه النشأة ابتداءً من ابن خلدون وأوجست كونت ومروراً بإسهامات هربرت سبنسر وإميل دوركايم وماكس فيبر فى تطور هذا العلم وتحديد نطاقه الأكاديمى، وانتهاءً بالوضع الراهن لعلم الاجتماع ودوره النقدى باعتبار أن هذا الفصل يعد ضرورة لا غنى عنها فى التعريف بهذا العلم ونشأته وتطوره فى الوقت الراهن.

أولاً: جذور النشأة الأولى لعلم الاجتماع :

إن التأريخ للبدايات الأولى لعلم الاجتماع عملية بالغة الصعوبة، لأن علم الاجتماع ذاته علم قديم حديث، فى ذات الوقت، فهو كتجمعات لها سماتها وعلاقاتها الاجتماعية، ونظمها قديم الجذور، ولكن علم الاجتماع كعلم له أصوله العلمية وفروعه المختلفة حديث منذ القرن التاسع عشر، غير أنه يمكن القول فى هذا الصدد أن علم الاجتماع بتصوراته الحديثة هو تطور طويل المدى، حيث ظهر التفكير الاجتماعى كفرد من الفلسفة التى احتوت كل العلوم فى المراحل الأولى من عمر التفكير البشرى، كما أن النظريات والأفكار التى طرحها مؤسسو علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر لها جذور فى أفكار الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين السابقين ابتداءً من الفكر الإغريقى القديم كما ظهر فى أعمال هيرقليطس، والسوفسطائيون ثم من بعدهم أفلاطون و أرسطو وبخاصة فى كتاب أفلاطون

الذى تكلم عن المدينة الفاضلة Utopia وكذلك كتابه القوانـين الـذى أشـار فيه إلى التطور الاجتماعى Social Evolution بينما كـان أرسطو أكـثر واقعية من أستاذه فى كتابه السياسة الذى تكلم عما نعرفه اليوم بالعمليات الاجتماعيـة Social Processes والظواهـر الاجتماعيـة Social Phenomenan كما أنه صاحب التعريف الشائع بـأن الإنسـان حيـوان أو كائن اجتماعى.

ثم فى العصر الإسلامى وبصفـة خاصـة مفكـروا هـذا العصـر الذيـن كانت لهم معارفهم الموسوعية كابن سيناء الذى كان مفكرا ومؤلفـا سياسـيا وطبيبا وموسيقيا، وفى نفس الوقت فى فكر العلامة العربـى عبـد الرحمـن ابن خلدون، الذى أسس علم جديد سماه علم العمران البشرى تناول كثـيرا من المسائل التى يتناولها اليوم علم الاجتماع. ثم فى الفكـر الاجتمـاعى فـى عصر التنوير الذى كانت من أهم سماته التأكيد على حرية الفكر سواء فـى تصورات فلاسفة العقد الاجتمـاعى أمثـال تومـاس هوبـز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) وجان لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) تبعهم بعد ذلـك جـان جـاك روسـو (١٧١٢ - ١٧٧٨) الذى أسس نظريتـه فـى العقـد الاجتمـاعى علـى أسـاس أخلاقـى، وتصور سان سيمون باعتباره علما مستقلا للأحداث الاجتماعية، لكـن هـذه المحاولات كانت - رغم أهميتها- مجرد مقدمات لقيام العلم [١].

---

(١) ت ، بوتومور ، تمـهيد فـى علـم الاجتمـاع، ترجمـة، محمـد الجوهـرى وآخريـن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ص ٢٩ - ٥١.

لكن مازال موضوع نشأة علم الاجتماع يمثل ميداناً للصراع والخلاف بين المحاولات الرامية لتحديد نشأته وتطورة، فنلاحظ مثلاً أن بعض الباحثين يرون أنه بعد التركيز التاريخى بظهور علم الاجتماعى بوصفه سليلاً للفلسفة (الاجتماعية) يبدأ تاريخه العلمى انطلاقاً من عالم الاجتماع الفرنسى أوجست كونت[٢]. وأراد البعض الآخر أن يرجع الفضل فى نشأة هذا العلم إلى العلامة الإيطالى جيوفانى فيكو Vico (١٧٤٤-١٨٦٨) الذى أراد بكتابه العلم الجديد أن يبين علماً جديداً للإنسان على نحو لم يحاول غيره من قبل، بينما أراد البعض أن يجعل من العلامة البلجيكى كيتليه Quetelet أول منشئ لعلم الاجتماع، ذلك لأنه أشار عام ١٨٣٨م إلى ضرورة دراسة ظواهر الاجتماع دراسة علمية بالدقة نفسها التى تدرس بها العلوم الطبيعية حتى نستطيع أن نكشف عن القوانين الاجتماعية التى بفضلها تنبئنا بما يحتمل وقوعه فى الميدان الاجتماعى، وأن أفضل منهج يحقق لنا هذه الغاية هو المنهج الإحصائى[٣].

بينما ذهب فريقاً آخر إلى القول بأن قيام علم الاجتماع على أساس علم حقيقى يرجع إلى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) الذى يعد المؤسس

---

(٢) عبد الكريم بزاز، علم الاجتماع فى كتب التدريس (تحليل نقدى) المستقبل العربى، مركزدراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ١٤٦، الجزء الرابع، ١٩٩١، ص ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) أنظر على جلبى وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٠ ونيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٨٠ - ٨١.

الحقيقى للعلم الاجتماعى الـذى يكشـف عـن القوانـين الموضوعيـة لحركـة المجتمع البشرى.

كما يـرى البعـض أن هنـاك ثلاثـة مـن العلمـاء البـارزين فـى علـم الاجتماع يرجع إليهم الفضل فى بناء هذا العلم وتطويـز مناهجـه وتعميـق مقولاته النظريـة وهـم كـارل مـاركس، وإميـل دوركـايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) وماكس فيـبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) حيـث درسـوا العـالم الاجتمـاعى كدراسـة العالم الطبيعى بأنه يسير على نمط محدد ويمكن فهمه بطريقة منظمة مـن خـلال اسـتخدام المنـاهج الموضوعيـة للبحـث، فركـز مـاركس علـى أنمــاط الصراع، ودور كايم اهتم بالعمليـات التـى تـؤدى إلى الاسـتقرار أو الثبـات الاجتماعى. أما ماكس فيبر فقد استعان بآراء مـاركس وبحـث فـى أسـباب التكـامل الاجتمـاعي Social Cohesion، فكــانت آراء هــؤلاء العلمــاء متناسبة مع القضايا العامـة التـى كـانت سـائدة فـى مجتمعاتـهم فـى تلـك الفترة [٤].

ويؤكد فريق آخر أن العربى عبد الرحمن بن خلدون الذى ظهر قبل هؤلاء جميعا بخمس قرون، يرجع إليــه الفضـل فـى إنشـاء علـم الاجتمـاع وإقامة دعائمه العلمية على أسس سليمة [٥].

غير أن النظرة إلى نشأة علم الاجتماع باعتباره علما جعل المهتمـين

---

(٤) جهينة العيسى، وكلثم الغانم، مرجع سابق، ص٥.

(٥) Pieter, Weiss, Ibn Khaldun on economic transformation, Middle east studies, Cambridge Uni- press, U.S.A., v. 27, 1995, p.p. 9- 37.

به يرون أن مصدر علم الاجتماع والعلوم الأخرى واحد، وبقدر ما نشأت علوم كثيرة باعتبارها أفكاراً تأملية ومجردة أو من أفكار نظرية فإنه يمكن النظر إلى علم الاجتماع من هذا المنظور نفسه، باعتباره علماً يهتم اهتماماً خاصاً بالناس لزيادة معارفهم عن واقعهم الذى يعيشونه، وتأكيد فهمهم لهذا الواقع من خلال استخدام المنهج العلمى، وعلى هذا النحو فإن الفلسفة الاجتماعية والعلم - كما يؤكد بيتر برجر Berger يعدان الركيزتين الأساسيتين لنشأة علم الاجتماع، فعلم الاجتماع يقوم على اتباع مناهج البحث العلمى من خلال التقصى العلمى المنظم فضلاً عن منظوراته السوسيولوجية الخاصة فى تفسير الحقائق والبيانات الاجتماعية(٦).

وإذا كان القرن التاسع عشر قد شهد ميلاد علم الاجتماع، فإن القرن العشرين قد أخذ على عاتقه رعاية العلم الوليد وتوسيع مجالاته، وفى الواقع لقد تعددت اتجاهات علم الاجتماع فى هذا القرن، وتشعبت مداخله، وأصبح العلم الواحد علوماً كثيرة يركز كل واحد منها بحثه على جانب بعينه من هذا العلم، وعلى أية حال فإن واحداً من أبرز العلماء فى تلك الفترة - بيتريم سوروكين- Sorokin يؤكد هذه الحقية، حيث يبين أن علم الاجتماع الآن يسير فى اتجاهين اتجاه عام، واتجاه خاص، فهو علم عام حين يعالج العالم الاجتماعى الثقافى ككل، وهو علم خاص عندما يركز بحثه على بعض الخصائص والظواهر والعلاقات الاجتماعية الخاصة، فإن علم الاجتماع العام مهمته دراسة الخصائص المشتركة بين

---

(٦) أنظر Berger, P.L., Sociology as a form of consciousness, Op. Cit, p. 17 – 48.

الظواهر الاجتماعية والثقافية، بينما علم الاجتماع الخاص يـهتم بدراسـة هـذه الخصـائص فـى اتجـاه بعينـه كالاتجـاه الاقتصـادى أو السياسـى، أو القانونى أو الدينى أو الحضرى أو الريفى(٧).

لكن هنـاك علـى أيـة حـال خمسـة مـن العلمـاء لا يختلـف أى مـن المشتغلين بعلم الاجتماع مهما كانت ميولـه الخاصـة أو نزعاتـه أو تعصبـه على اعتبارهم بحق الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع وهم:

أ – عبد الرحمن بن خلدون.

ب – أوجست كونت.

جـ– هربرت سبنسر.

د– إميل دوركايم.

هـ– ماكس فيبر.

وهم يغطون – كما يقول اليكس انكلز– فى كتابـه مقدمـة فـى علـم الاجتماع القرن التاسع عشر بأكمله وأوائـل القـرن العشـرين (٨). باسـتثناء عبد الرحمن ابن خلدون الذى ظهر قبل هؤلاء جميعا بخمـس قـرون، كمـا أنهم يمثلون القوميات الرئيسية التى ازدهر فيها علم الاجتماع فـى بدايـة

---

(٧) عبد المنعم محمد بدر، المجتمع الريفى، دراسة مقارنة فى علم الاجتماع، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ١٩٨٤، ص ص ١٥ – ١٦.

(٨) اليكس انكلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة وتقديم محمد الجوهـرى وآخريـن، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٤.

عهده والتى بدأ يتكون فيها تراثه الحديث العرب، وفرنسا، وإنجلترا وألمانيا، كما مارس كل منهم تأثيراً شخصياً عميقاً على تصور علم الاجتماع كميدان من ميادين المعرفة الاجتماعية، وهذا ما سوف نوضحه فى الصفحات القادمة.

ثانياً : ابن خلدون ونشأة علم الاجتماع :

وقبل أن نعرض لإسهامات ابن خلدون فى نشأة علم الاجتماع نلقى الضوء على حياته ومسيرته الذاتية للتعرف على شخصية هذا المفكر العربى العظيم، ولد ابن خلدون بتونس فى ٢٧ مايو عام ١٣٣٢ واسمه عبد الرحمن وكنيته أبو زيد، ولقبه ولى الدين، وشهرته ابن خلدون، ولما بلغ سن التعلم بدأ يحفظ القرآن الكريم وتجويده، وكان أبوه معلمه الأول، وكانت تونس مركز العلماء والأدباء فى بلاد المغرب، وكان من هؤلاء العلماء أساتذة ابن خلدون ومعلموه مع والده ومن بعده، قرأ عليه القرآن وجوده، ودرس عليهم العلوم اللسانية من لغة ونحو وصرف وبلاغة ثم درس المنطق والفلسفة وحظى بإعجاب أساتذته، ولما بلغ الثامنة عشر من عمره وقع الطاعون الجارف مما عاقه عن متابعة دراسته وهاجر معظم العلماء، الأمر الذى كان نتيجته أن تغير مجرى حياته وأخذ يتطلع إلى الوظائف العامة، حيث تولى وظيفة كتابه العلامة، وبعد أن ظل يتقرب إلى السلطان ويقدم ولائه له حتى عينه السلطان فى مجلسه العلمى بفاس، وقد أتيح له هنا أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء، هذا ولم تكن تلك الوظيفة فى بلاط السلطان ترضى مطامحه الكبيرة فتحركت نفسه إلى

خوض غمار الدسائس السياسية ليحقق عـن طريقـها مطامحـه وآمالـه مما عرضه ذلك إلى دخول السجن زهاء عامين طويلين، وكان ابن خلدون نزوعـا إلى المغامرات السياسية يدفعه غمـار السياسـة وكيـد المؤامـرات إلى انتـهاز الفرص وتدبير الوصول إلى المقاصد مـن أى طريـق،وظلت هـذه النزعـة فـى مغامراته السياسية وعلاقاته بالملوك والأمراء منـذ صلتـه بوظـائف الدولـة حتى مماته، ولما وصل ابن خلدون إلى بـلاد الأندلـس عـام ٧٦٦هـ استقبله أميرها استقبالا حفيـا، وتـولى ابـن خلـدون الحجابـة لأمـير بجايـة وكـان منصب الحجابة هو أعلى منصب فى الدولـة وقـد عرفـه ابـن خلـدون بأنـه "يمنح صاحبه الاستقلال فى الدولة والوساطة بين السلطان وأهـل دولتـه لا يشاركه فى ذلك أحد وحينما تولى الأمـير أبـو العبـاس وأقـره فـى منصب الحجابة حينا ثم ما لبث أن ارتاب منه، فتنكر له، ورغـب عـن خدمتـه، فتوجس ابن خلدون خيفة منه وأستأذنه فـى الانصـراف، وبعـد أن أقصـى ابن خلدون عن الأندلس ذهب إلى المغرب ونزل مع أسرته بأحد القصور فـى قلعة ابن سلامة، وقضى ابن خلدون مع أهله ما يقرب من أربعة أعـوام فـى ذلك المقر، نعم أثنائها بالاستقرار والهدوء وتفرغ فيها للدراسة والتـأليف فأخذ يدون مؤلفه التاريخى الشهير (تاريخ العبر) وقدم لهذا ببحـث عـام فى شئون الاجتمـاع الإنسـانى وقوانينـه وهـو البحـث الـذى اشـتهر باسـم "مقدمة ابن خلدون" واستغرق فى كتابتها خمسـة أشـهر فقط، وكـان ابـن خلدون حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ثم سـافر ابـن خلـدون إلى مصر عام ٧٨٤ هـ وكانت القـاهرة يومئـذ موئـل التفكـير الإسـلامى فـى المشرق والمغرب، وكان يأمل ابن خلدون أن ينـال مـن هـذه الديـار الرعايـة

والمكانة بين علماء عصره، وخاصة أن صيته كان قد سبقه إلى القاهرة، وأن المجتمع المصرى كان يعرف الكثير عن شخصيته وسيرته وبحوثه الاجتماعية والتاريخية، ثم تولى منصب قاض قضاة المالكية فى مصر، وهو منصب من أرقى المناصب فى مصر، ثم عين أستاذاً للفقه فى المدرسة الظاهرية البرقوقية ولم يستطع ابن خلدون فى أثناء إقامته الطويلة بمصر التى استغرقت زهاء أربع وعشرين عاماً هجرياً من مراجعة مؤلفه الكبير ومقدمته وفى السادسة والعشرين من رمضان عام (٨٠٥هـ) توفى ابن خلدون فجأة عن ستة وسبعين عاماً[٩].

أما عن أهم إسهامات ابن خلدون فتتضح فى أن ابن خلدون أول من نادى بعلم جديد سماه بعلم العمران أو علم الاجتماع الإنسانى، وقرر بناء عليه أنه لم يسبقه إلى هذا العلم أحد غيره، وأن قوام هذا العلم هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التى تخضع لها، وفى ذلك يقول ابن خلدون نفسه، وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية (القوانين) واحدة بعد الأخرى، وهذا شأن كل علم وضعياً كان أو عقلياً.

وقد عرف ابن خلدون الظواهر الاجتماعية باعتبارها "القواعد والاتجاهات العامة التى يتخذها أفراد المجتمع أساساً لتنظيم شئونهم الجمعية وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض والتى تربطهم

---

(٩) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وشرح عبد الواحد وافى، الجزء الأول، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩، ص ص ٣٣ – ١١٣.

بغيرهم[١٠].

وقد قسم ابن خلدون الظواهر الاجتماعية أقساما متعددة باعتبارات مختلفة لكن أوضحها - مصطفى الخشاب فى قسمين هما: قسم يتعلق بما يسمى ببنية المجتمع أو نظم التكتل. أو ما تسميه مدرسة "دوركايم" بالمورفولوجيا الاجتماعية" وما يتصل بظواهر البدو والحضر، وأصول المدنيات القديمة وتوزيع أفراد الإنسانية على المساحة التى تشغلها النظم التى تسير عليها المجتمعات فى هجرة أفرادها وفى ظواهر التكاثف والتخلخل فى السكان، وكالنظم التى يسير عليها المجتمع فى إنشاء مواطن التجمع كالقرى، والمدن والإحصاء والمساكن والطرق التى يتبعها فى تصميمها وأشكالها ومرافقها ووظائفها ومواقعها.

القسم الآخر، ويتعلق بدراسة النظم العمرانية التى تختلف باختلاف النشاط العمرانى كالظواهر السياسية، والاقتصادية والنظم التربوية والعائلية والأخلاقية والجمالية والدينية واللغوية التى تتعلق بطريقة التفاهم بين أفراد المجتمع[١١].

ويلاحظ على هذه الأقسام التى قدمها ابن خلدون أنها تشتمل على معظم فروع علم الاجتماع ومجالاته بشكله الحديث.

كما أوضح ابن خلدون منهجه فى البحث وطريقته فى عرض

---

(١٠) المرجع السابق، ص ١٨٥.

(١١) مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه، الجزء الأول، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٨، ص ص ١٠٧ - ١٠٨.

الحقائق من خلال اعتماد ابن خلدون فى بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع فى الشعوب التى أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، وعلى تعقب هذه الظواهر فى تاريخ هذه الشعوب نفسها فى العصور السابقة لعصره، وتعقب أشباهها ونظائرها ، فى تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها، والموازنة بين هذه الظواهر جميعاً والتأمل فى مختلف شئونها للوقوف على طبائعها، وعناصرها الذاتية، وصفاتها العرضية، وما تؤدى من وظائف فى حياة الأفراد والجماعات، والعلاقات التى تربطها بعضها ببعض، والعلاقات التى تربطها بما عداها من الظواهر الكونية، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتهاء من هذه الأمور جميعاً إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر فى مختلف شئونها من قوانين . فهو فى بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين هما:

تتمثل الأولى فى الملاحظات الحسية والتاريخية للظواهر الاجتماعية- وتتمثل الأخرى فى العمليات العقلية التى يجريها الباحث على هذه الملاحظات والشواهد التاريخية.

ويصل بفعلها إلى الغرض الذى قصد إليه من هذا العلم وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين (١٢).

أما فيما يتعلق بأهم النتائج التى انتهى إليها ابن خلدون فى علم

---

(١٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

العمران البشرى فيتمثل فيما يلى:

١) تعد الحياة الاجتماعية وكل ما يعرض فيها من حضارة ماديــة وعقليــة فى نظر ابن خلدون موضوع علم الاجتماع.

٢) أن المجتمع الإنسانى أمر طبيعــى وضـرورى، فالإنسـان مدنـى بطبعـه بمعنى أنه لا يستطيع أن يعيش إلا فى مجتمع وسط الناس.

٣) تمثل السلطة ضرورة فى الحفاظ على حياة المجتمع وبقائه واســتمراره ويتجسد قيام السلطة لديه فى قيام الملك.

٤) يعتبر التطور خاصية هامة وأساسية مـن خـواص المجتمـع الإنسـانى، وفى هذا يقول ابن خلدون " أن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تـدوم علـى وتـيرة واحـدة ومنـهاج مسـتقر، إنمـا هـو اختـلاف علـى الأيـام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلـك فـى الأشـخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول.

وقـد اسـتخلص ابـن خلـدون قانونـه الشـهير عـن الأطـوار الثلاثـة للمجتمع الإنسانى مؤداه أن كل مجتمع إنسانى لابـد أن يسـير فـى طريقـه الطبيعى يبدأ بطور النشأة والتكوين، ثم طور النضج والاكتمال وأخيراً طور الهرم والشيخوخة حيث يقوم على أنقاضه مجتمع آخر يسـير فـى المرحـل نفسها التى سار فيها المجتمع السابق.

٥) أوضح الفروق بين المجتمع البدوى والمجتمع الحضرى فى أن المجتمـع البدوى (القبلى) يستند إلى العصبية وأن العصبيـة والفضيلـة والدعـوة

الدينية تعتبر عوامل ديناميكية فى تطوره، وأن الانفراد بالمجد والسلطان والركون إلى السكون والدعة والانتفاع بثمرات الحضارة تعتبر من دعائم المجتمع الحضرى[١٣].

وبرغم أهمية الأفكار التى دعا إليها ابن خلدون وسبقه فى المناداة بعلم جديد لدراسة المجتمع وأهمية المنهج الذى سار عليه إلا أنه تعرض للنقد شأنه فى ذلك شأن أى عالم ينادى بأفكار جديدة ويرسى دعائم علم جديد- حيث أن كثيرا من الأفكار والقوانين التى انتهى إليها ابن خلدون، وخاصة ما تعلق فيها بشئون السياسة والحكم لا تكاد تصدق إلا على الأمم التى لاحظها وهى شعوب العرب والبربر بل لا تصدق على هذه الأمم نفسها إلا فى مرحلة خاصة من مراحل تاريخها وهى المرحلة التى شاهدها وانتهى إليها علمه فالخطأ الذى وقع فيه ابن خلدون فى هذا الصدد يرجع إلى نقص كبير فى استقراء الظواهر، فهو لم يستقرئ الظواهر إلا عند أمم معينة وفى عصور خاصة، وانتهى من هذا الاستقراء الناقص كل النقص إلى أفكار وقوانين ظن أنها عامة تصدق فى كل مجتمع وكل زمان[١٤].

كما يعاب على ابن خلدون أنه لم يحسن لستغلال قواعده المنهجية، ولم يسر فى تطبيقها إلى النهاية كما أن فكرة ابن خلدون عن

---

(١٣) غريب سيد أحمد وآخرون، مدخل إلى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٢٨ - ٢٩.

(١٤) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمه ابن خلدون، وتحقيق وشرح على عبد الواحد وافى، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

المجتمع لم تكن واضحة بشكل كاف ووصفوه بأنه من أنصار المذهب الحيوى Animism وأنه اعتمد فى دراسته لظواهر المجتمعات الإنسانية على دراسة الفرد، وأنه أرجع أسباب الكثير من الظواهر الاجتماعية إلى العوامل البيولوجية.

ثالثا : أوجست كونت وتحديد مسمى علم الاجتماع (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

وقبل أن نعرض لإسهاماته فى نشأة علم الاجتماع نعرض فى البداية لظروف نشأته : ولد كونت Auguste Comte فى أسرة أرستقراطية فى مدينة مونبلييه بفرنسا، ثم التحق بالمدرسة الفنية التكنولوجية فى باريس فى أعقاب الثورة الفرنسية، وعمل سكرتيرا لسان سيمون ومن ثم تعاون معه بشكل وثيق فى وضع نظرية الاشتراكية اليوتوبية (المثالية) وفى عام ١٨٤٨ قام بإنشاء الجمعية الوضعية، أما فلسفته الوضعية فقد ظهرت فى فترة كان يسودها مناخ حاد من عدم الاستقرار السياسى فى فرنسا. ويعد كونت ابن عصر التنوير استمد أفكار من فلاسفة هذا العصر من أمثال تورجو وبوردين وسان سيمون، ولقد كان مثار الاهتمام فى سوسيولوجيا كونت فى بدايتها هو موضوع التقدم الاجتماعى وقد صار كونت بصورة متزايدة يكن التقدير لمفهوم المحافظة على النظام الاجتماعى كنسق للقيم المشتركة، ومن الأعمال الرئيسية لكونت، الفلسفة الوضعية فى ستة مجلدات ١٨٣٠ ونظم الحكم الوضعى فى أربعة مجلدات، والاستاتيكا الاجتماعية والديناميكة الاجتماعية اللذان

يتضمنان مبادئ السوسيولوجية الرئيسية[١٥].

وبإيجاز شديد عاش كونت فترة مد وجزر ثورة وثورة مضادة، وديموقراطية وديكتاتورية، وكلها ولاشك أثرت فى فكره وتصوراته للعلم الوليد موضوعا، وغاية، ولكن ما هى أهم إسهاماته الأساسية فى نشأة علم الاجتماع فى ؟ الواقع يعد أوجست كونت أول من دعا إلى تحديد مسمى علم المجتمع الذى أطلق عليه فى البداية الفيزياء الاجتماعية Social Physics ثم عدل عن ذلك فيما بعد وأسماه علم الاجتماع Sociology، وبرغم أن كونت هو الذى أعطى لعلم الاجتماع اسمه فقد كرس كل جهده فى الدعوة لقيام هذا العلم فاهتم بذلك أكثر من اهتمامه بتحديد موضوع العلم، وكان يشعر أن علم الاجتماع فى أيامه يقف بالنسبة لمستقبله، فى نفس الظروف التى وقف فيها يوما علم التنجيم من علم الفلك، ووقفت فيها الكيمياء القديمة من علم الكيمياء الحديث، وكان يرى أن انفصال علم الاجتماع عن دائرة العلوم الاجتماعية الأخرى لن يكون عمليا ومرغوبا إلا فى المستقبل البعيد أما بالنسبة لعصره فقد كان يرى أنه من المستحيل التعجيل بهذا التقسيم ولهذا لا نجد أوجست كونت قائمة بموضوعات أو فروع علم الاجتماع غير أن أوجست كونت يرى أن موضوع علم الاجتماع ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما:

---

(١٥) ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل الهوارى، وسعيد عبد العزيز مصلوح، مكتبة الفلاح، العين، ١٩٩٤، ١٣٩ - ١٤٢.

الاستاتيكا الاجتماعية Social Static والديناميكا الاجتماعية Social Dynamics [١٦]. وهذا التقسيم مستعار من البيولوجيا، وتهتم الاستاتيكا بدراسة شروط وجود المجتمع، والنظام Order أى أن الاستاتيكا هى نظرية النظام الذى يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الإنسان فى المجتمع، بينما تهتم الديناميكا بدراسة حركة المجتمع المستمرة أو بالأحرى دراسة تتابع المراحل التى يمر بها المجتمع، والتقدم هو الحقيقة الكبرى فى الديناميكا أى أن الديناميكا هى نظرية فى التقدم الاجتماعى تهتم بدراسة النمو الأساسى للمجتمع، وتطوره، لكن النظام والتقدم يرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا فلا يمكن إقامة نظام اجتماعى حقيقى أن لم يكن ملائما للتقدم أو مطابقا له، ولا يكون التقدم المستمر مختلفا إذ لم يظاهره ويسانده نظام، وإذن فالفصل بين الجانبين الاستاتيكى والديناميكى إنما تمليه الأهداف التحليلية فقط[١٧]، أى أن كونت يرى أن أجزاء المجتمع لا يمكن أن تفهم منفصلة عن بعضها كما لو كان لكل منها وجود مستقل، وعلينا بدلا من هذا أن ينظر إليها على اعتبار أنه تربط بينها علاقة متبادلة، وأنها تكون كيانا كليا يفرض علينا تناولها فى علاقتها ببعضها البعض، وقد اعتبر مبدأ التفاعل الاجتماعى الشامل بأنه الفكرة الرئيسية فى اتجاهه كله.

---

(١٦) اليكس انكلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين، مرجع سابق، ص ص ٣٤ - ٣٥.

(١٧) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، مرجع سابق، ص ٥٣.

وينطلـق المنـهج العلمـى عنـد كونـت مـن الفلسـفة الوضعيـة Positivism والتى تعنى الإيجابية أو اتخاذ موقف إيجابى مما هو قـائم فى المجتمع، وليس موقفا نقديا أو رافضـا لهـذه الأوضـاع القائمـة أى أنـه ينظر إلى الواقع القائم بنظرة إيجابية وقبوله على ما هو عليه وهـذا الواقـع هو التنظيم الاجتماعى الرأسمالى القائم على الملكيـة الخاصـة وعلـى الحكـم المطلق. وبالتالى فإنـه جعـل النظـام الاجتمـاعى القـائم هـو وحـدة التحليـل الأساسية(١٨).

وتتكـون قواعـد المنـهج عنـد كونـت مـن الاسـتقراء والملاحظـة، والتجربة والمقارنة، والمنهج التاريخى.

- والملاحظة فى تصوره هى الإدراك المباشر للظاهرة أو الوصف المباشـر للحوادث. وتقوم الملاحظة فى النظر إلى الظواهر على أنـها موضوعـات منعزلـة عنـا وخارجـة عـن ذواتنـا حتـى تستطيع التوصـل إلى نتـائج موضوعية تعبر عن الواقع.
- والتجربة تقوم بمقارنة ظاهرتين متشابهتين فى كـل شـئ ومختلفتـين فى حالة واحدة، وبهذه الطريقة نستطيع أن نعـرف أثـر هـذا العـامل الذى كان سببا فى اختلاف الظاهرتين.
- المقارنـة، تقـوم علـى مقارنـة المجتمعـات الإنسـانية بعضـها ببعـض للوقـوف علـى أوجـه الشـبه والتبـاين بينـهما لتحديـد أسـباب تطـور

---

(١٨) سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص٨٦.

الظواهر بمعدل يفوق غيره من مجتمع آخر أو انتشار طائفة من النظم في مجتمعات دون أخرى.

- المنهج التاريخي، ويقصد به المنهج الذى يكشف عن القوانين الأساسية التى تحكم التطور الاجتماعى للجنس البشرى [١٩]

أما عن أهم النتائج التى انتهى إليها أوجست كونت فتتمثل فى الآتى:

١) اكتشاف قانون عام أسماه " قانون الحالات الثلاث، وملخص هذا القانون أن كل فروع المعرفة قد انتقل التفكير الإنسانى من أسلوب الفهم الدينى الذى يفهم الظاهرة على أساس نسبتها إلى قوى مشخصة خارجة عن الظاهرة نفسها كالآلهة والملائكة إلى أسلوب الفهم الميتافيزيقى أى أن يفهم الظاهرة بنسبتها إلى قوى مبهمة غير مشخصة، وانتهى به الأمر إلى إدراكه على أسلوب الفهم الوضعى الذى يفهم الظاهرة بنسبتها إلى سببها المباشر وإلى القانون الذى تخضع له عن طريق المنهج العلمى[٢٠].

٢) ثم قانون التضامن الاجتماعى وملخص هذا القانون أن مظاهر الحياة الاجتماعية يتضامن بعضها مع بعض، وتسير أعمال كل طائفة منسجمة مع أعمال ما عداها، وتتضافر جميعا على حفظ المجتمع

---

(١٩) مصطفى الخشاب، مرجع سابق، ص ص ١٧٢ – ١٧٥.

(٢٠) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وشرح على عبد الواحد وافى، مرجع سابق، ص ص ٢٢٠– ٢٢٢.

وصيانة حياته، فهى تشبه أجهزة الجسم الحى، إذ يختص كل منها بوظيفة تختلف عن وظيفة ما عداه ولكن تنسجم هذه الوظائف كلها بعضها مع بعض وتتضافر على حفظ الكائن الحى وصيانة حياته.

لكن برغم أهمية القواعد المنهجية له والتى كان لها قيمتها العلمية إلا أنه قد انحرف عن هذا المنهج أثناء دراسته للظواهر الاجتماعية ولم يلتزم به، كما أن أوجست كونت قد أخطا فيما يتعلق بدراسته عن الديناميك الاجتماعى وهو قانون الحالات الثلاثة، وما انتهت إليه دراساته فى الاستاتيك الاجتماعى وهو قانون التضامن، وربما يرجع ذلك إلى أنه لم يحاول أن يلاحظ الوقائع والتاريخ ملاحظة أمينة صادقة، وإنما استوحى مبادئه الفلسفية، مما كان يدين به من آراء فى شئون الكون والتفكير، وقد حاول أن يؤيد هذه الآراء بشكل خاطئ وحال هواه بينه وبين النظر إلى الشواهد الواقعية التى تدل على بطلانها[٢١].

كما أن التسليم بأن مواقف الحياة الاجتماعية تتضامن بعضها مع بعض لا يتفق مع ما نلاحظه فى المجتمعات الإنسانية من قيام تيارات نقدية واتجاهات ثورية يمكن أن تؤدى إلى انهيار النظم الاجتماعية الموجودة.

رابعا: هربرت سبنسر وتحديد موضوع علم الاجتماع (١٨٢٠-١٩٠٣)

وعن حياة سبنسر Spencer، فقد ولد سبنسر فى ديربى ببريطانيا لأب يعمل بالتدريس الخاص، ولم يدخل إلى المدارس الحكومية

---

(٢١) نفس المرجع السابق، ص (٢١)

أو الأهلية للتعلم فيها، إذ كان منتقدا لسياستها وطريقتها فى التربية لهذا علم نفسه بنفسه، وحصل على ثقافة ذاتية ساعدته على التخصص بمواضيع دراسية علمية وأدبية مختلقة، وكان أول من فسر النظرية التطورية تفسيرا علميا وطبقها على علم الاجتماع رغبة منه فى تحويله إلى علم متطور شبيه بالعلوم الطبيعية التى كانت معروفة فى عصره، وقد نشرت مبادؤه الأولى عن النظرية التطورية فى عام ١٨٦٠ وكانت بمثابة الإطار الخارجى للمعرفة الكونية(٢٢) .

وقد عمل سبنسر فى مجال هندسة السكك الحديدية ثم انتقل إلى العمل بالصحافة، وقد أصبح رئيسا لتحرير مجلة الايكونوميست Economist ثم استقال من عمله هذا بعد سنوات قليلة ليعمل كاتبا مستقلا وقد نشر فى عام ١٨٥٠ أول كتاب له بعنوان الاستاتيكا الاجتماعية قدم فيه عرضا تمهيديا لنظرية السوسيولوجية، وقد نشر سلسلة كتب من المبادئ الأولى والتى تتضمن مبادئ علم النفس، وعلم الأخلاق ومبادئ علم الاجتماع، وقد جاء نشر مبادئ علم الاجتماع، مسبوقا بمؤلف مستقل عن دراسة علم الاجتماع.

ويمثل مؤلفه مبادئ علم الاجتماع أول دراسة منهجية شاملة كرسها سبنسر لتناول موضوعات التحليل السوسيولوجى، وقد كان سبنسر أكثر دقة من كونت بكثير فى تحديد الموضوعات أو الميادين الخاصة التى كان يرى أنه يتحتم على علم الاجتماع أن يهتم بها، حيث يقول "يتعين

---

(٢٢) دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٤٠.

على علم الاجتماع أن يصف كيفية ظهور الأجيال المتتابعة فى الوحدات المدروسة ونموها وإعدادها للتعاون، ولذلك يأتى موضوع تطور الأسرة فى المقام الأول، ثم يتعين على علم الاجتماع بعد ذلك أن يصف ويفسر نشأة وتطور التنظيم السياسى، الذى ينظم شئون المجتمع التى تنسق بين أفعال الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع، والتى تفرض عليهم ضوابط معينة فى بعض معاملاتهم مع بعضهم البعض، كما يتعين عليه بالمثل أن يصف تطور الأبنية الكنسية ووظائفها، ونسق الضبط الاجتماعى الذى ينظم الأفعال الصغيرة، كما يجب أن يدرس المراحل التى مر بها القطاع الصناعى فى المجتمع، وكذلك نمو الأبنية التنظيمية التى استطاع ذلك القطاع الصناعى أن يطورها فى داخله" .

وبهذا يتضح أن موضوع علم الاجتماع كما حدده سبنسر يتضمن عناصر مألوفة لنا تماما، حيث أننا لا نجد صعوبة فى أن نتبين الصلة التى تربط موضوع علم الاجتماع كما يحدده علماء الاجتماع المعاصرون بالخطوط العريضة التى حددها سبنسر، حيث أن ميادين علم الاجتماع عنده تتمثل فى دراسة الأسرة، السياسة، الدين، الضبط الاجتماعى، الصناعة ، العمل، وقد ذكر سبنسر فضلا عن هذا الدراسة السوسيولوجية للاتحادات والمجتمعات المحلية، وتقسيم العمل، والتباين، ودراسة الفن والجماليات. كما اعتبر سبنسر المجتمع ككل وحدة التحليل بالنسبة لرجل الاجتماع، وكان يؤكد أنه بالرغم من أن أجزاء المجتمع تمثل وحدات منفصلة متميزة، إلا أنها ليست موجودة في مواقعها بشكل عشوائى، إذ تربط بين هذه الأجزاء "علاقة دائمة" ومثل هذه الحقيقة

تحعل المجتمــع بوصفه كيان كليا لـه معنى يمثـل موضوعـات للبحـث العلمي.

وعلى هذا الأساس كان سبنسر يرى ان على علم الاجتماع ان يقـارن "المجتمعات على اختـلاف أنواعـها والمجتمعـات علـى اختـلاف مراحـل تطورها"[٢٣].

ولكن ما هي قواعد المنـهج عنـد سبنسـر فـى علّم الاجتمـاع. وهنـا يوضح سبنسر أنه لابد من استخدام ثلاث فرق اساسية:

أ – البحث والتنقيب لمعرفة علاقـات التعـايش الـذى نتـابع فيـه الظواهـر الاجتماعية.

ب - المقارنة بين أشكال مختلفة من المجتمعات وبين مجتمعات تنتمى إلى مراحل مختلفة من التطور.

جـ- تحديـد درجـة ارتبـاط السـمات بعضـها بـالبعض كـالحجم والبنــاء والوظيفة[٢٤].

وكان من أهم النتائج التـى توصـل إليـها، المبـدأ التطـورى، والـذى يقوم على تحول المادة من تجانس غير محدد ومفكك إلا لا تجانس مـترابط ومحدد وأكد أن التقدم ليس حتميا فى عمليـة التطـور فقـد تحـدث ظـروف تحول دون تحقيقه.

كما قدم مبدأ آخر وهو المماثلة العضوية وهى نوع من المقابلة بـــين

---

(٢٣) اليكس انكلز مقدمة فى علم الاجتماع. مرجع سابق. ص ص ٣٦ - ٣٧

(٢٤) نيقولا تيماشيف. مرجع. ص ٦٩

المجتمع والكائن الحى لأغـراض معينـة، واعتـبره سبنسـر (المماثلـة بـين المجتمـع والكـائن الحـى) بمثابـة معـبر لإقامـة إطـار مـن الاسـتقراء السوسيولوجى.

ثم قدم أخيرا مبـدأ عـدم التدخـل حيـث رأى ضـرورة عـدم تدخـل الناس فى العمليات الطبيعية التى تجـرى فـى المجتمـع، فقـد كـان يؤمـن بالحرية كغريزة موروثة، بحيـث أن أى تدخـل فـى هـذه الغريـزة سـوف يترتب عليه آثار ضارة، كما آمن بأن الطبيعة تميل إلى التخلف مـن الطـالح وتحتضن الأصلح وتبقيه، وكـان يـرى أن الأصلـح هـو الأعظـم قـوة والأشـد ذكاء، كما آمن بأن الطبيعـة أذكـى مـن الإنسـان وهـى تعـرف إلى أيـن هـى ذاهبة كما تعد مستقبلا للإنسان أفضل.

وبرغـم أن آراء سبنسـر كمـا يقـول تيماشـيف - نظريـة تكامليـة تبحث عن الحقيقة كلها، فقانون التطور قانون كونـى، ولـذا تعـد نظريتـه فلسفية أكثر منها سوسيولوجية، كما أن سبنسر لم يقدم أى شواهد واقعية تؤكد صحة تصنيفه للمجتمعات كما أنه لم يستخدم القواعد المنهجية التـى أكد عليها بالفعل [٢٥].

---

(٢٥) نفس المرجع السابق. ص ٧٨

خامسا : إميل دوركايم وتحديد الوضع المنهجى لعلم الاجتماع (١٨٥٨ - ١٩١٧).

وعن حياته ونشأته، فقد ولد دوركايم **Durkheim** فى ابنيال باللورين، المقاطعة الفرنسية الشرقية وأتى ميلاده لأب من الحاخام اليهودى، الذى أراد لأبنه أن يسير على نهج الأسرة بأن يصبح رجل دين، وقد أراد الابن لنفسه هذا أيضا. ومن ثم درس العبرية وقرأ كتاب العهد القديم، والتلموذ الذى يحوى تعاليم الأحبار الربانيين، وفى الوقت نفسه درس العلوم العلمانية، وسار فى التعليم الحكومى، وبعد محاولتين فاشلتين تم قبوله بالمدرسة العليا ١٨٧٩، ومنها التقى بعدد من الرجال الذين تركوا آثار واضحة على الحياة فى فرنسا، وبعد تخرجه من المدرسة عام ١٨٨٢ اشتغل دوركايم بالتدريس فى المدارس الثانوية فى عام ١٨٨٧ ثم أتيح له أن يذهب إلى ألمانيا فى إجازة علمية وهناك تعرف على فكر فاجنر وغيرهم وتأثر بهم وانعكس ذلك على موقفه الفلسفى سواء فى الفكر الواقع، هذا بالطبع إلى جانب تأثره البالغ بفلاسفة عصر التنوير من أمثال جان جاك روسو، ومونتسكيو وسان سيمون الذى أعده دوركايم أستاذه فى علم الاجتماع [٢٦].

ومن أهم ما أكد عليه دوركايم، محاولته تحديد قضايا علم

(٢٦) عبد الباسط محمد عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٩٨

الاجتماع وموضوعه حيث رأى أن علم الاجتماع هو علم دراسه المجتمعات. كما اهتم بتحديد الظاهرة الاجتماعيه وتشخيصها بوصفها الموضوع الأساسى لعلم الاجتماع وفى هذا الصدد حدد لها عددا من الخصائص التى يفيد التركيز عليها فى معرفة موقفه من المسألة الاجتماعية، فالظاهرة الاجتماعية أولا هى تلقائية بمعنى أن الفرد ليس بصانعها لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد، فنحن نولد ونجد أمامنا مجتمعا كاملا معدا من قبل لا نستطيع أن نغيره إذا أردنا، وعلينا أن نخضع له، وهى ثابتة جبرية وملزمة فليس الفرد حرا طليقا فى اتباع النظام الاجتماعى أو الخروج عليه، فالمجتمع وضع الجزاء لكل من ينحرف بسلوكه عما اقتضته طبيعة الحياة الاجتماعية ونظم المجتمع الذى يعيش فيه، وهى ثالثا، عامة بمعنى أنها لا توجد فى مكان دون آخر ورابعا فالظاهرة الاجتماعية خارجية بمعنى أن لها خواص سابقة على الأفراد ومستقلة عنهم، بحيث يمكن ملاحظتها منفصلة عن الحياة الفردية، بما يمكن من دراستها دراسة موضوعية على أنها أشياء[٢٧].

أما عن القواعد المنهجية عند إميل دوركايم فتتمثل فى النقاط التالية:

أولا: يجب أن نتخلى عن تصوراتنا المسبقة عند ملاحظة الظواهر الاجتماعية. أى أن نتجرد تماما من الأفكار الشائعة والمسيطرة على

---

(٢٧) نفس المرجع السابق، ص ١٠٠

تفكير الرجل العادى .

ثانيا : أن نحدد موضوع كل بحث فى علم الاجتماع بحيث يشمل مجموعة الظواهر التى أمكن تحديدها فى ضوء خواصها الخارجية والعامة.

ثالثا : أن نعتبر الظواهر الاجتماعية مستقلة عن مظاهرها الفردية فى محاولة للكشف عن المظاهر الأكثر استقرارا واستمرارا للعادات الجمعية.

رابعا : أكد على أهمية المنهج المقارن باعتباره المنهج الوحيد الذى يلائم طبيعة الدراسة فى علم الاجتماع، لأن هذا المنهج يكشف لنا العلاقة السببية، لأنه لا يمكن الوقوف على مثل هذه العلاقة إلا بعد مقارنة أكثر من حالة واحدة، كما يعتقد أن لكل نتيجة سببا محددا، فإذا كان للانتحار أكثر من سبب، فمعنى ذلك وجود أكثر من نمط من أنماط الانتحار.

خامسا : كما حاول دوركايم تطوير منجا وظيفيا يلائم دراسة الظواهر الاجتماعية ويفترض هذا المنهج أنه يكفى لتفسير الظواهر الاجتماعية أن تقف على قدرتها على إشباع الرغبات الإنسانية، بمعنى الكشف عن الكيفية التى يسهم بها نظام معين أو ظاهرة اجتماعية بعينها فى تحقيق واستمرار الكيان الاجتماعى [٢٨].

ومن أهم النتائج التى توصل إليها، إن علم الاجتماع يجب أن يصبح

---

(٢٨) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ١٨٠ -١٨٣.

علما وضعيا باعتبار أن الوضعية هى أساس العلم، كما أنه مسلم بمشروعية النظام القائم وهو النظام الرأسمالى القائم على الملكية الخاصة ورأى أنه الأنسب للبشرية جمعاء، كما أكد أن وحدة التحليل الاجتماعى هى الوقائع الاجتماعية، والوقائع الاجتماعية فى نظر دوركايم هى انعكاسات أو تغيرات عن أخلاقيات الجماعة ، والأخلاقيات بالنسبة لدوركايم تشمل المدى المعيارى ابتداء من قواعد السلوك البسيط (الاتيكيت) حتى أكثر العادات الاجتماعية صرامة وشد، ومن النتائج الهامة التى توصل إليها فكرة التضامن الآلى والتضامن العضوى، ورأى أن التنظيم الاجتماعى يتطور من حالة التضامن الآلى إلى التضامن العضوى، كما أنه رأى أن الوقائع الاجتماعية يجب أن تفسر بغيرها من الوقائع الاجتماعية الأخرى وليس بأى حالات سيكولوجية، ومن أهم الأفكار التى قدمها إميل دوركايم التفسير الوظيفى للظواهر وتأكيده على فكرة التوازن والنظام الاجتماعى، إلا أنه أعطى أهمية بالغة للضمير الجمعى جعلت الجماعة حقيقة مطلقة كادت أن تطمس معها كل الإمكانيات الفردية، كما أنه فسر الدين تفسيرا سوسيولوجيا ويتجاهل الطبيعة غير الواقعية للدين [٢٩].

(٢٩) أنظر، سمير أحمد نعيم، مرجع سابق، ص ص ١١٠ – ١١٣.

سادسا : ماكس فيبر وتحديد النطاق الأكاديمى لعلم الاجتماع (١٨٦٤ - ١٩٢٠)

وعن حياته ونشأته، فقد ولد فيبر Waber فى أيرمورت بألمانيا لأب يتمتع بمكانة بارزة كمحام وسياسى ليبرالى، وانتقلت به أسرته عندما كان طفلا إلى برلين، وفى دراسته الجامعية التحقق فيبر بجامعات هايدلبرج، وبرلين، وجوتنجن، حيث درس التاريخ، والقانون والعلوم الاقتصادية وقد حصل على رسالتين للدكتوراه الأولى عن شركات التجارة فى العصور الوسطى والثانية عن التاريخ الزراعى لروما القديمة وكانت أول مناصبه أستاذ كرسى فى العلوم الاقتصادية، وفى عام ١٩٠٤ ظهرت مقالته الطويلة الذائعة الصيت عن الأخلاقيات البروتستانية وروح الرأسمالية، وفى عام ١٩١٠ كتب كتابه الاقتصاد والمجتمع، وفى عام ١٩١٩ تولى منصب أستاذ كرسى فى السوسيولوجيا بجامعة ميونخ،وقد استطاع فيبر أن يحقق لنفسه مكانة رفيعة بين علماء الاجتماع الألمان خلال حياته، ثم بعد وفاته حيث استمرت حلقة فيبر التى كان محورها أرملته ماريان، وشقيقة الفرد فيبر وزميله أرنست ترويليتش. ويمكن القول أن أعظم الإنجازات التى حققها فيبر تكمن فى دراساته المقارنة والتاريخية عن المؤسسات الاجتماعية [٣٠].

وقد عرف ماكس فيبر علم الاجتماع بوصفه علما يكرس جهوده

---

(٣٠) ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٧٥٨ – ٧٦٠.

للوصول إلى فهم تفسيرى للفعل الاجتماعى Social Action أسبابه ومصاحباته، ويعرف الفعل بوصفه نتاجا للمعنى الذاتى الذى يخلعه الأفراد على سلوكهم سواء كان هذا المعنى واضحا أو كامنا، ويعد الفعل اجتماعيا بالقدر الذى يضع فيه الفاعل سلوك الآخرين فى حسبانه توجها وتصرفا [٣١].

وعلى هذا فإن وحدة التحليل الأساسية عند فيبر هى الفعل الاجتماعى النموذجى، ومن أهم ما أكد عليه ماكس فيبر هو الكشف عن أثر الأفكار الدينية على الأنشطة الاقتصادية، وتحليل العلاقة بين التدرج الاجتماعى والأفكار الدينية وتحديد وتفسير السمات المميزة للحضارة الغربية.

وكان من أعظم إنجازات ماكس فيبر هو استخدام النموذج المثالى Ideal Type باعتباره أداة أو وسيلة لتحليل الأحداث التاريخية الملموسة والمواقف، ومن النماذج المثالية الشهيرة عنده النماذج المثالية لأنماط السلطة الشرعية، يرتكز كل منها على شكل محدد من الشرعية، فهناك سلطة تقوم على أساس عقلى رشيد الذى يكون مصدرها قواعد موضوعية وغير شخصية.

وهناك السلطة التقليدية التى ترتكز على الاعتقاد فى قدسية التقاليد وشرعية المكانة التى يحتلها الأفراد بالاستناد إلى التقاليد. وهناك

---

(٣١) عبد الباسط محمد عبد المعطى، مرجع سابق، ص ١١٢.

أخيرا السلطة الملهمة أو الروحية Charismatic التى تعتمد على الولاء المطلق لقدسية معينة استثنائية مثل البطولة. فضلا عن ذلك أنه أسهم فى توضيح الدور الهام الذى تلعبه القيم فى الحياة الاجتماعية فى الوقت الذى ظل يؤكد ضرورة أن تظل العلوم الاجتماعية متحررة من القيمة، كما أنه أسهم بشكل كبير فى فهم السببية الاجتماعية وارتباطها بمشكلة المعنى فى الموضوعات الإنسانية.

أما فيما يتعلق بالمنهج الخاص الذى كرس جهده فى المناداة به والذى اسماه منهج الفهم Verstehen على مستوى المعنى، والذى يرتكز على الحقيقة التى مؤداها "أن الكائنات البشرية تكون على وعى مباشر وإدراك تام ببناء الأفعال الإنسانية، ففى دراسة الجماعات الاجتماعية مثلا نستطيع أن نفهم الأفعال والمقاصد الذاتية للفاعلين الذين يمثلون أعضاء الجماعات والفهم فى العلوم الاجتماعية يختلف عن العلوم الطبيعية، ففى العلوم الاجتماعية يعتمد الفهم على المعانى الداخلية بينما الفهم فى العلوم الطبيعية عادة ما يتم فقط من الخارج، ويتحقق الفهم على مستوى المعنى بطريقتين:

الأولى: تتمثل فى الفهم الذى يرتكز على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتى، والذى ينطوى على فعل يأتيه شخص آخر، فنحن نفهم ما الذى يعنيه شخص يقول ٢ × ٢ = ٤، ونحن نفهم أيضا المعنى الذاتى للأفعال غير العقلية كما يمكننا أن نفهم المعنى الذى يكمن وراء تصويب إنسان بندقيته

لصيد حيوان، فهذه المعانى جميعا نستطيع أن ندركها لأننا على وعى وإدراك بالمقاصد الذاتية التى ترتبط بالأفعال المماثلة التى تصدر عنا.

الصورة الثانية: للفهم فهى الدافع Motive فإننا نستطيع من خلال المشاركة العاطفية أو التقمص الوجدانى أن نفهم السياق العاطفى الذى تم داخل الفعل.

وبالتالى فإن التفسير السيوسيولوجى يجب أن يكون له معنى ذاتى، فى الوقت الذى يكون فيه ممكنا من الناحية الواقعية [٣٢].

وبرغم أن ماكس فيبر يعتبر مفكرا بارزا وقدم إنجازات كبيرة فى علم الاجتماع ساعدت على تحديد النطاق الأكاديمى لهذا العلم إلا أن أعماله كما يقول تيماشيف ليست سوسيولوجية بالمعنى الدقيق ولكنها تنتمى إلى العلوم الاجتماعية بعامة، أما الموضوعات التى ناقشها فيبر مناقشة سوسيولوجية خالصة، فكانت موضوعات قليلة أهمها البيروقراطية ، والدين، وعلم الاجتماع القانونى، تلك الموضوعات التى أصبحت فيما بعد فروعا لعلم الاجتماع العام[٣٣] . كما أنه حاول إكساب علم الاجتماع بعض الخصائص والركائز العلمية من خلال بلورة وتنمية عدد من المفهومات كالمكانة والسلطة والقوة وقضايا التنظيم الاجتماعى التى عبرت وأشبعت بعض حاجات المشروع الرأسمالى بوصفه تنظيما

---

(٣٢) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ٢٥٤ - ٢٧٦.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٢٧٧.

كبيرا، هذا بجانب إسهاماته فى مسائل المنهج والأساليب البحثية.

نشأة علم الاجتماع بين ابن خلدون و مفكرى الغرب:

يهمنا أن نوضح بعد هذه الإطلالة السريعة لإسهامات كل من عبد الرحمن بن خلدون، وأوجست كونت، وهربرت سبنسر و إميل دوركايم، وماكس فيبر فى إنشاء علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية ترمى إلى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر والقوانين التى تخضع لها . مستخلصين بعض القضايا الأساسية فى نشأة هذا العلم.

(١) أن ابن خلدون يعد بحق أول من نادى بإنشاء علم جديد لدراسة المجتمع سماه علم العمران البشرى لأنه سبق رواد علم الاجتماع الغربى بفترة لا تقل عن أربعة قرون من الزمان.

(٢) أن رواد علم الاجتماع ابتداء من ابن خلدون وحتى ماكس فيبر تكشف عن حدوث نقلة من تأثر الفكر النظرى الاجتماعى بالأيديولوجيات والأفكار السائدة، إلى صوغ نظريات ذات مضمونات ايديولوجية تبرر مصالح بعينها وتدافع عنها وتستدعى من بعض معطيات الواقع وشواهده أدلة على توجهاتها ، فإن كان ابن خلدون قد تأثر بمجمل الظروف التى أحاطت به، فإن دوركايم وفيبر ومن قبلهما "كونت" ارادوا جميعا التنظير لصعود الرأسمالية الأوروبية، التى هى جوهر المشروع الرأسمالى،الأمر الذى جعل بعضهم مثل ماكس فيبر يغالى فى الأبعاد الذاتية والمسائل المرتبطة بالمشاعر، وما إليها فجعل علم الاجتماع نسقا فكريا أقرب إلى علم النفس منه إلى علم

الاجتماع.

(٣) يلاحظ أن معظم رواد علم الاجتماع ابتداء من ابن خلدون حتى ماكس فيبر أكدوا على الدور المحافظ لعلم الاجتماع وأنه يجب الدفاع عن المجتمع وتوازنه دون حدوث أى اضطرابات أو انهيار له.

(٤) كما نلاحظ أيضا أن جميع الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع يتفقون بأن المجتمع ككل هو الوحدة الأساسية للتحليل السيوسيولوجى وأن يقوم علم الاجتماع بالتالى بمهمة تفسير أسباب أوجه الشبه والاختلاف بين المجتمعات الإنسانية .

سابعا: الوضع الراهن لعلم الاجتماع ودوره النقدى:

لقد اعتبر علم الاجتماع منذ نشأته الأولى "المجتمع" موضوعا له، وما يرتبط بهذا المجتمع من ظواهر ومشكلات. وتطورت اهتمامات هذا العلم من الدراسات الوضعية المحافظة التى تتمثل فى إصلاح النظام الاجتماعى والمحافظة عليه إلى الدراسات الثورية التى تتمثل فى تغيير المجتمع تغييرا جذريا وظل علم الاجتماع يهتم اهتماما شديدا بالدراسات الأمبريقية والتجارب الاجتماعية المختلفة دون أن يصاحبه اهتماما مماثلا بإقامة نظريات تفسيرية ملائمة، ومن يتأمل التراث الغربى الحديث فى علم الاجتماع (وعلى وجه الخصوص فى الولايات المتحدة الأمريكية) يلاحظ على الفور أن تصميم الإجراءات المنهجية أصبح هدفا فى حد ذاته لا وسيلة لتحقيق أهداف أبعد وكان من نتيجة ذلك أن أحرز علماء الاجتماع

تقدما ملحوظا فى مجالات تصميم البحوث واختيار العينات وأساليب التحليل الإحصائى وتعدد المناهج فى علم الاجتماع، مما جعل أحد علماء الاجتماع (وهو هنرى بوان كاريه) يؤكد أن علم الاجتماع يضم أكبر عدد من المناهج وأقل عدد من النتائج [٣٤].

وفى ظل سيطرة النزعة الأمبريقية الفجة على علم الاجتماع (الغربى) نلاحظ ميلا واضحا لدى علماء الاجتماع نحو استخدام هذا العلم فى أغراض الإصلاح الاجتماعى، وهنا نلمس رفضا شديدا لمفاهيم كالاشتراكية وتأكيد متزايد للحبكة المنهجية وسعيا حثيثا لاكتساب علم الاجتماع طابعا مهنيا خاليا من أية تحيزات أو تصورات قبلية، ولقد صاحب النزعة الأمبريقية فى علم الاجتماع الغربى نزعة تطبيقية تسعى إلى تطبيق نتائج دراساته وبحوثه على الواقع الاجتماعى، وكنتيجة لذلك ازداد عدد المشتغلين بعلم الاجتماع، وتدعم ارتباطهم بالصفوات الحاكمة، وكان من نتيجة ذلك تحول الاهتمام من الدراسات الأكاديمية الخالصة إلى البحوث التطبيقية (البحتة) وكان من نتائج ذلك إهمال بعض ميادين علم الاجتماع (كالنظرية الاجتماعية، وتاريخ الفكر الاجتماعى، وعلم الاجتماع الدينى، والتربوى، والاقتصادى، الخ). فى الوقت الذى تطورت فيه المسوح والدراسات الميدانية فى مجالات ضيقة. (كالاتصال، والتأثير،

---

(٣٤) انظر محمد ياسر الخواجة، البحث الاجتماعى (أسس منهجية وتطبيقات عملية) دار المصطفى للطباعة والكمبيوتر، طنطا، ٢٠٠١م، ص٩.

والقيادة، والسلوك التنظيمى).

ولعل من أهم النتائج المترتبة على ذلك كله اكتساب علم الاجتماع الغربى لنزعة علمية مغالية Scientism [٣٥].

خاصة وأن الاتجاه الأمبريقى ظهر كرد فعل معاكس للتأثير الذى فرضته الميول الأيديولوجية عل علم الاجتماع الغربى وما أسفر عنه من تصورات ومقولات مناقضة فى أحيان كثيرة للواقع الاجتماعى ، ولقد حاول هؤلاء عن طريق الالتزام الكلى بقواعد المنهج العلمى والموضوعية كمبدأ يعمل من خلاله فى التحرر من الطابع الأيديولوجى الذى طبع النظريات الاجتماعية، وظنوا أنهم بالتزامهم بمبدأ الموضوعية والدقة المنهجية سيتمكنون من الفصل بين العلم والسياسة، إلا أن النتيجة كانت فى النهاية غير محبذة، حيث عجزت دراساتهم الأمبريقية عن تقديم تفسيرات عامة ترقى إلى مستوى النظريات العلمية.

وبعد أن فشل كلا الاتجاهين النظرى والأمبريقىّ فى الفصل بين العلم والسياسة اتسع نطاق الحركة النقدية فى علم الاجتماع، وكانت مدرسة فرانكفورت أول مدرسة بدأت بمراجعة التراث النظرى السوسيولوجى وخصوصا التراث الماركسى. حيث يرى أنصار مدرسة

---

(٣٥) السيد الحسينى، نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع (دراسة فى مشكلات النظرية والمنهج) فى مقدمة كتاب أليكس انكلز، مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين، مرجع سابق، ص ص ١٠-١٢.

فرانكفورت (هوركهيمر، وأدرنو، هابرماس، وماركيوز) أن النزعة الوضعية فى علم الاجتماع تنطلق من محاولة إثبات علمية هذا العلم، وذلك بمحاولة الاقتراب به منهجيا من العلوم الطبيعية، ومحاولة تشبيه الظواهر الاجتماعية بالظواهر الطبيعية هذه المحاولة قادت علم الاجتماع الوضعى إلى الابتعاد عن الفلسفة والتقرب إلى العلم الوضعى، فمعالجة الوضعية لوظيفة علم الاجتماع وقصرها عن التعبير عن الواقع الاجتماعى بصورة علمية عن طريق الوصف ترفضه مدرسة فرانكفورت وتقدم بديلا عنه، فيقرر أصحاب هذه المدرسة بأن معالجة الواقع الاجتماعى لابد وأن تتعدى الوصف الكمى للظاهرة الاجتماعية فى وضعها الراهن، بل يجب العمل على تحرير الإنسان من حالة الاغتراب الذى أسهمت فيها أساليب السيطرة التكنولوجية بمعنى أن هابرماس يدعو إلى ضرورة تفسير الواقع الاجتماعى فى ضوء قضية تحرير الفرد الباحث من كل القيود التى من شأنها أن تحد من التحليل التفسيرى.

كما وجه هابرماس نقده إلى النظرية الاجتماعية الداعية إلى ضرورة التزام الباحث بمهمة الوصف الكمى دون التفسير حيث أن التفسير من وجهة نظر الوضعية يؤدى إلى الأحكام القيمية التى هى فى جوهرها – كما تدعى الوضعية– غير علمية، ولذا وجه هابرماس نقده الذى مؤداه أن عملية التفرقة بين الحقيقة والقيمة، الوصف والتقييم،العلم والنقد، فى مجال علم الاجتماع إنما هى عملية لا تقود فى الواقع إلى إثبات علمية علم الاجتماع بقدر ما تبعده عن هذه الصفة، فكل من العلم وعملية النقد أو

وصف الواقع وتقييمه يرتبطا أشد الارتباط كل منهم بالآخر، بل أنه يؤكد أن هذه التفرقة المتعمدة لا تتفق مع المقولات الفكرية للنظرية النقدية [٣٦].

وقد لاقت مدرسة فرانكفورت النقدية انتشارا كبيرا فقد أصبحت بين ليلة وضحاها فى الستينيات والسبعينيات سواء فى التفكير السياسى أو التفكير الاجتماعى الأكاديمى لكن فى الواقع أن أعمال مدرسة فرانكفورت قد تعرضت للنقد من اتجاهين رئيسيين: من أولئك الذين يدعونهم بعلماء الاجتماع الوضعيين ومن الماركسيين، وكان أساس النقد من كلا الفريقين أن النظرية النقدية تأمل فارغ وليس لها أساس صلب فى الواقع، ولا يمكن إخضاعها للاختبار التجريبى وفقا لمتغير مستقل، وهى غالبا مصاغة بمصطلحات غامضة عمدا لا تعبر عن أصالة فى الفكر أو صعوبة فى المسائل المتناولة، وإذا ما نظرنا إلى مدرسة فرانكفورت فى مستواها الأكثر تجريدا والأكثر نفعا وقيمة على ضوء أفكار اتجاه ما بعد الحداثة فإنها تؤكد على ضرورة التوصل إلى نوع من الفهم النقدى لما يجرى حولنا، والبدء بالتفكير بصيغة التغيير. وهى ترى أنه من الضرورى إلقاء نظرة فاحصة على كل من البنية الاجتماعية، والفعل الإنسانى لدمج الاثنين معا، بطريقة تؤدى إلى ممارسة النقد العملى المفضى إلى التغيير الاجتماعى أو إلى فهم الوضع الحالى فهما كاملا [٣٧].

---

(٣٦) شادية على قناوى، المشكلات الاجتماعية، وإشكالية اغتراب علم الاجتماع، رؤية من العلم الثالث، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٨، ص ١٣٦ – ١٣٨.

لذا فقد تصور بورديو Bourdieu الذى عبر بوضوح عن مهمة علم الاجتماع ومقصده فى أنه المعرفة التى تكشف النقابات عن الصراعات، والمصالح والرهانات، وهى ليست فقط مصالح الحاكمين بل أيضا مصالح ومكانات رجال المعرفة أنفسهم، بمعنى آخر تنحصر مهمة علم الاجتماع فى الكشف عما هو خفى وعن اللامعقول، أنه علم نقدى، علم يزعج.

ولكون علم الاجتماع يتمظهر بهذه الصفة، فكانت أول مواجهة مع الأيديولوجيات حول التشكيك فى حدود علميته، فالبعض شكك فى إمكانية وجود موضوع محدد له، والبعض الآخر يتساءل حول مصداقية مناهجه لأنها لا تتجاوز بحسب آرائهم والمحاولات الفلسفة الأدبية؛ الأمر الذى جعل علم الاجتماع يستعير المناهج الكمية محاولا بذلك الاقتراب من دقة العلوم الدقيقة (فيزياء - كيمياء - رياضيات) وهذه مقاربة مخادعة لأن الحكم على العلوم الاجتماعية من خلال المناهج المستعملة فى العلوم الطبيعية يغالى فى علميتها ، لأن علمية العلوم الدقيقة نفسها التى يظن أنها اكتملت تطرح من جديد أو يعاد النظر فيها، بمعنى آخر أن هذه الانتقادات التى اعتمدتها الأيديولوجية الليبرالية ليس الهدف منها إثبات العلمية بقدر ما تهدف إلى إخفاء حقائق

---

(٣٧) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، مراجعة محمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت، العدد ٢٤٤، إبريل، ١٩٩٩، ص

اجتماعية وراء أرقام وقياسات، وأعمال المدرسة الكمية فى علم الاجتماع خير شاهد على ذلك[٣٨].

لكن يرى رايت ميلز Mills زعيم النقديين فى علم الاجتماع المعاصر أن أزمة علم الاجتماع الغربى ترجع إلى التصورات الخاطئة للعلم نفسه، فالمفهوم الاجتماعى كما ذهب ميلز لابد أن يكون فكرة ذات مضمون أمبريقى (اختبارى) فإذا كان هذا المضمون أكبر من الفكرة تردى علم الاجتماع وسقط فى التيار الأمبريقى التجزيئى وإذا كانت الفكرة أوسع من المضمون الأمبريقى – الشواهد البحثية– وقع علم الاجتماع فى شرك علم المجردات فى النظريات الكبرى ثم يواصل نقده التفصيلى لكلتا النزعتين : فالإمبريقية التجزيئية التى تغفل دور النظريات فى توجيه البحث وتحديد رؤياه تهتم بالأساليب البحثية الفنية المحدودة أكثر من الاهتمام ببلورة موضوع البحث وصوغ مشكلاته صوغا علميا واضحا، الأمر الذى جعل أنصار هذا الاتجاه يجمعون أكواما من البيانات والمؤشرات التى تستخدم لتبرير الواقع والنظام القائم، وفى المقابل يبتعد أنصار النظريات الكبرى – الوظيفية خاصة – عن الواقع بالتحليق فى أمور مجردة وقضايا غامضة بدلا من البحث فى المشكلات الاجتماعية الأساسية داخل سياقها البنائى التاريخى. ويدلل ميلز على ذلك فى تعليقه على إبراز روادها وهو تالكوت بارسونز الذى قدم عمله "النسق الاجتماعى" Social System

---

(٣٨) عبد الرازق جلالى، علم الاجتماع بين الالتزام والآدانية، مرجع سابق، ص ٨٤.

الذى رأى أنه ما هو إلا تجريدات غامضة بنسبة (٥٠٪) منـها لغـو كـلام، (٤٠٪) بديـهيات شـائعة فـى علـم الاجتمـاع و (١٠٪) يتضمـن محتويـات أيديولوجيـة توضـح توجـس صاحبـها بـالرغم مـن غموضـها المتعمـد هــى الأخرى [٣٩].

لذا فإن ميلز يرى أن علم الاجتماع يجب أن يهتم بالتحليل البنائى التـاريخى والاهتمـام بالمشـكلات الوثيقـة الصلـة بالقضايـا العامـة وبالاضطرابـات الإنسـانية الدائمـة [٤٠]. فضـلا عـن الاسـتجابة للتطـورات والتحولات التى يشهدها العـالم المعـاصر، ولاشـك أن تحقيـق هـذه المهمـة بنجاح يضمن لعلم الاجتماع الخروج من الأزمات القاسية والحلقات المفرغة التى ظل يدور فيها منذ مطلع القرن العشرين، ولعل أحد النتـائج المترتبـة علـى ذلـك اتسـاع مجـالات اهتمـام علـم الاجتمـاع وقدرتـه علـى مواجهـة المشكلات العامة، وإذا كان علم الاجتماع قد أحرز تقدما ملحوظـا فـى فـهم مشكلات الفرد والجماعة الصغيرة، فـإن عليـه أن يثبـت كفاءتـه فـى فـهم المشكلات العالمية ومواجهة الصراعات الدوليـة، وهـذا يتطلـب تبنـى آفـاق سوسـيولوجية أوسـع وأرحـب ، ، والتخلـى عـن الاهتمـام بالمشـكلات المحدودة أو الجزئية، ولا شـك أن هنـاك قضايـا كـبرى تسـتأهل الاهتمـام الشديد من جانب علماء الاجتماع المحدثين من ذلك مثلا مشكلات الوحـدة

---

(٣٩) عبد الباسط محمد عبد المعطى، مرجع سابق، ص ص ٢٥٤ – ٢٥٥.

(٤٠) Mills, W., The Sociological Imagination, Op. Cit., p. 16.

الوطنية والارتباط بالنظام العالمى المعاصر، ومصير القيم الديموقراطية فى هذه الحقبة التى تسيطر عليها التكنولوجيا، مثل هذه المشكلات التى قد تبدو عامة جدا، هى فى الحقيقة من صميم عمل علم الاجتماع.

ومن المحاولات الهامة التى ظهرت خلال السنوات الأخيرة لسد الفجوة الهائلة التى تفصل النظريات المجردة فى علم الاجتماع عن الشواهد الأمبريقية ما أطلق عليه روبرت ميرتون Merton بالنظرية المتوسطة المدى، غير أن النجاح الذى حققته هذه النظريات كان محدودا للغاية فإذا كانت قد تفادت المشكلات الناجمة عن التعميمات المجردة، وإذا كانت قد تجنبت الثغرات الكامنة فى نظرية الجماعة الصغيرة، إلا أنها قد أحاطت موضوعات علم الاجتماع بغموض شديد و أبعدته عن إدراك المشكلات الحقيقة[٤١]. وبالتالى فإن على علم الاجتماع الحديث أن يدرس المشكلات والقضايا العامة التى تواجه مجتمعاتنا المعاصرة، من ذلك مثلا المشكلات الناتجة عن العولمة ومدى تأثير العولمة على البلدان النامية وقضايا الصراع الدولى، ومشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى دول العالم النامى، فإن دراسة هذه المشكلات وتلك القضايا هى من صميم مهمة عالم الاجتماع.

---

(٤١) السيد الحسينى، مرجع سابق، ص ص ١٦ - ٢٤.

ثامنا: الخاتمة :

وهكذا يتضح أن نشأة علم الاجتماع كفرع معرفى متميز، قد نما فى قطيعة تامة منذ الفكر الخلدونى، هذا الفكر الذى قدمه عبد الرحمن ابن خلدون ودعا إلى إنشاء علم جديد سماه علم العمران وقدم أفكارا هامة فى دراسة الظواهر الاجتماعية، وتحديد موضوع علم الاجتماع، ومناهج دراسته، ثم حاول أوجست كونت الذى أطلق مسمى هذا العلم، والذى حدد نطاق علم الاجتماع فى دراسة المجتمع وبخاصة فى موضوعين أساسيين هما: الاستاتيكا (النظام) والديناميكا (التقدم) ونادى بضرورة قيام علم الاجتماع على فكر الفلسفة الوضعية ثم ساهم بعد ذلك رواد علماء الاجتماع الكلاسيكيين فى ترسيخ دعائم هذا العلم من أمثال هربرت سبنسر وإميل دوركايم وماكس فيبر، لكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو كيف أن العلم الذى أراده ابن خلدون وأوجست كونت تتويجا للعلوم التى وصل إليها الإنسان أصبح علما فى آخر القائمة، مهمش علميا، ومنتقص اجتماعيا وسياسيا ؟

ويبدو أن هذا الموضع المهمش قد بدا – كما أوضح التحليل السابق– من خلال فشل الوضعية الكلاسيكية فى فهم الواقع الأوروبى بسبب نزعتها المحافظة، كما أن الوضعية المحدثة لم تستطع هى الأخرى فهم حركة المجتمع بسبب تبنيها المطلق لنموذج العلم الطبيعى، كما أن الوظيفية تعرضت لانتقادات حادة بسبب نزعتها المحافظة وعجزها عن فهم الحركة التاريخية للمجتمعات، كما أن التيارات النقدية تعرضت

لانتقادات باعتبارها تعانى من مفاهيم مجردة وغامضة وتستند على أسس جدلية تأملية لكن أيا كان تشخيص الأزمة التى يعانى منها علم الاجتماع الحديث فإننا نعتقد مع ما ذهب إليه أحد الباحثين - أحمد زايد - يرجع إلى عجز علماء الاجتماع عن تفسير الأحداث تفسيرا مقنعا سواء على المستوى السوسيولوجى المحدود أو المستوى المجتمعى العام.

ومن الطبيعى أن تنعكس هذه الأزمة على علم الاجتماع فى الدول النامية ووضعه الضعيف فى المجتمعات العربية، خاصة فى ظل الدور الهامشى لعلماء الاجتماع فى الوطن العربى وانضمام معظمهم إلى جانب السلطة فضلا عن الدور الخدمى للبحث الاجتماعى الذى يقوم على تقديم بيانات اجتماعية جزئية مقترحة من قبل مراكز البحث التقنية الوزارية أو مراكز البحث الأكاديمية والجامعية، حتى أصبح دور علم الاجتماع فى الوطن العربى لا يتعدى أسوار الجامعات التى يدرس فيها فضلا على أن أغلب مؤلفات علم الاجتماع وأبحاثه - إن لم يكن معظمها- تعتمد على الإنتاجات الغربية فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا، والواقع أن بقاء علم الاجتماع فى الدول العربية على وضعه الحالى لا نقديا ولا نفعيا، سوف يؤدى إلى تهميش دوره خاصة مع استيراد نظريات واستهلاكها فى قالب معرب خاصة عندما يكون مشوها، يؤدى حتما إلى التجزئة، وإلى تكريس التبعية وإلى تزييف الوعى، وبالتالى فإن تطوير علم الاجتماع لا يكمن فى تعريبه أو الإسراع فى وضع علم اجتماعه عربى إنما المطلوب خلق تراث نظرى جديد نابع من دراسة للواقع العربى ومشكلاته وقضاياه برؤية سوسيولوجية لها خصوصيتها الذاتية والابتعاد عن الاستيراد الأعمى للنظريات السوسيولوجية الغربية .

الفصل الثالث

"أهم الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع"

- مقدمة
- ١- مفهوم النظرية الاجتماعية
- ٢- النظرية البنائية الوظيفية
- ٣- النظرية المادية التاريخية
- ٤- النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)
- ٥- النظرية التفاعلية الرمزية
- ٦- نظرية التبادل
- ٧- المنظور الظاهراتى (الفينومينولوجى)
- ٨- الخاتمة

مقدمة :

نحاول فى هذا الفصل أن نوضح أهـم الاتجاهـات النظريـة الكـبرى فى علم الاجتماع ، وما هى القضايا النظرية التى تستند إليـها الاتجاهـات النظرية الأساسية فى علم الاجتماع ، وما هى المفـاهيم المسـتخدمة فـى كـل اتجاه ؟ وما هى القواعد أو الطرق المنهجية التى استخدمها كل اتجاه علـى حدة ؟ لكن قبل ذلك كله لا بد أن نوضح مـاذا يقصد بكلمـة نظريـة ؟ تلـك الكلمة التى تثير الغموض واللبـس ، فالكثـير مـن النظريـات الاجتماعيـة الحديثة عصية على الفهم أو مبتذلـة أو لا معنـى لهـا . ولا يشـعر القـارئ المبتدئ أو المتخصص بأنه يتعلم جديداً أو أنه يتعلـم شيئاً جديـداً ، فضـلاً على أنه لا يشعر بالمتعة . لذلك فالنظرية تحتاج مـن المتخصصـين والعلمـاء إلى جهد معين للحصول على فهم متواضع ، وما أقل من يألفون النظريــة أو يستخدمونها بطريقة مثمرة .

لكن فالحق أن النظرية هـى البوصلـة التـى توجـه البحـث وتـثرى تحليل البيانات وتفسيرها ، كما أن اللجوء إلى النظرية لا يتعلـق بـالبحث الاجتماعى وحده بل أنها تساعدنا على فهم مـا يجـرى لنـا وللآخريـن مـن حولنا أو تلك النابعة من خياراتنا الأخلاقية والسياسية .

لكن فى الواقع أن الباحث الذى يقدم على الكتابة حول النظرية فى علم الاجتماع يواجه منـذ البدايـة بحشـد هـائل مـن الآراء والاتجاهـات لا المختلفة والمتباينة فحسب بل والمتضاربة أيضاً ، وتكون أصعب مهمة يقـوم بها الباحث هو البحث عن نقاط الاتفاق بين علماء الاجتماع ، لكن لا يعنى

أن هذه النظريات مختلفة أو متعارضة بالضرورة إذ أنها تؤدى إلى نتائج وتعميمات مختلفة ومتباينة ، وإنما هى تدرس ظاهرة متعددة الجوانب ، فلكل من هذه الاتجاهات النظرية يقدم تحليلات ذات صلة قوية بشؤون وأوضاع المجتمع الإنسانى ، فعملية الاتفاق أو الاختلاف والصراع ظاهرتان أساسيتان فى هذا النوع من المجتمعات ، ولذلك نجد أنها مجتمعات لا تخضع لعوامل الاستقرار بشكل مستمر ولا لعوامل الصراع بصورة دائمة ، فقد يدوم الاستقرار طويلاً ولكن مرده إلى تغير قد يتم بصورة طبيعية أو بصورة عنيفة ، كما أن فهم الظواهر الاجتماعية من خلال ما نرمز إليه فى أذهاننا وما نصطلح عليه فى لغاتنا وإشاراتنا أمر له أهميته فى تفسير الأبعاد الذاتية التى تكمن وراءها فضلاً عن أبعادها الموضوعية .

أولاً :- مفهوم النظرية الاجتماعية :

تعرف النظرية بشكل عام باعتبارها "نسق من المعرفة المعممة تفسر الجوانب المختلفة للوقائع Facts ، وتفسر النظرية القوانين تماماً مثلما تفسر القوانين الوقائع التى تمت ملاحظتها وتوجد العلاقة بينها ، كما أنها تساعد فى الوقت ذاته على اكتشاف قوانين جديدة أو وضع فروض لاختبار صدقها . [1]

بينما يعرف براث وات Braith Waite النظرية بصورة أكثر تحديداً باعتبارها "تشتمل على مجموعة من الفروض التى تكون نسقاً استنباطياً – بمعنى – أنها تنتظم فى ترتيب متتابع فيه بعض الفروض

---

(١) سمير نعيم أحمد ، النظرية فى علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، الطبعة الثانية ، ص ٣٢ .

اللاحقة ببعض الفروض المتقدمة أو بعبارة أخرى تعد النظرية بمثابة مجموعة من القضايا التى تنتظم فى نسق استنباطى ، وتتدرج على مستويات يحتل فيه القضايا أو الفروض على المستوى الأعلى مكانة المقدمات المنطقية ، وتكون فيه الفروض على المستوى الأدنى بمثابة نتائج لما يتقدمها من فروض ، وتكون فروض المستوى الأوسط مستنتجة من فروض المستوى الأعلى ، كما تعتبر هى بدورها مقدمات منطقية لفروض المستوى الأدنى ."

ويتميز هذا التعريف - كما تقول سيلتز - بأنه يجعل بالإمكان التخلص من كل ما علق بمفهوم النظرية من أفكار سابقة مبهمة وغير دقيقة ، وبعيدة عن الصواب ، لأنه كان من الشائع أن النظرية عبارة عن كل ما له صلة وثيقة بالتأمل والنظر ، وإن ما هو نظرى هو أمر غير واقعى، وهو من قبيل التصور ، وأن نظريات العلم فى مراحله المبكرة كانت فى الغالب نتيجة للتأمل والنظر المكتبى ، إلا أن النظرية أصبحت الآن مع نمو العلم وتطوره أكثر ارتباطا بالوقائع والملاحظات الأمبريقية . ويجعل منها خاصية من الخصائص الأساسية التى تميز النظرية العلمية وذلك بناء على أن النظرية وما تثيره من قضايا وفروض لابد وأن تجد لها تأييدا من جانب الوقائع الأمبريقية ، هذا فضلا عن خاصية أخرى ينبغى أن نذكرها للنظرية وهى أنها ليست صياغة استياتيكية أو نهائية بل تمثل

حالة مؤقتة قابلة للمراجعة والتقييم بشكل مستمر . [٢] كما يقول بيرس كوهن - في كتابه النظرية الاجتماعية الحديثة ، بأن النظرية يجب أن تتجاوز الحقائق المجردة ، ولا قيمة للنظريات إذا لم تتجاوز الحقائق وأن هذه الحقائق ما هى إلا مجرد تقارير نعتقد فى صحتها عن وقائع معينة قد حدثت ، فالوقائع المقصودة لا تدور حول وقائع خاصة وإنما تدور حول الاهتمام بالفئات الكلية للوقائع لأن هناك عدد غير محدود من الوقائع Facts [٣] لذا يرى نيفولا تيماشيف ، أن النظرية هى أرفع المستويات فى العلم ، فالجهود المتراكمة والمتجمعة لرجال العلم الذين يتخصصون فى علم بعينه تنتهى إلى صياغة مجموعة كبيرة من التعميمات التى تنتمى إلى نماذج متعددة ومختلفة ، ومن هنا تظهر الحاجة إلى تجميع شتات النتائج المبعثرة متى أمكن الوصول إليها وتوصيدها ويتحقق هذا التوصيد ببناء النظرية .

وبالتالى يعرف النظرية "باعتبارها مجموعة من القضايا التى تتوافر فيها الشروط التالية :-

أولاً :- ينبغى أن تكون المفهومات التى تعبر عن القضايا محددة بدقة .

ثانياً :- يجب أن تتسق القضايا الواحدة مع الأخرى .

---

(٢) على عبد الرازق حسبى ، الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ص ٣١-٣٢ .

(٣) بيرسى كوهن ، النظرية الاجتماعية الحديثة ، ترجمة عادل مختار الهوارى ، دار فينوس للطباعة والنشر ، ١٩٧٧ ، ص ٧ .

ثالثاً :- أن توضع القضايا فى شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقاً استنباطياً .

رابعاً :- أن تكون هذه القضايا خصيبة ومثمرة تستكشف الطريق لملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمى مجال المعرفة ، وبرغم اختلاف العلماء حول المقصود بمعنى النظرية إلا أن النظرية الاجتماعية تدور - كما يقول تيماشيف حول الموضوعات التالية :-

أ- ما المجتمع وما الثقافة ؟

ب- ما الوحدات الأساسية التى ينبغى أن نحلل المجتمع والثقافة إليها؟

جـ- ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة والشخصية ؟

د- ما العوامل التى تحدد حالة المجتمع والثقافة وتغيرهما ؟

هـ- ما علم الاجتماع ، وما مناهجه الملائمة ؟

حيث ينبغى أن تتركز دراسة النظرية الاجتماعية وغيرها على الإجابة عن هذه الأسئلة المذكورة . (٤)

كما يذهب جوناثان تيرز - فى كتابه بناء نظرية علم الاجتماع ، إلى أن النظرية التى توجه الاهتمام إلى دراسة مشكلة النظام تدور حول تحقيق أهداف ثلاثة هى :-

١- تصنيف وتنظيم الأحداث التى تحدث فى العالم ليمكن لنا أن نجد لها مكاناً فى منظور ما ؟

---

(٤) نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٧-٣٨ .

٢- تفسير الأسباب التى أدت إلى أحداث وقعت فى الماضى وأن نتنبأ متى وأين وكيف ستقع الأحداث مستقبلا ؟

٣- أن تقدم معنى حدسيا مقبولا لفهم لماذا ، وكيف تقع الأحداث ؟ (٥)

أى أن الوظيفة الأساسية للنظرية الاجتماعية كما يرى - رايت ميلز - تتمثل فى قدرتها على تبنى الخيال السوسيولوجى الذى يساعد على الانتقال من منظور لآخر أى من المنظور السياسى إلى المنظور السيكولوجى ، ومن دراسة أسرة واحدة إلى المقارنة بدراسة الميزانيات القومية على النطاق العالمى ، ومن المدرسة إلى بناء الجيش ، ومن دراسة صناعة البترول إلى دراسة الشعر المعاصر أى أن صاحب النظرية يجب أن يتمتع بالقدرة على أن يربط بين أكثر المسائل أو القضايا عمومية وبين أكثر شخصية وفردية وأن يرى العلاقة بين الاثنين وأن يكتشف المعنى التاريخى والاجتماعى لما هو فردى فى إطار المجتمع . (٦) كما يرى ايان كريب ، أن النظرية الاجتماعية يجب أن تستخدم لتفسير خبرة ما وفهمها على أساس خبرات وأفكار أخرى عامة عن الحياة ، وعلى هذا فهو يرى أن هناك فروقا واضحا بين التفكير النظرى بصيغته اليومية وبين النظرية الاجتماعية يتمثل فى أن

---

(٥) جونا ثان تيرز ، بناء نظرية علم الاجتماع ، ترجمة محمد سعيد فرح ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٩٩ ، ص ص ٥-٦

(٦) Mills, W. C., The Sociological imagination, op cit.

النظرية الاجتماعية تحاول أن تكون أشد تنظيما فى نظرها إلى الأفكار والخبرات معا ، كما أن الأفكار فى النظرية يجب أن تستتبع إحداها الأخرى لا أن تتناقض إحداها مع الأخرى ، وعلى أقل تقدير يجب أن تكون علاقتها ببعض واضحة المعالم، كما يجب أن تكون النظرية الاجتماعية منفتحة على العالم وألا تقتصر على الخبرات الحياتية المحددة فلو أننا آمنا فقط بما تراه أعيننا ، فلن يؤمن أحد منا بأن الأرض كروية أو أنها تدور حول الشمس . (٧)

وبهذا فإننا نجد أن هناك اتفاقا عاما بأن النظرية هى نسق فكرى استنباطى متسق حول ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات المتجانسة ، يحوى النسق إطارا تصوريا ومفهومات وقضايا نظرية توضح العلاقات بين الوقائع وتنظيمها بطريقة دالة وذات معنى ، كما أنها ذات بعد أمبريقى ، بمعنى اعتمادها على الواقع ومعطياته ، وذات توجيه تنبئ يساعد على تفهم مستقبل الظاهرة ولو من خلال تعميمات احتمالية .(٨)

ثانيا :-النظرية البنائية الوظيفية :

لقد تطور اتجاه البنائية والوظيفية كاتجاه نظرى ومنهجى فى علم الاجتماع من تلك الإسهامات التى قدمها كل من روبرت وميرتون وتالكوت

---

(٧) ابان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، مرجع سابق ، ص ٢٨-٢٩ .

(٨) عبد الباسط محمد عبد المعطى ، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ١٠-١١ .

بارسونز ، لكن يعد بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩) أبـرز المنظريـن فـى الاتجـاه الوظيفى وأكثرهم انتاجاً ، وربما أكثرهم تعقيداً فى صـوغ أفكـاره وبالتـالى أكثرهم تعرضاً للنقـد ، ولـذا سـوف لا نخـوض فـى عـرض أفكـار منظـرى الوظيفية من خلال عرض إسهامات كل عالم على حدة وإنما سـوف نعـرض أهم المنطلقات النظرية للبنائية الوظيفية والمفاهيم الأكثر استخداماً منها ثم إشارة إلى إجراءاتها المنهجية حتى نعطى صورة مبسـطة عـن هـذا الاتجـاه الهام والذى احتل مكانة كبيرة فى علم الاجتماع بشكل عام وعلم الاجتمـاع الغربى بشكل خاص ، وسيطر على الفكر السوسيولوجى لفترات طويلة من الزمن .

(أ) **المنطلقات النظرية للبنائية الوظيفية .**

تنطلـق البنائيـة فـى فـهم المجتمـع وتحليلـه مـن خـلال مقارنتـه وتشبيهـه بالكائن العضوى أو الكـائن الحـى الـذى يمثـل نسـقاً يتـألف مـن مكونات ترتبط فيما بينها ارتباطاً وظيفياً ، وتدور معظم محاولات وقضايـا هذه النظرية كما يرى - ماريون ليفى - [٩]حول ثلاثة أسئلة أساسية هى:

الأول : ما هى الأنماط التى يمكن الكشف عنها وإقرار وجودها عند دراسة ظاهرة معينة ؟

الثانى :- ما هى الظروف والمصاحبات التى يمكن أن تنتج عن التفاعل بـين هذه الأنماط ؟

---

(٩) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

الثالث :- ما هى الوظائف - النتائج - التى تدلل على وجود هذه الأنماط وتبرهن على تفاعلها ، على اعتبار أن وظيفة العضو الاجتماعى دليل على وجوده ، كما أن هذا العضو ، أو الجزء باق ما بقيت وظيفته ؟

وتوضح لنا هذه الاتجاهات أن أولها يعنى بالبناء Structure (مجموعة العلاقات المتباينة التى تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية ، فثمة مجموعة أجزاء مرتبة ومتسقة تدخل فى تشكيل الكل الاجتماعى، وتتحدد بالأشخاص والزمر والجماعات وما ينتج عنها من علاقات وفقاً لأدوارها الاجتماعية التى يرسمها الكل أو البناء ، فى حين يهتم الثانى بالوظائف الاجتماعية Social Functions (والوظائف هى الأدوار التى يسهم بها الجزء فى إطار الكل) أما الثالث والأخير فيركز على العلاقة المتبادلة بين البناء والوظيفة .

وعلى هذا يستند الاتجاه البنائى الوظيفى على القضايا النظرية الآتية :-

أ- إنه يمكن تحليل أى شىء سواء كان مجتمعا أو جماعة صغيرة أو تنظيما اجتماعيا باعتباره نسقا System وهذا النسق يتألف من عدد من الأجزاء وكل جزء يؤدى وظيفة معينة ، ورغم أن هناك تباينا وظيفيا بين الأجزاء إلا أنها فى النهاية تتكامل مع بعضها البعض لحفظ حياة المجتمع أو الكائن الحى . فالمجتمع كما يقول بارسونز ، يتكون من عدد من الأنساق مثل النسق الدينى ، والسياسى ، والاقتصادى ،

والتربوى ، والقرابة ، وكل واحد من هذه الأنساق يتكون من نظم معينة مثل الأسرة والمدرسة والجامع ، وهذه النظم تتكون من مجموعة من الأدوار ، كدور الأم والأب ، والزوج والأستاذ ورجل الدين وغيره وعلى الرغم من أنه يتوقع منهم أن يمتثلوا للطرق المتوقعة للسلوك التى تفترضها طبيعة هذا الدور ، وتتأثر المعايير المحددة للسلوك بدورها وتتدعم من خلال النسق العام للقيم الذى يميز مجتمعات معينة عن أخرى .

ب- أن لكل نسق احتياجاته الأساسية التى لا بد من الوفاء بها ولذا يرى - بارسونز - بأن اى نسق وعلى أى مستوى يجب أن يعنى بأربعة متطلبات إذا كان يريد البقاء ، وهذه المتطلبات الأربعة أو المستلزمات الوظيفية Functional Pre Requisties هى :- التكيف . إن كل نسق لابد أن يتكيف مع بيئته .

- تحقيق الهدف ، لابد لكل نسق من أدوات يحرك بها مصدره كما يحقق أهدافه وبالتالى يصل إلى درجة الإشباع .

- التكامل فكل نسق يجب أن يحافظ على التواؤم والانسجام بين مكوناته ، ووضع طرق لدرء الانحراف والتعامل معه ، أى لابد له من المحافظة على نسق أن يحافظ بقدر الإمكان على حالة التوازن فيه . (١٠)

جـ- تؤكد البنائية الوظيفية على ضرورة أن يكون النسق فى حالة توازن

---

(١٠) ايان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

Equilibrium باعتباره واقعاً وهدفاً يساعد المجتمع أو النسق فى حالة بقائه واستمراره وتحقيق التناغم بين مكونات البناء والتكامل بين الوظائف الأساسية ولذا وضع بارسونز مقولة التوازن فى مكانة محورية فى نظريته حيث حاول توضيح تصوره للتوازن إما من خلال ربطها بتناغم مكونات النسق أو تساوقها سوياً ، أو يعالجها من خلال فكرة التكامل أو يلحقها مرة أخرى بالنظام العام وهى كلها تعكس اهتماماً بالجوانب المستقرة والثابتة فى النسق ، وغض الطرف عن الجوانب المتغيرة .(١١)

د- أن أى جزء من أجزاء النسق قد يكون وظيفياً Functional أى يسهم فى تحقيق توازن النسق وقد يكون ضاراً وظيفياً Dys-Functional أى يقلل من توازن النسق وقد يكون غير وظيفى Non-Functional أى عديم القيمة بالنسبة للنسق .

هـ- يمكن تحقيق كل حاجة من حاجات النسق بواسطة عدة متغيرات أو بدائل Alternatives ، كحاجة المجتمع لرعاية الأطفال مثلا يمكن أن تقوم بها الأسرة - دار الحضانة وحاجة المجموعة إلى التماسك قد تتحقق عن طريق التمسك بالتقاليد أو عن طريق الشعور بالتهديد من عدو خارجى .

و- إن وحدة التحليل الأساسية هى الأنشطة أو النماذج المتكررة ، فالتحليل الاجتماعى الوظيفى لا يحاول أن يشرح كيف ترعى أسرة

---

(١١) عبد الباسط محمد عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٧-١٧٨ .

معينـة أطفالهـا ولكنـه يـهتم بكيفيـة تحقيــق الأسـرة كنظـام لهـذا الهدف.[١٢]

وهدف التفسير الوظيفى هو الكشف عن كيفية إسهام أجزاء النسق فى تحقيق النسق ككل لاستمراريته أو فى الإضرار بهذه الاستمرارية .

ب- المفاهيم المستخدمة فى النظرية البنائية الوظيفية .

استخدمت النظرية الوظيفة عدداً كبـيراً مـن المفـاهيم والمصطلحـات الفنيـة فـى تحليـل الظواهـر وأنمـاط العلاقـات التـى تظــهر فــى الواقــع الاجتمـاعى حتـى أصبحـت هـذه المفـاهيم تحمـل دلالات خاصـة بالاتجــاه البنائى الوظيفـى ، رغـم التباينـات بـين البـاحثين الذيـن اسـتخدموا هـذه المفاهيم ، وسوف نعرض لأهم هذه المفاهيم فيما يلى :-

(١) الوظيفة Function تشير بشكل عام باعتبارهـا الإسـهام الـذى يقدمـه الجزء إلى الكل ، وهذا الكـل قـد يكـون متمثـلاً فـى مجتمـع أو ثقافـة كقولنا إن وظيفة الحكومة هى ضمان سلامة النظام القائم فى المجتمـع أو أن وظيفـة القيـم المشــتركة لمجتمــع مــا هــى تحقيــق التماسـك الاجتماعى، وقد يتسع هذا المعنى فتشير الوظيفة إلى الإسهامات التــى تقدمها الجماعة إلى أعضائها (مثـل الإسـهامات التـى تقدمـها الأسـرة لتنشـئة أطفالهـا والحفـاظ علـى حياتـهم) ويسـتخدم الوظيفيـون هـذا المصطلح للتأكيد على تكامل الأجزاء فى إطار الكل (تساند الأجزاء فـى

---

(١٢) سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق، ص ص ١٩٧ .

المجتمع كتساند أعضاء الكائن الحى) .

فالوظيفة بهذا المعنى هى تحقيق للغرض الذى مؤداه أن كل الظواهر الاجتماعية ترتبط فيما بينها ، وإن النظرية الوظيفية تدور حول أن النسق الاجتماعى يمثل نسقاً كلياً حقيقياً تؤدى فيه الأجزاء وظائف أساسية لتأكيد الكل وتثبيته ، وأحياناً لتوسيع نطاقه وتقويته ومن ثم تصبح هذه الأجزاء متساندة ومتكاملة على نحو ما (١٣)

(٢) النسق الاجتماعى: Social System

ومفهوم النسق يعنى مجموعة من المتغيرات الشديدة الترابط بين بعضها البعض بحيث إن حدوث تغيير فى أحد المتغيرات يكون له تأثير حتمى على المتغيرات الأخرى ، أى أن النسق شىء يتصف بأنه كل مركب أو مجموعة من الأشياء أو الأجزاء المنظومة والمتصلة ببعضها . (١٤) ومن ثم فإن النسق يدل على الصلات الداخلية المستقرة بين أنماط مؤسسية داخل المجتمع ، وقد ذهب رائد الوظيفة تالكوت بارسونز فى تعريف النسق باعتباره "فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركزاً أو مكانة متمايزة عن الأخرى ، ويؤدى دوراً متمايزاً أى أنه نمط منظم يحكم علاقات الأعضاء ويصف حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض فى إطار من المعايير والقيم المشتركة بالإضافة إلى أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية ؟ (١٥)

---

(١٣) خضر زكريا ، نظريات سوسيولوجية ، دار الأهالى ، دمشق ، ١٩٩٨ ، ص ١٩٣ .
(١٤) ميشيل مان ، مرجع سابق ، ص ٧٠٥ ، ٦٧١ .
(١٥) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٣) الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة **Latent, Manifest**

حيث قدم روبرت ميرتون تمييزا واضحا بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة وهو تمييز أشار إليه ضمنا بعض الدارسين الآخرين ، والوظائف الظاهرة تشير إلى النتائج الموضوعية التى تحدثها سمة اجتماعية أو ثقافية معينة ، تلك النتائج التى تفرض على الأفراد تبنيها والتكيف معها ، فهى إذن نتائج يتوقع الأفراد حدوثها .

أما الوظائف الكامنة فتشير إلى النتائج غير المقصودة وغير المقررة، ولتوضيح ذلك ضرب ميرتون مثالا على ذلك قائلا : إن الوظيفة الظاهرة للاستهلال الاقتصادى هى تحقيق الانتفاع ، بينما يعد تحقيق الهيبة وتأكيدها على حد تعبير فيبلن - أحد الوظائف الكامنة للاستهلال ، ولقد شاع التمييز الذى قدمه ميرتون بين علماء الاجتماع الأمريكيين خاصة خلال السنوات القليلة التى تلت مؤلفه فى عام ١٩٤٩، ومن الجدير بالذكر أن ميرتون ذهب إلى أن التمييز الذى قدمه بين النوعين من الوظائف كان تمييزا على درجة بالغة من الأهمية ، لأنه لفت الأنظار إلى الوظائف الكامنة التى كانت مغلقة على التحليل الاجتماعى عموما . [١٦]

(٤) البناء الاجتماعى **Social Structure**

استخدم هذا المفهوم من قبل غالبية الوظيفيين ، ولا نكاد نلمس تعريفا واحدا يعتمده الوظيفيون للبناء الاجتماعى غير أن المقصود به بشكل

---

(١٦) نقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .

عام "هو مجموعة العلاقات الاجتماعية والأنساق الاجتماعية المتباينة والتى تتكامل من خلال الأدوار الاجتماعية ، وغالبا ما يعبر مصطلح "الكل الاجتماعى" ، عن البناء الذى يشير إلى المجموعة المتحدة من الأجزاء هى الأشخاص ، والجماعات الصغيرة والكبيرة وما ينتج عنها من علاقات ، والتى يقوم كل منها بدور أو وظيفة يحددها الكل الذى هو البناء الاجتماعى.

وقد استخدم – رادكليف براون – تقسيمين لهذا المفهوم هما البناء الواقعى الذى يكون أكثر التصاقا بالواقع المشاهد والعلاقات المحسوسة بين الأفراد ، ولذا فإنه يتغير باستمرار ، أما البناء الصورى ، فهو أكثر استمرارا وبقاء ولا نصل إليه إلا عن طريق التجريد من العلاقات المفردة المحسوسة القابلة للملاحظة ، وبقول آخر فإن البناء الواقعى يتغير بسرعة وباستمرار بعكس الصورة البنائية العامة التى تحتفظ فى العادة بخصائصها وملامحها الأساسية دون تغيرات لفترة أطول من الزمن وتتمتع بدرجة عالية نسبيا من الثبات ، وحتى فى الحالات التى تتغير فيها الصورة البنائية بشكل مفاجئ سريع – مثلما يحدث فى حالة الثورات أو فى حالة الغزو العسكرى – فإن البناء ذاته – من حيث هو تنسيق أو ترتيب يظل قائما ومتماسكا ومحتفظا بمعظم ملامحه الأصلية، والمهم هنا هو أن فكرة الصورة البنائية العامة أو البناء الصورى بفسح مجالا أوسع وتهيئ مستوى أعلى للتحليل من البناء الواقعى . (١٧)

---

(١٧) أحمد أبو زيد ، البناء والبنائية (دراسة فى المفهومات) المجلة الاجتماعية القومية . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثانى ، مايو ١٩٩٠ ، ص ١١١ .

(جـ) الإجراءات المنهجية للبنائية الوظيفية :

استخدمت الوظيفية بعض القواعد المنهجية العامة والتى من بينها :-

١- إن الوظيفة ترى فى العلم الطبيعى خاصة علم الحياة مثلا أعلى ويفصح هذا عن نفسه من مفهومات النظرية - البناء والوظيفة ومماثلتها للمجتمع بالكائن العضوى أو مسائل التوازن والتغير وما إليها .

٢- تركز الوظيفة باتجاهاتها الفرعية على تفسير وظيفى متعدد المتغيرات فهى تفسر أى شىء فى النسق الاجتماعى بكل شىء فى هذا النسق ، حتى يتخيل للمرء أنها تقف عند حد التصنيف والتحليل ، ولا تميز إلا ضمنا بين متغيرات مستقلة وأخرى تابعة ، والأمر الملفت للنظر إنه رغم كليتها فى تصور المجتمع تعود لتحصر نفسها فى موضوعات جزئية وأنساق فرعية تبدو منعزلة ، ونلاحظ فجوة بين قضاياها وبين بحوثها ونتائجها الموغلة فى التجزىء ، فثمة وظائف واضحة وأخرى كامنة وثالثة معوقة ، ورابعة ميسرة وما إلى ذلك من تفتيت للكل المزعوم .

٣- مع أن تصوراتها ومفهوماتها بنائية وكلية فهى تبدأ بالثقافة وتعدها الوعاء الأساسى للتفسير مرورا منها إلى الشخصية الفردية ثم التنظيم الاجتماعى . [١٨].

ولكن ما هى على وجه التحديد الأجزاء المنهجية التى أوصى بها الوظيفيون فى اختبار الفروض الوظيفية ، لعل من أهمها تلك

---

(١٨) عبد الباسط محمد عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ .

الإجراءات التالية . [١٩]

أولها :- التجربـة العقليـة Mental Experiment وهـى محاولـة تقدير ما يمكن أن يحدث فى مجتمع ما إذا ما أدى بناء جزئى وظيفتـه أو اضطراب فى تأديتـها ، ويمكننـا أن نعـزل - كمـا يقـول فيـبر - نظامـا اقتصاديا معينا أو نمطا ثقافيا معينا وبذلك نستطيع تقدير الآثـار المحتمـل حدوثها على هذا المجتمع . وعلى الرغم من مشروعية استخدام التجربـة العقلية فى الدراسات الاجتماعية لإجراء تحليل سببى إلا أن هناك حـدودا وقيودا لابد من مراعاتها عند استخدام هذه الوسيلة .

ثانيهما :- المنهج المقارن : والذى يستخدم فى التحقق من الفروض الوظيفية واختيارها ، والمقارنة هنا يمكن أن يعقد علـى المستويين الكيفـى والكمى ، فعلى المستوى الكيفى يمكن أن تتم المقارنة إذا ما وجدنـا موقفين اجتماعيين يختلفان بالنظر إلى وجـود أو عـدم وجـود سمـة معينـة أو بنـاء جزئـى حينئـذ يمكـن أن تظـهر النتـائج المتباينـة التـى تنجـم عـن هـذا الاختلاف والتى تؤثر بدورها على بقاء النسق الكلى وتدعيمه .

أما المقارنة على المستوى الكمى فهى تلك التى تـهتم بقيـاس نسـب العناصر (الثقافية أو الاقتصادية أو غيرها) المتناقضـة أو المتناسـقة وظيفيـا قياسا كميا .

ثالثـهما :- ملاحظـة وتحليـل النتـائج المترتبـة علـى حـدوث الاضطرابات المختلفة فى المجتمع ، تلك الاضطرابـات التـى قد تنشأ عـن

---

(١٩) نيفولا تيما شيف ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

أحداث داخلية أو خارجية أو كليهما ، فدراسة النتائج المترتبة على إعلان الحرب مثلا أو المترتبة على ظهور اختراع ثورى كالقنبلة الذرية قد تكشف عن تأكيد واضح لوجود النسق أو شيوع علاقات وظيفية فيه ، والواقع أن هذه القواعد المنهجية ، التجربة العقلية ، المنهج المقارن ، ودراسة آثار الاضطرابات قد استخدمها ولا يزال يستخدمها دراسون ينتمون إلى اتجاهات أخرى غير الاتجاه الوظيفى .

(د) **مناقشة وتعقيب :**

برغم أن الوظيفة وبحوثها قد حققت نموا وازدهارا كبيرا والوصول إلى إنجازات هامة فى دراسة المجتمع إلا أنها واجهت انتقادات حادة من تيارات نظرية متباينة وكان من أهم الانتقادات ما يلى :-

١- يكاد يجمع أغلب الوظيفيون أن المجتمع يمثل نسق اجتماعى فى حالة توازن ولذا يرى كثير من المشتغلين بعلم الاجتماع ومنهم دافيز وكوهين إن الوظيفة لم تستطيع أن تحتوى التغير الاجتماعى أو على الأصح لم تهتم به لأن الشغل الشاغل للنظرية كان مركزا على تكامل البناء الاجتماعى الذى نظر إليه على إنه ثابت كالعمود الفقرى للإنسان وحتى عندما أشار الاتجاه الوظيفى إلى ما يسمى بالتوازن الدينامى أو المتحرك جاءت إشارته غير واضحة نظرا لأن مفهوم التكامل لم يحدد بوضوح . وجاءت تلك النظرة للتغير متسقة مع الإطار العام للنظرية ، والمصادر التى اشتقت منها بعض روافدها كعلم الحياة مع محاولتها مناهضة التاريخ وتحليله ، وعندما حاولت بعض الاتجاهات الفرعية فى النظرية أن تعيد النظر فى التغير حتى تتلافى

بعض الانتقادات التى وجهت إليها من هذه الناحية ما كـان منـها إلا أن اعترفت بتغير هادئ تدريجى يرتبـط بالتغـيرات الخارجيـة التـى تفد إلى البناء أكثر من ارتباطها بالتغيرات الداخلية .

٢- كما أن الوظيفية لم تقدم لنا مناقشة واضحة لمشكلة العلاقـة بـين الفـرد والمجتمع ، وإن معظم أعمال بارسونز تركـزت علـى دراسـة الأنسـاق أكثر من تركيزها على دراسة الأفراد وإن كان - ايان كريب - يرى أن هذا النقد ليس له ما يبرره باعتبار أن بارسـونز يتعـامل مـع الاثنـين (الفرد والمجتمـع) بصـورة متفاعلـة فبارسـونز لا يسـتطيع أن يعطـى أولوية لأحدهما على الآخـر ، لأن النسـق الاجتمـاعى فـى معنـى مـن معاينـة هـو الفـرد بصـورة مكـبرة والفـرد المقـابل هـو صـورة النســق الاجتماعى بصورة مصغرة ولا توجد أو يمكن أن توجد أولويــة سـببية بينـهما ، وعليـه فـإن الوظيفيــة تركــز علــى هــذا الجــانب أو ذاك (المجتمع ، والفرد) وهــو الشــىء الـذى فعلـه بارسـونز فـى المراحـل المختلفة من حياته العلمية .

(٣) كما تعرضت النظرية البنائية للنقد من قبل علماء اجتماع آخرين مثــل رايت ميلز فيما يتعلق بأن التحليل الوظيفى أو ما يرتبط بــه مـن قضايـا وأطر نظرية لا يخدم المعرفة العلمية ، كما أنه لا يسـاعد علـى الكشـف عـن الحقـائق الاجتماعيـة بصـورة دقيقـة ، وذلــك نتيجــة الأهـداف الأيديولوجية المسبقة التى تسـيطر علـى هـذا الاتجـاه - وبخاصـة علـى رائدها بارسونز - والتى تظهر من خلال أدواته التحليلية مثل المفـاهيم

والمصطلحات الفنية المجردة والبالغة التعقيد، والمناهج التى تعتمد على الحدس أكثر من التحليل التاريخى المتعمق فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، والتى أدت إلى نتائج معينة كأهمية المحافظة على الأوضاع الراهنة ، ومقاومة التغير أدى عمليا للصراع الاجتماعى من خلال تطوير أداء النسق ، وتعديل وظائفه بما يتلاءم ومتطلبات الاستقرار والثبات الاجتماعى .

ورغم هذه الانتقادات المتعددة إلا أن النظرية البنائية الوظيفية لعبت دورا مهما فى تطوير قضايا علم الاجتماع وأثرت النظرية الاجتماعية بمفاهيمها الاجتماعية المتعددة ومنظوراتها الفكرية المتجددة ومناهجها المتنوعة .

ثالثا :- النظرية المادية التاريخية :

(أ) المنطلقات النظرية للمادية التاريخية : Historical Materialism : غالبا ما تصنف وجهات النظر التى تركز على عناصر الصراع والمادة تحت مسمى نظرية المادية التاريخية ، تلك النظرية التى تنظر إلى الصراع باعتباره القوى المحركة للتاريخ أو عملية التغير الاجتماعى، فالمجتمعات الإنسانية تتغير عبر مراحل متعددة حسب رؤية المادية التاريخية ، وعوامل التغير تكمن فى العوامل المادية أو ما يطلقون عليه الأساس الاقتصادى للمجتمع ، والذى لا يؤدى تغيره بشكل مطلق إلى حدوث التغير بشكل عام ، ولكن العامل الأهم - حسب اعتقاد الماركسيين - هو فى نمط علاقات الإنتاج الذى يفرزه كل نمط

اقتصادى ، وما يصاحب ذلك من تباينات طبقية ، والتى تؤدى إلى حدوث وعى طبقى Class - Consciouness عند الطبقة المستغلة (البروليتاريا) والذى يتحول فى النهاية إلى صراع مع الطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج .[٢٠]

والمادية التاريخية هى جزء لا يتجزأ من منظومة العقائد والأفكار التى وضعها كارك ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك انكلز (١٨٢٠-١٨٩٥) وطورها فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) كما ساهم ويساهم فى إثرائها وتطويرها عدد كبير من المفكرين الماركسيين من أنحاء مختلفة من العالم منذ ظهورها حتى اليوم .

والمادية التاريخية هى نظرية المجتمع الماركسية ، هى العلم الذى يبحث فى القوانين العامة والقوى المحركة لتطور المجتمع البشرى ، ولا يقتصر موضوع المادية التاريخية على دراسة تاريخ المجتمعات كتاريخ ظهور وتطور وتغير التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية بل يشمل أيضا دراسة قانونيات الحياة المعاصرة لمختلف البلدان (الرأسمالية ، الاشتراكية، النامي) وقانونيات الحياة الاجتماعية للإنسانية بوجه عام .

والمادية التاريخية بوصفها علما عن قوانين التطور الاجتماعى هى نظرية فلسفية ، منهجية ، سوسيولوجية فى الوقت ذاته ، فهى تجيب عن المسألة الأساسية فى الفلسفة مطبقة على المجتمع إجابة مادية

---

(٢٠) LukaCS, G., History and Class - Consciousness, London, Merlin press, 1983, PP. 46-48 .

بتأكيدها أن حياة المجتمع المادية . وبخاصة عملية الإنتاج المادى، تشكل أساسى تفاعل جميع الظاهرات الاجتماعية ، وتحدد فى نهاية المطاف الميدان الروحى من حياة المجتمع ، وكذلك جميع ظاهرتها الأخرى وهذا هو مبدأ المادية ، وكذلك هى تبحث الظاهرات الاجتماعية فى حركتها الدائمة بتغيراتها التى تحكمها ، قانونية حتمية ، بالعلاقات المتبادلة بين جميع جوانبها بماضيها ومستقبلها باتجاهاتها وتناقضاتها ، بكلمة واحدة بعلاقاتها الدياكلتيكية . (جدلية) [٢١] والدياكلتيكية تعنى بكيف نشأت هذه الظاهرات أم تلك ، وأى مراحل مرت بها فى تطورها ، وإلى متى صارت فى الوقت الحاضر ؟ وعلى أى أجنة مستقبلية تنطوى ؟ فالديالكتيك فى الدراسات الاجتماعية يتجلى بالموقف التاريخى من المجتمع من الظاهرات الاجتماعية وهذا هو مبدأ التاريخية .

والنظرية المادية التاريخية ترى أن نمط الإنتاج Mode of Production هو العامل الحاسم فى التطور ، ويشمل نمط الإنتاج ما يسمى

أ- بعلاقات الإنتاج Relations of Production والتى تعنى أشكال الملكية وما يترتب عليها من علاقات بين الناس فى عملية الإنتاج وأشكال توزيع السلع المادية .

ب- قوى الإنتاج Forces of Production والتى تشمل موضوعات الإنتاج (الأرض ، والمواد الخام ، وأدوات الإنتاج (الآلات والمعدات) والإنسان العامل .

---

(٢١) خضر زكريا ، نظريات سوسيولوجية ، مرجع سابق ، ص ٦٤

وتحدد قوى الإنتاج علاقات الإنسان بالطبيعة وسيطرتها عليها ، والإنسان العامل هو العنصر الرئيسى فى القوى الإنتاجية وتشكل (قوى الإنتاج + علاقات الإنتاج) ما يسمى بالأساس الاقتصادى للمجتمع Basic Structure أو البناء الأساسى وهذا الأساس (الاقتصادى) شرط لابد منه لظهور ما يسمى بالبناء الفوقى Super Structure أى البناء السياسى والتشريعى والفلسفى والأخلاقى والجمالى والدينى للمجتمع ، وما يترتب على ذلك من علاقات ومؤسسات ومنظمات .

وعلى هذا فإن الأساس الاقتصادى هو الذى يحدد طبيعة المجتمع بطريقة مباشرة ويحدد أفكار ه ومؤسساته .

غير أن البناء القومى لا يلبث إلا أن يقوم بدور كبير فى التطور والنمو الاجتماعى ، فالبناء الفوقى الذى يبنى على أساس اقتصادى محدد يعبر فى نهاية الأمر عن موقف الناس من هذا الأساس ، حيث أن أفكار الناس (البناء الفوقى)بمثابة تبرير أو دفاع أو استنكار وهجوم على هذا الأساس . فالمؤسسات الحكومية على سبيل المثال فى الدول الرأسمالية أو الإقطاعية وأجهزة الإعلام والصحف الحزبية فيها تعمل على تدعيم وتبرير الأساس كما أن الأفكار العمالية والثورية تعبر عن موقف الطبقات المقهورة من هذا الأساس .

فالبناء الفوقى إذا انعكاس للأساس الاقتصادى إلا أنه لا يلبث أن يتمتع بقدر من الاستقلالية عن هذا الأساس بشكل نسبى ، بل قد يصبح سندا يدعم هذا الأساس ويساعد على بقائه ، كما أن ثمة جوانب من البناء

الفوقى تتسم بقدرة على البقاء برغم تغير الأساس الذى تعتمد عليه مثال ذلك بقاء الأفكار ذات الطابع الرأسمالى فى المجتمعات الاشتراكية . على أن البناء الفوقى ليس بأسره انعكاسا للأساس الاقتصادى فثمة سمات ثابتة تعكس حاجة إنسانية خاصة كاللغة وبعض سمات الأسرة أو الحياة الجنسية .[٢٢]

مما سبق يتبين أن حجر الزاوية فى الفهم الماركسى للمجتمع هو الأساس الاقتصادى ، وما يترتب عليه من علاقات إنتاج ، فلا حياة للإنسان ، ولا للمجتمع دون العمل الاجتماعى المنتج الذى يقتضى تنظيما له ولما يترتب عليه من عائد .

ب- المفاهيم المستخدمة فى النظرية المادية التاريخية :

استخدمت النظرية المادية التاريخية عددا من المفاهيم والمصطلحات الفنية فى تحليل الظواهر وأنماط العلاقات الاجتماعية التى تظهر فى الواقع الاجتماعى حتى أصبحت لها دلالات معينة ومن هذه المفاهيم ما يلى:-

(١) مفهوم الطبقة Class

فالطبقة كما يعرفها ماركس هى أى تجمع لأشخاص يؤدون نفس الوظيفة فى عملية الإنتاج ، وتختلف الطبقات عن بعضها البعض على أساس أوضاعها الاقتصادية ، كما يرى لينين أن الطبقة هى : جماعات

---

(٢٢) سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق ، ص ص ١٦١-١٦٢.

كبيرة من الناس تختلف كل جماعة منها من الأخرى عن طريق المكان الذى تشغله فى نسق الإنتاج الاجتماعى المحدد تاريخيا ، وعن طريـق علاقتـها - التى هى فى أغلب الحالات ثابتـة ومنظمـة قانونـا - بوسـائل الإنتـاج ، ودورها فى التنظيم الاجتماعى للعمل أى عن طريق أبعـاد وصـور حصولهـا على نصيب من الثروة التـى يسـهمون فـى خلقـها ، وعلـى هـذا فالطبقـات جماعات من الناس يمكن لواحدة منها أن تسـتولى لنفسـها (تسـتغل) علـى عمل أخرى نتيجة للأوضاع المختلفة التى تشغلها كل منها فى نسـق معـين من الاقتصاد الاجتماعى . ونلاحـظ مـن هـذا أن التعريـف الماركسـى يفسـر الطبقة بالاعتماد على فكـرة اسـتغلال طبقـة لأخـرى وتحديـد الطبقـة عـن طريق الوضع الذى تشغله جماعة ما فى النسق الاقتصادى الاجتماعى .(٢٣)

٢- الصراع الطبقى Class Conflict

وترى المادية التاريخيـة أن تفسـير الصـراع الطبقـى يتـم فـى ضـوء ظهور الطبقات من ناحية ، والنظر إلى الوجود الطبقى باعتباره ناجمـا عـن الصراع من جانب آخر ، والصراع الطبقى هو صراع بين من يملكون وسـائل الإنتاج (البرجوازية) ومن لا يملكون سوى جهدهم (العمال) ويحدث هـذا الصراع من وجهة النظر الماركسية نتيجة عدة أسباب مـن أهمـها السـيطرة على وسائل الإنتاج ، والتقدم الصناعى والفنى ، وتقسيم العمل فى الصناعة

(٢٣) غريب سيد أحمد ، الطبقات الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٥، ص ص ٦٥-٦٩ .

الحديثة الذى حرم العامل من فرص الإشباع النفسى وجعل منه مجرد ترسا فى آلة ، والوصول إلى ارتقاء سياسى معين ، وقد تنبأ ماركس بوجود صراع بين البروليتاريا والبرجوازية للوصول إلى مجتمع لا طبقى أى أن الصراع الطبقى يعنى صراعا ناجما عن المصالح المتضاربة للوصول إلى السلطة [٢٤] .

٣- الوعى الاجتماعى Social Consciousness

إن الوعى الاجتماعى كما تراه الماركسية هو حصاد تفاعل جدلى لمشاعر وادراكات وتصورات جماعية للواقع الاجتماعى ؛ تتحدد بالوجود الاجتماعى ، ويقصد بحصاد التفاعل الجدلى هنا اندماج المشاعر الفردية فى الجماعة ، والشىء نفسه فى الادراكات والتصورات بوصفها جميعا مستويات للوعى يعبر عنها بالسيكولوجيا والأيديولوجيا والعلم ، فإذا كانت المشاعر مستوى أولى للوعى ، فلأيديولوجيا مستوى أكثر تنظيما وإرادية يرتبط بالمصالح الطبقية إدراكا لحالها وتفسيرا لأوضاعها ، وتصورا لتحقيقها وأما العلم فهو مستوى أكثر تنظيما وتعميما يتخذ الإدراك ويبلور التصور ويؤشر على وجهات وغايات ووسائل التغيير المقصود لتحقيق المصالح الجماعية - الطبقية غالبا -المعنية ، والوعى يتحدد بالوجود الاجتماعى ويعكسه .[٢٥]

---

(٢٤) غريب سيد أحمد ، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

(٢٥) انظر ، عبد الباسط عبد المعطى ، الوعى التنموى العربى (ممارسة بحثية) دار الموقف العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ .

وبـهذا فقـد عـرف مـاركس الوعـى الاجتمـاعى باعتبـاره "مجمـوع الأفكار والنظريات والآراء والمشاعر الاجتماعيـة والعـادات والتقـاليد التـى توجد لدى الناس والتى تعكس واقعهم الموضوعـى أى مجتمعـهم الإنسـانى والطبيعة ، وبما أن الوجود الاجتماعى للناس يتصـف بـالتعقيد والتنـوع ، فإن الوعى الاجتماعى يتصف أيضا بالتعقيد والتنوع .

٤ـ الاغتراب Alienation

على الرغم من أن مفهوم الاغـتراب قـد ظـهر فـى كتابـات كـل مـن هيجل وفيورباخ إلا أن مـاركس قـد عـالج هـذا المفـهوم علـى ضـوء فلسـفته المادية التاريخية ، وأضفى عليه معنى جديدا غير ذلـك الـذى كـان يقصـده كل من هيجـل وفيوربـاخ ، ويعنـى مـاركس بتلـك الظاهرة السـيكولوجية الاجتماعية (الاغتراب) أن يصبح الإنسـان غريبـا عـن جـانب مـن جوانـب حياته هى الواقع الاقتصادى الاجتماعى والعلاقات الإنتاجية التى يمـارس الإنسان فى ظلها العمل وقد تحدث ماركس عن كيفية حدوث الاغتراب من خلال أن النظام الرأسمالى يحيل طاقة العمـل إلى سـلعة تبـاع وتشـترى فـى الأسواق ، وقد توصل ماركس أن قيمة هذه السلعة (أى قوة العمـل) تتحـدد مثل قيمـة أى سـلعة أخـرى أى عـن طريـق وقـت العمـل الـلازم اجتماعيـا لإنتاجها ، وهذا الوقت اللازم لإنتاج قوة العمل يتمثل فى الوقت المستغرق لإنتاج المستلزمات الأساسية لبقـاء الإنسـان العـامل علـى قيـد الحيـاة مثـل

الطعام والمسكن والملبس له ولأسرته وتبين أن العامل عليه أن يستبدل العمل أو قوة عمله بقيم أخرى ، وبهذه الكيفية فإنه يجعل هذا العمل غريبا عن نفسه أى يصبح عمله مغتربا عن ذاته ، ويصبح سلعة يسهل تبادلها فى السوق مثل أى سلعة أخرى ، هذه السلعة (أى قوة عمل العامل) تصبح أكثر رخصا كلما أنتج سلعا أكثر بعبارة أخرى يريد ماركس أن يقول أن تدهور قيمة الإنسان تتناسب عكسيا مع تزايد قيمة الأشياء التى ينتجها . أى أن ما ينتجه العامل يصبح غريبا عن ذاته ويقف فى مواجهته كقوة مستقلة لا يستطيع حيالها شيئا فالحياة التى منحها للشيء وحوله بها إلى سلعة تصبح ضده هو شخصيا كقوة غريبة عليه ومعادية له .[٢٦]

٥- فائض القيمة :

يرى ماركس أن أى موضوع سواء كان سلعة أو لا ، يمكن أن تكون له قيمة طالما أنه قد استخدم فى إنتاجه جهدا إنسانيا وذلك هو أساس نظرية القيمة ، التى استعارها ماركس من الاقتصاديين الكلاسيكيين أمثال آدم سميث وريكاردو ومن قبلهما العالم العربى عبد الرحمن بن خلدون .[٢٧]

---

(٢٦) سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٠-١٨١ .

(٢٧) انظر ، محمد ياسر الخواجه ، علم الاجتماع الاقتصادى بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق، الفصل الثانى الخاص بـ (عبد الرحمن بن خلدون ونشأة علم الاجتماع الاقتصادى).

ويحدث فائض القيمة فى تصور ماركس فى أن ظروف الإنتاج الصناعى الحديث تسمح للعامل بأن ينتج فى يوم العمل العادى أكثر بكثير مما يحتاجه لكى يغطى نفقات معيشته ، فيكفى العامل أن ينفق بعضا من وقت العمل اليومى لكى ينتج سلعا توازى قيمتها قيمة المتطلبات الضرورية لبقائه ، ولكن يبقى هناك بقية يوم العمل وكل ما ينتجه العامل فى هذا الوقت المتبقى من يوم العمل يصبح فائضه يحصل عليها صاحب رأس المال ، ولتوضيح ذلك نضرب المثال التالى :- فإذا فرضنا أن العامل يعمل عشر ساعات فى اليوم وإذا كان العامل ينتج ما يوازى قيمة الجهد الذى يبذله فى نصف هذا الوقت أى فى خمس ساعات فإن الخمس ساعات الباقية من العمل تصبح إنتاجا فائضا يتملكه صاحب رأس المال وقد أطلق ماركس على النسبة بين العمل الضرورى وفائض العمل معدل فائض القيمة أو معدل الاستغلال .

٦- التشكيل الاجتماعى - الاقتصادى Social Economic Formation

والتشكيل أو التكوين الاجتماعى الاقتصادى إحدى المقولات الأساسية فى الماركسية التى تستخدمها المادية التاريخية لتحديد المرحلة التى يعيشها المجتمع فى تطوره التاريخى بمعنى : أنه عضوية اجتماعية - إنتاجية فى حالة تطور دائم لها قوانين خاصة بظهورها وقيامها بوظائفها ، وتطورها ثم تحولها إلى عضوية اجتماعية - إنتاجية أخرى أكثر تعقيدا وفى كل عضوية من هذه العضويات نمط خاص للإنتاج وشكل معين من العلاقات الإنتاجية ، وطابع خاص للتنظيم الاجتماعى للعمل ، وطبقات خاصة أو أشكال خاصة للاستغلال الطبقى (فى التشكيلات الطبقية) وأشكال خاصة محددة تاريخيا من تجمعات الناس والعلاقات

بينهم وطرائق معينة فى الإدارة والتنظيم السياسى ، وأشكال متميزة فى تنظيم الأسرة والعلاقات الأسرية وأفكار اجتماعية خاصة .[٢٨]

بمعنى أن التشكيل الاجتماعى هو المجتمع كله فى مرحلة معينة من تاريخه وأن هذا المفهوم يشمل كل الظواهر الاجتماعية فى وحدتها العضوية وتأثيرها المتبادل فى مرحلة معينة من تاريخ مجتمع ما .

(جـ) **القواعد المنهجية للمادية التاريخية :**

وتهدف المادية التاريخية إلى تحقيق فهم علمى للمجتمع على الأسس المنهجية التالية :-

١- عدم الاقتصار على وصف الظاهرات الاجتماعية وتجاوز ذلك إلى تقديم تحليلى علمى لها .

٢- استخلاص الخصائص المشتركة فى مختلف المجتمعات التى تنتمى إلى نفس المرحلة من التطور التاريخى .

٣- التمييز بين القوانين العامة General Sociological Laws التى تحكم عددا من التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية وبين القوانين النوعية التى تحكم كل تكوين اقتصادى اجتماعى على حدة ، والتى تحكم ظاهرات اجتماعية معينة مثل اللغة .

---

(٢٨) خضر زكريا ، مرجع سابق ، ص ٧٣ وما بعدها .

٤- كما تسلم المادية التاريخية بأن القوانين العامة التى تحكم تطور المجتمع قوانين موضوعية أى أنها مستقلة عن وعى الإنسان تماما مثل قوانين الطبيعة وهى أيضا قوانين قابلة للمعرفة ، ويمكن للإنسان أن يستفيد منها فى نشاطه العملى .

٥- التطور الاجتماعى هو عملية تحكمها قوانين عامة معينة ، وأن مهمة علم الاجتماع هو الكشف عن القوانين الأساسية للتاريخ الاجتماعى .(٢٩)

د- مناقشة وتعقيب :

منذ أن ظهرت النظرية الماركسية (المادية التاريخية) وهى تتعرض لنقد شديد بل يرى أحد الباحثين أن علم الاجتماع الغربى الأكاديمى نشأ كرد فعل ضد الماركسية ونقد ونفى لها ، فلقد انتقدت الماركسية فى أنها لم توضح فى المقام الأول تلك الارتباطات الصارمة بين الأساس الاقتصادى للمجتمع وبين البناء الفوقى وربما كان الأمر كما يقول تيماشيف على النقيض من ذلك فقد اتضح مرارا وتكرارا أن نفس النسق الاقتصادى الرأسمالى يتعايش مع نظم سياسية مختلفة كالملكية المطلقة والديموقراطية كما أنه خلال فترة سيطرة النظام الرأسمالى ظهرت اتجاهات متباينة جدا فى الفلسفة والفنون وغيرها من الظواهر الثقافية كما يلاحظ أيضا أن التغير من نموذج معين للتنظيم الاجتماعى إلى نموذج آخر ليس بالضرورة نتيجة لانتصار الطبقة المقهورة والمستغلة كما أن تنبؤات ماركس عن زوال الطبقة

---

(٢٩) سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٣-١٥٤.

المتوسطة والانتصار النهائى للاشتراكية فى أكثر الأمم تقدما وتصنيعا فقد ناقضتها الأحداث [٣٠] التاريخية الفعلية ، ولعل أدل على ذلك من الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفيتى وتفككه فى عهد جورباتشوف كما انتقدت الماركسية من جانب علماء الاجتماع الغربيين والأمريكيين فى أن تخصيص ظاهرة الاغتراب على عملية الرأسمالية - كما تقول الماركسية - هو تزوير للتاريخ فالمزارعون يعانون من الاغتراب أيضا ولذا فهذه الظاهرة ليست مقصورة على الحضارة الصناعية وحدها بل لكل حضارة نموذج للاغتراب خاص بها ، كما أن الاغتراب يرجع إلى عوامل غير التى ذكرها ماركس مثل اختراع الأدوات التكنولوجية وإلى ظروف العمل الرتيبة التى لا تشبع حاجات الفرد .

---

(٣٠) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٨٦ وما بعدها .

رابعاً :- النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) :

أ- المنطلقات النظرية للمدرسة النقدية :

ارتبط نشأة هذه المدرسة بنشأة معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية عام ١٩٢٣ باعتباره مركزاً للبحث الاشتراكى ، ولعل أبرز مفكرى هذه النظرية هم تيودور أدورنو Theodor Adorno (١٩٠٣-١٩٦٩) وماكس هوركهايمر Max Horkhiemer (١٨٩٥-١٩٧٣) وهربرت ماركوزه Herbert Marcuse (١٨٩٨-١٩٧٩) .

وبالرغم من الفوراق القائمة بينهم إلا أن ثمة أفكاراً مشتركة بينهم أيضاً ، فلقد ذهبوا إلى أن الرأسمالية بصورتها الأولى التى أخضعها ماركس للتحليل والذى سلم به لوكاش هى رأسمالية لم تعد قائمة ، ولذا فلقد ذهب ماركيوزه إلى أن التناقض بين قوى الإنتاج ، وعلاقات الإنتاج لم يعد تناقضاً قائماً ، فلقد أصبحت القوى المنتجة تنتج فى الوقت الحالى مقداراً من الثروة يبلغ من ضخامته أن هذه القوى أخذت تدعم الملكية الخاصة بدلاً من الدخول فى صراع معها ، لكن أدى نمو الاحتكارات وزيادة تدخل الدولة على المستويين القوى والدولى إلى السيطرة أو الهيمنة على حياة البشر بطرق أكثر تعقيداً ونجاحاً .

فلقد رأى ماركوزه أن التناقض بين المستوى الفعلى لحياة الناس وبين المستوى الممكن أن يعيشوه فى ظل تضخم الثروة فى المجتمع يؤدى إلى الاستياء والتململ ، ولتوضيح ذلك يضرب المثال التالى : فمثلاً كان يمكن لحكومات الدول الغربية أن تقدم لمواطنيها خدمات طبية راقية ومجانية إلا

أن ثروات هذه البلدان كانت تنفق على التسلح أو على إنتاج ثلاثة وعشرين نوعاً من أنواع مساحيق الغسيل فى حين كان إنتاج نوع واحد يفى بالحاجة ، وظلت الخدمات الصحية المجانية غير متوفرة وإن توافرت فبشروط كما ذهب أيضاً إلى أنه لم تعد الطبقة العاملة قادرة على قيادة عملية التغيير مادام النظام قد اشترى ولاءها أو استوعبها فى إطاره إلا أن هناك جماعات أخرى لم يستطع النظام استيعابها بحيث يمكن أن تكون الشرارة التى توقظ الآخرين كالمثقفين والطلاب والأقليات وأقطار العالم الثالث .

ومن الأفكار الهامة التى تمسكت بها المدرسة النقدية وانطلقت منها هى فكرة الهيمنة ، ولتوضيح فكرة الهيمنة نضرب المثال التالى ، فلو أن أحداً هيمن على أحد ، فإنه قادر بشكل ما على جعله يعمل ما يرغبه هو أن يعمله ولو هيمنت على زوجتى فإنها ستنفذ ما أريد وستخضع شخصيتها وحريتها فى الحركة لمتطلبات حياتى ، ولو لم تكن هناك هيمنة فلربما عاشت حياة مختلفة ، وهنا يهتم منظرى المدرسة النقدية فى الكشف عن الطريقة التى يهيمن بها النسق ، أى الطريقة التى يجبر فيها النسق الناس ويستغلهم ويخدعهم من أجل ضمان تجدده واستمراره.

كما أوضحت المدرسة النقدية كيف أن المجتمع القائم هو مجتمع غير عقلانى أو قمعى وذلك لأنه يسلب أو يدمر السمتين الأساسيتين للحياة الإنسانية وهما :-

قدرة الإنسان على تحويل بيئته ، وقدرته على القيام باختيارات عقلانية جماعية تتعلق بحياتنا جميعاً .

كما أن منظرى المدرسة النقدية يرون أن المجتمعات اليوم ، الشرقية منها والغربية هى كيانات أو وحدات كلية شاملة Totalities بالمعنى السيئ لما يعنيه النظام الشمولى Totalitarian فهى كيانات متحدة امتصت وأزاحت كل معارضة حقيقية ، وهذا يعنى أن فكرة الكل لم تعد مرتبطة بتحرير الإنسان بل أصبحت مرتبطة بقهره ، وأصبحت محاولة اكتساب المعرفة الكلية الشاملة هى بالضبط هدف المجتمع الشمولى وليس المعرفة العقلية كما تصور لوكاش .

كما يمضى أدورنو قائلا أن النسق (النظام الرأسمالى) مازال يولد سفورا بعدم الأمان الاقتصادى ، لأن أى نسق يستبعد القدرات الإنسانية الأساسية يخلق شعورا بعدم الأمان ، والشعور بأننا نملك قوة لا يمكننا استخدامها هو شعور مدمر .[(١)]

كما رفضت المدرسة النقدية مقولات الوضعية وخاصة مقولة التوازن والاستقرار أو بالأحرى رفض فكرة قبول النظام الرأسمالى كمعطى والتسليم به والعمل على عدم تغييره ، وقد رأى منظرى هذا الاتجاه أن الوضعية تعرضت لانتقادات حادة نظرا لإغراقها فى البحوث الأمبريقية والرؤى التجزيئية ، وقد تمثل البديل الفكرى لديهم فى استخلاص وتبنى مقولات التفسير الشمولى للمادة التاريخية ، أى أن الملمح الذى يمكن إدراكه من خلال القراءة النقدية لأنصار هذه المدرسة يتضح فى رفضهم المعلن للنظام

---

(١) ايان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، مرجع سابق ، ص ص ٣١١-٣٢٦ .

الرأسمالى القائم بل قد ندعى أن أعمال منظرى هذه المدرسة تكاد تنحصر فى مجملها فى نقد الواقع الرأسمالى للمجتمعات الغربية ذلك الواقع المتناقض المستغل الذى يفرز بل ويحتم ظهور العديد من المشكلات الاجتماعية دون تقديم بديل ثورى لتحقيق التغيير الجذرى للمجتمع الرأسمالى .[٢]

(ب) المقولات الأساسية للمدرسة النقدية :

١- **العلم والمجتمع** : حيث يعد العلم جزء من المجتمع وليس خارجاً عنه ففى العلوم الاجتماعية وغيرها من العلوم لا يخرج موضوع العلم عن كونه جزءاً من المجتمع ، وهو الذى به يرتبط العلم بالمجتمع ، إن بنية العلم الحديث واحدة من ظواهر تكون الطبقة الوسطى الناشئة عن العالم السابق للرأسمالية وليس هناك علم خالص خارج عن العلاقات الاجتماعية.

ومن هنا تكون النظرية النقدية كما تصورها هوركهيمر شكلاً لموقف اجتماعى وهى لا تفترض نفسها جاهزة فى المجتمع ، لا تحاول إلا مجرد فهمه ، بل تحاول فهم قوانين المجتمع من خلال نقدها والعمل على تغييرها .

٢- **طبيعة العالم الراهن** : حيث يرون أن العالم اليوم أصبح يشير إلى البطالة ، والشقاء وحب الاستغلال ، ويؤكد على ضياع الإنسان والضمير

---

(٢) انظر فى هذا الصدد ، عبد الباسط عبد المعطى ، عادل الهوارى ، النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ص ٤٠٩-٤٣٠.

الكاذب ، فالناس يظنون أنـهم يعملـون مـن تلقـاء أنفسـهم علـى حـين أن سلوكهم موجه من الواقع بآليات اجتماعية ، فليس هناك إنسان له أفكاره الذاتية ، والذى يسمى بالرأى العام ليس الانتاج البيروقراطيات الحاكمـة عامة كانت أم خاصة .

٣- **النظرية النقدية** :إذ أن النظرية النقدية تسعى وراء مجتمع أفضـل يتـم فيه التطابق بين الضرورة والحرية فى انعتـاق الإنسـان وتحـرره وإشـباع حاجاته ، كما يؤكد أدرونو أن كل [٣] فهم للكل ككل يصبـح دكتاتوريـة ، ما لم يظهر فيه النقيض (الفردى) وفى الواقع إن النظرية النقدية أصبحت نظرية ذات جاذبية لدى فئات كبيرة من الناس ، وبعد أن كـانت نظريـة هامشية وفلسفية فى جزئها الأكـبر لسـنوات طويلـة أصبحـت بـين ليلـة وضحاها فى الستينات والسبعينات ليـس فقـط نبراسـاً للتفكـير السياسـى للقوى الفاعلة فى الحركة الطلابية بل وهادياً للأكاديمين الراديكاليين فى إيجاد أساس فكرى لعملهم غير أن هذه النظرية قد بدأت تتراجع أفكارها إلى الوراء أو طالها يد النسيان خاصة بعد ظهور تلك الموجة من النظريـات البنيوية ونظريات ما بعد الحداثة التى اجتذبت إليها علمـاء الاجتمـاع ، وربما يرجع ذلك إلى أن النظرية النقدية قد صـاغت أفكارهـا فـى مسـتوى عال من التجريد أو من العمومية بلغـة علـم الاجتمـاع . إلا أنـهـا لا تـزال تسـتهوى بعـض أنصـار التيـار النقـدى، والأنـــثروبولوجى ، والعنـــاصر البرجوازية الصغيرة التى تبحث عن طريق ثالث فى السياسة والاجتماع .

---

(٣) خضر زكريا ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

خامساً :- النظرية التفاعلية الرمزية Symbolic inter actionism

يلاحظ من التحليل السابق للنظريات الاجتماعية السابقة ، سواء من أنصار النظريـة البنائيـة الوظيفيـة أو الماديـة التاريخيـة أن كلاهمـا يتصـور المجتمع كله بشكل محدد ، فالوظيفية المبكـرة تصـورت المجتمـع علـى أنـه كائن حى عضوى ، والوظيفة المعاصرة تصورته على أنه يمثل النسـق ، كذلـك تصورت الماركسية شكل المجتمع على أنــه يمثـل البنـاء المعمـارى لـه بنـاؤه التحتى الذى يقابله البناء الفوقى ، وهذا التحليل لبنية المجتمع وتنظيماتـه المختلفة يسـمى بمنـهج التحليـل الكلـى Macro Analysis وهـو نمـط مـن التحليل يختفى منه دور الفرد فى تشكيل ملامح الظـاهرة الاجتماعيـة . بـل أن صورة الفرد فى هذه المنظورات الفكرية تبدو باهتة غير محـددة المعـالم . حتى إن الناس تتبدى فى ضوء هذه الاتجاهات كما لـو كـانت دُمـى تتحـرك على مسرح العرائس تحركها أصابع المجتمع لكن الفرد فى الواقع ليس دمية تتحرك على المسرح الاجتماعى بلا وعى ، ومهما كانت الظواهر الاجتماعيـة التى نحاول صوغ تصورات عنـها ، فإننـا نواجـه الإنسـان الـذى يؤكـد ذاتـه كعنصر أساسى فى هذا التحليل وذلك التصور ، فعندما يتوجه الباحث نحـو دراسة السلوك الاجتماعى ، فالإنسان أو الفرد هو الذى يقوم بهذا السـلوك ، وعندما يتجه التحليل صوب التفاعل الاجتماعى ، يظهر الفرد كشريك يسهم فى هذا التفاعل ، وعندما تتناول الدراسة العلاقات الاجتماعيـة يبـدو الفـرد طرفاً فى هذه العلاقات . وإذا دار البحث حول الجماعات ظهر الفـرد عضـواً فى هـذه الجماعـات وإذا لمست الدراسـة البنـاء الاجتمـاعى ككـل أو النسـق

الاجتماعى الفرعى تبدى الفرد شاغلا لأوضاع اجتماعية أو قائما بأدوار محددة فى النسق الاجتماعى .

وبناءً على هذا أصبح هناك من ينادى بأن يصبح الفرد أو السلوك الفردى هو بؤرة التحليل وليس المجتمع ، وهو ما يسمى بنمط التحليل على المستوى المصغر Micro Analysis وأطلق على هذا المنظور اسم التفاعلية الرمزية .[٤]

ويعد جورج هربرت ميد Mead وتلميذه أرفنج جوفمان Goffman أول من صاغوا مبادئ نظرية التفاعلية الرمزية ،

أ- المنطلقات النظرية للتفاعلية الرمزية .

ينطلق هذا المنظور من مقولة أساسية تشير إلى أن التفاعل مع الآخرين هو أكثر العوامل أهمية فى تحديد السلوك الإنسانى ، والرمز شىء يعبر عن معنى شىء آخر ، فمثلاً السيارة ذاتها رمز يشير إلى الثروة أو المكانة الاجتماعية ، والكلمات التى ننطق بها ونكتبها رموز تكشف عن معنى يتفاوت حسب السياق الذى يوجد فى إطاره تبادل الكلمات .

ومعنى هذا إننا لا يمكننا فهم السلوك الإنسانى دون أن نعرف الإطار أو السياق العام الذى يحدث فيه هذا السلوك أى ينبغى النظر إلى كل سلوك اجتماعى فى إطار السياق الذى يحدث فيه ، حتى يمكن تحديد وفهم

---

(٤) انظر حكمت العرابى ، النظريات المعاصرة فى علم الاجتماع ، الطبعة الأولى ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٩٩١ . ص ص ١٨٥-١٨٦

معناه ودلالته الحقيقية (٥). وبهذا فإن نظرية التفاعل الرمزى قد نقلت المجال المحدد للسلوك البشرى من البناء الاجتماعى الذى تلح الوظيفية على أهميته إلى المواقف المباشرة التى يحدث فيها هذا السلوك . وبالتالى فالتفاعلية الرمزية ، إذ تؤكد على عمليات التفسير ، والفهم والتقييم ، والتعريف ، والتخطيط ، فإنها توجه الاهتمام إلى التأثير الحاسم والمقرر للتفاعل على كل من الفرد والمجتمع . ومن ثم فبدلاً من أن تكون الطبيعة الرمزية للتفاعل مجرد وسيلة تشكل من خلالها الأبنية الثقافية ، والاجتماعية والنفسية التى يتضمنها السلوك مسبقاً ، فإن الطبيعة الرمزية للتفاعل تؤكد على تغيير وتحوير الأبنية الاجتماعية والنفسية والثقافية من خلال تغير تعريفات البشر وأنماط سلوكهم (٦) أى أن التفاعلية الرمزية تركز على :-

أ- الطريقة التى يستخدم بها الناس الرموز لما يقصدونه لكى يتواصلوا مع الآخرين . (وهذا هو الاهتمام بالتفسير التقليدى) .

ب- بآثار أو نتائج تلك التفسيرات لهذه الرموز على السلوك الفردى أثناء عملية التفاعل الاجتماعى . (٧)

---

(٥) Jones, P., Studying Society (Souological Theories and Research practices, op cit, P. 83 .

(٦) جو ناثان تيرنر ، بناء نظرية علم الاجتماع . ترجمة محمد محمد سعيد فرح ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

(٧) Jones, P., op cit, P. 83.

وتقف النظرية التفاعلية الرمزية ، معارضة لكافة التقاليد الراسخة فى علم الاجتماع من حيث التنظير دون الانغماس المباشر اللصيق بالظواهر التى تقوم بالتنظير لها ، وتنادى هذه النظرية باستخدام طائفة واسعة من أدوات وطرق البحث خصوصاً الملاحظة بالمشاركة ، وتاريخ الحياة ، والمقابلة المتعمقة ، وتركز هذه النظرية على ثلاث اهتمامات أساسية :-

(١) البشر هم عناصر مميزة فى كونهم حيوانات تستخدم رموزاً معقدة . ورغم أن البشر يعيشون وسط عوالم مادية موضوعية إلا أن عالم الاجتماع لابد وأن يستوعب بصورة كافية المعانى المميزة التى يقيمها البشر فى مواجهاتهم الاجتماعية .

(٢) مثل هذه المعانى ليست ذات صفة عمومية أو ثابتة أو مطلقة ، وإنما هناك ازدواجية فى المعانى والتى تتحول عبر الزمان (التاريخ) والمكان (الثقافة) والبيوجرافيا ، ويتصف المعنى بالغموض ، ولا يؤخذ أبداً كمسألة مسلم بها ، وإنما يجب تحرى مدلولاته مع ظهوره وتفاوض أمره بين الجماعات ، وبهذا فإن النظرية تشجع بدرجة قوية على دراسة العمليات Process دون البنى الجامدة . (٨)

وتتكون النظرية التفاعلية الرمزية من مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الفنية الأساسية التى كان لها تأثير كبير فى تقديم تفسيرات اجتماعية متباينة عن هذه النظرية ومن أهم هذه المفاهيم .

---

(٨) ميشيل مان ، موسوعة العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٧٠٣ .

(ب) المفاهيم الأساسية للنظرية التفاعلية الرمزية :

١- مفهوم الذات Self

يعتبر مفهوم الذات من المفاهيم الأساسية فى النظرية التفاعلية الرمزية، والذات ببساطة عبارة عن تصور الشخص لنفسه ككل أو كوحدة ، دون أن يذكر شيئاً عن الطريقة التى يمكن بها التوصل إلى هذا التصور ، ويرجع الفضل لجورج هربرت ميد Mead صياغة هذا المفهوم من الناحية السوسيولوجية ، فى كتابه Mind, Self and Society إلى أن الذات اجتماعية أساساً وأن الفرد من خلال عملية التفاعل الاجتماعى يتضمن تمثيل ضمنى لأدوار الآخرين يستطيع أن يكون تصوراً عن ذاته يستند على استجابات الآخرين له . (٩)

فتصورنا عن الذات هو نتاج طريقة تفكير الآخرين فينا ، ويعتمد على تحليل اتجاهات الآخرين نحونا ، بمعنى التعبير التالى :-

I am what I think you think I am.

فأثناء حياتنا نحن نواجه بعدد كبير من الناس ، كل واحد منهم يأخذ سلوكنا نحوه ليرمز إلى شيء ما عن ذواتنا ، وهم يفسرون سلوكنا فى ضوء دليل ما هم اعتقدوه أو اشترطوه . وهم يتصرفون نحونا فى ضوء هذا التفسير ، مسترشدين بواسطة المعنى الرمزى المتاح لهم ، وما نوع الشخصية الذين هم قرروا أن تكون ، ففكرتنا نحن عن أنفسنا هى ذات تأثير حاسم

---

(٩) عاطف غيث (تحرير) قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٤٠٦ .

بردود فعل الأفراد الذين يأتون للاحتكاك معنا ، فتصور ذاتنا يتأثر بدرجة كبيرة ، إذا لم تخلق بواسطة تصور الآخرين لنا ، فعلى سبيل المثال فالعلاقة بين المدرس فى المدرسة الابتدائية بتلاميذه إنه كائن بشرى ، فالمدرس لا يستطيع أن يكون مساعدا ولكن أن يكون أحكاما عن الأطفال داخل الفصل ، خاصة عن قدراتهم ، والمساواة بينهم، وطبقا لهذا فإن الأطفال هم بشر أيضا ، فحكمهم على أنفسهم وقدراتهم سوف يتأثر بصورة أو بأخرى بأحكام المدرس عنهم . (١٠)

٢- مفهوم التفاعل . Interaction

تؤكد التفاعلية الرمزية على أن المجتمع هو الإطار أو المجال الذى تتشكل من خلاله الأفكار والأفعال الفردية ، وإن عملية التفاعل التى تحدث بين الأفراد هى بمثابة المجال الذى يعكس الواقع الاجتماعى بما يحتويه من أفكار وعلاقات وأفعال وغيرها (١١). وبالتالى تؤكد نظرية التفاعل الرمزى على عملية لعب الأدوار عندما يتبادل الناس فيما بينهم الإيماءات والإشارات ثم تفسيرها ، واستنادا إلى المعلومات التى يحصلون عليها أثناء تفسير تلك الإيماءات يستطيع الفاعلون أن يتدربوا على نحو مقنع على أداء مجموعات متعددة من الأنشطة المختلفة ، وعلى أساس ذلك يسلكون سلوكا جديدا يتضمن النشاط التعاونى المنظم ، بيد أن هذا الوصف يمثل الخطوط

---

(١٠) Jones, P., op cit, P. 84.

(١١) Ibid, P. 84-85.

العريضة لعمليات رمزية معقدة ترشد وتوجه التفاعل ، كما يتصور ذلك فـي الوقت الحاضر ، فالتفاعل الرمزى يتضمن عدداً من العمليات المحددة هى :

أ- رؤية الفاعلون بعضهم البعض باعتبارهم موضوعات فـي موقـف التفـاعل يختار الفاعلون موضوعات إضافية جديدة ويحددونها تحديداً رمزيـاً فـي أى موقف تفاعل .

ب- إصـدار الفـاعلون أحكامـاً مختلفـة علـى أداء السـلوك والموضوعـات الاجتماعية (الذات ، والمعايير ، والقيم) فى مواقف التفاعل فلكـى نفـهم إمكانيـات أداء سـلوك جماعـات الأفـراد فمـن الضـرورى أن نفـهم عـالم الموضوعات الذى يحدده الأفراد تحديداً رمزياً .

جـ- استخدام عمليـة التخطيـط مـن خـلال قيـام الفـاعل بتعريـف الموقـف بالاعتماد على الموضوعات والأحكام المتعلقة بأداء السلوك . واستخدام هذا التعريف كإطار عام لقياس نتائج السلوك .

د- يتضمن اختيار نوع معين من السلوك عمليات رمزية معقدة وبالتالى يحقق الفاعلون على سبيل المثال مطالب الآخرين الحاضرة ، والتصور عن الذات، والتوقعات المعيارية والأحكام الخاصة بالقدرة على أداء السلوك.

هـ- وعندما يسلك المرء السلوك المطلوب فإنه يجد نفسه فى حاجـة إلى إعـادة تخطيط السلوك عندما يفسر ردود أفعال الآخرين نحوه .[١٢]

---

(١٢) جوناثان تيرنر ، بناء نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) الرموز Symbols

يشير مفهوم الرموز إلى المعنى الموجود فى أذهاننا عن الأشياء المحيطة بنا فالرمز شيء يعبر عن معنى شيء آخر ، فعندما يصنع الإنسان فى أعلى سترته قطعة مستديرة مكتوب أو مرسوم عليها شيء ما ، فإن فى ذلك ما يرمز مثلاً إلى عضويته بالانتماء إلى جماعة أو إلى نادى رياضى أو اجتماعى أو إلى فئة خاصة من فئات المجتمع ، فالهلال الأحمر المعلق على زجاج سيارة ما يرمز إلى أن صاحب السيارة ينتمى إلى فئة الأطباء ، والكلمات التى ننطق بها ونكتبها رموزاً تكشف عن معنى يتفاوت حسب السياق الذى يوجد فى إطاره تبادل الكلمات ، والإشارات الجسمية رموزاً فالابتسامة (وهى إشارة جسدية) التى تظهر على وجهك عندما تقابل صديقاً لك فهى رمز يعبر عن معنى هو الترحاب والود . وعندما يقابلنى إنسان ما باسماً فإننى أفسر هذه الإشارة الجسدية تفسيراً محدداً قوامه أننى ألقى الترحاب من هذا الإنسان ، وهكذا فإن هناك رموزاً عديدة يستخدمها الإنسان فى حياته لتدل على معانى معينة ويمكن استنباطها من خلال أشياء ظاهرة وأخرى مجردة أو غير ظاهرة مثل المسميات والكلمات والرسوم التى يتم استخدامها دائماً للإشارة إلى شيء معين له تفسير فى عقولنا .

وبهذا فالرموز تلعب دوراً أساسياً فى حياتنا وفى توجيه سلوكنا فى مواقف التفاعل المختلفة ، كما أننا لا يمكن فصل الرموز عن ثقافة المجتمع بشكل عام ، حيث تعتبر الرموز جزء لا يتجزأ من المعرفة الثابتة التى ينقلها المجتمع إلى الأفراد من خلال أساليب التنشئة الاجتماعية المختلفة

للمساعدة على إدماج الأفراد فى الحياة اليومية عامة والحياة الاجتماعية خاصة .(١٣)

(جـ) الإجراءات المنهجية للتفاعلية الرمزية :

لقد انطلقت النظرية التفاعلية الرمزية من تصورات منهجية محددة وخاصة بها توجه عملية البحث الاجتماعى ، إذ أنها ترى أن الحياة الاجتماعية بالغة التعقيد وتتشكل من عمليات متشعبة ومفصلة ، ولا يتوافر لدينا إلا قدرا محدودا من النتائج حولها ، وبالتالى فلقد رأى هربرت بلومر Blumer ضرورة العمل على اكتساب معرفة مفصلة وودية لمختلف الظواهر الاجتماعية ليس على أساس اتباع مناهج العلوم الطبيعية وإنما على أساس تطوير إطار منهجى كيفى يزيد من إحساسنا لتلك المسائل التى تميز الحياة الاجتماعية من خلال فهم العالم الاجتماعى بنفس الطريقة التى يفهمه بها الأشخاص الذين يقوم بدراستهم ، وعليه أنّ يكون مستعدا للعيش معهم فى كل جانب من جوانب نظامهم اليومى ، وأن يهدف إلى تحقيق الفهم التعاطفى والحساس لنظرتهم العامة للعالم الاجتماعى ، وأن يهدف كذلك إلى فهم كيف أن هذه العمليات التى نتحدث عنها من خلال عباراتنا التجريدية فى علم الاجتماع (مثل معدلات المواليد ، والأدوار الاجتماعية وانساق السلطة . . الخ) بحيث يمكن النظر إليها على أنها أنماط منظمة للسلوك

---

(١٣) Brown C. H., Under standing society (An introduction to sociological theory, London, 1981, PP. 113-115.

والتفاعل الاجتماعى عبر نطاق الخبرة اليومية [١٤] واستنادا إلى تلك الرؤية المنهجية فقد وجه منظرو التفاعلية الرمزية مثل هربرت بلومر مجموعة من الانتقادات ضد النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعى ، وشكك هذا النقد فى مدى جدوى عمليات البحث وإجراءاته العلمية - على غرار مناهج العلوم الطبيعية - فى الكشف عن العمليات الرمزية التى تكون وتدعم الأبنية الاجتماعية والشخصية . كما أن إجراءات البحث التجريبية تؤدى إلى انحراف التحليل بعيدا عن الفحص المباشر للعالم التجريبى للمحاباة أو التحيز لمقولات قبلية تفترض ما هو حقيقى، وعلى هذا تفترض التفاعلية الرمزية ضرورة النظر إلى البحث كعملية من عمليات التفاعل الرمزى يأخذ الباحثون فيها دور الأفراد الذين يدرسونهم ويتعين دراسة عمليات التفاعل من خلال مجموعة من المفهومات تجعلهم يتأثرون بعمليات التفاعل بدلا من بناء صورة فجة مسبقة عن موضوع البحث . ويساعد هذا المدخل الباحثين على تأكيد الفرق بين مفهومات العلم والمفهومات التى تتعلق بالأفراد المتفاعلين موضوع الدراسة .

ولقد رأى بلومر أن عملية البحث العلمى يجب أن تتم على مرحلتين أساسيتين هما :

المرحلة الأولى : الاستقصاء . حيث يدرس الباحثون المواقف المحسوسية لما يقبل ويخضع للملاحظة . ثم يراجعون ملاحظاتهم عندما تظهر انطباعات

---

(١٤) على جلبى .-الاتجاهات الأساسيه فى نظريه علم الاجتماع مرجع سابق ص ص ٢٤٧- ٢٤٨

جديدة للموقف .

المرحلة الثانية: ومن هذه المرحلة يتعين على الباحث فى عملية البحث أو الاستقصاء هذه فهم تعريف كل فاعل للموقف وعلاقة ذلك التعريف بالموضوعات التى يدركها الفاعلون وعلاقة الموضوعات غير المحددة والجماعات والتوقعات فى عالم الفاعل الاجتماعى سواء كان ذلك العالم فى الحاضر أو فى المستقبل . وقد أثار الوضع المنهجى كثيرا من القضايا التى أثارت الجدل فى الكتابات النظرية ومن أهم هذه التساؤلات ، هل يمكن الاكتفاء بدراسة الجماعات والتنظيمات الاجتماعية ومختلف أشكال التنظيم الاجتماعى من خلال لعب أدوار الأعضاء ؟ وهل يمكن دراستها من خلال طرق بحث تعتمد قليلا على الحدس ؟ كيف يمكن استخدام مفهومات مثل الذات وتعريف الموقف فى دراسة الظواهر نفسها ؟ وهنا يوضح بلومر أن هذه التساؤلات وغيرها تبين عدم فهم أساس للبحث العلمى فى التفاعلية الرمزية، كما أكد بلومر بأن هناك أوجه قصور سائدة باستمرار فى ربط مفهومات علم الاجتماع بالأحداث الواقعية فى العالم التجريبى . وباختصار فإن عرض بلومر للوضع المنهجى للتفاعلية الرمزية يثير الشك فى إجراءات البحث المتفق عليها والمقبولة ، ومن ثم فهو يدعو إلى بديلين هما :-

أ- تكرار عملية الاستقصاء والفحص لفهم العمليات الرمزية التى تشكل التفاعل .

ب- إدراك أن المفهومات ترتبط بعمليات التفاعل المرنة التى تحدث فى العالم

التجريبى من خلال أنشطة البحث فقط [١٥] .

وطبقا لذلك كـان لهـذا الوضـع المنـهجى معـان أساسـية عنـد صياغـة نظرية علم الاجتماعيـة ، ورغـم المـيزات التـى قدمتـها النظريـة التفاعليـة الرمزية بقضية التفاعل والتى تفتقدها المنظورات الأخرى والتى تتمثـل فيمـا يلى :-

الميزة الأولى : أنهـا صححت عدم اهتمام منظورات الوظيفية والماديـة التاريخية بعمليات التفاعل الرمزى فى التنظيم الاجتماعى .

الميزة الثانية : أن مفهومات هذه النظرية أكثر شمولا من الأنمـاط المحـددة للتفاعل والتى تهتم بها المنظورات الأخرى .

الميزة الثالثة : أنه يمكن استخدام مفهومات التفاعل الرمـزى لتشـمل مـدى واسعا من العلاقات الإنسانية مثل الصراع والتعاون والخضوع .

وبرغم هذه الميزات إلا أن هناك عددا من نقاط الضعف رغم الأهميـة التى تضفيها تلك الحقائق على التفاعلية الرمزية فمعظم قضاياها تتكـون مـن تأكيدات ضخمة فضفاضة تنص على أن المجتمع تفـاعل رمـزى دون أن تشـير إلى أنماط الظروف مهما كان نوع التفاعل الـذى يـؤدى إلى ظـهور وانبثـاق أى نمط من أنماط البناء الاجتماعى واستمراره وتغـيره فـى سـياق أى ظـرف مـن الظروف ، ومن القضايا الأخرى المتعلقة بالتفاعلية الرمزية عدم قدرتها على توفير مجموعة مفيـدة مـن المفـهومات التـى تصـف التفـاعل الـذى يتـم بـين التنظيمات الاجتماعية المختلفة

---

(١٥) جوناثان تيرز ، مرجع سابق ، ص ص ٢٤٢-٢٤٦ .

سادسا : نظرية التبادل Exchange Theory

يلاحظ فى إطار الهيمنة الكاملة لنظريات التحليل الكلى ظهور اتجاه نظرى جديد يحاول أن يجعل من الجماعة Group وحدة التحليل الأساسية فى علم الاجتماع، حيث أصبح هناك من ينادى مثل (هومانز فى كتابه الجماعة الإنسانية (١٩٥٠) بأن مهمة علم الاجتماع هى دراسة سلوك الجماعة، وبتحليل هذا السلوك إلى عدد من العناصر التى تتبادل الاعتماد على بعضها، حيث يؤكد أن دراسة الجماعة كنسق اجتماعى باق فى بيئة معينة. وقد أطلق على هذا المنظور اسم نظرية التبادل [١٦].

(أ) المنطلقات النظرية لنظرية التبادل :

يعد جورج هومانز Homans، وبيتر بلاو Blau من الرواد الأساسيين لنظرية التبادل التى نشأت كرد فعل للنظريات الوظيفية، لأن الوظيفية تركز اهتمامها فى جانب واحد من الأفعال الاجتماعية المتبادلة، وعلى الدور الذى يلعبه النظام أو النسق داخل المجتمع لكن النظرية التبادلية تهتم بكلا الجانبين معا (الأفعال الاجتماعية أو المجتمع) . فالسمة المميزة لنظرية التبادل لا ترجع إلى اهتمامها بالطريقة التى يدعم فى ضوئها السلوك الاجتماعى نسقا اجتماعيا كما فى الوظيفة، بل يتوجه اهتمام نظرية التبادل أيضا نحو تحديد السبب فى قيام هذا السلوك الاجتماعى وثباته فى النسق الاجتماعى الذى يحدث فى إطاره.

ولقد تشكلت الروافد الأولى لنظرية التبادل من اتجاهين أساسيين:

---

(١٦) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

١- الاتجاه الفردى - النفعى Individual Approach

٢- والاتجاه الجماعى Collective Approach

ويتمثل الاتجاه الفردى فى دراسات كل من هومانز، وبيتربلاو وكلاهما يقيم تفكيره استنادا إلى الاتجاه النفعى الذى يرتكز على أن الناس ينشدون ويسعون سعيا عقلانيا إلى مضاعفة مكاسبهم المادية من خلال المقايضات والمبادلات مع الآخرين فى سوق حر مفتوح يقوم على التنافس ونظرا لتوجه نظرية التبادل نحو المذهب النفعى فإن هذه النظرية تقيم مماثلة بن ما يحدث فى التفاعلات الاجتماعية، وما يحدث فى المعاملات الاقتصادية فى الأسواق التجارية والمالية ولهذا يمكن تصور النموذج التحليلى لنظرية التبادل إذا نظرنا إلى تفاعل يحدث بين شخصيتين، كلاهما يهتم بعنصر تبادل العلاقات مع الآخر، ولكن هذا التبادل بين كليهما يقوم على أساس نفعى حيث يحسب كل طرف مقدار الفائدة أو المصلحة التى سيحصل عليها من هذا التفاعل الاجتماعى، كما أن كليهما ينظر بعين الشك وانعدام الثقة إلى الطرف الآخر(١٧).

وبهذا يعرف التبادل باعتباره نمطا خاصا من الترابط، ليتضمن أفعالا تتوقع مكافآت من الآخرين كرد فعل، وتتوقف هذه المكافآت عندما لا تتحقق ردود أفعالهم المتوقعة، ويرى بلاو أن التبادل لا يتحقق إلا فى إطار تلك العلاقة التى يتم من خلالها توقع وتلقى المكافآت من آخرين محددين

---

(١٧) حكمت العرابى، النظريات المعاصرة فى علم الاجتماع. مرجع سابق. ص ص ١٧٨ - ١٧٩.

مميزين. ولذا قدم بلاو مفهوم الأنشطة المتبادلة ليصور تلك السلوكيات التى توجه إلى أهداف محددة أو للحصول على مكافآت وهذا يتضمن أن الفاعلين يختارون - من بين عدة مبادئ محتملة - مجموعة خاصة من الأفعال التى ستؤدى إلى منح مكافآت متوقعة. ومن ثم يصور الفاعلون نظريا فى سعيهم للحصول على المكافآت واختيارهم مجموعة بديلة من السلوك باعتبارهم فاعلين يسعون إلى الكسب (مكافآت بأقل التكاليف) من خلال علاقاتهم مع الآخرين.

وهكذا استخدم بلاو المفهومات الأساسية فى كل نظريات التبادل، المكافآت والتكلفة والربح، ولكنه حد من تطبيقها فى مجال العلاقات مع الآخرين الذين يتوقع منهم المكافآت. وتعريف التبادل هذا ضيق ومحدود بشكل أكثر من تعريف هومانز الذى يتضمن كل الأنشطة باعتبارها تبادلا بصرف النظر عما إذا تم توقع المكافأة أو استلامها بالفعل. كما قدم بلاو مجموعة من الافتراضات النظرية التى تحكم عملية التبادل على النحو التالى:

المبدأ الأول : كلما زاد المكسب الذى يتوقعه الشخص من الآخرين عن أداء نشاط معين، ازداد احتمال أدائه لهذا النشاط، ويتبع هذا المبدأ نتيجة مماثلة وهى أن الناس أكثر احتمالا لأداء نشاط ما كلما ازداد نجاحهم فى إدراك نوع النشاط الذى يؤدى إلى الحصول على مكافأة، وبهذا يتضح أن هومانز وبلاو يستخدمان من الناحية العملية هذا المبدأ نفسه.

المبدأ الثانى : كلما ازداد تبادل الشخص للمكافآت مع الآخرين ازداد احتمال إثبات الالتزامات المتبادلة التى توجه التبادلات اللاحقة بين هؤلاء الأشخاص.

المبدأ الثالث : كلما ازداد انتهاك التزامات التبادل أثناء علاقات التبادل، ازداد اتجاه الأطراف المحرومة لفرض عقوبات سلبية على هؤلاء الذين ينتهكون المبدأ الرابع عند هومانز حيث يسعى الفاعلون إلى المكافآت البديلة حتى يتناقص مستوى الإشباع.

المبدأ الرابع : كلما ازداد توقع المكافآت نتيجة أداء نشاط معين، قلت قيمة النشاط، ومن ثم قل احتمال أدائه بالتالى.

المبدأ الخامس : كلما ازداد رسوخ علاقات التبادل ازداد احتمال سيطرة تأثير معايير التبادل العادل على هذه العلاقات.

المبدأ السادس : عندما لا تتحقق المعايير التى تحكم العدالة أثناء التبادل ازداد ميل الأطراف المحرومة إلى معاقبة هؤلاء الذين ينتهكون المعايير.

المبدأ السابع: كلما ازداد استقرار وتوازن علاقات التبادل بين الوحدات الاجتماعية، ازداد احتمال تحول علاقات التبادل الأخرى إلى حالة عدم استقرار وخلل وعدم توازن.

وعندما صاغ بلاو مفهومات التبادل وادمجها فى هذه المبادئ السبعة الأساسية، هيأ المناخ العلمى لتحليل العمليات الاجتماعية ذلك التحليل الذى يضم عناصر متعددة من الوظيفية، والمادية التاريخية، والتفاعلية الرمزية

وأشكال أخرى إلى نظرية التبادل[18]. أما الاتجاه الجماعى لنظرية التبادل فيرجع إلى المدرسة الفرنسية فى الأنثروبولوجيا، ويرتبط بكل من مارسيل موس Mauss وليفى شتراوس Levi- Strauss ويقوم الاتجاه الجماعى على أساس إقرار وجود قدر من التبادل يستند إلى قيم مشتركة، وثقة متبادلة بين أطراف هذا التبادل، ذلك أن كل طرف يدرك أن الأطراف التى تدخل فى عملية التبادل ستوفى بالالتزامات التى تفرضها الجماعة أو يتطلبها المجتمع، أكثر من أن يكون تحقيق المصلحة الذاتية هو أساس عملية التبادل الاجتماعى كما يذهب إلى ذلك الاتجاه الفردى.

فلقد صاغ مارسيل موس الصورة العامة لمنظور التبادل الجمعى (أو التبادل البنائى) ويرى موس إن السؤال الأساسى والذى يطرح نفسه هنا: ما المبدأ الذى يلزم الشخص رد مقابل الهدية التى قبلها من قبل فى المجتمعات البدائية؟ وما القوة الكامنة فى الشىء التى تلزم قابل الهدية أن يردها؟

وهنا يرى موس أن القوة التى تلزم بالتبادل هى المجتمع أو الجماعة، إذ أن الجماعات وليس الأفراد هى التى تواصل التبادل، وتقوم بالتعاقدات وترتبط بالتزامات معينة، فالأفراد الذين يتبادلون فيما بينهم هم أشخاص يتمثلون القواعد الأخلاقية للجماعة، وتتم تعاقدات المبادلات بين الأفراد وفقا للقواعد التى تشرعها الجماعة، بينما تدعم تعاقدات التبادل فى الوقت نفسه هذه القواعد والقوانين. وهكذا يرى موس ضرورة أن يحل مفهوم الأفراد باعتبارهم ممثلين للجماعات الاجتماعية فى التحليل النهائى

---

(١٨) جوناثان تيرنر، مرجع سابق، ص ص ٣٥٦ – ٣٥٩ .

محل المصلحة الذاتية الفردية عند النفعيين. لكن برغم أن موسى كان أول من وفق بين مبادئ التبادل فـى النزعـة النفعيـة والفكـر البنـائى الجمعـى عنـد دوركايم، فـإن دراسـات مـوس قـد نـالت اهتمامـا ضئيـلا مـن جـانب علمـاء الاجتماع(١٩).

كما يؤكد كلود ليفى ستراوس أن نظام التبادل هو الذى يفسر الأشياء وليس العكس، وإننا لا يمكننا أن نفهم التبادل فى إطار الدوافع الفردية فقط، إذ تعكس علاقات التبادل أنماط التنظيم الاجتماعى الموجود كوحدة متميزة قائمة بذاتها بعيدة عـن الاسـتعدادات النفسـية للأفـراد، ومـن ثـم فالسـلوك الاجتماعى المتبادل تنظمه من الخارج المعايير والقيم وما يترتب على ذلك من إمكانية تحليل عمليات التبادل فى إطار النتائج والوظائف المترتبة على هـذه المعايير والقيم. ويفترض كلود ليفى سـتراوس ثلاثـة مبـادئ أساسـية تحكـم عملية التبادل وهى:

١- تتضمن كل علاقات التبادل تكاليف يتحملها الأفراد ولكن على خلاف التفسيرات الاقتصادية النفعيـة ترتبـط تلـك التكـاليف بـالمجتمع. أى ترتبط بقيم ومعايير المجتمع.

٢- تنظم المعايير والقيم كيفية توزيع الموارد النـادرة وذات القيمـــة فـــى المجتمع سواء كانت موضوعات مادية مثل الزوجات أم موارد رمزيـــة

---

(١٩) أنظر: مارسيل موسى، علم الاجتمـاع والأنثروبولوجيـا، بحـث فـى الهبـات والهدايـا الملزمة، ترجمة محمد طلعت عيسى، الطبعة الأولى، د.ن، ١٩٧١م.

مثل التقدير والمزايا.

٣- تنظم معايير التبادل كل علاقات التبادل، وتفرض على هؤلاء الذين يقبلون موارد قيمة أن يردوا مثيلاها في القيمة إلى من قدم الهدية[٢٠].

أى أن الفكرة الأساسية فى مفهوم التبادل عند ستراوس هى وجود أنماط مختلفة من التبادل تحددها القيم والمعايير.

وعلى هذا نستطيع أن نقول أن نظرية التبادل تنظر إلى السلوك الاجتماعى على أنه عملية يزود فيها كل فرد الطرف الآخر الذى يدخل معه فى مبادلات اجتماعية بالخدمات والمنافع التى يرى كل طرف أنها ذات قيمة لديه، ولكى يتحقق استمرار عملية التبادل بين الأطراف لابد أن يدرك كل طرف أهمية الخدمات التى يؤديها له الطرف الآخر.

ب- المفهومات الأساسية لنظرية التبادل :

لقد صاغ هومانز عددا من مفهومات التبادل الأساسية هى:

النشاط : سلوك إنسانى يهدف إلى الحصول على مكافآت .

المكافآت: هى أى شئ يتلقاه الشخص أو أى نشاط يوجه إليه، ويعرفه الشخص بأنه شئ له قيمة .

القيمة : القدرة على إشباع حاجات أى نشاط عند الفرد سواء أكان نشاطا صادرا عنه أو نشاطا موجها نحوه.

المشاعر : هى أنشطة يتواصل من خلالها الأفراد سويا باستخدام مكنوناتها الداخلية مثل الحب والكراهية والقبول والرفض.

---

(٢٠) جوناثان تيرنر، مرجع سابق، ص ص ٢٨٨ - ٢٩١.

التفاعل : أنماط السلوك التى يوجه الأفراد من خلال أنشطتهم للحصول على مكافآت وتجنب العقوبات من بعضهم البعض.

المعايير: أحكام لفظية- ونمط نشاط- ويعرف الناس من خلالها أنواع النشاط التى يجب أن تحدث فى الموقف أو التى لا ينبغى أن تحدث.

التكاليف : نشاط عقابى أو مكافأة بديلة تستثمر للحصول على مكافأة أخرى.

الاستثمارات : أنشطة ماضية تتعلق بالشخص (مثل المهارة، والتعليم،والخبرة ، والمعرفة) وخصائص اجتماعية (كالجنس، والعمر، والعرف) والتى تستحضر فى الموقف ويقيمها كل من الشخص وهؤلاء الذين يتفاعل معهم.

المكسب: حساب المكافآت بعد خصم التكاليف والاستثمارات والتى ارتبطت فى المشاركة بنشاط معين.

عدالة التوزيع : أنشطة تتضمن حساب ما إذا كانت التكاليف والاستثمارات تؤدى إلى حصول الأفراد على مكسب عادل فى موقف التبادل [٢١].

ورغم أن نظرية التبادل جذبت اهتمام الباحثين والعلماء باعتبارهما بداية الطريق لنظرية عامة يمكن أن يقاس عليها الأساس لتحقيق الوحدة فى العلوم السلوكية نظرا لما تحويه من مجموعة منسقة من الفروض والمفاهيم المترابطة مع بعضها تشبه تلك الأنساق النظرية التى توجد فى العلوم المتقدمة، كما أنها أثارت الاهتمام إلى العمليات التى يتم بواسطتها تشكيل

---

(٢١) نفس المرجع السابق، ص ص ٣١٢ - ٣١٣ .

العلاقـات الاجتماعيـة فـى صورهـا المتعـدده   إلا ان نظريـة التبـادل قـد واجهت انتقادات عديدة من اهمها أنها نظريه ليست جديدة بالنسبة للفكـر الاجتماعي ذلك أنها تكاد تستقر على الأسس نفسها التى أقيم عليها الاتجاه النفعـى الاجتمـاعى كما أنـها مليئـة بالأفكـار الغامضـة الفضفاضـة وتحمـل قضاياها بعض الأخطار المنطقية التى تكشف فى النهاية على أن هذه القضايـا إن هى إلا تحصيل حـاصل. كمـا أن معظـم نتائجـها لا تكـاد تصـدق إلا علـى الجماعات الصغيرة، كما أنها أغفلت العمليات الخاصة بالقـهر والإلـزام فـى العلاقات التبادلية، تلك الصور التى أبرزتها النظريات الصراعيـة أو الماديـة التاريخية.

سابعا : المنظور الفينومينولوجى (الظاهراتى)

يعـد إدمونـد هوسـرل (١٨٥٩ – ١٩٣٨) المفكـر الرئيسـى وراء نشـأة المنظور الفينومينولوجى، حيث أكد أن العلم الوضعـى السـائد فـى عصـره فـى أزمة حادة وأنه من الضـرورى البحـث عـن علـم جديـد، ويدعـو هوسـرل إلى دراسـة الظواهـر بمعنـى دراسـة المعطيـات أو الوقـائع التـى تبـدو للوعـى أو الشعور لكى يتم التعرف علـى هـذا الـذى نعرفـه أو ندركـه أو نستشـعره أو نفكر فيه دون وضع فروض أو تفسيرات، وهنا يؤكد هوسرل على نقده للعلوم الطبيعية ورفضـه للنزعـة التجريبيـة ويدعـو إلى الدراسـة الوصفيـة البحتـة لوقائع الفكر والمعرفة على نحو ما نحياها فى صميم وعينـا دون الأخـذ بأيـة نظرية من نظريات المعرفة كنقطة انطلاق لها، وأن الفكرة الرئيسـية لأعمـال

---

(٢٢) حكمت العرابى مرجع سابق، ص ١٧٧

هوسرل الفينومينولوجية هى فكرة عالم الحياة، وتشير هذه الفكرة إلى عـالم الواقع الملموس لخبرة الفرد المعاشة بعكس تفسير علماء الطبيعة لهذا الواقع ذاته وبناء على ذلك يؤكد هوسرل أن فكرة عالم الحياة وليس عـالم الطبيعـة هى أهم الأفكار الجديرة بالدراسة، ذلك العالم الذى تقوم عليـه كـل حياتنـا وأنشطتنا اليومية[٢٣].

أ - المنطلقات النظرية للمنظور الفينومينولوجى :

يمكن النظـر إلى المنظـور الفينومينولوجـى باعتبـاره رد فعـل محـافظ لفشل الوضعية والوظيفية فى مقابل الاتجاهات الراديكاليـة التـى تعتـبر رد فعل ثورى لفشل نفس هذه الاتجاهات ، واتجه منظرو الفكر الظـاهراتى مـن أمثال ماكس شيلر (١٨٧٤– ١٩٣٨) وهوفمان، والفريـد شـوتز، وجـارفنيكل وغـيرهم بنقـد الافتراضـات التـى يرتكـز عليـها الاتجـاه الوضعـى فـى علـم الاجتماع وكذلك الاتجاه الوظيفى، ومن هذه الانتقادات ذلك الافتراض المتعلق بوحـدة المنـهج العلمـى وبتشـابه الظـاهرات الطبيعيـة والاجتماعيـة وتقبـل الوضعية لواقع حياة الخبرة اليومية علـى أنـه حقيقـة قائمـة، واتجـهوا إلى المناداة بمنـــهج يناسـب دراسـة العـالم الاجتمـاعى الـذى يتمثـل فـى الوعـى القصدى لدى الأفراد، وما يتضمنه ذلك الوعـى مـن معـان، بمعنـى الاهتمـام بالمعنى الذى يضفيه الأفراد علـى العـالم الاجتمـاعى ووعيـهم بذلـك العـالم، فالعالم الاجتماعى فى اعتقاد الظاهراتية هو نتاج لتفسيرات ومقاصد الإنسان أى أنه عالم ذاتى،وبذلك فـإن دراسـة ذلـك العـالم يمكـن أن تتـم عـن طريـق

---

(٢٣) على جلبى. الاتجاهات الأساسية فى نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٨١.

أساليب مثل المحادثات وتحليل اللغة ودراسة روايات الناس عما يفعلون، ومحادثتهم وما يقولونه عما فعلوه، أى أن الاتجاه الفينومينولوجى يحول بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية من البحث عن الأسباب أو المحتمات إلى البحث عن النوايا أو المقاصد أو المعانى التى توجد فى عقول الأفراد.

وهذا يعنى أن أنصار الفينومينولوجية يرون أن معرفتنا بالعالم الفيزيقى إنما تأتى عن طريق خبرتنا الذاتية به، وهذه الخبرة هى التى تمكننا من إدراك جوهر الأشياء، وأن الوعى أو الشعور هو وسيلتنا لفهم العالم، فأى فهم لشىء موضوعى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعينا بذلك الشئ، ولا وجود للواقع مستقلا عن وعينا أو شعورنا وجوهر الأشياء هو ما يفهمه العقل الإنسانى من خلال الوعى عن طريق خبرته بالعالم، والموضوعية تتحقق عن طريق الذاتية أى عن طريق وعينا[٢٤].

ب - أسس المنهج الفينومينولوجى :

وهنا يرى فيركانت أن علم الاجتماع باعتباره يقتصر على دراسة الخصائص النوعية للمجموعات، وعلى تقديم نظرية عن التفاعل الاجتماعى ونتائجه على أساس أن يكون التركيز على العوامل الذاتية والداخلية و ليس على المظاهر الخارجية للتفاعل ، فعلم الاجتماع يختلف عن العلوم الطبيعية لأن الإنسان يتميز بخصائص عقلية تنجم عن معيشة أفراده سويا ، وهذه الحالات العقلية هى التى يجب أن يدرسها العلم الاجتماعى، ولذلك فإن العلم الفينومينولوجى هو المنهج الوحيد الصالح لعلم الاجتماع.ويسعى هذا

---

(٢٤) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٨.

المنهج نحو المفاهيم المطلقة، ويمكن إدراك هذه المفاهيم من خلال تأمل الحياة الاجتماعية الداخلية. بمعنى آخر عن طريق استيضاح طبيعتها الخاصة المميزة من خلال التأمل الداخلي للمراحل المختلفة أو حتى لمرحلة واحدة منها بشكل تخيلي. ثم يحاول الباحث الفينومينولوجي مقارنة المفاهيم التي توصل إليها بالمفاهيم الأخرى [٢٥].

وبهذا فإن المنهج الظاهراتي يتلخص في فحص عملية الوعي Awareness ويتطلب ذلك تركيز الاهتمام على جوانب الخبرة الشعورية، وليس على أساس التعبيرات الظاهرية للسلوك، أى على المعاني الكامنة للأشياء،ويحاول المنهج الظاهراتي بذلك من خلال تحليل الخبرة أن يكشف عن الاستعدادات الاجتماعية الأساسية، التي يفترض أنها المسئولة عن الحياة المشتركة، وهذه الاستعدادات الأساسية أو الجوهر essence يمكن اكتشافها فقط عن طريق التمييز بين الحالات العقلية حيث أن هناك بعض العمليات العقلية قد تبدو متشابهة ولكنها في الواقع مختلفة تماما، فالخجل على سبيل المثال يختلف عن الخوف من النتائج غير المرغوبة، وإذا ما درسنا المظاهر الخارجية فقط فإن مثل هذا الاختلاف لن يمكن اكتشافه [٢٦]، ومثال آخر فالثقة بالنفس مثلا تختلف عن الغرور والكبرياء،وإذا ما درسنا المظاهر الخارجية لهما فقط فن مثل هذا الاختلاف لن يمكن اكتشافه. وبالتالي مهمة علم الاجتماع الظاهراتي هي اكتشاف

---

(٢٥) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٤٣٥.

(٢٦) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

الجوهـر أو الخصـائص المسـبقة Apriori فـى الحيـاة العقليـة الإنسـانية المتبادلة. ووفقا لهذا التصور المنهجى رأى فيركـانت أن التحليـل الاجتمـاعى يجب أن يبدأ بالدراسة الفينومينولوجية للاسـتعدادات الداخليـة للأفـراد أو للغرائـز وهـى احـترام الـذات، والخضـوع، والمحاكـاة، والتعـاطف والألفـة الاجتماعية وغيرها.

كما قدم هارولد جارفينكل Garfincel اتجاها منهجيا ضمـن إطـار المنظـور الفينوميولوجـى عـرف باسـم اتجـاه المنهجيـة الشـعوبية EthnomeThodology ويركز هـذا المنـهج اهتمامـه علـى دراسـة الحيـاة اليومية باعتبارها فى ذاتها موضوعا للدراسة حيث إن فهم هذه الحياة يجب أن يكون أساسا لكل البحوث والنظريات الاجتماعية، وأن المنهجيـة الاثنيـة (الشعوبية) تعنى دراسة الطرق الشعبية التى يستطيع بها الناس أن يتفهموا وينتجوا سمات التفاعل والتنظيم الاجتماعى المتعدد الأطراف، غير أن غالبية معتنقى المنهجية الشعوبية لا يكتبون نظرية مجردة، إلا أنـهم أولا يحللـون الطبيعة الصريحة والمعبرة عـن نفسـها فـى أى موقـف اجتمـاعى، ويحللـون مساق الأفعال التى يتضمنها، كما أنهم يكشفون عن بنـى التفـاعل، وبـالرغم مـن أنـه لا توجـد طريقـة وحيـدة للمنهجيـة الاثنيـة إلا أن طريقـة تحليـل المحادثة Conversation Analysis تعد أكثر طرق الدراسة ثراء بالنسبة لذوى الاهتماماتالمنهجية الاثنية[٢٧].

ولذا فإن علم الاجتماع الذى يتبع المنهجية الشعوبية يجب أن يجعل

---

(٢٧) ميشيل مان، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

موضوع اهتمامه الأفراد العاديين، ويدرس الأنشطة اليومية الروتينية لهم ليكشف عن المعانى الخفية التى ورائها والتى تعتبر جوهر الحياة الاجتماعية، فهو يهدف إلى فهم الموقف الاجتماعى من الداخل كما يبدو للناس الذين يعيشونه أو كما يحسون به، ولهذا يرى فنيكل أن وظيفة علم الاجتماع هى الكشف عن الجانب المرئى للحياة الاجتماعية، وأن مخالفة المألوف هى التى تكشف عن وجود هذا الجانب غير المرئى(٢٨).

وصفوة القول أن الاتجاه الفينومينولوجى يصور الواقع الاجتماعى على أنه مجرد المعانى، والمقاصد، والخبرات الفردية. ويهمل تماما الأساس الاجتماعى والاقتصادى وتجاهل قضية الصراع رغم أن هذا يتعارض مع التحليل العلمى الواقعى للمجتمع، الذى يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات كما يعانى هذا الاتجاه (الفينومينولوجى) من الألفاظ الضخمة الرنانة، والحقائق البديهية التى نعرفها دون أن تضيف إلى معرفتنا شيئا جديدا كما أنه يجعل الإنسان عاجزا عن تغيير واقعه الاجتماعى ويدعو إلى التأمل فى ذاته.

ثامنا:- الخاتمة

حاولنا أن نعرض لأهم النظريات الاجتماعية المعاصرة ، والمطروحة بشكل عام على ساحة الجدل والنقاش فى علم الاجتماع ، وحاولنا أن يكون هذا العرض قائما على التحليل المتنوع ، والمتعمق والمتكامل ، وبشكل يسمح بإعطاء صورة موجزة عن المنطلقات الفكرية والاجتماعية بكل نظرية ، ثم

---

(٢٨) سمير نعيم أحمد، مرجع سابق. ص ٢٣٦ وما بعدها.

تناول أهم المفاهيم المتداولة فى إطار كل نظرية ، ثم أهمّ القواعد أو الأسس المنهجية التى تهتم بها كل نظرية أو تنادى بها ، ولقد اقتصر هذا العرض على تتبع الأصول الفكرية لبعض النظريات الهامة لأن الباحث الذى يحاول عرض كل النظريات فى علم الاجتماع يواجه بحشد هائل من النظريات والآراء لا المختلفة فحسب بل والمتضاربة والمتناقضة فى كثير من الأحيان ، وبالتالى فإن أصعب مهمة يواجهها هو البحث عن نقاط الاتفاق بين منظرى هذه النظريات فى علم الاجتماع ، وبالتالى ابتدأنا بالنظرية الوظيفية والنظرية المادية التاريخية باعتبارهما أكبر وأهم النظريات الكلاسيكية فى علم الاجتماع، ولا يستطيع قارئ أو باحث أو متخصصّ فى علم الاجتماع الاستغناء عن أفكار هذه النظريات ، فهما أشبه بالعمود الفقرى للنظرية الاجتماعية فى علم الاجتماع ، ثم انتقلنا إلى النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت) باعتبارها ظهرت كرد فعل لتلك النظريتين معا وإن كانت بعض جذورها قد نبعت من المادية التاريخية إلا أنهم انقلبوا عليها ، ثم عرجنا بعد ذلك على نظرية التفاعلية الرمزية ونظرية التبادل والنظرية الفينومنيولوجية باعتبارهما من أهم النظريات التى حاولت أن تنقل مجال الاهتمام فى علم الاجتماع من المجال العام وهو المجتمع إلى المجال الأكثر تحديدا وهى الجماعة والأفراد وجعلهما بؤرة التحليل فى علم الاجتماع ، والجدير بالذكر هنا أنه إذا كانت هذه النظريات جميعا تؤكد أهمية البعد السوسيولوجى فى تشكيل النظم والأنساق والأفكار الأساسية فى المجتمع ، وتأكيد أهمية هذا البعد (الاجتماعى) فى مدى تطور أو تخلف المجتمع ،

كما ساهمت هذه النظريات فى إثراء الفكر الاجتماعى المعاصر وتطوره ونموه، إلا أنه لم يتم التوصل حتى الآن إلى نظرية اجتماعية بها طابع الشمول والتكامل والتحليل المتعمق لواقع المجتمع وأبعاده المختلفة ، ومحاولة حل مشكلاته وقضاياه المختلفة حيث فشلت النظريات الوظيفية والمادية التاريخية وغيرها من النظريات التى ناقشناها سالفا من تكوين مجتمع آمن مستقر ، وهذا ما يدعوا المفكرين والعلماء والباحثين فى ضرورة العمل على البحث عن نظرية اجتماعية بديلة تتسم بالتكامل والشمولية والأصالة والخبرة ، وتنطلق من قضايا نظرية تعبر بالفعل عن واقع وهموم المجتمع الفعلية ومراعاة الخصوصية التاريخية والبنائية لكل مجتمع على حدة .

الفصل الرابع

المنهج فى علم الاجتماع

- مقدمة
١- مفهوم المنهج العلمى وخطواته.
٢- المنهج العلمى ودراسة الظاهرة الاجتماعية
٣- البحوث الاجتماعية وأنواعها
٤- طرق البحث فى علم الاجتماع
٥- أهم أدوات جمع البيانات
٦- خاتمة

مقدمة :

يسعى علم الاجتماع شأنه فى ذلك شأن علم النفس، والاقتصاد والسياسة والأنثروبولوجيا إلى فهم الظواهر الاجتماعية والسلوك الإنسانى فى مختلف البيئات الاجتماعية فهماً علمياً قائماً على أسس وقواعد المنهج العلمى، واستطاع الباحثون والعلماء فى علم الاجتماع أن يطوروا عدداً من الأساليب الفنية والبحثية التى تساعدهم على فهم الواقع الاجتماع فى إطار الالتزام بالقواعد الأساسية للمنهج العلمى، والمقصود بالمنهج هنا، المنطق الذى يقوم عليه البحث بجانب الأدوات التى تمكننا من الوصول إلى المعلومات أو الحقائق العلمية.

وأن أهم ما يميز البحث والمعرفة العلمية هى طريقة التناول المنهجى وخصائص هذه المعرفة العلمية، وتتميز المعرفة العلمية بأن لها أهدافاً أساسية تختلف من العلوم الأساسية (الرياضيات والكيمياء والطبيعة وغيرها) عن العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والسياسة وغيرها) إلا أنها تنحصر فى ثلاث أهداف أساسية هى أولهما التعرف على الظاهرة، وثانيها تفسير الظاهرة تفسيراً علمياً، وثالثهما التنبؤ بالظاهرة، وتعتبر هذه الأهداف أهدافاً عامة تظهر فى جميع مجالات المعرفة العلمية ولكنها لا توجد بنفس الدرجة لجميع أنواع الظواهر،فمثلاً فى مجال العلوم الأساسية التى قطعت شوطاً كبيراً من التقدم العلمى، أمكن التنبؤ بدرجة عالية من الدقة، فى حين أن الوضع ما زال مختلفاً فى مجال

العلوم الاجتماعية، حيث أن المعرفة العلمية لم تصل إلى درجة دقيقة فى تطوير نظرياتها وحقائقها ومقاييسها العلمية حتى عهد قريب ولذلك فمن الصعوبة التنبؤ فى بعض مجالاتها بصورة دقيقة، وذلك لأن القدرة على التفسير والتنبؤ تعكسان إلى حد كبير درجة تطوير أساليب وتكنيكات بحثية وقياسية فى كل من مجالات العلوم وعلى هذا يؤكد المشتغلون بالميثودولوجيا (علماء المناهج) أن خصائص المعرفة العلمية تتحدد بالمنهج العلمى، وبالتالى فالمنهج يمثل الركن الأساسى فى تمييز العلم عن غيره من النشاطات والمعارف الإنسانية، كما أن المنهج هو المحك الأساسى الذى يضفى على مجال المعرفة خاصية العلم، وليس مقدار النتائج التى يتوصل إليها، ولذا سوف نعرض خلال هذا الفصل إلى مفهوم المنهج العلمى وخطواته، وكيفية دراسة الظاهرة الاجتماعية ثم البحوث الاجتماعية وأنواعها ثم أهم الطرق والأدوات البحثية المستخدمة فى علم الاجتماع .

أولاً : مفهوم المنهج العلمى وخطواته :

وقبل أن نعرض لمفهوم المنهج العلمى وخطواته نحب أن نوضح نقطة هامة ومجدية لكثير من الباحثين وهو أن المنهج العلمى واحد فى كل العلوم من حيث الجوهر والمسلمات والخطوات، لكن الواقع العلمى متنوع، فالعالم التجريبى للبكتيريا مختلف عن العالم التجريبى للفلك، وغير العالم التجريبى للنفس، ولعلم الاجتماع ... الخ وبطبيعة الحال لابد أن تختلف طرائق البحث وأساليبه الإجرائية وتقنياته الأمبريقية من علم إلى علم، بل أنها تختلف داخل العلم الواحد، أولاً تبعاً لدرجة تقدمه ، وثانياً تبعاً

لزاويا ومستويات تناوله لموضوعه، على هذه الاختلافات الإجرائية ينصب اهتمام العلماء المتخصصين ، كل يسخره لخدمة موضوعه، وربما يتلاءم مع الطبيعة النوعية لمادة بحثه، بكل تميزها، وخصوصيتها عن مواد العلوم الأخرى، بهذا المنظور التخصيصى تظهر علوم كمناهج البحث ملحقة بفروع العلوم المختلفة، لتعالج الأساليب التقنية والوسائل الاختصاصية المتكيفة مع موضوع البحث ومادته التى تختلف من علم لآخر، فنجد مثلا أساليب البحث فى علم الاجتماع، وأساليب البحث فى علم النفس، الخ وكل فرع ينقسم بدوره إلى فروع، فنجد (أساليب البحث فى علم النفس الاجتماعى وأساليب البحث فى علم النفس الشخصية، وأساليب البحث فى علم النفس الإكلينيكى... الخ هذه المسائل المتعلقة بنوعيات الأمبريقيات وأساليب الممارسة الإجرائية، مسألة تخصصية، يعالجها كل علم وفقا لطبيعة مادته والعلماء المنشغلون بها هم الأعلم والأخبر [1].

لكن ماذا يقصد بمفهوم المنهج وما هى أهم خطواته؟

فى الواقع أن المنهج Method بصفة عامة هو الطريقة بمعنى الطريق الذى يفضى إلى غاية مقصودة، فيكون المنهج طريقا محددا لتنظيم النشاط من أجل تحقيق الهدف المنشود، والمنهج العلمى هو طريقة تنظيم عملية اكتساب المعرفة العلمية أى أنه المبادئ التنظيمية الكامنة فى الممارسات الفعلية

---

(١) انظر، يمنى طريف الخولى، سلسلة عالم المعرفة فى القرن العشرين (الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية) ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت ، العدد ٢٦٤، ٢٠٠٠، ص ١٧٤ وكذلك عبد الباسط عبد المعطى، البحث الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٥٧.

للعلماء الذين انخرطوا بنجاح فى إنتاج المعرفة العلميـة، والإضافـة إلى نسـق العلم [٢].

غـير أن المنـهج العلمـى كمـا يـرى ميلتـون بـارون Barron لا يعنـى مجموعـة الإجـراءات الخاصـة التـى يسـتخدمها كـل علـم مـن العلـوم، لأن الأساليب والإجراءات التى تستخدم فى كل علم من العلوم تختلف بـاختلاف الظاهرة أو مجموعة الظاهرات التى يدرسها هذا العلـم، أمـا المنـهج العلمـى فهو شـئ مشـترك بـين كـل العلـوم، يتطلـب وصفـاً منظمـاً للوقـائع التـى تم ملاحظتها فى ظل ظروف مضبوطة يمكن تكرارها باستخدام إجراءات البحث ، ويحدد (بارون) عمليات المنهج العلمـى بالملاحظـة، والوصـف والاسـتقراء والاستنباط [٣].

كما يرى كامبل يونج Young وريمونـد مـاك Mack أن المنـهج هـو العامل المشترك الذى يقودنا لتصنيـف معرفتنـا كعلـم، والمنـهج العلمـى فـى رأيهما يشير إلى الطريقة التى نكتشف بها المعرفة، والتى نحصل عليها بمـا يسـمى المنـهج العلمـى، ونطلـق علـى أولئـك الذيـن يسـتخدمون هـذا المنـهج ويضيفون إلى المعرفة العلمية اسم العلمـاء، والمعرفـة التـى تجمـع مـن خـلال المنهج تسمى علم.

والعالم لا يستطيع مطلقاً أن يقول أن هناك بيانات لها صفة الحقيقـة أو مفيدة ولكنه يؤكد على أن تجمع هذه المعرفة بالطريقة العلمية.

---

(٢) يمنى طريف الخولى، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٣) عبد الباسط عبد المعطى، مرجع سابق،ص ٢٤.

والعالم كذلك يبحث وينظم المعرفة من خلال ثلاث أساليب هى:

(١) **عن طريق الخبرة الحسية** Sense Experience

حيث تعتمد عملية الحصول على المعرفة العلمية على الملاحظة العلمية من خلال الحواس الخمس، السمع، والبصر، واللمس، والتذوق، والشم، كما يستخدم العالم بعض الوسائل والأدوات لمساعدة حواسه فى الحصول على المعرفة كالتلسكوب، والترمومتر، والمسطرة، وغيرها لكن هذه الوسائل لا تستطيع أن تعمل بمفردها فالمسطرة لا تستطيع أن تقيس المسافة ولا الترمومتر يستطيع أن يشعر بالحرارة وإنما هى مجرد وسائل للمساعدة وإرشادية للحواس فى عملية الملاحظة العلمية.

(٢) **العقل** : فالطريقة المثلى لتنظيم المعرفة العلمية تتم من خلال استخدام العقل، وإن كان هناك اعتقاد سائد أن العلماء هم الأشخاص الذين يتركون الحقائق تتكلم عن نفسها let the facts speak for themselves ، لكن الحقائق لا تستطيع أن تتكلم عن نفسها مطلقاً، فالحقائق لا معنى لها إذا لم ترى فى ضوء علاقتها بالحقائق الأخرى. فالمعرفة هى علمية لأنها تتكون من حقائق نظمت فى ضوء علاقتها بالحقائق الأخرى بطريقة عقلية.

(٣) **الاتفاق بين الملاحظين** : فالطريقة الأفضل للتحقق من المعرفة تكون من خلال استنتاجات مستقلة لعدد من الملاحظات المتكاملة [٤].

وعلى هذا يعرف المنهج العلمى باختصار بأنه مجموعة من الخطوات

---

(٤) Young, K.. and Mack, R., Sociology and social life, Op. Cit., p.p. 2-3.

المنظمة والمنسقة التى يسير فيها الباحث وصولا إلى الأهداف العلميـة لبحثـه وهذه الخطوات هى على الترتيب الملاحظة والمشاهدة، والوصـف، والتحليـل والتصنيف، والتفسير والتعميم وصوغ القوانين.

وفيما يلى عرض موجز لخطوا المنهج العلمى وفقا للتعريف السابق له:

(١) الملاحظة أو المشاهدة Observation:

والملاحظة هى الخطوة الأولى فى المنهج العلمى حيث أنها أساسية فى كل العلوم، وتنصب الملاحظة فى أى علم من العلوم المستقلّة على مجموعة من الظواهر التى اتخذها ذلك العلم ميدانا له، ففى علم الفلك مثلا تدور الملاحظة حول حركة الأرض والكواكب،وفى علم الطبيعة تنصب الملاحظة على خواص المادة ومدى تأثرها بالعوامل الخارجية المختلفة، وفى علـم الاجتمـاع يـهتم الباحث بملاحظة المجتمع وبنيته، وظواهره والعلاقات بين أفراده، وهكـذا الحال فى كل علم من العلوم، والملاحظة العلمية تذهب إلى الموقف الاجتماعى باستخدام أكثر الأساليب الملائمة فى جمع المادة عن هذا الواقـع الاجتمـاعى، وتتركز حول ماذا يوجد فى هذا الواقـع الاجتمـاعى ؟ وباعتبـار أن الملاحظـة تستخدم على نطـاق واسـع مـن قبـل البـاحثين الحقليـين فقـد شـرع كـل مـن Patricia And Peter Alder فى معالجة معالمها وأنواعها ومراحلها وبعض المشكلات الأخلاقية التى ترتبط بهذه الطريقة [٥]

---

(٥) Den Zin, N. K and Lincoln, Y. S., Collecting and interpreting Qualitative Materials, Sage Publications, London, N. Delhi, 1998, p. 37.

(٢) الوصف Description

ويعنى الوصف رصد وتسجيل ما نلاحظه من الأشياء والوقائع والظواهر، وما ندركه بينهما من علاقات متبادلة وتصنيفها وتصنيف خصائصها، وترتيبها واكتشاف الارتباط بينهما، إنه كشف دلالات المعطيات الحسية بالاعتماد على الملاحظة والتجربة، ودراسة ما بينهما من علاقات متبادلة، ويلاحظ أن الوصف يعتمد أساساً على المدركات الحسية ولكنه ينطوى مع ذلك على عمليات عقلية تتفاوت تعقيدها كتصنيف الأشياء وتصنيف خصائصها وبيان العلاقات بينهما، وتحديد مدى ما بينهما من ارتباط وكشف دلالتها.

(٣) التحليل Analysis :

ويعنى التحليل فى معناه المصطلحى فك كل مركب إلى أجزائه ومكوناته، وإذا كان التحليل يعنى تقسيم الظاهرة أو العملية الاجتماعية فهو يعتمد على التصنيف، لأن توضيح مكونات الظاهرة وعناصرها يساعد فى تحديد العام والخاص، والاجتماعى والفردى والكلى والجزئى، والجوهرى والعرضى والشكل والمضمون، الخ، وثمة منهجية عامة فى عمليات التحليل تتمثل فى تقنين وحدات التحليل ومعاييره يعتمد تحديدها على نقطتين أساسيتين هما: أولهما على التخصص العلمى للباحث، فكل علم طابع نوعى يتحدد برؤية لموضوعه وبطبيعة الظواهر التى يدرسها، والأخرى خاصة بالنظرية العلمية التى يعتمد عليها الباحث ويوجه بها دراساته.

(٤) التفسير : Explanation

والتفسير هو محاولة للكشف عن أسباب وقوع الحوادث أو بالأصح الظروف والشروط التى لابد من توافرها أو توفر مثلها، حتى تقع الحوادث، ويفترض التفسير الإيمان بمبدأ العلية الذى يربط بين الأسباب والنتائج ، ويعتمد التفسير على العقل بدرجة أكبر من الوصف الذى يعتمد أساساً على الحواس والملاحظة، فإذا كان الوصف هو كشف الدلالات الظاهرة فى المعطيات الحسية، فإن التفسير هو كشف الدلالات التى تتجاوز تلك المعطيات، وإذا كانت دلالات الوصف كيفيات حسية تخضع للملاحظة والتجريب المباشر، فإن دلالات التفسير مجردات عقلية ليس لها صلة مباشرة بالملاحظة والحواس.

(٥) التعميم وصوغ القوانين :

ويقصد بالتعميم فى معناه الاصطلاحى اشتقاق مبدأ عام من ظاهرة محددة أو من عملية معينة أى بمعنى البحث عن العام فى الخاص ويرى جيفونز Jevons بأن التعميم له نوعان رئيسيان هما:

تعميمات تقوم بين الوقائع الجزئية والبسيطة حينما يتم اكتشاف ما بينها من ارتباطات سببية.

وتعميمات تقوم بين القوانين العلمية فتتوحد على شكل نظرية علمية. وهذا يعنى أن القانون درجة من درجات التعميم، تتم من خلال وصف مضغوط كما يقولون وتوصف مفردات القانون وصفاً تجريدياً، قد لا

ينطبق وفقا لـه علـى كـل الحـالات الجزئيـة الملموسـة ، والقوانـين نسـبية، وليست مطلقة، فكل قانون علمى يكتشفه الإنسان يصور قدرا مـن العلاقـات الجوهرية بين الأشياء والظواهـر، ومـن خـلال التطبيـق والممارسـة نكتشـف باستمرار ثغرات فى القانون مما يدفعنا إلى تعديلـه والقوانـين أيضـا مسـتقلة نسبيا عن وعى الإنسان، فهى قائمة سواء كان الإنسـان علـى وعـى بـهـا أم لم يعها[٦] .

ثانيا : المنهج العلمى ودراسة الظواهر الاجتماعية :

فى الواقع أنه دائما ما تثـار مشـكلة هامـة مؤداهـا هـل يسـعى علـم الاجتماع إلى أن يكون علما؟ وهل يمكن تطبيق معايير المنهج العلمى وقواعـده الأساسية على دراسة الظاهرة الاجتماعية؟

وربما كانت هذه التساؤلات وغيرها قد انقسم حولها علماء الاجتماع وربما يرجع ذلك إلى أن لعلم الاجتماع جذورا فـى الفلسـفة الاجتماعيـة تلـك التى لا تعد بالتأكيد علما بالمعايير المعاصرة . لكن الفترة التى شملت سـنوات صياغة علم الاجتماع كانت فكرة العلم خلالها بالغة القوة، حيث تمتع العلـم بهيبة تفوق أى شئ آخر، وكان كونت مؤسس علم الاجتماع وكوتليه مؤسـس علم الإحصاء، قد سميا العلم الجديد "الفيزياء الاجتماعية" ثم استبدل كونت بالفيزياء الاجتماعية مصطلح علم الاجتمـاع والحقيقـة أن كونـت رفعـه فـوق

---

(٦) انظر، محمد ياسر الخواجة، البحـث الاجتمـاعى (أسـس منهجيـة وتطبيقـات عمليـة) مرجع سابق، ص ص ٣٢ – ٣٣.

مصاف العلوم جميعاً، وهكذا كان نموذج العلم يسيطر على كل شئ،ومع ذلك هناك دائماً قلة من علماء الاجتماع ينظـرون إلى علـم الاجتمـاع بوصفـه يمثـل نوعاً من الدراسة الإنسانية، يهتم بالتقويم، والنقد، والفهم التعـاطفى أكـثر من اهتمامه بالمسائل المألوفة للعلم، وهم ينظرون إلى علم الاجتمـاع كفـرع مـن التاريخ أو السياسة، بـدلاً مـن اعتبـاره علمـاً مسـتقلاً،ويميلـون إلى الإشـارة للحقيقة التـى مؤداهـا أن فيـبر قـد صنـف علـم الاجتمـاع ليـس بـين العلـوم الطبيعية ولكن بين التاريخ والدراسات الاجتماعية، وقد تبنى علماء اجتمـاع معاصرون هذا الموقف منهم على سبيل المثال رايت ميلز Mills الـذى ذهـب إلى أن علم الاجتماع يحاول أن يصبح "حرفة" أكثر من كونه علماً وهـو يقـول أن الضبط والتنبؤ يهتم بهما طراز بيروقراطى جديد لعالم الاجتماع ابتعد عن النموذج القديم، كما ذهب روبـرت بيرسـتد Biersledt إلى أن علـم الاجتمـاع يحتل مكانه الحقيقى ليس فقط بين العلوم،ولكن بـين الفنـون التـى حـررت العقل الإنسانى . علـى أن أولئـك الذيـن يـرون أن علـم الاجتمـاع هـو دراسـة إنسانية أكثر من كونه علمـاً ويقيمـون دعواهـم علـى أسـاس أن هنـاك قيـوداً مفروضة على دراسة الظواهر الاجتماعيـة تعـوق علـم الاجتمـاع عـن تحقيـق الوضـع العلمـى الحقيقـى كمـا يذهبـون إلى أن الأحـداث الاجتماعيـة تتمـيز بالتفرد، وأن الظواهر الاجتماعية لا تتبع قوانين طبيعية، وأن تطبيق المنهج العلمى علـى الأحـداث الاجتماعيـة يحطـم المعنـى الـذى تنطـوى عليـه هـذه الأحداث.

وعلى الرغم من أن وجهة النظر هذه تنطوى على شئ من الصـدق، إلا

أنها فيها الكثير من التحيز والتعسف، فالعلم لا يتناول دائما الأحداث المتكررة، فالعصر الجليدى ومولد النظام الشمسى فى الفلك كلها أحداث فريدة ذات أهمية بالغة، لكنها ليست متعذرة عن الدراسة والتفسير، فضلا عن هذا فإن تفرد الأحداث التاريخية غالبا ما يتجاهل الحقيقة التى مؤداها أن أحداثا معينة مثل مصرع القيصر، مع أنها فردية إلا أنها تمثل مظاهر تاريخية ملموسة لفئة اشمل قد تكون متعددة بدرجة تكفى لتدعيم التعميم العلمى، فالعالم لا يعرف إلا عددا قليلا من الحكام الديكتاتوريين، ومن بينهم كثيرون كانت نهايتهم مؤلمة، ومن ثم فمن الممكن القول أنه حتى بالنسبة لموت الحكام الديكتاتوريين، هناك أمثلة كافية لأحداث تاريخية هامة تدعم التعميم العلمى، وكما يقول موريس كوهن Cohen أنه بالرغم من أن المادة الاجتماعية أقل تكرارا من مادة العلوم الطبيعية فهى تخلق صعوبة أكثر أمام التحقق من صحة القوانين الاجتماعية إلا أنها لا تلغى النموذج العام لكل العلوم (٧).

وقد أدرك بعض علماء الاجتماع صراحة أو ضمنا إن علم الاجتماع له موضوعاته المختلفة، وعليه أن يستخدم مناهج أخرى غير تلك المستخدمة فى العلم الطبيعى، إلا أن أغلبية علماء الاجتماع يهتمون بإيجاد علم متميز عن علم التاريخ وعلم السياسة والأخلاق، وثمة شروط ثلاثة لازمة لعلمية علم الاجتماع:

---

(٧) اليكس انجلز، مقدمة فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ١٧١ -١٧٣.

١- ما دام الإنسان ملاحِظ وملاحَظ فى الوقت نفسه تثار دائماً مشكلة الموضوعية عند دراسة السلوك الإنسانى.

٢- يستطيع الملاحظ أن يتصل بموضوعاته، ويفتح لنا مجالات جديدة للبحث مما يعرض لنا مشكلات كثيرة، ومعقدة عن مناهج البحث.

٣- إن السلوك الإنسانى سلوك معقد بدرجة أنه يصعب إعادة بنائه تحت ظروف مسيطر عليها سواء عند إجراء الملاحظة، أو المقارنة، أو التجريب(٨).

ولم يقتنع علماء الاجتماع بترك المنهج العلمى، والعدول عن تطبيقه عند دراسة السلوك الإنسانى ولكن الإشكالية هنا هو كيف نسترشد بالمعايير العلمية عند صياغة فروض مثمرة فى البحث الاجتماعى، ثم كيفية استعمال منهج موضوعى للتحقق من صدق الفرض أو كذبه.

ولكن الذى لا شك فيه أنه لم يعد استخدام المنهج العلمى عند دراسة السلوك الإنسانى موضوع جدل الآن، ولكن المهم لكل علم اكتشاف الأدوات المناسبة لدراسة ظواهره، فنجد فى علم الفلك التليسكوب، وفى الكيمياء أنبوبة الاختبار والميزان، وفى البيولوجيا الميكروسكوب، ولذا فهناك عدد ليس قليلاً من علماء الاجتماع يؤمنون بأن التقدم فى علم الاجتماع، وكل العلوم السلوكية ينتظر اكتشاف أدوات مماثلة لملاحظة السلوك الإنسانى ودراسته وتفسيره، كما أننا فى علم الاجتماع أحوج ما نكون إلى التعميق عما وراء السطح الظاهر فعلاً عند دراسة السلوك الإنسانى، ولذا فإن أداة واحدة

---

(٨) سعيد فرح، ما - علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢١٧ - ٢١٨.

لا نكفى فى البحث الاجتماعى.

وباعتبار ان الظاهرة الاجتماعيه عبارة عن مجموعه علاقات متشابكه تربط بين مجموعه من المتغيرات، فإن الباحث الاجتماعى يجب عليه ان يراعى بعض القواعد الأساسيه عند دراسه هذه الظاهرة الاجتماعيه دراسة علميه وهذه القواعد كما حددها إميل دور كايم[٩].

١- تحديد وصياغة مشكلة البحث

وتعتبر هذه الخطوة من أهم خطوات البحث ولأنها تؤثر فى جميع الخطوات التى تأتى بعدها، فقضية البحث أو مشكلة البحث هى تلك القضية التى تشكل وتتحدى تفكير الباحث وتدفعه الى دراستها دراسة علمية للكشف عن طبيعتها ومعرفة الجوانب الغامضة منها، ولابد للباحث أن يحدد عند اختياره لمشكلة بحثية الجوانب الرئيسية فى الموضوع وصياغتها فى صورة مصطلحات محددة دقيقة واضحة حتى يسهل على الباحث وضع تعميم منهجى دقيق لدراستها وبحث جوانبها المختلفة، وتعرف مشكلة البحث بأنها عبارة عن موضع يحيط به الغموض أو أنها ظاهرة تحتاج إلى تفسير.

٢- مراجعة التراث الاجتماعى .

والخطوة الثانية التى دعا اليها دور كايم هى البحث فى النظريات المرتبطة بتلك الحقائق أو الموضوعات التى ينوى الباحث دراستها، وهذا

(٩) [illegible]

يعنى تحديد البناء النظرى للبحث حيث يعتبر النماذج والنظريات والمداخل التصورية والعناصر الأساسية التى توجه البحث، وترشده وتحدد كيفية صياغة قضايا البحث وصياغة الفروض ثم الكيفية التى يتم بها تفسير النتائج.

٣- تحديد المفاهيم والفروض :

يعتبر تحديد المفاهيم الأساسية المرتبطة بموضوع الدراسة من الأمور الهامة فى الدراسات الاجتماعية، إذ أن تحديد المفاهيم وتعريفها يسهل إدراك المعانى والأفكار التى يريد الباحث التعبير عنها، وهنا ينقل الباحث إلى صياغة فروضه. فالفرض يعنى تحويل الاستنباط المنطقى إلى دليل إمبريقى، بمعنى تحويل المشكلة إلى فروض تخضع للاختبار.

٤- تحديد نوع الدراسة :

بعد اختيار مشكلة البحث يجب أن يحدد الباحث نوع البحث الذى يقوم به ويتم الاختيار فى ضوء طبيعة المشكلة والبيانات المتوفرة حولها، فإذا كانت مشكلة البحث تدور حول موضوع جديد لم يدرس من قبل ولا يتوافر بيانات عنه يختار الباحث الدراسة الاستكشافية أو الاستطلاعية، وقد تتطلب طبيعة المشكلة القيام بدراسة مسحية وثائقية مكتبية أما إذا تطورت مشكلة البحث عن نظرية معرفة فقد يلجأ الباحث إلى التعميم التجريبى.

٥- تحديد المنهج المناسب:

باعتبار أن المنهج يشير إلى الطريقة التى يتبعها الباحث فى دراسة المشكلة المعنية، فهو يبحث فى الكيفية التى حدثت فيها الظاهرة بمعنى أنه يحتاج إلى تحديد منهج أو طريقة الدراسة، وهناك طرق متعددة فى إجراء البحوث الاجتماعية من بينها المسح الاجتماعى وطريقة دراسة الحالة، والطريقة التاريخية، والتجريبية والإحصائية، وغيرها.

٦- تحديد أداة الدراسة :

ويتوقف اختيار البحث لنوع الأداة اللازمة فى دراسته لجمع البيانات على عدة عوامل، منها أن بعض الأدوات تصلح فى مجالات دون أخرى، فالمقابلة والاستبيان على سبيل المثال يستخدمان عندما يكون نوع المعلومات المطلوبة ذات اتصال وثيق باتجاهات وميول الأفراد نحو قضية معينة، أما الملاحظة المباشرة فتستخدم عند جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى تجاه موضوع معين، فى حين أن الوثائق والسجلات الرسمية تفيد فى الحصول على معلومات تتصل بالماضى، لكن الباحث يستطيع أن يستخدم أكثر من أداة واحدة لجمع البيانات فى دراسته إذا أراد دراسة الظاهرة من جميع جوانبها المختلفة.

ثالثاً : البحوث الاجتماعية وأنواعها :

يوجد فى علم الاجتماع عدة أنواع من الدراسات أو البحوث الاجتماعية، بعضها ذا هدف علمى مباشر وبعضها ذا هدف تطبيقى مباشر، وهذا التصنيف لا ينفى أن أى بحث ذو هدف علمى له أهداف تطبيقية

والعكس صحيح، ومن أمثلة البحوث ذات الهدف العلمى المباشر، البحوث الاستطلاعية أو الكشفية والوصفية، والتفسيرية، والتى تختبر نظريات علمية.

ومن أمثلة البحوث ذات الصلة بأهداف التخطيط والتنمية والعمل الاجتماعى، بحوث الجدوى الاجتماعية التى تسعى إلى تحديد الفوائد الاجتماعية للمشروعات الاجتماعية والاقتصادية، وهناك الدراسات التقويمية التى تسعى إلى التأكد من أن مشروعاً أو برنامجاً اجتماعياً أو تنموياً ما يحقق أهدافه ويصل إلى الجمهور المستهدف منه من عدمه، ويوجد نوع ثالث من البحوث هو البحوث المستقبلية تفيد فى ترشيد القرارات التنموية المختلفة وتجعلها قائمة على أسس علمية. لكننا سوف نتناول أهم البحوث ذات الهدف العلمى المباشر والتى لها السيادة فى الأبحاث الاجتماعية وهى:

أ - البحوث الاستكشافية أو الاستطلاعية :

Exploratory pr Pilot Study

ويقصد بالبحوث الكشفية، ذلك النوع الذى يساهم فى الكشف عن حلقات مفقودة أو غامضة فى تسلسل التفكير الإنسانى بوجه عام ويساعد فى الربط والتحليل والتفسير العلمى الذى يضيف إلى المعرفة الإنسانية ركائز جديدة، وهذا النوع من البحوث هو أكثرها مشقة بالنسبة للباحث لما يتطلبه من قدرات ذاتية ومهارات استدلالية على درجة عالية من الكفاءة، ويمكن تحديد أهداف البحوث الاستكشافية على النحو التالى :

١- صياغة مشكلة البحث تمهيدا لإجراء بحث أدق لها.

٢- تنمية فروض البحث.

٣- زيادة ألفة الباحث بالموقف أو الظاهرة التى يرغب فى دراستها فيما بعد.

٤- توضيح المفاهيم.

٥- تبين المسائل التى ينبغى أن يكون لها السبق فى البحث مستقبلاً.

٦- جمع المعلومات عن الإمكانيات العلمية للقيام ببحث فى المجال الحى الذى تجرى فيه الدراسة.

٧- الحصول على قائمة بالمشاكل التى يراها الخبراء فى ميدان من الميادين جديرة بالبحث والدراسة.

وهذا يعنى أن البحوث الاستكشافية - كما تقول سيلتز وآخرون- تهتم بالتوصل إلى الاستبصارات الجديدة عن الموضوع الذى نقوم بدراسته أو بلورة فروض جديد، دون محاولة اختبار هذه الفروض أو التحقق من صدقها.

ب- البحوث الوصفية : Descriptive Study

تمثل البحوث الوصفية حلقة أخرى من حلقات البحث الاجتماعى، لكن ماذا يقصد بالبحث الوصفى، وهنا يرى أحد الباحثين أن كلمة الوصف تنطوى على نفس المعنى الذى تنطوى عليه كلمة المسح Survey تلك التى اشتقت بدورها من مصدرين اخرين فى اللغة اللاتينية الشق الأول Sur واشتق من الكلمة اللاتينية Super والتى تعنى فوق أو فيما وراء والشق

الثانى Vey والذى اشتق من الكلمة اللاتينيــة Videre وتـدل علـى النظـر أو الفهم بحيث أصبح معنى كلمة المسح، النظر فيما وراء، ومن هنا نطلـق علـى البحث الذى يهتم بدراسة الظواهر الراهنـة بدقـة، ومـا يـراه البـاحث اسـم المسح الوصفى، وبهذا فإن الالتقاء فى المعنى بين البحث الوصفى والمسح يفسر لنا ارتباط البحوث الوصفية واعتمادهـا علـى المسـح كطريقـة فـى التوصـل إلى البيانات الدقيقة حول جمهور البحث حتى يمكن الرجوع إليها فى الكشـف عما تنطوى عليه من معـانى ودلالات. وعلـى هـذا عرفـت البحـوث الوصفيـة بأنها تتضمن دراسة الحقائق الراهنـة المتعلقـة بطبيعـة ظـاهرة أو موقـف أو مجموعة من الناس أو مجموعة من الأوضاع، هذا وتشترك البحـوث الوصفيـة فى نقطتين أساسيتين هما :

١- أنها تتجه إلى الصف الكمى أو الكيفى للظواهر المختلفـة بـالصورة التـى توجـد عليـها فـى المجتمـع وذلـك للتعـرف علـى معالـمها وخصائصـها وتركيبها.

٢- أنها تهتم بحصـر العوامـل المختلفـة المؤثـرة فـى الظـاهرة، وقـد تتضمـن فروضاً مبدئية تربط بين متغيرين أو أكثر، إلا أن هـذه الفـروض ليسـت من النوع الذى يقول بأن متغـيراً مـا يسـبب أو يحـدث المتغـير الآخـر، فالنوع الآخر مـن الفـروض يحتـاج إلى دراسـات أكـثر عمقـاً وهـى التـى تتضمن البحوث التى يطلق عليها البحوث التفسيرية أو السببية.

(جـ) البحوث التجريبية التفسيرية : Experimental Study

ويمثل هذا النوع من البحوث حلقة أخرى من حلقات البحث الاجتماعى التى تتميز بالدقة والضبط المنهجى، حيث يحاول الباحث فى هذا النوع من البحوث أن يختبر فرضاً أو عدد من الفروض للتأكد من صدقها أو كذبها فى إحداث ظاهرة أو أكثر أو نتيجة ما، ويستخدم فى سبيل تحقيقها الوسائل العلمية فى القياس والإحصاء للتعرف على مدى صحة هذه الفروض لعل من اشهرها، استخدام مجموعتين إحداهما تسمى مجموعة تجريبية والأخرى تسمى المجموعة الضابطة، ويلجأ الباحث إلى تثبيت عدد من المتغيرات الأساسية بين المجموعتين، بحيث تتماثل المجموعتان فى كل الخصائص أو فى معظمها على الأقل ما عدا المتغير المراد اختباره من خلال الفرض العلمى، كأن نأتى بمجموعتين من الأسر، متماثلين فى معظم الخصائص كالحجم ومكان السكن، ومهنة الأب ، وعدد الأولاد وتعليم الأب، الخ. على أن تختلفا فقط فى أن المجموعة التجريبية تكون العلاقات الأسرية بها مفككة (خلاف الزوجين أو انفصالهما) وتكون العلاقات الأسرية فى المجموعة الضابطة سوية متماسكة. ويتم التأكد من أن المجموعتين متماثلتان من خلال:

(١) المزاوجة الفردية، والتى تعنى أن كل أسرة فى المجموعة التجريبية يقابلها أسرة فى المجموعة الضابطة المتماثلة معها فى كل الخصائص ما عدا بعد أو متغير التفكك والتماسك الأسرى، وهكذا بالنسبة لأسر كل مجموعة.

(٢) المضاهاة، وتحدث المضاهاة فى المجموعتين التجريبية والضابطة من

خلال متوسطات إحصائية بمعنى أن يكون متوسط سن أفراد المجموعة الأولى مماثل أو قريب جدا من متوسط سن أفراد المجموعة الثانية ويتم الأمر نفسه مع بقية المتغيرات [١٠].

رابعا : طرق البحث فى علم الاجتماع :

باعتبار أن البحث الاجتماعى يعرف بأنه الطريقة المنظمة لاكتشاف حقائق جديدة أو تحقق من صحة حقائق تم التوصل إليها، وآثارها والعلاقات التى تربطها بغيرها وتفسيرها بعد ذلك وصولا إلى القوانين التى تحكمها، فإن الطريقة البحثية هى عملية تنظيم عملى لعمل مجموعة من الأدوات لتحقيق هدف علمى محدد، قد يكون التعمق فى دراسة ظاهرة أو موضوع أو وحدة اجتماعية كالفرد أو الجماعة أو التنظيم. كما فى دراسة الحالة، وقد يكون الهدف هو معرفة الخصائص العامة لمجتمع أو مجموعات من البشر، أو مجموعة من الخدمات كما فى المسح الاجتماعى وقد يكون الهدف هو دراسة أنماط العلاقات الاجتماعية ومداها وعمقها كما فى الطريقة السوسيومترية، وقد يكون الهدف هو مقارنة أنماط ثقافية أو اجتماعية أو جماعات كما فى الطريقة المقارنة، وتتميز الطريقة عن الأسلوب العلمى بأنها أكثر تحديدا منه فى الأهداف وأن لها دورا محددا من البحوث، تطبعها الطريقة بطابعها وهى غالبا ما تركز أهدافها العلمية على خطوة أو خطوتين من خطوات المنهج العلمى المشار إليه آنفا، هاتان الخطوتان هما فى الأغلب الأعم الملاحظة، والوصف العلميين الكمى والكيفى أو هما معا . ومن أشهر

---

(١٠) محمد ياسر الخواجة، مرجع سابق، ص ص ٦١ -٦٦ .

الطرق استخداما فى بحوث علم الاجتماع، طريقة المسح الاجتماعى، وطريقة دراسة الحالة، والطريقة السوسيومترية.

أ - طريقة المسح الاجتماعى Social Survey

يعرف المسح الاجتماعى باعتباره العملية النظامية التى تهدف إلى جمع الحقائق والمعلومات عن الأفراد الذين يعيشون فى منطقة جغرافية وحضارية وإدارية معينة، وغاية المسح الاجتماعى هو الحصول على البيانات الضرورية التى يمكن من خلالها مجابهة الأسباب أو النواحى المتعددة لمشكلة أو مشاكل اجتماعية معينة، كما يستفاد من المعلومات أو البيانات التى يجمعها المسح الاجتماعى فى الشئون الإدارية أكثر مما يستفاد منها فى المجالات النظرية والعلمية، وبالرغم من كون معلومات المسح الاجتماعى توضيحية ووصفية فإنها غالبا ما تكون إحصائية خصوصا عندما يكون تاريخ المسوح الاجتماعية مرتبطا بتاريخ الإحصائيات (١١).

وعلى هذا فالمسح الاجتماعى يمثل مجموعة من البيانات الاجتماعية التى يتم جمعها من خلال عملية استطلاع محددة الأهداف تجرى خلالها مقابلة مع عينة سكانية حول موضوع معين مع استخدام أسئلة معيارية تتضمنها استمارة الاستبيان، بعدئذ يتم تحليل كمى لحصيلة البيانات الناتجة، بعد تبويبها وإعدادها لتقديم معلومات وصفية حول المتغيرات موضوع الدراسة ، ويعتبر المسح الاجتماعى هو أكثر الوسائل البحثية شيوعا

---

(١١) دينكن ميتشل، معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢١٩.

فى علم الاجتماع، كما انه يستخدم بشكل واسع فى البحث الاجتماعى الحكومى، والتجارى غير المستهدف للربح[١٢] ير أن بولين يونج P. Young تعرف المسح الاجتماعى باعتباره دراسة للجوانب المرضية للأوضاع الاجتماعية الحاضرة فى منطقة جغرافية معينة والعمل على وصف وقياس هذه الأوضاع بهدف تقييم برامج إنشائية لتحقيق الإصلاح الاجتماعى والإنمائى[١٣] وبناء على هذا يحدد عبد الباسط حسن أهم العناصر المحددة لمفهوم المسح الاجتماعى وهى:

١- الدراسة العلمية المنظمة للظواهر الموجودة فى جماعة معينة، وفى مكان جغرافى معين.

٢- أنه ينصب على الوقت الحاضر حيث أنه يتناول أشياء موجودة بالفعل وقت إجراء المسح وليست ماضية.

٣- أنه يتعلق بالجانب العملى، إذ يحاول الكشف عن الأوضاع القائمة لمحاولة النهوض بها ووضع خطة أو برنامج للإصلاح الاجتماعى[١٤].

ولعل من أهم الملامح الأساسية فى المسح الاجتماعى، كما فى الإجراءات البحثية الأخرى فى علم الاجتماع هو ذلك البعد الذى يتعلق بالوحدات المختارة للدراسة فى تلك الوحدات التى تعتمد على الإطار النظرى للبحث المحدد، والتى قد تكون فرداً أو جماعة أو تنظيماً والتى على الباحث

---

(١٢) ميشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٦٨٠.

(١٣) Young, p. V.., Scientific social survey and researches, N.Y. 1966, p. 20.

(١٤) عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٢٢.

أن يعنى بفحص ودراسة كل وحدة من الوحدات التى سيغطيها المسح، حتى تكون محملة بالخصائص والأبعاد والمؤشرات المراد دراستها أو قادرة على أن تعكس هذه الخصائص.

هذا وتوجد تصنيفات عديدة للمسوح الاجتماعية منها المسح الاجتماعى الذى يهدف إلى معرفة المشاكل الاجتماعية و أسبابها بغرض القيام بإصلاحات اجتماعية، كالبحوث التى قام بها كل من شارلز بوث، ورونترى، وبولى حول مشكلة الفقر، والبحوث التى قام بها راتزل، وريدرز، ولوبلاى، وكيدز حول الظروف الأيكولوجية ، والبحوث التى قام بها شيرول، وليندرز، وليندث حول الدراسات الوظيفية للمدينة(١٥).

وهناك المسوح التعليمية التى تهدف إلى معرفة مدى التحصيل الدارس فى ضوء خطة جديدة مثلا، ومسوح الرأى العام، التى تهدف إلى معرفة رأى الناس حول الموضوعات السياسية والاجتماعية وغيرها ومنها مسوح السوق. لمعرفة مدى إقبال الناس على شراء سلعة معينة، وتأثير الإعلانات على ترويج بضاعة أو سلعة معينة.

كما تنقسم المسوح إلى نوعين، مسوح شاملة أى تلك التى تدرس جميع أفراد المجتمع، أو أفراد الجمهور، ومسوح بالعينة أى التى تتناول جزء من هذا الجمهور، ويرى بعض الباحثين أن الباحث نادرا ما يلجأ إلى المسح الشامل،وذلك لأن المسح بالعينة خصوصا إذا اختيرت العينة على أسس

---

(١٥) دينكن ميشيل، مرجع سابق، ص ٢٠٢

سليمة غالباً ما يحقق أغراض الباحث في الحصول على بيانات ثابتة ودقيقة لسلوك الجمهور الذى يبحثه أو لاتجاهاته أو حتى للظاهرة التى يتدارسها، حيث أن معظم المسوح التى أخذت بطريقة العينة قد أسفرت عن نتائج مماثلة إلى حد كبير لتلك المسوح الشاملة التى تجرى على جميع الأفراد،وذلك إذا أخذنا عينة من الإجابات فى مسح شامل وحاولنا مقارنة النتائج بعضها بالبعض، وعلى هذا تفضل المسوح بالعينة لما لها من مزايا تتعلق بالوقت والجهد والإمكانات فضلاً عن دقة نتائجها شريطة أن تكون تلك العينة ممثلة أصدق تمثيل للمجتمع الأصلى (١٦).

ونستخلص من هذا أن اختيار أى نوع من هذه الأنواع السابقة يترتب على طبيعة البحث، والهدف من الدراسة والإمكانات المادية والبشرية للبحث، وإن كنا نعتقد أن المسوح التفسيرية القائمة على العينة الممثلة هى أكثر الأنواع دقة وعمقاً فى تفسير الظاهرة الاجتماعية.

ب- طريقة دراسة الحالة : Case Study

تمثل دراسة الحالة طريقة أساسية وهامة من طرق الدراسة فى علم الاجتماع، استخدمت فى الماضى كما تستخدم فى الحاضر، لما لها من أهمية فى الدراسة والبحث.

ومع أنه قد يتبادر للذهن أن الحالة هى فرد من الأفراد بسبب المعنى الحرفى للمصطلح إلا أن الحالة قد تكون بسيطة أو مركبة، فقد تكون

---

(١٦) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١٩٩.

طفلاً (فرداً) أو فصلاً من الأطفال أو قد تكون التعبئة المهنية لدراسة ظروف الطفولة أو فى دراسة الحالة ينصب التركيز على الحالة بمفردها والتعمق فى أبعادها وفقاً لطريقتها فى الدراسة (١٧).

ولذا تتفق أغلب التعريفات على أن طريقة دراسة الحالة هى المنهج الذى يتجه إلى جمع البيانات العلمية المتعلقة بأية وحدة سواء كانت فرداً أو مؤسسة أو نظاماً اجتماعياً أو مجتمعاً محلياً عاماً، وهى تقوم على أساس التعمق فى دراسة جميع المراحل التى مرت بها، وذلك بقصد الوصول إلى تعميمات علمية متعلقة بالوحدة المدروسة وبغيرها من الوحدات المتشابهة(١٨). وتتميز دراسة الحالة بالخصائص التالية :

(١) أنها طريقة للحصول على معلومات شاملة ومركزة على الحالات المدروسة.

(٢) أنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات المدروسة.

(٣) أنها طريقة تهتم بالموقف الكلى، وبمختلف العناصر المؤثرة فيه والعمليات التى تشهدها.

(٤) أنها طريقة تتبعية أى أنها تعتمد اعتماداً كبيراً على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالأبعاد التاريخية.

---

(١٧) Stake, R.E., Case Studies, In: Denzin and Lincoln (eds) Strategies of Qualitative Inquiry, Sage Publications, London, New Delhi, 1998, p. 87

(١٨) عبد الباسط محمد حسن، مرجع سابق، ص ٢٤٠ – ٢٤١.

(٥) أنها طريقة دينامية لا تقتصر على بحث الحالات الراهنة.

(٦) أنها طريقة تسعى إلى تحقيق تكامل المعرفة لأنها تعتمد على أكثر من أداة للحصول على المعلومات والبيانات.

كما أن دراسة الحالة إلى جانب ذلك تهتم بالوقوف على سير الأحداث الفردية من جانب، والظروف التى تؤثر على وضع الحالة من جانب آخر، أى أن الدراسة ترتبط بموقف فريد Unique Situation، وعلى هذا فإن دراسة الحالة عبارة عن تحديد خصائص وسمات وعوامل مؤثرة فى موقف معين بالذات وفى فترة زمنية محددة وفى موضوع أو نموذج أو وحدات ذات طبيعة معينة قد تختلف باختلاف الزمان والمكان الذى تقع فيه، ودراسة الحالة تتطلب مرونة كافية حيث يستطيع الباحث أن يطور أو يعد له خطة بحثه، وافتراضاته نتيجة لما تكشف عنه دراسته الكشفية من أمور جديدة، ولذا فهى تتميز بالتعمق أكثر مما تتميز بالاتساع، فيحاول الباحث فيها جمع شتات المعلومات من مختلف المصادر وتنسيقها فى صورة متكاملة، كما أنه يحاول أن يستطلع الجوانب المشتركة بين الحالات المدروسة وغيرها من الحالات الأخرى[١٩].

وبهذا يتضح إن دراسة الحالة تهدف إلى فهم الوحدة الاجتماعية فهماً رأسياً ومتعمقاً وهى تقوم على فكرة مؤداها أن فهم أوضاع الحالة وخصائصها الراهنة لا تفهم إلا باعتبارها حصاداً لظروف ووقائع وخبرات

---

(١٩) محمد ياسر الخواجة، مرجع سابق، ص ٢٠١.

سابقة شكلتها، وهى على خلاف المسح الاجتماعى تدرس وحدات أقل عدداً، ولكن بتعمق أكثر غوراً، ولا تكتفى بدراسة الحاضر، وإنما تهتم بالماضى وتسعى إلى استرجاعه من خلال تتبع تاريخ الحالة Case History، ودراسة الحالة وإن اعتمدت على معظم أدوات جمع البيانات، فإنها تعتمد أكثر على الأدوات التى تحقق التعمق فى دراسة الحالة كالمقابلات المتعمقة، وتحليل المضمون، والاختبارات والمقاييس المتعمقة، وتحليل المضمون، والاختبارات والمقاييس النفسية والاجتماعية والسجلات والوثائق التاريخية ورغم ما لدراسة الحالة من فوائد وإيجابيات إلا أنها لا تسعف فى دراسة أعداد كبيرة نسبياً من الحالات، فضلاً عما تستغرق من وقت وجهد، وأنها أكثر تأثيراً بذات المبحوث بما يقدمه من معلومات سواء من خلال المقابلات أو المذكرات الشخصية.

(جـ) الطريقة السوسيومترية Sociometry

أول من استعمل هذا الاصطلاح العالم النمساوى جاكوب مورينو الأخصائى فى الأمراض النفسية والعقلية والذى هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستقر هناك طيلة حياته، وحاول مارينو عندما كان يعمل فى أحد المعسكرات للاجئين بعد الحرب العالمية الأولى، إيجاد وسيلة خاصة تستعمل فى دراسة الأشخاص الذين كانوا يعيشون تحت ظروف سيئة والمساعدة فى تكوين جماعات ينسجمون مع أفرادها بحيث يستطيعون تحقيق أهدافهم وطموحاتهم وعند وصوله إلى الولايات المتحدة طور هذه الوسيلة بعد

أن استعمله داخل الجماعات الصغيرة لمعالجة أفرادها وتحسين أوضاعهم النفسية والاجتماعية وبعد أن تعرفنا على بداية استخدام هذا المفهوم على يد مورينو، فماذا يقصد به؟

في الحقيقة يتألف مصطلح Sociometry من قسمين أحدهما لاتيني Metrum ويعني مقياس والآخر يوناني Socius ويعني اجتماعي والكلمة في مجملها تعني القياس الاجتماعي أو قياس العلاقات الاجتماعية وباعتبار أن لكل منا اختياراته في حياته، وأهم هذه الاختيارات هي اختيار الأفراد الذين نرتبط بهم، فعلى أي أساس نبني هذا الاختبار، هل على أساس الذكاء، أم على أساس الجمال أو على أساس الموقف الاجتماعي أم على أساس المصالح المشتركة . فنحن لا نستطيع أن نتجنب العلاقات مع الآخرين، فالذين يعيشون في مجتمع يجب أن يتفاعلوا بأسلوب أو بآخر في محيط العمل، ومع الأصدقاء وفي نطاق الأسرة وتتضمن كل علاقات التفاعل اختيارات معينة تتحدد في النهاية في شكل أنواع عديدة من العلاقات.

وبهذا المعنى فالسوسيومترية اصطلاح يطلق على طريقة خاصة تتبع في قياس العلاقات الاجتماعية داخل جماعة محددة خلال فترة زمنية معينة، وتكشف هذه الطريقة عما يحدث في داخل الجماعة من ضرب، وتنافر وانحلال وتماسك، كما تكشف عن التنظيم غير الرسمي للجماعة وكذلك المكانات الاجتماعية للأفراد.

وعلى هذا فالسوسيومترى هو دراسة وقياس الاختيارات الاجتماعية

التى يقوم بها الأفراد والتى تؤدى إلى قياس العلاقات الاجتماعية بينهم، ومن أكثر الطرق المستخدمة لدراسة هذه الاختيارات هو السوسيوجرام أو خريطة العلاقات الاجتماعية، والسوسيوجرام على سبيل المثال يستطيع أن يحدد الاختيارات الاجتماعية للأفراد ودرجة التشابه بينهما بأن يحدد أكثر الأفراد شهرة فى المجتمع والذين يطلق عليهم النجوم، وكذلك الأفراد الرافضين، والأفراد المنعزلين، وتعتبر خريطة العلاقات الاجتماعية أداة وصفية تساعد الباحث على تمييز البناء الاجتماعى للجماعة.

لكن السوسيومترية تستند إلى نظرية مورينو عن التلقائية والإبداع، وبالتالى فهى تحاول تفسير كل الظواهر على أساس بعد واحد هو التلقائية، وفى هذه النظرة تبسيط متزايد فى تصور العوامل المؤثرة فى السلوك الاجتماعى، كما أن السوسيومترية تمثل إحدى طرق دراسة العلاقات الشخصية المتبادلة، وبناء الجماعات الإنسانية وهى ليست بالقطع الوسيلة الوحيدة المكنة فى هذا الصدد وإنما هى تساعد فى فهمنا للتفاعل التلقائى بين أعضاء الجماعات ويمكن أن تزداد قيمتها أكثر إذا استخدمت فى إطار التعدد المنهجى أى بإضافة أساليب وأدوات بحثية أخرى كذلك يلاحظ أن السوسيومترية كنسق من الأفكار قد صاغها مورينو كما لو كانت أيديولوجية أمريكية خالصة بل أنه ذهب أبعد من ذلك حين قرر أنها تلائم طبيعة المجتمع الأمريكى الذى يتيح الحرية والتلقائية فى تكوين الجماعات المختلفة.

وهذا بالطبع يكشف عن قدر ملحوظ من التعصب والتحيز الأيديولوجى للمجتمع الأمريكى وانغلاقه على هذا النظام وحده باعتباره النظام الوحيد الذى يتيح فرصة التفاعل التلقائى والابتكار. إلا أنها وسيلة مفيدة فى بعض المسائل العلمية كالتعرف على قائد الجماعة ودرجة التفاعل الاجتماعى ودرجة بعض مصادر التعقيب داخلها، كما تسمح بتجديد الزمر الصغيرة داخل الجماعة[٢٠].

خامسا : أهم أدوات جمع البيانات :

الأداة هى وسيلة فنية هدفها المحدد جمع بيانات علمية دقيقة تساهم فى إنجاز أهداف البحث، ولقد تعددت أدوات جمع البيانات فى البحوث الاجتماعية، ويختلف استخدام ونوع الأداة باختلاف موضوع البحث وأهدافه وأيضا مجتمع البحث، وبعض هذه الأدوات يعتمد على قدرة الباحث على المشاهدة الدقيقة وعلى ذاكرته فى إعادة ترتيب ما شاهده كما فى الملاحظة، ويعتمد بعضها على استثارة خبرات المبحوث، ومعلوماته واتجاهاته من خلال توجيه أسئلة إليه، كما فى أداة الاستبيان، أو من خلال حوار لفظى معه كما فى المقابلات العلمية المتعمقة، ومن أهم الأدوات التى تجمع بها البيانات هى الملاحظة، والمقابلة، والاستبيان.

---

(٢٠) انظر، محمد الجوهرى، علم الاجتماع (النظرية – الموضوع ، المنهج) مرجع سابق، ص ٣٤٩.

أ - الملاحظة : Observation

تعرف الملاحظة باعتبارها معاينة مباشرة لأشكال السلوك الذى ندرسه، والتركيز على المعاينة المباشرة هنا يأتى من كونها النقطة الرئيسية فى التفرقة بين الملاحظة وبين المقابلة فى حين يرى موريس Morris أن الملاحظة بشكل عام هى المشاهدة الدقيقة للظاهرة والتى غالبا ما تتم بوسائل وتسجيلات بهدف تحقيق أغراض علمية أو أخرى [٣١]، غير أننا رغم اعتقادنا أحيانا أن الملاحظة تدور فقط حول جمع بيانات مرئية فإن هذا الاعتقاد خاطئ فكل الأحاسيس عليها أن تدخل فى هذا المجال سواء حاسة الشم، والسمع، و اللمس، والتذوق، والبصر.

وبالتالى تتكون الملاحظة من جميع الانطباعات Impressions حول العالم الذى يحيط بنا عن طريق كل الحقائق الإنسانية الملائمة، وهذا يتطلب احتكاك مباشر بالموضوعات الخاصة بالملاحظة، وقد تنفذ بعض الملاحظات إما عن بعد من خلال تسجيل البيانات عن طريق الصور الفوتوغرافية أو شرائط الكاسيت أو شرائط الفيديو، ودراستها فى الوقت الحالى أو فيما بعد من خلال مشاهدة الباحثون للظواهر التى يدرسونها فى الواقع الفعلى أو الميدانى، لكن قد يفهم من ذلك أن الملاحظة إحدى وسائل البحث العلمى مع أنها جزء جوهرى من المنهج التجريبى، حيث تنحصر فى أن يوجه الباحث

---

(٢١) محمد على محمد، علم الاجتماع والمنهج العلمى (دراسة فى طرائق البحث وأساليبه) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٣) ص ٤١٠ وما بعدها.

حواسه وعقله إلى طائفة خاصة من الظواهر لمعرفة صفاتها وخواصها، وهى تتضمن تدخلا إيجابيا من جانب العقل الذى يقوم بنصيب كبير فى إدراك الصفات الخفية بين الظواهر، وهى الصلات التى تعجز العمليات الحسية المجردة عن إدراكها . وإذن فمن الضرورى أن تهدفّ الملاحظة بمعناها الصحيح إلى غرض عقلي واضح، هو الكشف عن بعض الحقائق التى يمكن استخدامها لاستنباط معرفة جديدة، ولما كانت القدرة على الابتكار لا توجد على نمط لدى كل إنسان فمن الطبيعي أن يتدخل العقل بدرجات متفاوتة فى عمليات الملاحظة، فإذا كان نصيبه ضئيلا كانت الملاحظة فجة، وإذا كان تدخله فيها مثمرا وفعالا كانت الملاحظة عملية بمعنى الكلمة [٢٢].

وبتطور طرق ووسائل البحث فى علم الاجتماع تطورت الملاحظة، باعتبارها واحدة من وسائل جمع البيانات الرئيسية، وتصلح الملاحظة فى كثير من أنواع الدراسات فهى الوسيلة التى يقوم الباحث بنفسه بملاحظة الظاهرة التى يدرسها سواء كانت الملاحظة بالمشاركة أو بغيرها، فالملاحظة بالمشاركة هى أن يشارك الباحث المبحوثين حياتهم ويساهم معهم فى أوجه مناشط حياتهم فيكون دوره هنا كعضو داخل الجماعة، أما الملاحظة بدون مشاركة فتتم بالشكل أو الطريقة التى يلاحظ بها الباحث الجماعة دون أن يشاركها فى نشاطها الاجتماعى. وتتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات جمع البيانات بأنها تفيد فى جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى فى بعض

---

(٢٢) غريب سيد أحمد، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

المواقف الواقعية فى الحياة بحيث يمكن ملاحظتها دون عناء كبير أو التى يمكن تكرارها بدون جهد، ومما يزيد من أهميتها أن الباحث يستطيع أن يستخدمها فى جميع أنواع الدراسات الاجتماعية الكشفية والوصفية والتفسيرية، وتجمع بيانات لها أهميتها لكل نوع من أنواع الدراسة، ولذا فإن الملاحظة تكون وسيلة بحثية هامة عندما يكون التركيز متزايدا على مستويات التحليل، فعلماء الاجتماع طبقوا أسلوب الملاحظة بنجاح كبير فى دراسة أنفسهم ورفاقهم، حيث أن فهم الذات استخدم لفهم المجتمع ككل منذ نشأة علم الاجتماع. فديلثى Dilthey كان أول من اقترح استخدام وسيلة الفهم Versthen للكائنات البشرية من خلال التعاطف معهم أو بالاندماج كما فى طريقة فيبر المنهجية. حتى أصبح الفهم حجر الزاوية للمثالية المحدثة فى التفسير الابستمولوجى المعاصر (٢٣).

لكن لأداة الملاحظة حدودها، إذ على الباحث أن ينتظر وقوع الحدث حتى يقوم بملاحظته، وتسجيل الانفعالات واتصالات الأشخاص بعضهم بالبعض الآخر، كما أنها لا تساعد الباحث فى دراسة بعض الصور الخاصة للتفاعل الاجتماعى، كالتفاعلات العائلية بين الأشخاص كالزوج والزوجة، والتفاعلات بين بعض عصابات المجرمين أثناء تأديتهم لنشاطاتهم المختلفة.

ب - أداة المقابلة Interview

والمقابلة كأداة بحثية هى حوار لفظى وجها لوجه بين باحث قائم بالمقابلة وبين شخص آخر ومجموعة أشخاص آخرين، وعن طريق ذلك

---

(٢٣) Alder,P. and Alder, p., Observational Techniques, In : Denzin and Lincoln (eds), OP, Cit., p. 97

يحاول القائم بالمقابلة الحصول على المعلومات التى تعبر عن الآراء والاتجاهات والإدراكات أو المشاعر أو الدوافع أو السلوك فى الماضى أو الحاضر، وعلى هذا تتكون المقابلة من ثلاث عناصر متميزة هى:

- القائم بالمقابلة Interviewer
- والمبحوث Interviewee
- وموقف المقابلة Situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين هذه العناصر الثلاثة على نحو يؤثر فى بعض النتائج العامة للمقابلة [٢٤].

وتتميز المقابلة بعدد من الخصائص الأساسية هى:

١- التبادل اللفظى الذى يتم بين القائم بالمقابلة وبين المبحوث، وما قد يرتبط بذلك من التبادل اللفظى من استخدام تعبيرات الوجه ونظرة العين والإيحاءات والسلوك العام.

٢- المواجهة المباشرة بين الباحث والمبحوث.

٣- توجيه القائم بالمقابلة نحو غرض واضح محدد، وهذا الغرض يجعلها تختلف عن الحديث العادى الذى قد لا يهدف إلى تحقيق هدف معين.

وقد تكون المقابلة حرة أو مفتوحة Free Interview بحيث يثار الموضوع الرئيسى ويترك للمبحوث فرصة الحديث عن الموضوع من جوانبه المختلفة وحسب أهميتها بالنسبة له، أو قد تكون المقابلة مقننة Standardized Interview حيث يتقيد الباحث باستمارة تحوى على أسئلة

---

(٢٤) محمد على محمد، مرجع سابق، ص ٦٣.

محددة سلفا ويجب أن يجيب عليها المبحوث، ويلتزم الباحث بنص [illegible]ئلة وبالطريقة أو الكيفية التى توجه بها الأسئلة. أو قد تكون المقابلة بؤرية Focused Interview أى متمركزة حول موضوع معين حينما يريد الباحث التركيز حول خبرة معينة صادفها الفرد أو مجموعة أفراد أو نتائج هذه الخبرة، أى أن المبحوثين قد اشتركوا فى موقف معين مثل قراءة كتاب أو حضور مسرحية، ويبدأ الباحث بتوجيه أسئلة محددة حول الموضوع من خلال قائمة بالموضوعات المختلفة المتعلقة بموضوع البحث ويبدأ مناقشة مفتوحة، ففى المقابلة البؤرية يسعى الباحث إلى التعمق بقصد معرفة مدى تعمق المبحوثين وخبرتهم بموضوع المقابلة.

هذا وتستخدم الأنماط المختلفة من المقابلة فى البحوث الاجتماعية فى مواقف عديدة تختلف حسب طبيعة المواقف ذاتها فلو أردنا أن نتعرف مثلا على كم عدد الناس الذين يعارضون المخزون النووى، فإن طريقة المقابلة المقننة بالمسح تكون الوسيلة المفضلة لذلك لأنها تعطينا إجابات كمية يمكن ترميزها وبالتالى يمكن استخدام النماذج الرياضية والإحصائية لشرح وتفسير نتائجها.

ولو أردنا أن نتعرف على الآراء والاتجاهات نحو منتج معين فإن طريقة المقابلة الجماعية البؤرية، سوف تقدم لنا نتائج أكثر كفاءة وصدقا، لو أردنا أن نتعرف ونفهم أكثر حياة المرأة الفلسطينية أثناء الانتفاضة أو المقاومة، فننا نحتاج إلى مقابلتهم مقابلات طويلة ومطولة كما فى طريقة

المقابلة غير المقننة، لذا أكد عديد من الباحثين فى الوقت الحالى على ضرورة استخدام الاتجاهات المنهجية المتعددة[٢٥]، لكن تتميز المقابلة أكثر من غيرها من أدوات جمع البيانات بأنها تساعدنا على جمع البيانات التى تأتى عن طريق الاجتماع وجها لوجه مع المبحوث، كما أنها تسمح أيضا باستقصاء الموضوعات غير المعروفة لنا والتى نجهل جوانبها الهامة كما هو حادث فى الدراسات الكشفية، ففى مثل هذه الموضوعات يصعب إعداد أسئلة للكشف عنها مقدما، لذلك تفيد المقابلات المتعمقة فى الكشف عن الجوانب الهامة لموضوع دراسته، كما تعتبر المقابلة من إحدى الوسائل لسبر غور الإنسان والتعرف على ما يبطن من أمور قد لا يسهل معرفتها من المواقف العادية، لكن هناك حدود ترتبط بطبيعة المقابلة نفسها كأداة من بينها كثرة التكلفة والوقت، والجهد الذى تحتاجه المقابلة، فضلا عن حاجاتها إلى فترة لتحليل بياناتها وذلك لأن المقابلة تتطلب وصفا دقيقا وبطريقة لفظية لوقائع السلوك.

جـ-الاستبيان : Questionnaire

والاستبيان هو أداة لفظية بسيطة ومباشرة تهدف إلى التعرف على ملامح خبرات المبحوثين واتجاهاتهم نحو موضوع معين، ومن خلال توجيه

---

(٢٥) Fontana, A., and Frey, J., Interviewing, The Art of Science, Op. Cit, p.p. 72 -73.

الأسئلة إما بشكل مقنن أو شبه مقنن فى الترتيب والصياغة ويتم تطبيقه إما ذاتيا من خلال المبحوث أو بواسطة الباحث(٢٦).

وقد يكون الاستبيان مقننا وهو الذى تعرض فيه الأسئلة بنفس الصياغة وبنفس الترتيب على كل المبحوثين، ولعل الهدف من التقنين هنا هو التأكد من أن المبحوثين سوف يسمعون نفس السؤال ويجيبون عليه بقصد إقامة مقارنان بين إجاباتهم، والاستبيان المقنن يختلف تبعا لدرجة التقنين فقد تعرض على المبحوث بدائل محددة، كتحديد الإجابات على الأسئلة. وقد تترك له الحرية لكى يجيب بعبارات ومفردات لغته هو، فكأن الاستبيان المقنن يعتمد تحديد الأسئلة وعددها ومضمونها، وترتيبها وصياغتها.

وقد يكون الاستبيان أقل تقنينا، وهو الذى تكون فيه الأسئلة مفتوحة تماما،وقد لا يعطى بنفس الترتيب وقد تتبدل صياغتها فى ضوء الموقف، وحسب اللغة، التى يفهمها المبحوث فمثلا يسأل المبحوث إذا كان متعلما متى تشاهد برامج التلفزيون، وأما إذا كان غير متعلم، بتشاهد التلفزيون كل أد إيه؟

ويتميز الاستبيان فى البحث العلمى من خلال وقوفه على الأبعاد الكمية للظاهرة موضوع الدراسة بجانب صلاحيته فى دراسة الأحاسيس

---

٢٦) عبد الباسط عبد المعطى. البحث الاجتماعى، مرجع سابق. ص ٣٧٢

والاتجاهات والآراء، والأبعاد الشخصية والذاتية للظاهرات الاجتماعية، فضلا عما يتميز بالتوزيع الجغرافى الواسع الانتشار، وبقلة التكاليف والوقت والجهد، كما يتميز الاستبيان بالملائمة لظروف المبحوث سواء من حيث اختيار الوقت والمكان المناسب الذى يلائمه لملء الاستمارة. لكن يعاب على الاستبيان وبخاصة البريدى انخفاض نسبة الردود عليه، ويتطلب نوعا من المبحوثين تكون لهم خصائص ثقافية تساعد على فهمه واستخدامه.

الخاتمة :

وهكذا يتضح أن علم الاجتماع كفرع من فروع العلم رغم أنه يواجه صعوبات كبرى من النواحى المنهجية والتى من أهم ملامحها:

١- الاهتمام بالحقائق وليس بإصدار أحكام قيمية عليها.

٢- أن يقدم شواهد امبريقية تأييدا للأحكام التى يقررها.

٣- أن يكون موضوعيا (بمعنى ألا يمنع أى فرد من تأسيس أحكامه على الشواهد) .

٤- الوصف الدقيق عن طريق تحليل خصائص الظواهر الاجتماعية والعلاقات التى تربط بينهما.

٥- التفسير عن طريق صياغة الأحكام العامة.

إلا أن المشكلات الواسعة لهذه الصعوبات المنهجية تقطع بأن هذا العلم قائم وموجود لأنه يجاهد دائما من أجل أن يكون علميا، وواقعيا، وامبريقيا، وموضوعيا ووصفيا، وتفسيريا.

كما أن الاعتقاد بأن علم الاجتماع - كما أشار هنرى بوانكاريه- "أنه علم ذو أكبر عدد من المناهج وأقل عـدد مـن النتـائج" ورغـم الحكـم التعسـفى الذى أصدره بوانكاريه إلا أنه أثار خلافا كبيرا حـول المنـاهج المناسـبة لعلـم الاجتماع، وأن هناك ميلا من جانب كل بـاحث اجتمـاعى إلى اقـتراح اتجـاه منهجى جديد لتناول الموضوع الذى يدرسه، لكننا نتفـق مـع مـا ذهـب إليـه جوزيف شواب Schwab "من أن هناك طرقا وأساليبا عديدة لدراسة أو إجراء أى بحث، وليس لأى منها أفضلية على الآخر، فكل منها قادر علـى إظـهار عالم الأشياء، بطريقة يصعب أن تتكرر بالتحديد باستخدام منهج آخر"

فيجب علينا إذن ألا نضيع طاقتنا فى الجدل حول أى مناهج البحـث السوسيولوجى أصدق أو أفضل، فكل منهج له اسهام يقدمه، وعلينا أن نتبنى اتجاها منهجيا أكثر تسامحا نحو تلك المناهج التى تختلف عن المنـهج الـذى نميل إليه شخصيا.

وعلى هـذا نسـتطيع أن نحـدد مـا يمكـن أن تسـاهم بـه منـاهج علـم الاجتماع فى هذا الصدد:

١- يستطيع عالم الاجتماع أن يجمع بيانات واقعية تمكنــه مـن الحكـم علـى المسائل العلمية على نحو أكثر رشدا مما تمكنه منه الأفكار التقليدية.

٢- أن بوسع عالم الاجتماع أن يقدم تنبؤات معقولة حتـى عندمـا يكـون غـير قادر على تقديم تفسير للشواهد.

٣- يستطيع عالم الاجتماع أن يفسر بعض الظواهر الاجتماعيـــة، أى أن

يضيف الأحكام الخاصة بها تحت أحكام اكثر عمومية

لكن الجدير بالذكر هنا أنه ليس من الدلائل الحقيقة للنضوج العلمي - كما يعتقد البعض- أنه يتمثل في استخدام المناهج الكمية بشكل متزايد،ولكن من أعراض النضوج العلمي أن بدأ علماء الاجتماع الاتجاه إلى الاستعانة بالنقد الذاتي في تقييم مناهجهم ونتائجهم، والاتجاه للجمع بين المناهج الكمية والكيفية معا، لأن الظواهر الاجتماعية معقدة ومتشابكة ويصعب فهمها بالاعتماد على جانب واحد بل لابد من استخدام الجانب الكمي والكيفي في دراستها وفهمها.

الفصل الخامس

المجتمع ونظمه الاجتماعية

- مقدمة
- ١- مفهوم المجتمع ومقوماته.
- ٢- النظام الاجتماعى مفهوم وطبيعة.
- ٣- أنواع النظم الاجتماعية.
  - أ- النظام الاقتصادى
  - ب- النظام السياسى
  - جـ- النظام الدينى
  - د- النظام العائلى
  - هـ- النظام التربوى
- ٤- الخاتمة

مقدمة :

يهدف هذا الفصل إلى تناول المحتوى الذى يكون المجتمع أو البناء الاجتماعى باعتبار أن علم الاجتماع كما يرى معظم المشتغلين بهذا العلم هو الدراسة العلمية المنظمة للمجتمع، وأن الجماعة هى وحدة بناء ذلك المجتمع وهى التى تسهم فى حفظ البناء الكلى للمجتمع، وسوف نتناول محتوى البناء الاجتماعى، من خلال تحليل مكوناته وعناصره الأساسية المتمثلة فى الأنساق الاجتماعية والنظم الاجتماعية التى يتكون منها البناء الاجتماعى. فالمجتمع ما يزال معمل علم الاجتماع الواقعى، الذى فيه يتقاسم الناس الحياة، ومنه أيضاً تبدو الظواهر الاجتماعية وتعلن عن نفسها سواء كانت سوية أم معتلة، لأن الحياة الاجتماعية تتشكل من خلال التجمعات الاجتماعية، وليس من خلال الوحدات الفردية، فمعظم التغيرات التى حدثت فى تاريخ الإنسانية وما يرتبط بها من تحولات اجتماعية عميقة، قد ارتبطت بالتجمعات الاجتماعية الكبرى، مثل الأمم، والدول، والطبقات الاجتماعية، وحتى التنظيمات العلمية والثقافية، فالمجتمع Society عبارة عن مجموعة من الأعضاء يعيشون فى علاقات مستمرة ومركبة فى نفس الوقت، حيث تفرز هذه العلاقات تجمعات اجتماعية مختلفة من حيث طبيعة التنظيم، والبناء وحتى الثقافة وأنماط السلوك، وفى إطار هذه التجمعات تظهر أو تتواجد الجماعات الاجتماعية.

ولذلك فإن علم الاجتماع عندما يدرس المجتمع والحياة الاجتماعية فإن اهتمامه ينصب على طبيعة العلاقات التى تظهر بين الإنسان والمحيط

الذى يعيش فيه، تلك العلاقات التى تحكمها ضوابط اجتماعية يقررها المجتمع على الأفراد الذين يعيشون فيه، ولهذا يقول دوركايم أن المجتمع يمثل قوة ضابطة خارجية على الفرد، كما يمارس عليه فى نفس الوقت قوة أخلاقية داخلية، ومن هنا لابد أن يميز بين البناء الاجتماعى الذى يشمل العلاقات بين الأفراد وبين النظم الاجتماعية المكونة لهذا البناء كالنظام الاقتصادى، والسياسى، والتربوى، والدينى والعائلى، تلك النظم التى تشكل الوحدات الأساسية للمجتمع، وهذا ما سوف نوضحه فى هذا الفصل.

أولاً : مفهوم المجتمع ومقوماته :

رغم سهولة إدراك المجتمع واقعياً، والعيش فيه إلا أننا من الصعب أن نجد تعريفاً محدداً للمجتمع على المستوى الاصطلاحى بين علماء الاجتماع، ولذا سوف نحاول بإيجاز تحليل أهم التعريفات لمفهوم المجتمع مستخلصين تعريفاً محدداً له.

وفى الواقع تدل كلمة مجتمع عادة إلى الحقيقة الأساسية للرابطة الإنسانية، كما تستخدم كلمة المجتمع بمعنى واسع لتشمل كل نوع وكل درجة من درجات العلاقات المتبادلة بين الناس، سواء أكانت تلك العلاقات منظمة أو غير منظمة، مباشرة أو غير مباشرة، شعورية أو لا شعورية، تعاونية أو عدوانية، فهى تشمل النسيج الكلى للعلاقات الإنسانية، كما تدل كلمة المجتمع على أشكال متعددة من المجتمعات المحددة واسعة الانتشار.

لكن يعرف معجم العلوم الاجتماعية مفهوم المجتمع بأنه جماعة من الناس يعيشون معاً فى منطقة معينة، وتجمع بينهم ثقافة مشتركة ومختلفة

عن غيرها، وشعور بالوحدة، كما ينظرون إلى أنفسهم ككيان متميز . ويتميز المجتمع كتجمع الجماعات ببنيان من الأدوار المتصلة ببعضها والتى تتبع فى سلوكها المعايير الاجتماعية، ويتضمن المجتمع جميع النظم الاجتماعية الأساسية الضرورية لمواجهة الحاجات البشرية الأساسية وهو مستقل لا بمعنى اكتفائه الذاتى التام اقتصادياً ولكن بمعنى شموله لجميع الأشكال التنظيمية الضرورية لبقائه[1].

ويقدم قاموس علم الاجتماع ثلاثة استخدامات شائعة للمجتمع تشير إلى جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية:

أولها: المعنى العام ويعنى "مجموع العلاقات الاجتماعية بين الناس"

ثانيها: و يعنى "كل تجمع للكائنات البشرية من الجنسين من كل المستويات العمرية يرتبطون معاً داخل جماعة اجتماعية لها كيان ذاتى ونظمها وثقافتها المتميزة"

وثالثها: "يدل على النظم والثقافة التى تحققت عند جماعة من الناس"[2]

كما يقدم علماء الاجتماع عدداً كبيراً من التعريفات الخاصة بمفهوم المجتمع ينظر كل تعريف منها إلى جانب من مقومات المجتمع ومنها تعريف البروفيسور هوبهاوس Houbhouse للمجتمع بأنه "مجموعة من الأفراد تقطن على بقعة جغرافية محددة من الناحية السياسية ومعترف بها، ولها مجموعة من العادات والتقاليد والمقاييس والقيم والأحكام

---

(١) أحمد زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٠٠.

(٢) محمد عاطف غيث، (محرر) قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٤٥١.

الاجتماعيــة والأهـداف المشـتركة المتبادلـة التـى أساسـها الديـن، واللغــة، والتاريخ، والعنصر، كما يعرف المجتمع بطريقة مختلفة عن التعريف الذى حدده هوبهاوس إذ عرف المجتمع بأنه"مجموعة من الأفراد تكون فى حالة اتصال دائم ولها أهداف ومصالح مشتركة متبادلة، وبالاتصال الدائـم نعنـى جميع التفاعلات والروابط التى تجمع بين الأفراد مــهما تكـن هـذه الروابـط مباشرة أو غير مباشرة، شعورية أو لاشعورية تعاونية أو عدائيــة، ويتكـون المجتمع من مجموعة من جماعات اجتماعية تكون فى حالـة اتصـال وتفـاعل الواحدة بالأخرى[٣].

لكن فى الحقيقة إن علماء الاجتماع لا يستخدمون كلمة مجتمع علــى أساس (المعنى العام) بأنــها كـل نـوع أو درجـة مـن العلاقـة بـين الكائنـات البشرية، ولكن ينظرون إلى معنــى محـدد للمجتمـع باعتبـاره مجموعـة مـن الأفراد لهم موقع دائم ويشغلون منطقة جغرافية محـددة، ولهـا تـاريخ - أى أن المجتمع يشير إلى الجماعة الكبير من النـاس الذيـن يشـتركون فـى أنـواع عامة من العادات والأفكار، والاتجاهات ويعيشون فى منطقة محددة المعالم، ويعتبرون أنفسهم وحدة اجتماعية[٤].

كمـا أن هنـاك اتفاقـاً عامـاً بـأن المجتمـع هـو الجماعـة الاجتماعيـة الأكبر- وأنه مجموعة من الأشخاص تتفاعل اجتماعياً إلى درجة أن كل واحد يدرك وجود الآخر، ويعتبرون أنفسهم كوحدة اجتماعية واحدة. ومن ناحية

---

(٣) دينكن ميتشل، معجم علم الاجتماع،مرجع سابق، ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٤)دينكن ميتشيل. معجم علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٢٢٦ ، ٢٢٧.

أخرى فلقد ثبت أن مجتمعات عديدة حديثة هى التجمعات البشرية التى تتكون من عدد من الأشخاص الذين يشتركون فى اللغة، وفكرة الوحدة، والذين يعيشون داخل حدود إقليمية محددة(٥).

لكن ينبغى أن نميز بين المجمع فى المعنى العام، وبين المجتمعات الخاصة التى تخضع لمواصفات معينة، والتى يجمع فيها الناس أنفسهم، فالمجتمع عند زيمل مثلاً تجمع من الأفراد بينهم علاقات اجتماعية، وأما روبرت ردفيلد فيرى أن المجتمع يتكون من عدد من الأفراد يرتبطون سوياً ويتفاعلون معاً، لكن يرى توماس اليوت أن المجتمع جماعة من الكائنات الإنسانية تتعاون معاً فى السعى إلى تحقيق مصالحها المشتركة، بما فى ذلك تحقيق المحافظة على وجودهم واستمرارهم أو يتضمن مفهوم المجتمع الاستمرار والعلاقات المترابطة المعقدة، والإقامة على قطعة من الأرض ويضم المجتمع جماعة وظيفية، كذلك يعرف رومنى وماير المجتمع بأنه تجمع محدد من الأفراد يتميز بالثبات، ويرتبط أفراده بعلاقات محددة (٦). فى حين طابق جمبلوفتش بين المجتمع والدولة فالمجتمع بالنسبة له هو الجماع الكلى للجماعات المتصارعة التى ترتبط كل منها بمصلحة مشتركة أو أكثر، ويتجه الناس الذين يشعرون بتقاربهم ويرتبطون بمصلحة مشتركة – فى كل مكان– إلى أن يعملوا معاً بوصفهم وحدات تصارع من أجل السيطرة، ومن هنا

---

(٥) Young, K. and Mack, R., Sociology and Social life, OP. Cit., p. 28.

(٦) محمد سعيد فرح، ما ... علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٩٤.

تتشكل الجماعات ويظل الصراع حاداً لا يلين[٧].

ويشير بوتومور عند مناقشة تعريف المجتمع إلى أنه من اليسير علينا إثبات أن وجود المجتمع الإنسانى يتطلب توافر إجراءات معينة، أو عمليات محددة أى أن هناك متطلبات وظيفية للمجتمع، ويوضح أهم هذه المتطلبات فيما يلى:

١- نسق الاتصال.

٢- نسق الاقتصاد الذى يختص بأمور الإنتاج وتوزيع السلع.

٣- أجهزة التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة.

٤- نسق السلطة وتوزيع محدد للقوة، يصون التماسك الاجتماعى ويدعمه ويمنحه الأحداث الشخصية الهامة، مثل الولادة، والوفاة، والزواج [٨].

ورغم أن مفهوم المجتمع فى كل تعريف من هذه التعريفات ذو قيمة فى توجيه الاهتمام إلى مجموعة من العلاقات التى تربط جماعات الناس سوياً، فهذه المفهومات عامة جداً، حتى أنه يصعب الاستفادة منها، فالمفهوم قد يشير إلى أن المجتمع هو عدد من أعضاء الطبقة العليا.

كما يدل المفهوم على أية نوع من التنظيمات، سواء مجتمع الأصدقاء، أو نقابة الاجتماعيين، أو نقابة العمال، أو جماعة النادى وغيرها.

---

(٧) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٨) بوتومور، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٦٧.

وعلى هذا فالمجتمع ليس مجموعة من النظم فقط، ولكنه بناء مركب من النظم التى ترتبط معاً، ويعتمد كل منها على الآخر وهذا البناء يميز كل جماعة من الجماعات عن الأخرى، ويقدم الوسائل التى بها ينظم الناس أنشطتهم العامة للتغلب على مشكلات العالم الذى حولهم. أى أننا يمكن أن ندرك المجتمع كمجموعة من النظم تحدد إطار عمل الحياة الاجتماعية، ويتوقف تحليل المجتمع على دراسة النظم المختلفة التى يتكون منها مثل النظام الاقتصادى، والنظام السياسى والنظام الدينى والنظام الأسرى، والنظام التربوى، والعلاقات بينها.

ويحدد ماريون ليفى levy أربعة مقومات تميز المجتمع عن غيره من المجتمعات البشرية فيما يلى :

المقوم الأول : قدرة المجتمع على الاستمرار إلى مدى زمنى أطول من عمر الأعضاء.

المقوم الثانى : قدرة المجتمع على تجديد نفسه من ناحية، من خلال التناسل، ومن ناحية أخرى عن طريق غرس ثقافته من خلال توافر نظام تربوى قادر على تحقيق التنشئة الاجتماعية للأعضاء الجدد على أساس ثقافة المجتمع ونظمه.

المقوم الثالث : مدى توفر مجموعة من المعايير المشتركة المنظمة للأفعال الاجتماعية للأعضاء ومدى توفر الشعور بالولاء لدى هؤلاء الأعضاء للمجتمع.

المقوم الرابع : مدى قدرة المجتمع على تحقيق الاكتفاء الذاتى.

وبناء على هذا يتفق غالبية أساتذة علماء الاجتماع العرب على أن تعريف هارى جونسن[٩] Johnson للمجتمع هو أوضح وأشمل تعريف للمجتمع الكلى.

"ويعرف المجتمع باعتباره جماعة من الناس تتوفر فيها أربعة مقومات هى: الإقليم المحدد، والتكاثر عن طريق الجنس، والثقافة الشاملة، والاستقلال"

و إذا كانت المقومات الثلاثة الأولى واضحة، فإن مقوم الاستقلال يتطلب بعض التوضيح، فالمقصود هو الاستقلال النسبى وهذا يحمل معنيين: أولهما أن يكون المجتمع وحدة قائمة بذاتها، ولا يكون مجرد جماعة أو جماعات فرعية ينتمى كل منها إلى مجتمع آخر، وثانيهما أن يتحقق داخل المجتمع تكامل وأهم مقومات التكامل الاجتماعى هما الاعتماد المتبادل بين الأعضاء ووجود معايير وقيم يخضع لها الأفراد فى سلوكهم ويسيرون وفقاً لها.

ثانياً: مفهوم النظام الاجتماعى وطبيعته :

فى الواقع أن مفهوم النظام ليس له معنى واحداً متفقاً عليه فى تراث علم الاجتماع المعاصر، فهناك بعض العلماء الذين يؤكدون فى تعريفهم له على القواعد الاجتماعية و البعض الآخر الذين يؤكدون على الأدوار التى تجسد تلك القواعد وتضعها موضع التنفيذ الفعلى، ولذلك فالفرق بين

---

(٩) على خليفة الكوارى، تنمية للضياع أم ضياع لفرص التنمية (محصلة التغيرات المصاحبة للنفط فى بلدان مجلس التعاون) ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، مايو ١٩٩٦، ص ٢٣٢.

المعسكرين ليس جوهرياً، ولكنه يدل على مدى قرب أو بعد الكاتب عن الواقع الاجتماعى فى تحليله وتعريفه للنظام، فالأقرب إلى الواقع يتبنى التعريف الثانى، والذى يبعد لكى يكون صورة شاملة على ذلك الواقع يتبنى التعريف الأول، فالنظام كما يرى كثير من الباحثين هو مجموعة أو شبكة من المعايير، والقوانين والأعراف، والطرق الشعبية المتشابكة التى تتمحور حول وظائف محددة (كالتعليم، والتصنيع، وتوزيع السلع... الخ) أى أنه مجموعة من المعايير الأساسية التى ترشد كلاً من السلوك العام ودور السلوك الخاص لأعضاء الاجتماعيين، فيما يتعلق بالوظائف التى تختص بنمط معين من السلوك وهكذا.

فالشكل التنظيمى الأمريكى للمدرسة الابتدائية وظيفته الرئيسية هى تعليم الصغار، وأن المدرسين والتلاميذ يتحدد سلوكهم وفقاً للطرق الشعبية، والأعراف والقوانين بأساليب تجعل الفصل الدراسى والنشاطات الأخرى يوماً بعد آخر متماثلة لكل منا، فالنظم تتميز الواحدة منها عن الأخرى، فيما يتعلق بالشكل أو الوظيفة، فنحن نميز الوظائف العامة الرئيسية التى تتعلق بوظائف النظم العائلية والحكومية، والاقتصادية، والدينية، والتعليمية، وتلك المظاهر الهامة التى تمثل البناء الاجتماعى، ولكن عندما نقترب من الواقع الملموس، فالأشكال والوظائف الخاصة المتنوعة داخل منطقة عامة تصبح ظاهرة واضحة، فهناك أشكال ووظائف تعليمية مختلفة، وكذلك أنواع مختلفة من المدارس مثل روضة الأطفال، والمدارس الابتدائية العامة، والمدارس المستقلة، والمدارس التجارية والجامعات،

وهناك أنظمة تعليمية لا نستطيع أن نطلق عليها مدارس مثل برامج التدريب الخدمية.

وهكذا فمن الأفضل أن نطلق على الأنواع المختلفة من النظم كالنظم التعليمية، والنظم الاقتصادية، والنظم السياسية، والنظم الدينية المتعددة أو النظم المتنوعة(١٠).

كما يقدم بعض علماء الاجتماع تعريفات متباينة للنظام الاجتماعى، فلقد كتب موريس جينزبرج فى كتابه "علم الاجتماع" أن النظم الاجتماعية أساليب مسلم بها، ومعترف بها وراسخة تحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وقد عرف روبرت ماكيفر، وشارلز بيج النظم الاجتماعية فى كتابهما "المجتمع" بأنها أشكال من الإجراءات أو تكوينات اجتماعية تميز نشاط الجماعة بواسطتها ويوجه وينفذ أوجه النشاط المتعددة والمطلوبة لإشباع الحاجات الإنسانية" .

ومن الأهمية أن ندرك هنا أن مثل هذا التعريف للنظام الاجتماعى يدل على مظاهر للموافقة الاجتماعية، والرفض الاجتماعى والجزاءات الاجتماعية، التى توقع ضد الأفراد الذين ينحرفون عن أنماط السلوك المسلم بها، ومن ثم فالنظم الاجتماعية ليست مجرد تعبير عما يحدث فى موقف محدد فى مجتمع معين فهى تعمل لتحديد ما ينبغى أن يؤدى، ومن ثم فالنظم الاجتماعية تعد جزءاً من النظام المعيارى للمجتمع ولهذا تعتبر من

---

(١٠) Sutherland, R. L etal, Introductory Sociology, J. B Lippincott C., Chicago, N.Y, Sixth edition, 1961, p. 35.

وسائل للضبط الاجتماعى [١١].

على أن معظم علماء الاجتماع قد اتفقوا على تعريف واحد أساسى هو أن النظم الاجتماعية هى أنماط من العلاقات الاجتماعية يقبلها أو يقرها أعضاء الجماعة وهنا يقدم جيمس فابيلمان James Feibleman تعريفاً شاملاً ودقيقاً لتعريف النظام الاجتماعى، يرى أن النظم الاجتماعية هى عبارة عن إجابات جاهزة ومحددة على بعض التساؤلات الأساسية هى [١٢].

التساؤل الأول : كيف نؤمن أجيالاً جديدة للجماعة التى ننتمى إليها، أجيالاً تكون معدة إعداداً جيداً وسليماً للأدوار والمهام التى سوف تضطلع بها؟

التساؤل الثانى : كيف نعمل على توفير الاحتياجات المعيشية والأساسية؟

التساؤل الثالث : كيف نعمل على تسوية الصراعات التى تقع داخل الجماعة بين أصحاب المصالح المتعارضة لأعضاء الجماعة والجماعات الفرعية التى يتكون منها المجمع؟

التساؤل الرابع : كيف نحافظ على المعرفة العلمية وننمّيها، والمقصود بها تراث الجماعة من المعرفة بالبيئة المحيطة بنا، وبالعالم ككل؟

التساؤل الخامس : كيف نتصرف حيال المجهول وما فوق الطبيعى الذى نشعر أنه يؤثر على جماعتنا ويمس حياتها؟

---

(١١) محمد سعيد فرح، ما ... علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣١١.

(١٢) محمد الجوهرى، علم الاجتماع (النظرية، الموضوع، المنهج) ، مرجع سابق، ص ١٦٦.

التساؤل السادس : كيف تؤمن الجماعة بقاءها وتضمن استمرارها رغم ما يطرأ على أعضائها من تغير، وتنقل ووفاة وغير ذلك؟

وعلى هذا فأى مجتمع مهما كان كبيراً أم صغيراً، بسيطاً أم معقداً عليه أن يجد إجابات واضحة ومحددة على كل هذه الأسئلة الكبرى لكن الجماعات الصغيرة فليس عليها أن تجد إجابات على كل هذه الأسئلة، وبوسعها أن تكتفى بإيجاد إجابات عن بعضها فقط، وذلك إذا كان أعضاؤها ينتمون فى نفس الوقت إلى جماعات أخرى، وبحيث أنها لا تهدف إلا إلى التحكم الجزئى فى حياة أعضائها، ولكى تستطيع الجماعة أن تستمر فى الوجود، وتحافظ على كيانها لابد أن تتميز تلك الإجابات بقدر من الثبات والدوام، بحيث يتسنى لأعضاء الجماعة أن يعرفوا من هم، وما هو موقفهم، وعما يبحثون فى هذه الحياة، وماذا يتوقعون من الآخرين وماذا يتوقع الآخرين منهم، وهكذا تخلق الإجابات الدائمة على هذه الأسئلة (أى النظم) نظاماً ثابتاً لممارسة الأدوار المهمة فى شبكة التفاعل الاجتماعى.

ثالثاً: أنواع النظم الاجتماعية

لقد تبين أن أى مجتمع إنسانى لا يمكن أن يخلو من بعض النظم الاجتماعية التى يمكن أن نسميها النظم الرئيسية أو الأساسية، ذلك أنه مهما اختلفت طبيعة المجتمعات وأسس قيامها وظروف حياتها، ومراحل تطورها إلا أنها لابد أن تعرف نظماً محددة لإنجاب الأطفال (الأعضاء الجدد فى المجتمع وإعدادهم (تنشئتهم اجتماعياً)، وتنظم العلاقة بين الرجل والمرأة، ذلك هو النظام الأسرى أو العائلى.

ولابد لكل جماعة أن تعمل لكى تنتج الأساسيات أو الحاجات الضرورية لإعاشتها، فكل مجتمع يجب أن ينظم لأفراده أساليب الإنتاج، وتوزيع عائد هذا الإنتاج والاستهلاك ... الخ وذلك هو النّظام الاقتصادى.

وكل مجتمع إنسانى لمس أفراده منذ فجر تجربتهم الاجتماعية الحاجة إلى التفكير فيما وراء الطبيعة، وفيما هو اسمى من المستوى الإنسانى فكانت بداية الفكر الدينى مرتبطة أوثق الارتباط ببداية الحياة الاجتماعية، ولذلك يعد النظام الدينى أحد النظم الاجتماعية الرئيسية، كما أن النظام السياسى نظام ملازم للتكوين الاجتماعى، فلا مجتمع بلا سياسة، سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، ولكل مجتمع أيضاً نظام تربوى وما يرتبط به من مؤسسات وأساليب تربوية تشير إلى طريقة المجتمع فى تأهيل أفراده، لممارسة أدوارهم الاجتماعية والمهنية. تلك هى النظم التى لا يخلو منها مجتمع إنسانى،والتى تتفرع عنها أثناء عملية التطور الاجتماعى النظم الاجتماعية الفرعية. Sub-system .

وفى الواقع الاجتماعى لا يمكن فصل حدود كل نظام عن الآخر على المستوى الواقعى،وإن كان من الممكن عزلها عن بعضها البعض على المستوى النظرى بغرض تحليلى فقط، إلا أن النظم فى الحقيقة متشابكة ويكمل بعضها البعض، ولذا فإذا أردنا دراسة مجتمع ما، وخصائص النظم السائدة فيه، فعلينا ألا نغفل كيف أن نظاماً معيناً يمارس وظائف تتعدى تأثيراتها نطاق وحداته الجزئية إلى باقى النظم الأخرى، وذلك من خلال العلاقات المتبادلة والتداخل ما بين عناصرها ومكونات هذا النظام، مع مكونات النظم

الأخرى.

لكن من السمات المشتركة لكل المجتمعات المعاصرة أن نظمها الاجتماعية سريعة التغير، ولا يوجد اليوم نظام اجتماعى على هذه الأرض ليس فى حالة حركة مستمرة، ولك حقيقة معروفة للجميع، أو على الأقل يكاد أن يلم بها الجميع، ولذا فإن حدوث أى تغيرات فىّ النظم الاجتماعية سوف يؤدى بدوره إلى حدوث تحولات فى البنية الاجتماعية، وفى شكل العلاقات الاجتماعية السائدة للنظم الاجتماعية التى لا غنى لأى مجتمع عن وجودها وباعتبارها تمثل محور اهتمام علم الاجتماع.

أ - النظام الاقتصادى **Economic System**

يمثل النظام الاقتصادى أهم النظم الاجتماعية التى يتكون منها المجتمعات الإنسانية خصوصاً وأن النشاط الاقتصادى يعد أساس ظهور التجمعات البشرية، ومظهراً لأحد أهم أشكال التفاعل بين الإنسان والبيئة التى يعيش فيها، وإذا كان التحليل الاقتصادى يركز علىَ تحليل العمليات الاقتصادية الأساسية كالإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك من منظور اقتصادى بحت، إلا أن التحليل الاجتماعى يرى أنه من الصعب تحليل هذه العمليات بعيداً عن الأبعاد الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الموجودة مثل علاقات العمل بين العمال، و أصحاب العمل، أو السياسات الحكومية، أو نوعية الطبقات الاجتماعية أو البناء الأيديولوجى السائد وغيرها، كما أن النظام الاقتصادى العالمى الجديد The New International Economic والشركات متعددة الجنسية The Multinational Corporation فكلاً من الظاهرتين كانا

نتاجاً طبيعياً لتغير نمط العلاقات الاقتصادية والإنتاج ورأس المال، والتجارة، والتوزيع والاستهلاك والاستثمار، عما كانت عليه فى العصور القديمة والوسطى، فطبيعة الحياة العصرية فى المجتمع الحديث والتقدم التكنولوجى والاقتصادى، ترتب عليها ظهور أنماط جديدة من النظم والأنساق والمؤسسات والعلاقات الاقتصادية القومية، والعالمية، علاوة على ذلك، دراسة أسباب ظهور كل من النظام الاقتصادى العالمى الجديد، والشركات العالمية، نجد حالياً ما يعرف بالتكتلات الإقليمية والعالمية الاقتصادية مثال ذلك السوق الأوروبية المشتركة، وإقليم جنوب غرب آسيا، والتكتلات الإقليمية فى أمريكا اللاتينية والجنوبية وغيرها، فضلاً عن ظهور الاتجاهات التى تعرف حالياً بالعولمة Globalization، حيث أصبحت هذه الموضوعات من أهم المجالات التى يهتم بها علم الاجتماع الاقتصادى فى الوقت الراهن[١٣].

حيث أن علم الاجتماع الاقتصادى Economic Sociology وهو أحد فروع علم الاجتماع العام يهتم بتحليل العلاقات بين الجوانب الاقتصادية والجوانب غير الاقتصادية التى تؤثر فيها وترتبط معها فى سياق الحياة الاجتماعية، أى يدور اهتمامه حول التساند المتبادل بين المتغيرات السوسيولوجية حين تتجسد فى السياق الاقتصادى، والمتغيرات السوسيولوجية التى يمكن أن نعتبرها بعيدة إلى حد ما عن المجال

---

(١٣) عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الاقتصادى (الجزء الأول)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص ٢٨٥.

الاقتصادى، مثال ذلك أن عالم الاجتماع الاقتصادى يعنى بتداخل الأدوار الأسرية والأدوات المهنية فى المجتمع المحلى وعلاقتها بالبناء السياسى لهذا المجتمع، أى أنه يهتم بالتساند والتكامل بين الأبنية الاقتصادية وغير الاقتصادية، والمواقف العديدة التى يتجه فيها نحو تحقيق أغراض مشتركة[١٤].

وعلى هذا يجب ألا نهمل عند تحليل العمليات الاقتصادية المختلفة فى أى مجتمع، موضوع على جانب كبير من الأهمية ويتمثل فى وجود فوارق فى طبيعة الاقتصاد والعوامل المؤثرة فيه، بين المجتمعات المختلفة، والتى ترتبط أساساً بمستوى التنظيم السائد فى المجتمع، ومستوى التطور الذى وصل إليه المجتمع فمثلاً هناك فوارق فى طبيعة الحياة بين المجمعات البسيطة والمجتمعات المركبة، حيث تظهر المجتمعات البسيطة عدم وجود فوارق بين الأنشطة الاقتصادية والأبنية الاجتماعية، فمعظم العمليات الاقتصادية- إن لم يكن كلها- تقوم على أساس اجتماعى أكثر مما تقوم على أساس اقتصادى بحت، الأمر الذى يعنى أنها تتأثر بكثير من العوامل غير الاقتصادية مثل روابط القرابة، والمعتقدات الدينية، والاعتبارات السياسية، فى حين أن طبيعة الاقتصاد فى المجتمعات المركبة تشهد تنظيماً أكبر للعمليات الاقتصادية من خلال توفر التنظيمات والمؤسسات المستقلة التى تدير الأنشطة الاقتصادية بها.

---

(١٤) محمد الجوهرى وآخرون، ميادين علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٨٧.

أنماط الاقتصاد :

لقد أوضح التحليل السابق أن الاقتصاد يمكن أن يكون بسيطاً أو مركباً (معقداً) ولذا فقد اهتم العلماء بتصنيف المجتمعات حسب أنماط النظم الاقتصادية السائدة، فلقد ميز كارل ماركس بين خمسة أنماط أساسية من المجتمعات هى المجتمع البدائى، والمجتمع القديم، ومجتمع نمط الإنتاج الأسيوى، والمجتمع الإقطاعى، والمجتمع الرأسمالى، والملاحظ أن تصنيف ماركس لم يستند فقط إلى مستوى التكنولوجيا وأسلوب الإنتاج، ولكنه استند أيضاً إلى طبيعة الملكية ونمط العلاقات الطبيعية، وهناك فى الواقع تصنيفات مماثلة من أمثال بوشر Busher وسومبارت Sombart، وقد لاقت هذه التصنيفات الواسعة لأنماط الاقتصاد قبولاً عاماً مما شجع البعض على بذل جهد للتمييز بين أنماط فرعية عديدة نابعة من أنماط عامة، ويبدو أن ثمة اتفاقاً عاماً حول النشاطات الاقتصادية فى المجتمعات البدائية، فهناك جامعوا الطعام، والقناصون، والرعاة، والمزارعون . كما اهتم علماء الاجتماع بتحليل الرأسمالية الحديثة بوصفها نظاماً اقتصادياً واجتماعياً، وبغض النظر عن الجدل الذى أثير حول نشأة الرأسمالية الحديثة، فإن أغلب اهتمامات العلماء انصبت على دراسة التطورات الحديثة للرأسمالية، وعلى الأخص نمو المشروعات الكبيرة الحجم، كما فرق الماركسيون بين رأسمالية القرن التاسع عشر، والرأسمالية الاحتكارية التى سادت القرن العشرين، والتى ارتبطت بالإمبريالية.

ولاشك أن دراسة أنماط الاقتصاد قد كشفت بوضوح قيمة الاتجاه

الاجتماعى الذى يحاول إلقاء الضوء على العلاقات المتشابكة بين نظام الملكية والصناعة، والتدرج الاجتماعى والتنظيم السياسى، وهذا ما يبدو واضحاً فى دراسة التغير فى نمط اقتصادى معين إلى نمط اقتصادى آخر، فلقد حدث جدل مبكر فى علم الاجتماع بدأه ماركس ثم واصله ماكس فيبر حول نشأة الرأسمالية الحديثة. وكانت أهم النتائج التى أسفر عنها هذا الجدل هون أن نمو الرأسمالية قد تطلب شيوع اتجاهات معينة نحو العمل والثروة، لم تكن مألوفة من قبل لدى المجتمعات الإنسانية، وأن الأخلاق الاجتماعية للبروتستانتية قد عاونت على انتشار هذه الاتجاهات لأنها عاونت على التعجيل بنمو الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية [١٥]. لكن النظم الاقتصادية فى المجتمعات الحديثة تسمى النظم الرأسمالية أو الاشتراكية طبقاً لسيطرة الدولة أو الأفراد على الحياة الاقتصادية والسلع الرأسمالية، فالمجتمع الذى تكون فيه غالبية السلع الرأسمالية مملوكة للأفراد تسمى نظاماً رأسمالياً ، وعندما تكون الدولة هى المهيمنة على الملكية والتحكم فى السلع الرأسمالية فيطلق عليها نظاماً اشتراكياً وفى الوقت ذاته هناك نمط آخر من الملكية تسمى ملكية اقتصادية تعاونية Economic Corporation ، وأن عائد هذه الملكية التعاونية يوزع بين أصحاب الأسهم المشتركين، وأنها تعمل فى ظل قوانين الدولة التى تحدد حقوقها وواجباتها والتزاماتها، وهذا النوع من الملكية (العامة) لا يقتصر على الاقتصاديات

---

(١٥) محمد على محمد، دراسات فى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ص ٢٥١ – ٢٥٤.

الرأسمالية وإنما يوجد أيضاً فى النظم الاقتصادية الاشتراكية، فعلى سبيل المثال تأميم مناجم الفحم والبنوك فى بريطانيا تحول إلى أشكال تعاونية من الملكية أساساً وأن هناك إشراف من الدولة على هذه المشروعات، وكذلك توجد فى روسيا هذه الأنماط من الملكية التعاونية تحت إشراف الدولة(١٦).

وبشكل عام يمكن تحديد أنماط الاقتصاد فى الأشكال التالية(١٧):

١- مجتمعات الصيد والالتقاط :

تمثل هذه المجتمعات المرحلة البدائية من الإنتاج، حيث يعيش أعضاء هذا المجتمع على القنص والصيد، وتربية الماشية أو الزراعة، فى المرحلة الأعلى، ويتحدد النشاط الاقتصادى حسب طبيعة الموارد التى توفرها البيئة بشكل عام، ولذلك فهذا المجتمع عندما يشبع احتياجاته المادية من الموارد المتاحة، فهو فى نفس الوقت معرض للحوادث والأخطار الطبيعية مثل فترات الجفاف وندرة الموارد أو الفيضانات أو غرق المحاصيل... إلا أن قدرة هذا النمط من المجتمعات ضعيفة فى السيطرة على الطبيعة، وليس لديه القدرة على التحكم فيها، ويعتبر تقسيم العمل فى هذه المجتمعات محدوداً جداً وبدائياً، نتيجة تشابه النشاط الذى يمارسه أفراد المجتمع، فهم إما صيادون أو يمارسون الزراعة أو يربون الماشية، ويقتصر التباين فى هذا المجال على التقسيم الطبيعى الموجود فى الأسرة، حسب العمر والجنس ويسود البناء ا لاجتماعى متانة وقوة فى العلاقات الاجتماعية، بسبب

---

(١٦) Young, Y. and Mack, R., P[, Cit., p.p. 381 – 382.

(١٧) جهينة العيسى وكلثم الغانم، مرجع سابق، ص ص ١٠٨ –١١٠.

بساطة التركيب، وصغر حجم المجتمع، فالوحدة الأساسية هى الأسرة الممتدة، وتتخذ كل التجمعات القبلية والتى تحدد مستوى التنظيم الاجتماعى، فنظام الملكية السائد مشاعى أو جماعى (القبيلة تمتلك الموارد الطبيعية مثل الماء والمرعى والماشية) وتتخذ القرارات بشكل جماعى من خلال أعضاء مجلس القبيلة،ويمارس الضبط الاجتماعى لسلوك أفراد المجتمع من قبل جميع المنتسبين لهذا المجتمع، والعقاب يطبق أيضاً باتفاق عام بينهم، كما يفتقر هذا النوع من التنظيم الاجتماعى إلى وضوح عناصر السلطة فيه بسبب عم وجود توزيع للوظائف والمراكز الاجتماعية، فيما عدا الوضع الذى يحتله الفرد نتيجة المرحلة العمرية التى يمثلها أو جنسه ذكر أو أنثى أو الدور الذى يمارسه أو يقوم به فى هذا المجتمع.

٢- المجتمع الزراعى :

ولقد ظهر المجتمع الزراعى كمرحلة تالية لمجتمعات الصيد والالتقاط، بعد أن اكتشف الإنسان عملية بذر البذور والزراعية الموسمية فى البداية نتيجة الاعتماد على مياه الأمطار، ثم التوصل إلى التحكم فى الموارد المائية سواء بسحبها من باطن الأرض أو من خلال قنوات للرى، ويكشف هذا النمط الاقتصادى عن استخدام الإنسان لمستوى تكنولوجى أعلى من حيث استخدام التكنولوجيا البدائية كالفأس والمحراث والمنجل والشادوف وغيرها، وتمكن الإنسان فى هذه المرحلة من إنتاج احتياجاته الغذائية بدلاً من الاعتماد على الموارد التى تتيحها البيئة المحيطة، واستطاع أن يدجن مجموعة من الحيوانات لاستخدامها فى عملية الزراعة والتنقل، وأيضاً

لإنتاج احتياجاته الغذائية.

وصاحب ذلك ظهور مهارات جديدة عند الإنسان مثل الزراعة والحصاد وتحويل المواد الغذائية إلى مواد أخرى، وتوفير فوائض يقوم بادخارها أو تبادلها من منتجات وسلع أخرى، فى أسواق ومجتمعات قريبة، وساعد ذلك على ظهور تقسيم العمل Division of Labor أكثر تطوراً من المجتمع السابق، حيث أصبح هناك الفلاح، والموزع، والتاجر، والحرفى وهذه التطورات سواء فى طبيعة النشاط أو فى التكنولوجيا المستخدمة، وتحقيق فائض اقتصادى وادخار، والمتاجرة بالسلع، فقد أدت إلى بروز نظام للملكية الخاصة فى شكل تملك العقار (الأرض الزراعية) أو تملك السلعة (تبادلها أو المتاجرة فيها) وأفرز ذلك تنظيمات اجتماعية تشهد تباينات فى المكانة الاجتماعية التى يحتلها أفراد المجتمع، فهناك سيد الأرض، والفلاح، والتاجر، ويعتبر هذا النوع من التنظيم الاجتماعى للأنشطة الاقتصادية من خلال كل الملكية السائد (خصوصاً الأراضى الزراعية) من التنظيمات المستقرة، بسبب هذا النوع من الملكية العقارية المتوارثة فيظل المجتمع دون تغيرات أساسية فى بنائه الاجتماعى، مثال ذلك ما يحدث فى المجتمع الإقطاعى.

٣- المجتمع الصناعى :

وفى هذا المجتمع نجد أن المدن أصبحت مجالاً لاتساع نطاق جديد من الأنشطة الاقتصادية التى تعتمد على العمل الفردى فى مجال الصناعة الحرفية، والتى صاحبها نمو رؤوس الأموال الخاص التى اقتصدها

الحرفيون، وهروب الفلاحون من الأرياف إلى المدن، ونمـو الأسـواق، فظـهر نمط إنتاجى جديد يعتمد على الملكية الخاصة، وتقسيم عمل أكثر تمايزاً عـن المراحل السابقة، وتتعاظم دور الآلة، وحجم الإنتاج، وطرق توزيعه مع نشأة المجتمعات الصناعية الحديثة، ومع تطور علاقة الإنسـان بالبيئـة، وزيـادة قدرته على تسخيرها واستغلال مواردها باستخدام التكنولوجيا، زاد الطلب على مهارات أكثر تخصصاً وقواعـد للعمـل أكـثر تنظيمـاً واسـتيعاباً للتطـور الحادثة فى مجال الإنتاج والصناعات التحويلية وعمليات التسـويق وتكويـن الفوائض والأرباح . وسـادت أنمـاط مـن العلاقـات الاجتماعيـة المركبـة التـى تختلـف إلى حـد بعيـد فـى طبيعتـها ووظائفـها عـن العلاقـات الاجتماعيـة التلقائية التى تميز المجتمعات البدائية أو البسيطة والمجتمعات الزراعيـة، حيث أصبح المجتمع يوفر حاجاته مـن خـلال الاعتمـاد المتبـادل ليـس بـين أفراد الأسرة أو القبيلة أو القرية كما فـى المجتمعـات البسـيطة والزراعيـة، ولكن من خلال مؤسسـات رسميـة وتنظيمـات اقتصاديـة عـززت أنماطـاً مـن العلاقات غـير المباشـرة والرسميـة التـى كـانت مـن مظاهرهـا شـيوع الـروح الفردية والاستقلالية بين أفراد المجتمع.

(بـ) النظام السياسى Political System

النظام السياسى هو الإطار التنظيمى الذى تتم ممارسة القوة والسلطة من خلاله فى المجتمعات الإنسانية، وبالتالى فـإن وظيفـة النظـام السياسـى هى حفظ وتدعيم النظام الاجتماعى وممارسة القوة مـن أجـل الامتثـال لنسـق السلطة القائم وتوفـير وسـائل التعبـير فـى الأنسـاق القانونيـة أو الإداريـة،

وتنطوى المؤسسة السياسية على تقاليد وقوانين تصلح لتنظيم المجتمع وإدارته ، ولذا تعتبر الدولة الحديثة من بين نماذج البناء الاجتماعى التى تعبر المؤسسة السياسية من خلالها وتمكنها من القيام بدورها الرسمى(١٨).

كما يختص النظام السياسى بتوزيع القوة فى المجتمع ،فالقوة تعد مظهراً أو سمة للعلاقات الاجتماعية بشكل عام، فقد تمارس بين الأفراد أو داخل الجماعات الاجتماعية حتى الأولية منها كالأسرة وبين المجتمعات بعضها البعض، وتشتمل القوة، القدرة على اتخاذ القرارات والسيطرة والقيادة، ويرتبط بمفهوم القوة مفهوم السلطة Authority، إذ لا يمكن التأثير فى الآخرين أو ممارسة القوى دون وجود نظام لاستخدام السلطة يتيح تملك هذه القوة التى بواسطتها يمكن لنظام سياسى محدد السيطرة على باقى النظم الاجتماعية.

كما أن أى شخص أو تنظيم لابد أن يعترف بأن السلطة لها قوة على الآخرين، وطوال حياتنا فهناك سلطات عديدة لابد من الاعتراف بها، ففى المدرسة نحن لا يمكن أن ننكر سلطة المدرس فى العقاب، وإدارة المدرسة تمارس سلطتها على المدرسين فيما يتعلق بماذا يعلموه وكيفية التعليم، والعمال يفصلون لو أنهم لم يطيعوا سلطة رؤسائهم، والرئيس يسمى الحاكم لأنه يحكم باستمرار مكان العمل، ومنظمات عديدة تحكم الهيئات التى تمارس السلطة على أعضائها، والحكومة لها سلطة على كل أفراد

---

(١٨) عاطف غيث (محرر) قامو علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

الدولة[١٩].

ولذا يركز النظام السياسى على دراسة الدولة أو الحكومة وبخاصة الاهتمام بتحليل العلاقة بين الأفراد وحكوماتهم تلك العلاقة التى تقوم على قواعد مقررة، ومقبولة توصف بأنها شرعية، هذا فضلاً عن دراسات الأحزاب السياسية والسلوك السياسى والقيادات وجماعات المصلحة، والرأى العام وأسس الإدارة العامة، وبغض النظر عن الأسلوب الذى يتم بواسطته الاستيلاء على القوة وممارسة السلطة، فإن كل المجتمعات تحتاج إلى قدر من التنظيم السياسى للعلاقات والأنشطة الاجتماعية المختلفة، ولا يمكن تحقيق ذلك دون وجود نظام للسلطة يتولى على أساسه فرد أو مجموعة أفراد إدارة وتنظيم المجتمع، والسلطة كما عرفها ماكس فيبر، بأنها احتمال أن تطيع جماعة معينة من الناس الأوامر المحددة التى تصدر من مصدر معين، كما استخدم فيبر مفهوم الشرعية للإشارة إلى اعتراف الأفراد بحق الرؤساء فى إصدار أوامر لمرؤسيهم، وعلى هذا فإن ممارسة السلطة تتطلب وجود قدر من الشرعية تبدو واضحة فى امتثال الأفراد لسلطة الرؤساء، كما أوضح ماكس فيبر أن علاقات السلطة تنمو فى الجماعات الكبيرة الحجم لأن قيم الجماعة هى وحدها التى تستطيع أن تمنح ممارسة الضبط الاجتماعى طابعاً شرعياً، وأن معايير الجماعة وحدها هى السند الذى يدعم الامتثال.

واستناداً إلى ذلك ميز ماكس فيبر بين ثلاثة أنماط للسلطة هى :

---

(١٩) Nobbs, J., Modern Society, (Social Studies for C.S.E, George Allen and Unwin, London, 1978, p. 167 – 168.

السلطة الكارزماتية أو الروحية المستندة إلى الإلهام Charismatic، والسلطة التقليدية Traditional، والسلطة القانونية الرشيدة Legal Rational، ويستند النمط الأول من السلطة إلى وجود قائد ملهم يتمتع بخاصية أو خصائص نادرة يصبح بمقتضاها قائداً أو زعيماً، وقد يظهر معه أو من بعده أعوان أو أتباع يؤمنون بشخصيته ويعملون بمقتضى تعاليمه، وعادة ما يقومون بدور الوسيط بين هذا الزعيم الملهم والجماهير، وطبقاً لذلك يوجد نماذج لهؤلاء الزعماء فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، ففى الدين يوجد الأنبياء، وفى الحرب يوجد الأبطال، وفى السياسة يوجد الزعماء السياسيون.

أما النمط الثانى من أنماط السلطة وهو السلطة التقليدية فيستند إلى قدسية التقاليد والإيمان بخلود الماضى، وبمقتضى ذلك ينظر الناس إلى النظام الاجتماعى القائم بوصفه نظاماً مقدساً وخالداً وغير قابل للانتهاك ولقد استشهد فيبر على وجود نمط السلطة التقليدية بتصور الحق الإلهى للملوك والملكيات المطلقة، موضحاً كيف أن السلطة التقليدية تسعى باستمرار إلى إقرار النظام الاجتماعى القائم واستمراره.

ويستند النمط الثالث والأخير من أنماط السلطة وهى السلطة القانونية (الرشيدة) إلى الإيمان بسيادة القانون وصوابه ومن الطبيعى أن تفترض هذه السلطة وجود مجموعة رسمية مستقرة من المعايير الاجتماعية تتولى تنظيم السلوك تنظيماً رشيداً، بحيث يتمكن هذا السلوك من تحقيق أهدافاً محددة، إذن فالطاعة فى هذا النمط من السلطة لا تكون لشخص

بعينه، وإنما لمجموعة من المبادئ الموضوعة تفرض اتباع التوصيات والأوامر التى يصدرها الرئيس بغض النظر عن شخصية هذا الرئيس، وفضلاً عن ذلك فهناك إجراءات واضحة تتبع لكى يشغل الرئيس وضعه الاجتماعى كالتعيين والانتخابات، ويذهب فيبر أن السلطة القانونية هى النمط الشائع فى التنظيمات الحديثة وعلى الأخص

الحكومية منها (٢٠).

أنماط النظام السياسى :

يرى علماء الاجتماع التطوريون أن هناك نمطين من المجتمعات، الأولى المجتمعات التى لديها نظاماً سياسياً،وتلك المجتمعات التى لا يتوافر فيها النظام السياسى، إلا أن سبنسر ذهب إلى أن التنظيم السياسى الواضح يظهر فقط فى فئة المجتمعات الأشد تعقيداً فى حين ميز هوبهاوس بين ثلاثة أنماط من المجتمعات تتصف بروابط اجتماعية أساسية مختلفة هى القرابة، السلطة والمواطنة، كما أكد أيضاً على وجود علاقة بين مستوى التطور الاقتصادى وزيادة التباين الاجتماعى، وظهور السلطة السياسية المنتظمة، ويتفق هذا مع ما ذهب إليه الماركسيون من أن الدولة تظهر فقط إلى حيز الوجود فى مرحلة التطور الاقتصادى التى تظهر فيها طبقات اجتماعية متصارعة . بينما ذهب أوبنهايمر Oppenheimer إلى أن نشأة الدولة يعود إلى الهزيمة التى تلحقها قبيلة بقبيلة أخرى، فالدولة هى النظام القضائى

---

(٢٠) السيد الحسينى، علم الاجتماع السياسى (المفاهيم والقضايا)، دار قطرى بن الفجاءة، الدوحة، قطر ، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦، ص ص ٢٥١ – ٢٥٣

الذى تفرضه جماعة منتصرة على جماعة مهزومة بهدف واحد أساسى هو إخضاع الجماعة المهزومة لنظام الجزية.

لكن الملاحظ هنا أن أنماط النظم السياسية التى حدّدها علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر كانت قليلة نسبياً كما أنهم عرفوها تعريفاً عاماً مشتقاً من نزعتهم التطورية وأهم هذه الأنماط هى:

(أ) المجتمعات البدائية وتنقسم قسمين مجتمعات بدون بناء سياسى محدد ودائم، ومجتمعات ذات بناء سياسى محدد ودائم، ولكنه يخضع للقرابة والدين خضوعاً شديداً.

(ب) المدينة - الدولة: وهى الإمبراطوريات القائمة على المدن التى شكلت دولاً مستقلة.

(جـ) الدولة الإقطاعية: وهى الدول الأسيوية ذات البيروقراطيات المركزية.

(د) الدولة الأمة: وتنقسم إلى قسمين الدولة الديموقراطية الحديثة، والدول الحديثة القائمة على تركز السلطة.

(هـ) الإمبراطوريات القائمة على الدول التى تشكل أمماً.

ومن الواضح أن هذا التصنيف يتخذ طابعاً وصفياً إلى حد كبير، ولكنه مع ذلك يأخذ فى اعتباره نطاق المجتمعات وأنساقها الاقتصادية، وتدرجها الاجتماعى، وأديانها، وكل العوامل الأخرى التى يعتقد أنها ذات أهمية خاصة فى تشكيل البناء السياسى، لكن نستطيع أن نميز فى عالمنا بين ثلاثة أنماط من النظم السياسية على النحو التالى:

النمط الأول: الأنساق السياسية للمجتمعات القبلية التى أخذت بالتصنيع

وبعض النظم السياسية الحديثة نتيجة للتأثيرات الغربيــة والتوجـه المباشـر نحو الغرب، وتقع الغالبية العظمى من هذه المجتمعات فى دول أفريقيا.

النمط الثانى : يتمثل فى الدول غير الصناعية التى كان لها حضارات قديمة والتـى أخـذت بسياسـة التصنيـع بعـد تحررهـا مـن الحكـم الاسـتعمارى أو الإقطاعى أو الأتوقراطى، وتشمل هذه الفئـة كثـيراً مـن أقطـار آسـيا والشـرق الأوسط وبعض أقطار أمريكا اللاتينية.

النمط الثالث : الـدول الصناعيـة الحديثـة والتـى تشـكل الموضـوع الأساسـى للبحوث السوسيولوجية، ويمكن أن نمـيز بـين نمطـين أساسـيين مـن أنمـاط النسق السياسية الأول الرأسمالى الديموقراطـى أو الاشـتراكى الديموقراطـى، والنمط الآخر الشيوعى القائم على تركيز السلطة. لكن تتمثل أهم الخصـائص السياسية العامة المميزة للمجتمعات الصناعية الحديثة بالسمات التالية:

١- اتخاذ المجتمع السياسى شكل الدولة - الأمة.

٢- وجود أحزاب سياسية وجماعات ضاغطة.

٣- انتخابات القادة السياسيين طبقاً لمحكات عامة.

٤- إدارة الشئون العامة بواسطة بيروقراطيات مركزية كبيرة[٢١].

(جـ) النظام الدينى Religion System

يعتبر النظام الدينى أحد النظم الأساسية فى المجتمعـات الإنسـانية المعاصرة بشكل عام، فمن خلال الدين تستطيع الكائنات البشرية أن تفسر من

---

(٢١) أنظر محمد على محمد، مرجع سابق، ص ص ٢٦٢ - ٢٧٠.

منظور أخلاقى، حركتها، فى الحياة واتجاهاتها، ومشكلة وجود الإنسان وعلاقته بخالقه ومصيره ومعنى وجوده فى الحياة، وغيرها من المسائل الأخروية، ولذا فالدين فى الواقع لم يقدم فقط عبر العصور، الشعائر والطقوس التى تساعد على إيجاد الراحة النفسية للأفراد والوسائل التى تقوى الاعتقاد، بل ساعد أيضاً على تقديم تفسيرات فكرية أسهمت فى تكوين الحس الأخلاقى بتجربة الحياة الكلية وتشتمل هذه التفسيرات على محتوى الفلسفات الدينية والكونية فقد طور كل الأديان الكبرى مثل اليهودية والمسيحية والإسلام، والبوذية، والهندوسية تفسيراتها المميزة عن طبيعة الله والآلهة، والإنسان وهدفه على الأرض، ومشكلة الشر، ومصير الإنسان، وهى محاولات للإجابة عن بحث الإنسان عن "المعنى" ولعل تقديم مثل هذه التفسيرات للمعنى يعد من أهم الوظائف التى قام بها الدين من خلال تاريخ الإنسان.

ولعل مشكلة المعنى لدى كثير من الناس لا تقتصر على المحاولات المنظمة بهدف إيجاد تفسيرات لمعنى المصير الإنسانى، أكثر من كونها إجابة عن مسألة، لماذا تحدث هذه الأشياء غير المواتية، ولماذا تحدث لهم بالذات، وبعض الإجابات عن هذه المسائل، والتى قد تثار ويتم الإجابة عليها على مستويات مختلفة، تعد وبلا شك ضرورة للكائنات الإنسانية لو أرادت أن تتغلب على الإحباطات التى تواجهها، وهنا يمدنا الدين أيضاً بإجابات متنوعة للمسائل الإنسانية العامة[٢٢]

---

(٢٢) محمد أحمد بيومى، علم الاجتماع الدينى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ص ٣٣٤ – ٣٣٥.

كما أن الدين يمدنا بتفسيرات لبعض الظواهر التى من العسير التنبؤ بها كظاهرة الموت ونهاية الأجل، فعلى الرغم من أن كل الناس يدركون جيداً أنهم سوف يموتون إلا أنه لا يوجد أحد منهم يعرف متى وأين يموت، وبسبب هذا الشعور بعدم التأكد نجد التفسيرات الدينية للموت قائمة فى كل مجتمع إنسانى، وعلى الرغم من أن هذه التفسيرات تناولت الكثير من الاعتقادات فيما يتعلق بالحياة بعد الموت، إلا أن أهم سمة لهذه التفسيرات هى أن الدين يعطينا مجموعة من الميكانيزمات التى بواسطتها يستطيع الذين على حافة الموت وغيرهم، التكيف مع الحقيقة الضاغطة. وقد تكون الوظائف الكامنة للاعتقادات الدينية المتعلقة بالموت والأموات ذات أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع الإنسانى، ذلك لأن هذه الاعتقادات تحدد للأحياء مكانة الموتى فى المجال الاجتماعى والماوراء اجتماعى للأشياء، وتعمل هذه الاعتقادات على تقديم تفسيرات لطمأنة الأحياء الذين يدركون علاقتهم بالأموات أو يترقبوا ما سوف يحدث من أولئك الأموات نحوهم (٢٣).

كما أن الدين يمثل أقوى المرتكزات للأنظمة الموجودة فكرياً ومؤسسياً. كما أن هناك ما يدل على أنه قادر فى الوقت نفسه على تغذية الثورة على الموجود فى أشكاله المختلفة. بمعنى آخر فإن الظاهرة الدينية يمكن أن تمثل إحدى آليات النظام السائد فتثبته، وربما تضفى عليه شرعية البقاء والاستمرار، كما يمكن أن تكون ركيزة للتغيير، وتجاوز الواقع، لذا

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣١٨.

فقد أكد إميل دوركايم أن الدين يعتبر مصدر كل ما نعـرف مـن ثقافـة عليـا، وأنه منبع كل الأشكال الثقافية المتعالية [٢٤]. وعلى هذا فإن الدين يمثل مجالا مـن الأنشطة والأشكال والرمـوز فـى منتـهى الأهميـة بالنسبة إلى الأفـراد والجماعات، ومما لا شك فيه أيضـاً أن الظـاهرة الدينيـة تحمـل فـى طياتـها عناصر حيوية وتصورات محركة لعمليات النشاط فى الميادين المختلفة.

وفى النهاية فإن علم الاجتماع الدينى Sociology of Religion يـرى أن الديـن كظـاهرة اجتماعيـة يدخـل فـى علاقـات تفاعليـــة مـــع الوحـــدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع، هذه الحقيقة تمثل حجر الزاويـة فـى علم الاجتماع الدينى، رغم هذه الحقيقة فإن هناك مـن ينظـر إلى الديـن علـى أنه السـياق الـذى يتحـدد فيـه الإنسـان مع مـا هـو فـوق إنسـانى، وبالتـالى فالتجربة الدينية شئ خارج عن نطاق التجربة العادية فى حين يرى البعض الآخر أن الدين يعد مظهراً مـن مظـاهر رد الفعـل الغريـزى للقـوى الكونيـة بينما يرى فريق ثالث أن الدين عبارة عن مجموعة من الرسالات الظاهرة مـن الإله، إلا أن الدين فى الواقع كظاهرة ينظر إليه على أنه تفاعل مـع الأنظمـة والقوى الاجتماعية فى المجتمع، وبالتالى فإن الافتراض الأساسى الذى يجب أن يبدأ منه علم الاجتماع فى تحليله للدين يتمثل فى أنه لا يمكن فهم الدين بمعزل عن بقى أنظمة المجتمـع، فـالدين جـزء مـن نسـق يتـأثر ويؤثـر فـى

---

(٢٤) عبد الباقى الهرماس، علـم الاجتمـاع الدينـى (المجـال – المكاسب، التسـاؤلات) فـى كتاب، الدين فى المجتمع العربى)، مركز دراسات الوحـدة العربيـة، الجمعيـة العربيـة لعلم الاجتماع، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٦.

العمليات الاقتصادية والسياسية في المجتمع، وفي أنماط الأسرة والتكنولوجيا وفي طبيعة المجتمعات المحلية، فلو تغير أحد أجزاء النظام فإن كل الأجزاء الأخرى قد تتأثر بطريقة أو بأخرى، فلو انتقل الناس من القرى الزراعية إلى المناطق الحضرية فإن حياتهم الدينية سوف تتأثر بطريقة حيوية، وإذا مر المجتمع بتطور في التعليم و التنقل الاجتماعي والعلم، فإن الأديان في مثل هذا الموقف سوف تمر بتغيرات هامة، ليس في أشكالها الظاهرة، ولكن في طرقها الأساسية،ولو أن ديناً جديداً قد بدا ينتشر بقوة في مجتمع فإن بناءه الاجتماعي برمته سوف يشعر بوطأة هذا التغير وفي الوقت نفسه نجد أن هذا البناء سوف يعدل من الدين الجديد الذى نستوعبه [٢٥].

وبالتالي فإن علم الاجتماع الديني هو بمثابة دراسة للعلاقة المـهمة - والمراوغة غالباً- السائدة بين الدين والبناء الاجتماعي، وبين الدين والعمليات الاجتماعية، وينطوى علم الاجتماع الدين على محاولة لوضع تصوراته الخاصة والأكثر ملاءمة وصبغها في الوقت الذى يعمل فيه على التفهم بشكل أفضل الظواهر المتعددة للجوانب التي يطرحها الدين للدراسة. كما يقدم إلى الإنسان الحديث وسيلة لها أهميتها في الحصول على فهم أفضل للدين كمصدر اهتمام بشرى، وكنشاط إنساني وبهذا الشكل يساهم علم الاجتماع الديني في تطوير وتنمية فهم الإنسان لذاته، ولسلوكه، ولفكره،

---

(٢٥) محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، مرجع سابق، ص ٦٣.

ومشاعره، لعلاقاته برفيقه الإنسان كما تتجسم صورتها فى المجتمع [٢٦]. وعلى هذا يؤكد ينجر Younger أن علم الاجتماع الدينى هو الدراسة العلمية لتأثير المجتمع والثقافة والشخصية فى الدين، كما يدرس أيضاً تأثير الدين فى المجتمع، والثقافة، والشخصية، والمهم هو دراسة العناصر السوسيولوجية والثقافية للدين.

ويتفق العلماء على أن هناك عنصراً أساسياً فى حياة الإنسان يوجه أفكاره ومشاعره وأفعاله، ويدرك الإنسان أن هذا العنصر وراء التجربة اليومية، وهذا هو ما يشكل جوهر التجربة الدينية، فالدين إذن تجربة Experience مع العالم الماورائى أو الدينى، وقد تختلف هذه التجربة من حيث شدتها، وكليتها بالنسبة للفرد أو الجماعة، لكن التجربة الدينية هى علاقة الإنسان باهتماماته العليا أو المطلقة أى هى الجانب الداخلى لعلاقة الإنسان بالله وتفكر فيه، والتجربة الدينية الحقة ليست محدودة بمكان أو زمان بل على العكس لها صفة العمومية والعالمية، فكما ذهب برجسون، بأنه ليس هناك مجتمع بدون دين أو تجربة دينية وكما أكد ريموند فيرث Firth فإن الدين عالمى فى كل المجتمعات الإنسانية والتجربة الدينية متأصلة فى نفس الإنسان. وإذا كانت التجربة الدينية هى جوهر النظام الدينى فما هى عناصر التجربة الدينية؟

وتتمثل عناصر التجربة الدينية فيما يلى:

---

(٢٦) عادل مختار الهوارى، الأصول الاجتماعية التاريخية للظاهرة الدينية (نموذج المسيحية فى أوروبا)، فى كتاب الدين فى المجتمع العربى، مرجع سابق، ص ٧٦.

(١) **المقدس** Holy : والمقدس الشيء المحبوب الذى يتخطى حـدود المنفعـة اليومية، ولا يفهم عن طريق التجربة الحسية ولهذا فـهو يحـاط بشـيء من الاهتمام أو التقديس، وفى مقابل المقدس هناك المدنس الذى يتضمـن كل شئ يعتبر مدنس للمقدس، ولكى يتجنب المقدس ذلـك أحيـط دائمـاً بنوع من المحرمات أو التابو فالأشياء المقدسة يجـب ألا تمـس أو تؤكـل ولا يقترب منها إلا فى مناسبات معينة .

(٢) **المعتقدات والممارسات** Beliefs and Practices : فالاعتقاد قائم على العقيدة والأساطير والممارسة متمثلة فى الاحتفالات والشعائر، ويسـاعد الاعتقاد على إيضاح اصل الأشياء ويمدنا بدليل لفهم العالمى غـير المرئـى (الله- الملائكة - الخ) كما يمدنا بفـهم لكيفيـة ارتبـاط هـذا العـالم غـير المرئى بعالم الحقائق.

أما الشعائر فهى الجانب النشط الـذى يمكـن ملاحظتـه مـن السـلوك الدينى كالصلاة، والتسابيح والصيام وتلاوة القرآن الخ .

(٣) **الرمزية** Symbolism : باعتبار أن جوهر الشـعور الدينـى ينظـر إليـه على أنه لا يوصف أو يعبر عنه، فإن كـل محـاولات التعبـير عنـه تعـد تقريبية ولهذا فـهى رمزيـة ، والرمزيـة تقـوم بوظيفـة جعـل الأشياء المقدسة حية فى عقول وقلوب المؤمنين أى إضفاء الصفة الروحانيـة علـى الأشياء المقدسة .

(٤) **مجتمع المؤمنين** Community Worshippers : فى الواقع يطلق علـى المشاركة فى الاعتقادات، والممارسات بواسطة جماعة اجتماعية معينـة

باسم "جماعة المؤمنين" وتعتبر شيئاً أساسياً فى كل دين. وليس المهم فى مجتمع المؤمنين نوع أو شكل الشعيرة ولكن المهم هو المشاركة العامة فى الاعتقادات الدينية والممارسات الدينية.

(٥) القيم الأخلاقية Morals Values : فمهموم الإنسان عن المقدس يفرض عليه قيمة أخلاقية، وبالتالى فالقيم الأخلاقية تمدنا بنوع من التصديق أو التقديس للأشياء المقدسة فى عالمنا الإنسانى، أىّ أن العلاقة وطيدة بين المقدس وإضفاء القيمة الأخلاقية عليه [٢٧].

(د) النظام العائلى :

يمثل النظام العائلى حجر الأساس أو اللبنة الأولى فى المجتمع، فالعائلة هى الوحدة الأساسية فى التنظيم الاجتماعى، فبدونها يصعب على باقى النظم الاجتماعية القيام بوظائفها، ولذلك لا يوجد مجتمع دون وجود العائلة كمؤسسة اجتماعية أولية، فمن خلالها يرى المجتمع أفراده، وكذلك يرى الأفراد مجتمعهم، فهى الجسد الموصل أو الوسيط الذى يربط الفرد بالمجتمع، فالفرد يأتى إلى المجتمع ويعيش فيه، من خلال العائلة التى ينتمى إليها.

فلقد عرف ميردوك Murdock العائلة باعتبارها وحدة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك وتعاون اقتصادى ووظيفة تكاثرية، ويوجد بين اثنتين من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع، وتتكون

---

(٢٧) محمد أحمد بيومى، مرجع سابق، ص ٣٠٠ – ٣٠٤.

الأسرة على الأقل من ذكر وأنثى بالغين وأطفال سواء من نسلهما أو عن طريق التبنى، وإذا استبعدنا فكرة التبنى فى التعريف السابق لميردوك، فإن هناك من يعرف الأسرة بأنها عبارة عن "وحدة اجتماعية يقترن بها رجل بامرأة فى علاقة مشروعة يقرها العرف والدين وتسفر عن إنجاب أبناء وتجمعهم معيشة مشتركة فى مكان محدد" (٢٨).

هذا وتختلف أشكال وأنواع العائلة كنظام اجتماعى من مجتمع لآخر، ولذا يرى دارسو علم الاجتماع أن الأسرة أو العائلة أحد مقومات الوجود الاجتماعى فى المجتمع الإنسانى، وهى لذلك تعتبر نظاماً عالمياً، أما ما هو غير عالمى فيها فهو شكلها الموجود فى مجتمع أو آخر، والجدير بالذكر هنا أن العائلة كنظام اجتماعى يؤثر ويتأثر بغيره من النظم الاجتماعية الأخرى كالنظام الاقتصادى، والتربوى، والدينى، والسياسى، وفهم هذه النظم الرئيسية ككل يؤدى إلى فهم المجتمع نظراً لما بينهما من علاقات وتأثيرات متبادلة، والقاعدة هنا أن أى نظام اجتماعى لا يمكن فهمه إلا فى ضوء علاقاته مع النظم الاجتماعية الأخرى.

وتعد الأسرة النووية Nuclear Family الوحدة العائلية الصغرى والتى تتكون من الزوج والزوجة وأبنائهما، وهذا النمط البسيط من الأسرة هو النمط الأكثر شيوعاً فى بريطانيا والدول الغربية، والأسرة النووية هى وحدة اجتماعية مستقلة، وأعضائها يرتبطون بروابط الدم، ويعيشون فى نفس

---

(٢٨) على محمد المكاوى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٨.

المنزل ويعملون أشياء عديدة معا. فإذا قرر الأب أخذ وظيفة جديدة فى مكان آخر فإنهم سوف ينتقلون ويحملون أمتعتهم هناك، ويسود بينهم روابط وثيقة ودرجة عالية من الانتماء فيما بينهم. أما الوحدة العائلية الأكبر فتعرف باسم الأسرة الممتدة Extended Family والتى تتكون من ثلاثة أجيال أو أكثر، الآباء والأبناء والأحفاد وقد تضم الاخوة وزوجاتهم و أبنائهم أيضاً وكلهم يعيشون فى بيت واحد، ويعيشون كجماعة واحدة(٢٩).

وظائف الأسرة :

تقوم الأسرة بمجموعة من الوظائف الجوهرية وهذه الوظائف جميعها اجتماعية، بمعنى أن هناك تداخلاً وتفاعلاً مع أبنية المجتمع ويمكن أن نقسمها إلى مجموعتين من الوظائف هما :

الوظائف الفيزيقية (كالتكاثر، والوظيفة الاقتصادية ووظيفة الحماية)، والوظائف الثقافية والعاطفية والاجتماعية من جانب آخر (تكوين الفرد عن طريق الثقافة والتربية والتنشئة الاجتماعية) . وكانت الأسرة الممتدة تقوم بهذه الوظائف كاملة (الوظائف الفيزيقية والوظائف الثقافية والتنشئة الاجتماعية) لكن اصبح الآن فصاعداً توجد مؤسسات أخرى تتداخل لتمارس هذه الوظائف المختلفة بالتعاون مع الأسرة أو بدلاً منها، لذا فقد أكد وليم أوجبرن Ogburn أن مأساة الأسرة الحديثة تكمن فى فقدانها لأغلب الوظائف التى كانت تقوم بها وهى:

---

(٢٩) Nobbs, ., Modern Society, OP. Cit., p.p. 41 - 42.

١- الوظيفة الاقتصادية :

حيث كانت الأسرة فى الماضى وحدة اقتصاديــة مكتفيــة ذاتيــاً لأنــها تقوم باستهلاك ما تنتجه لإشباع احتياجات أفراد الأسرة.

٢- وظيفة منح المكانة الاجتماعية :

حيث كان أعضاء الأسرة يستمدون مكانتــهم الاجتماعيــة مـن مكانــة أسرهم فى الوقت الذى كان اسم الأسرة يحظى بأهمية وقيمة كبرى.

٣- الوظيفة التعليمية :

حيث كانت الأسرة تقوم بتعليــم أفرادهـا وتنشـئتهم اجتماعيـاً، ولا يعنى ذلك تعليم القراءة والكتابة، وإنما يعنى الحرفة والصنعة أو الزراعـة، والتربية البدنية، والشئون المنزلية .. الخ.

٤- وظيفة الحماية :

حيث كانت الأسرة أيضاً مسئولة عن حماية أعضائها، فـالأب لا يمنـح لأسـرته الحمايـة الجسـمانية فقط وإنمـا يمنحـهم أيضـاً الحمايـة الاقتصاديـة والنفسية، وكذلك يفعل الأبناء لآبائهم عندما يتقدم بهم السن.

٥- الوظيفة الدينية :

حيث كانت الأسرة تغرس فى أبنائها الوازع الدينــى وتـلاوة القـرآن فى المنزل وتعلم آداب المائدة عند تناول الطعام وغيرها من الأمور الدينية.

٦- الوظائف الترفيهية :

حيث كانت الوظيفة الترفيهية محصورة فى نطاق الأسرة أو بين عدد من الأسر وليس فى مراكز خاصة خارجية كالمدرسة أو المجتمع المحلــى أو

وسائل الترفيه المختلفة [٣٠].

وعموماً تكاد تنحصر وظائف الأسرة المعاصرة فيما يلى:

(١) إنجاب الصغار والمحافظة الجسدية لأعضاء الأسرة

حيث تعد عملية إنجاب الأطفال ورعاينهم الوظيفة الاساسية التى تؤديها الأسرة، وهى تقع ضمن مسئولية الوالدين الذين عليهم توفير أكبر قدر من احتياجات الأطفال المادية والعاطفية، وتوفير الأمن والاستقرار النفسى لهم، وحمايتهم من أى خطر قد يتعرضون له، هذا إلى جانب تقديم الدعم الاجتماعى للأبناء.

(٢) الوظيفة الاقتصادية :

حيث تقوم الأسرة بعملية إشباع احتياجات أفراد الأسرة من خلال توزيع الأدوار الاقتصادية داخل الأسرة، وعادة ما تستند الأنشطة الاقتصادية الخارجية إلى الذكور والأعمال المنزلية إلى الإناث.

(٣) التنشئة الاجتماعية :

حيث تقوم الأسرة بعملية تربية الأطفال وتنشئتهم من خلال غرس القيم والمعايير وأنماط السلوك التى يرغب فيها المجتمع مع مراعاة الفروق بين أنماط السلوك المرتبطة بكل جنس (الذكور والإناث، حيث يتم نقل كل القيم المرتبطة بالدور المتوقع أن يمارسه كل جنس إلى الأطفال، ويتم تنشئتهم

---

(٣٠) سناء الخولى، (الزواج والعلاقات الأسرية)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ص ٥٧ – ٥٨.

وإعدادهم لممارسة أدوارهم الأسرية والمجتمعية فى المستقبل) .

(٤) الوظيفة العاطفية :

ونعنى بها التفاعل العميق بين الزوجين وبين الآباء والأبناء فى منزل مستقل مما يخلق وحدة أولية صغيرة تكون المصدر الرئيسى للإشباع العاطفى لجميع أعضاء الأسرة وقد أصبحت هذه الوظيفة من الملامح المميزة للأسرة الحضرية الحديثة.

ويهتم علم الاجتماع - كعلم يدرس الظواهر والنظم الاجتماعية - بالنظام العائلى بوصفه نظاماً اجتماعياً عاماً، يظهر فى معظم أشكال المجتمعات الإنسانية التى تتألف أساساً من تجمع وحدات قرابية ومتآلفة، تعتبر المحيط الاجتماعى الذى يساعد على قيام العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الإنسانى أو العاطفى الذى يسهل عملية التأثر المتبادل بين كل أعضاء المجتمع، والذى يؤدى فى النهاية إلى صياغة تصورات وقيم واتجاهات عامة، والتى تمثل فى مجموعها الثقافة المشتركة المتوارثة عبر الأجيال، والنظام العائلى بمثابة الوعاء الذى يحتوى على معظم عناصر هذه الثقافة، ويقوم بالمحافظة عليها.

هـ- النظام التربوى Education System

يعد النظام التربوى أحد النظم الاجتماعية المهمة فى المجتمعات الإنسانية المعاصرة ، ولذا فقد اهتم علماء الاجتماع اهتماماً بالغاً بالنظام التربوى ، ومن أبرز العلماء الذين اهتموا بهذا الموضوع عالم الاجتماع الألمانى فاكس فيبر الذى أعد بحثه الموسوم "التصنيف الاجتماعى لأهداف وأساليب

طرق التدريس " ، والعالم الفرنسى أميل دوركايم الذى درس علم الاجتماع التربية دراسة وظيفية فى كتابه "التربية وعلم الاجتماع " والذى حدد فيه العناصر الأساسية للتربية فى ثلاثة عناصر هى روح الخضوع للنظام ، والتعلق بالهيئات والتنظيمات الاجتماعية ، واستقلال الإرادة ، وإن هدف عملية التربية هو تشكيل الكائن الاجتماعى .[٣١]

وأن عملية التربية هى عملية مستمرة طوال دورة حياة الفرد ، ونحن لا نتوقف عن التعلم على الإطلاق ، وبالتالى لا تتوقف عملية التربية ذاتها ، وإن أولئك الذين يعلموا ويدربوا الآخرين يطلق عليهم المعلمون ، Educators ، والمعلم الأول هو الأم ، ثم يتبع ذلك باقى أفراد الأسرة ، والأقارب ، والأصدقاء وهذا يسمى بالتربية غير الرسمية ، حيث ليست هناك دروس منظمة ، وبالتدريج يتم اكتساب المعرفة غالباً من خلال التعلم من الآخرين ، عن طريق عمليتى الطاعة ، والممارسة ، وأحياناً نتعثر ولكن فى النهاية سوف ننجح ، والتنشئة الاجتماعية هى عملية اكتساب المعرفة ونقل المهارات وتعلم القيم من المجتمع المحلى الذى نعيش فيه ، بهدف نقل الفرد من الكائن البيولوجى إلى الكائن الاجتماعى ، وعملية التربية هى عملية أوسع مدى من التعليم ، حيث تشمل دور الأسرة ، والمدرسة والمجتمع فى تنمية النشء وتأهيلهم لممارسة أدوارهم الاجتماعية .

وبغض النظر عن فوائد عملية التربية ، فى تحقيق النمو المتكامل

---

(٣١) أحمد إبراهيم اليوسف ، علاقة التربية بالمجتمع وتحديد ملامحها النوعية ، عالم الفكر ، الكويت ، المجلد التاسع والعشرون ، العدد الأول ٢٠٠٠ ، ص ٢١ .

لشخصية الفرد فهناك وظائف خمسة للتربيه تساعد الفرد على التكيف مع حياة المجتمع وهى الوظائف الثقافيه ، والوظائف الاقتصادية ، والوظائف النظامية والقانونية ، ووظيفة الاستمرار والتواصل والوظائف السياسية .[٣٢]

وبهذا يتضح أن التربية عملية ، وأنها معقدة ، أنها توسط بين راشد وبين ناشئ وهى توسط ذكى ومقصود ، أنها تساعد الكائن الحى . الإنسان الطفل على التكامل التدريجى فى جسمه وفى نفسه ، تكاملا حراً وموجهاً بحيث يستطيع التفكير فى أمور حياته ، والتعامل معها، وبحيث يستطيع مواجهة الظروف التى تصادفه فى حياته مواجهة يتمكن معها من التكيف معها والمحافظة على بقائه .

وظائف التربية .

تهدف عملية التربية إلى تغيير أو تكييف ، ونمو مستمر للفرد كما أنها تعمل دائماً على إيجاد التوازن بينه وبين البيئة التى يعيش فيها . فكما يقول جون ديوى أن التربية ليست إعداداً للحياة ، وإنما هى الحياة ذاتها فغرض التربية وهدفها ، ليس شيئاً خارجاً عنها وإنما هو فيها ، فالطفل يربى بالعمل والتجربة ، وتنمية مواهبه ، وميوله ، وقدراته ، وتشجيع نشاطه .

وفى الواقع تهدف الجماعات الإنسانية فى جميع الأزمنة وعلى مر العصور إلى تحقيق بقائها واستمرارها على هذه الأرض ، وإلى بقاء قيمها

---

(٣٢) Nobbos, J., Op cit, PP. 101-103.

ونظمها وعاداتها . والتربية هى الوسيلة التى يتحقق بها هذا البقاء والاستمرار ولذلك فالتربية تتعلق بتعليم أفراد المجتمع الجدد كيف يسلكون فى المواقف الاجتماعية المختلفة طبقاً لتوقعات أفراد المجتمع الذى ينشئون فيه ، وعلى هذا الأساس فالتربية عمل إنسانى أى أن مادتها الأفراد الإنسانيين وحدهم دون غيرهم من الكائنات الحية فى إعدادها للأفراد الإنسانيين بعدد من الوظائف ولعل أبرزها ما يلى .(٣٣)

(١) نقل التراث الثقافى :

يعتبر التعليم جزءاً من الثقافة ، ويساهم فى إكساب الأفراد ملامح ثقافة مجتمعاتهم ، إذ تختلف المجتمعات الإنسانية عن المجتمعات الحيوانية بوجود تراث ثقافى تسعى لنقله من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة حتى تبقى وتستمر ، فالحياة الإنسانية إذن تتجدد وتنمو ويضطرد تقدمها عن طريق نقل التراث الثقافى من جيل إلى جيل ، ويقوم كل جيل إنسانى بالإضافة إليه والحذف منه والتغيير فيه والتصحيح والتطوير ، فوجود المجتمعات الإنسانية إذن وبقاؤها واستمرارها متوقف تماماً على عملية النقل الثقافى ، وهذا النقل يتم بانتقال عادات العمل والتفكير والشعور من الكبار إلى الناشئين ، فبغير انتقال المثل العليا والآمال والمطامح والمعايير والآراء من الأفراد الذاهبين من حياة الجماعة إلى أولئك الوافدين عليها لا يمكن لحياة الجماعة أن تدوم ، ولو كان الأفراد الذين يؤلفون

---

(٣٣) عبد الله الرشدان ، علم اجتماع التربية ، دار الشروق ، عمان الأردن ، ١٩٩٩ ، ص ص ٣١-٣٥ .

الجماعة يعيشون أبد الدهر لعملوا إن شاءوا على تربية الناشئين ، إلا أن الدافع لهم فى هذه الحال يكون الرغبة لا الضرورة الاجتماعية " .

وإذا كان هذا النقل الثقافى ضرورة اجتماعية لبقاء المجتمعات واستمرارها ، فالتربية بمعناها الشامل هى وسيلة هذا النقل ، وبذلك تكون التربية ضرورة اجتماعية لا مناص منها إذ بدونها تذبل المجتمعات وتضمحل وقد تذوى وتمحى من الوجود .

٢- التنشئة الاجتماعية من خلال التعليم.

تقوم التربية بتطبيع أفراد المجتمع تطبيعاً اجتماعياً ينتج عنها اكتسابهم للصفات الإنسانية النفسية والاجتماعية التى يتميزون بها ، عن سائر الحيوانات الأخرى ، وبذلك ينتقلون من طور الفردية البيولوجية إلى المرحلة النفسية والاجتماعية ولهذا كان اكتساب الصفات الإنسانية عملاً أساسياً تقوم به التربية ، فهى ضرورة فردية كما هى ضرورة اجتماعية على حد سواء .

٣- تساعد التربية على تحقيق النمو الشامل .

إذ يولد الفرد البشرى ضعيفاً ، عاجزاً لا من الناحية الجسمية فحسب ولكن من الناحية العقلية والاجتماعية كذلك ، فهو بحاجة إلى عناية الكبار البالغين به ، وعن طريق هذه العناية ينمو الطفل الإنسانى من جميع النواحى ، يساعده فى ذلك عدم النضوج ، فالنمو عملية مستمرة متزايدة تسعى إلى تحقيق النضج الكامل ، وأثناء عملية النمو هذه يعيش الفرد حياته متفاعلاً مع بيئته المادية والاجتماعية ، فالنمو هو الحياة وبما أن التربية

هي نمو فمعنى ذلك أن التربية والحياة شيء واحد .

٤- اكتساب الأنماط السلوكية المختلفة .

إذ يولد الطفل البشرى فى مجتمع لـه ممارساته المحددة ، والتى تختلف من مجتمع لآخر ، وينتقى الطفل من المجتمع الذى يعيش فيه مثيرات معينة يستجيب لها استجابات نمطية بحيث إذا ظهرت هذه المثيرات فإن الاستجابات التى تعلمها تكون رد الفعل المباشر لهذه المثيرات، ومعنى هذا أن الطفل وهو يمر بعملية تعلمه يكتسب نتيجة لها الاستجابات السلوكية المختلفة التى يواجه بها مواقف الحياة المختلفة هذه العملية التعليمية هى التربية .

٥- اكتساب الخبرات الاجتماعية .

حيث تقوم التربية بتهيئة الفرد للانضمام إلى الجماعة والتعامل مع أبناء مجتمعه بشكل يعود عليه بالفائدة والنفع ، أنها أساسية فى بناء الجماعات وتماسكها عن طريق تشابه أفرادها واشتراكهم فى كثير من القيم والاتجاهات ، وتقوم عملية الانتماء على اكتساب خبرات متشابهة بين أفراد الجماعة جميعاً وذلك عن طريق التربية . واكتساب الخبرات الاجتماعية المختلفة لا يثبت إلا إذا أدى إلى الأمن والطمأنينة الذين يحس بهما الطفل عندما يكتسب هذه الخبرات .

٦- التوجيه والسيطرة الاجتماعية .

تلعب البيئة الاجتماعية دوراً هاماً وأساسياً فى التوجيه والسيطرة الاجتماعية على سلوك الأفراد ، فإذا كان الكبار فى المجتمع يؤمنون بالقيم

والأنماط السلوكية التى يمارسونها فإنهم يرغبـون دائمـاً فـى السـيطرة علـى بيئتهم عن طريـق السـيطرة علـى هـذه القيـم واسـتمرارها، ولا يتحقـق هـذا الاستمرار وبالتـالى السـيطرة علـى البيئـة إلا باكتسـاب الصغـار لهـذه القيـم والأنماط السـلوكية ، فعـن طريـق السـيطرة علـى الصغـار وتوجيـه سـلوكهم الوجهـة التى يريدها الكبار تتحقق لهم هذه السيطرة الاجتماعية .

وبهذا يمكن أن نشـير إلى أن علـم الاجتمـاع الـتربوى Sociology Of Education يقدم وظيفة أساسية هى إبراز أصـل العمليـة التربويـة وتطورهـا ووظيفتها فى المجتمع الإنسانى ، وعلى هذا النحو فإنه يجعـل مـن الثقافـة محوراً أساسياً فى دراسة التربية .

رابعاً :- الخاتمة

وبـهذا يتضـح أن علـم الاجتمـاع هــو العلـم الـذى يـدرس النظـم الاجتماعية، ويهتم بدراسة المجتمع الإنسـانى بأكملـه مـن خـلال دراسـته للنظم ، والأنساق الاجتماعيــة التـى يتـألف منـها البنـاء الاجتمـاعى، وفـى الواقع أن النظم الاجتماعية تشكل دعامة أساسية فى بناء المجتمع ، نظراً لما تقوم به من وظائف أساسية مهمة تشمل جميع جوانب الحياة الاجتماعية .

وهذه الوظائف التى تؤديها النظم المختلفة للمجتمع تتجه أساسـاً إلى إرضاء أو إشباع عدد من الدوافع الإنسانية نفسية ، وجسمية ، فـهى نفسـية كتلك التى تدفعنـا إلى الأمـن والاسـتجابة والتجربـة والخـبرات الجديـدة ، ودوافع جسمية كتلك التى تدفعنا إلى الطعام والمأوى والجنس الآخر ، وكذلك ما يتعلـق بإرضـاء الدافـع الجنسـى ، ولقـد اتجـهت المجتمعـات الإنسـانية

المختلفة إلى وضع عدد كبير من نماذج التصرفات الجمعية المقننة والمعترف بها . يتحقق عن طريقها الدوافع الإنسانية الأساسية بطريقة يوافق عليها المجتمع . وهذه النماذج المقننة هى ما اصطلح على تسميته بالنظم الاجتماعية .

ومع أهمية النظم الاجتماعية فى المجتمع إلا أنها لم تحظ بالقدر الكافى من عناية الدارسين والباحثين إلى درجة أن رادكليف براون يشير إلى ذلك بقوله "واعتقد أننى أستطيع أن أعد على أصابعى العلماء الذين يهتمون اهتماماً حقيقياً بهذا الموضوع فى الوقت الحاضر ، ومع ذلك فإننى أظن أننا أحرزنا بعض التقدم . (٥)

لكن الجدير بالذكر هنا أن المجتمع عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة ، التى تنشأ من خلال عمليات التفاعل الاجتماعى المستمر بين الأفراد فى إطار الجماعات الاجتماعية ، التى تتعدد وتتنوع حسب أغراضها ووظائفها المتباينة ، بينما تقوم النظم الاجتماعية المختلفة الأسرية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتربوية والدينية بتنظيم هذه العلاقات الاجتماعية ووضعها فى إطارها الأخلاقى والقانونى بالصورة التى تضمن استمرار المجتمع وتكامله .

---

(٥) انظر عبد الباسط محمد حسن . علم الاجتماع . مكتبة غريب . القاهرة . ١٩٨٢ . ص ٢٧٩

الفصل السادس

التفاعل والعمليات الاجتماعية

- مقدمة

١- مفهوم التفاعل وأنماطه وخصائصه

٢- مفهوم العمليات الاجتماعية وأنماطها

٣- أنواع العمليات الاجتماعية

أ - عملية التنشئة الاجتماعية

ب- عملية الصراع الاجتماعى

جـ- عملية التعاون

د-عملية المنافسة

هـ- عملية التكيف الاجتماعى

و- عملية التمثيل الاجتماعى

٤- الخاتمة

مقدمـــة :

إن التفاعل الاجتماعى هو العنصر الرئيسى فى الحياة الاجتماعيـة ، ولهذا فإن هذا المفهوم له أهمية حيوية لأى دراسـة عـن ديناميـات المجتمـع والثقافة ، وبدون التفاعل لا يكون هناك حيـاة اجتماعيـة أو جماعـة . ويعـد التفـاعل الاجتمـاعى عمليـة اجتماعيـة تصـف وتحـدد ديناميكيـة العلاقـات الاجتماعيـة ، فـى حـين أن العمليـة الاجتماعيـة Social Process هـى مجموعـة مـن الأحـداث التـى تكـون نمطـاً معروفـاً يتكـرر حـدوث بصـورة منتظمة، فهى تعبر عن مجموعة من التفاعلات التى بدورها تؤدى إلى ظهور نمط متكرر قد يكون تعاونـاً أو تنافسـاً أو صراعـاً أو تكيفاً أو غيرهـا ، ومـن الجدير بالذكر أن العمليات (أى تبادل الأفعـال وردود الأفعـال) التـى يـهتم بدراستها علم الاجتماع ، عديدة ومتنوعة فمنـها الامتثـال ، والانحـراف ، والتدرج ، والتغير الاجتماعى والهجـرة ، والتكـامل والعزلـة ، والـتركز ، والتشـتت والمحاكـاة ، والانتشـار . . الخ ، ومـن المحقـق أن الاهتمامـات السوسيولوجية تتباين وتختلف بمرور الزمن ، فالمحاكـاة مثـلاً التـى نـالت اهتمامـاً كبـيراً فـى فـترة زمنيـة معينـة لم تعـد تلقـى الآن نفس القـدر مـن الاهتمام ، ومع هذا فإن أهمية العمليات الاجتماعية لا تكمن فى حـد ذاتـها بقدر ما تكمن فيما تسهم به من استمرار الحياة الاجتماعية ، ويتفق العلمـاء الاجتماعيون على أن بقاء الإنسان يعتمد بالدرجـة الأولى علـى مجموعـة مـن العمليـات الاجتماعيـة ، فالتعـاون ، والتنـافس ، والصـراع، والتكيـف ، والتنشـئة الاجتماعيـة وغيرهـا مـن العمليـات الاجتماعيـة التـى تحبذهـا

الثقافات ، فالأفراد يتعاونون معاً لتحقيق أهداف مشتركة أو عمل مشترك يحقق مصلحة جمعية وهذا ما يعرف بالتعاون ، وقد تتعارض المصالح بينهم فإما يتنافسون وهى العملية السلمية لتحقيق الأهداف أو يتصارعون وهى العملية غير السلمية فى بعض الأحيان .

وعلى هذا سوف نتناول خلال هذا الفصل مضمون مفهومى التفاعل والعمليات الاجتماعية ثم أهم العمليات الاجتماعية الأساسية كالتنشئة الاجتماعية ، والتعاون ، والتنافس والصراع ، والتكيف .

أولاً :- مفهوم التفاعل الاجتماعى وأنماطه .

يعرف التفاعل الاجتماعى **Social Interaction** باعتباره التأثير المتبادل بين سلوك الأفراد والجماعات من خلال عملية الاتصال ، والتصور البسيط للتفاعل الاجتماعى يقصد به ما ينبع عن الطبيعة البشرية من تأثير متبادل بين القوى الاجتماعية ، والثقافة ذاتها هى نتاج للتفاعل الاجتماعى، ويطلق بعض الدارسين على التفاعل بين الكائنات البشرية مصطلح التفاعل الرمزى **Symbolic Interaction** وهذا لأن التفاعل الاجتماعى يستند إلى الاتصال ، غير أن البعض يرى أن الذات قد تتفاعل مع نفسها فالشخص الذى يجلس بمفرده فى حجرة خاصة ويفكر فى مشكلة معينة يمارس ضرباً من التفاعل الذاتى .[1]

والتفاعل الاجتماعى هو أهم ما يميز الحياة الاجتماعية ، فلا توجد حياة اجتماعية ما لم يكن هناك تفاعلاً بين أفرادها ، فالوحدة الاجتماعية

---

(١) محمد عاطف غيث ، (تحرير) قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٤٢٧ .

سواء كانت أسـرة أو جماعـة رفـاق ، أو زمـلاء العمـل أو زمـلاء فـى الفصـل الدراسى ، أو فريق ريـاضى يتحقـق وجودهـا الاجتمـاعى مـن خـلال تفـاعل أفرادها .

ولذلـك يعنـى التفـاعل التأثـير والتـأثر المتبـادلين بـين الكائنـات البشرية، حيث أنه عملية حلزونية الشـكل ، بمعنـى أن المنبـهات تقـود إلى الاستجابة التى فيها يدور المنبه الجديد ، وينتج منبهاً جديداً على مسـتوى جديد من الفعل ، وهلم جرا بين الأشخاص ، وهكذا لا تسـتمر العمليـة فـى دائرة فحسب ، وإنما كنتاج للتغـير الداخلـى ، وإمكانيـة للنمـو والتطـور ، وبدون التفاعل الاجتماعى فليس ثمة حياة اجتماعية أو كائنات بشرية .

ويعتبر ليفـى سـتروس Strouss هـو الـذى اكتشـف أهميـة مدخـل التفاعل الاجتماعى حيث لاحظ أن التفاعل المباشر عمليـة طبيعيـة ومتحركـة وسريعة ، يأخذ المشاركون فيها موقفاً معينـاً ، وحينمـا يدخـل أحدهـم فـى تفاعل مع الآخر فإنما يضع أحكاماً معينـة علـى سـائر الوحـدات الأخـرى ، ويكون ذلك الحكم موقوفاً على التفاعل الاجتماعى .[٢]

والتفاعل الاجتماعى هو التفاعل الدينامى بين الأفراد داخل البناءات الاجتماعية ، وأنه يعتمد علـى الاتصـال الرمـزى ، ولـه خصـائص وشـروط أساسية أخرى ، وأن التفاعل هو الشرط الأساسى لوجـود أى نشـاط اجتمـاعى من أى نـوع ، ولذلـك فلقـد أعطـى ويلسـون وكولـب Wilsionland Kolb أهمية خاصة للتفاعل تفوق أهمية هذه المصطلحات فيقولا "أنه بـالرغم مـن أن

---

(٢) غريب سيد أحمد وآخرون ، المدخل إلى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

التحليل الاجتماعى يركز على أنواع مختلفة من المفاهيم كالثقافة ، والشخصية ، والعلاقات الاجتماعية ، والبناء الاجتماعى ، والمفاهيم الأساسية الأخرى ، فإن محور الاهتمام العام لعلم الاجتماع يتمثل فى التفاعل الاجتماعى ، فكلاً من المجتمع والثقافة هو نتاج للتفاعل الاجتماعى.

وأن التفاعل الاجتماعى له أشكال عديدة ، وأن أنماط التفاعل تسمى العمليات الاجتماعية ، وهو يتضمن الانتقال من الطرف الأقصى للعزلة إلى الوحدة الكاملة ، فالعزلة المطلقة لا تعبر عن أى نوع من التفاعل ، وإنما التفاعل يبدأ مع الاندماج الكامل فى إطار الجماعة أو المجتمع بشكل يسمح للعمليات الاجتماعية أن تعمل بصورة كاملة . (٣)

وهناك تعريفات متعددة للتفاعل الاجتماعى ، فهناك من يعرف التفاعل الاجتماعى بأنه عبارة عن العلاقات الاجتماعية بجميع أنواعها التى تكون قائمة بوظيفتها أى العلاقات الاجتماعية الديناميكية بجميع أنواعها سواء أكانت هذه العلاقة بين فرد وفرد ، أو جماعة وجماعة ، أو بين جماعة وفرد .

بينما يعرف سوانسون Swanson التفاعل الاجتماعى باعتباره العملية التى يرتبط بها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض عقلياً ودافعياً ، وفى الحاجات والرغبات والوسائل والغايات والمعارف وما شابه ذلك فى حين يعرف ميريل Merrill التفاعل على أساس أنه سلسلة متبادلة ومستمرة من

---

(٣) Sutherland, R., L., etat, introductory Sociology op cit, P. 102.

الاتصالات بين كائنين إنسانيين أو أكثر منشئين تنشئة اجتماعية . [٤]

وعلى هذا يستخدم مفهوم التفاعل الاجتماعى لتعريف العملية التى تحدث فى مجرى الحياة الاجتماعية والسلوك الإنسانى ، حيث أن السلوك الإنسانى لا يفهم إلا من خلال الأفعال الاجتماعية للآخرين ، فالتفاعل بين الذات والآخرين هو الشيء الأساسى فى النسق الاجتماعى، ويترتب على ذلك توقعات السلوك ، فالتفاعل عملية مستمرة معتمدة على الاتصال الرمزى، كما أن التفاعل الاجتماعى يحدث بأساليب متعددة بطرق مباشرة أو غير مباشرة بين عدد محدود من الأفراد أو عدد كبير باستخدام اللغة ، الإيماءة ، الإشارة ، ويتم التفاعل فى المنزل فى المدرسة ، فى أماكن العمل ، فى الشارع ، وبين أشخاص غرباء أو بين أشخاص تربطهم صلات القربى أو الجوار أو العمل أو فى النادى أو فى الشارع .

وهناك أيضاً مستويات للتفاعل الاجتماعى ، منها التفاعل بين الأفراد ويقصد به التفاعل بين فرد وآخر كالتفاعل بين الرئيس والمرؤوس أو بين الزميل فى العمل وزميله الآخر ويتطلب هذا المستوى من التفاعل أن يسلك الفرد سلوكاً معيناً واضعاً فى اعتباره الأفراد الآخرين .

كذلك التفاعل بين الأفراد والجماعات مثل التفاعل بين المدرس والطلاب، والمدير والموظفين ، وهناك المستوى الثالث للتفاعل والذى يتم بين الأفراد والثقافة السائدة وأيضاً التفاعل بين الأفراد ووسائل الاتصال الجمعى [٥]، مثل

---

(٤) عبد الله الرشدان ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

(٥) Merrill, F. F., Society and Culture, Prentice Hill, New Jersy, 1962, P. 20-25.

مثل التفاعل بين الجمهور والتليفزيون ، وبين الجمهور والإذاعة وغير ذلك .

أنماط التفاعل الاجتماعى

قسم بيلز أنماط التفاعل الاجتماعى على النحو التالى :[٦]

١- التفاعل الاجتماعى المحايد . ويضم المراحل المتعلقة بالأسئلة وطلب المعلومات والآراء ، وكذلك الأجوبة وإعطاء الرأى والإيضاحات والتفسيرات .

٢- التفاعل الاجتماعى السلبى ، ويضم المراحل التى تتميز بالاستجابات السلبية والتعبيرات الدالة على عدم الموافقة والتوتر والتفكك والانسحاب

٣- التفاعل الاجتماعى الإيجابى ، ويضم المراحل التى تتميز بالاستجابات الإيجابية وتقديم المساعدة وتشجيع الأفراد الآخرين وتوطيد التماسك ، والاتصالات الاجتماعية والتى قد تكون أولية أو ثانوية ، والاتصالات الأولية هى التى تتضمن علاقات الوجه للوجه Face To Face Association وفى هذه الحالة يكون التأثير من فرد فى آخر ، أو من جماعة فى أخرى أو من فرد على جماعة واقعياً على الحواس ، فالفرد يرى ويسمع ويحس ويشعر ويلمس ، والاتصالات الاجتماعية الثانوية وتتضمن وجود عامل وسيط لإتمام الاتصال ، كما فى الخطابات والمكاتبات، ولذا كانت الاتصالات الثانوية أقل أثراً واتساعاً وعمقاً من الاتصالات الأولية .

---

(٦) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

خصائص التفاعل الاجتماعى

يتميز التفاعل الاجتماعى بعدة خصائص أساسية تذكر من أهمها ما يلى :-

(١) يعتبر التفاعل الاجتماعى وسيلة الاتصال الأساسية بين أفراد الجماعة إذ عن طريقه يتم التفاهم بين الأفراد فى المجتمع الواحد والمجتمعات الأخرى .

(٢) يتميز التفاعل بين الأفراد بالأداء الفعال ، أو الأداء المصحوب بفاعلية ، فأداء الفرد فى الموقف الاجتماعى أو عطاؤه يؤدى بالآخرين إلى رد فعل وأداء آخر لا يقل عنه ولا يكون عكسه ، وبالتالى ينشأ التفاعل ، فأنت تعطى الفرد وهو يرد عليك بعطاء آخر، وتستمر التفاعلات وتستمر الحياة معها .

(٣) التفاعل الاجتماعى الذى ينشأ بين الفرد والمجموعة كالتفاعل بين الأستاذ وطلابه يتميز هو الآخر بالتوقع Expectation فالفرد عندما يقوم بأداء معين داخل الجماعة ، فإنه يتوقع الاستجابة ، وتكون الاستجابة ، بالرضى أو عدمه بالسلب أو الإيجاب ، بالثواب أو العقاب، وهذا التوقع مهما كان نوعه يزيد من التفاعل كى يحصل الفرد على التوقع الذى يريد .

(٤) يقود التفاعل الاجتماعى إلى ظهور التمايز بين أفراد الجماعة ، ويؤدى ذلك بالتالى إلى ظهور زعامات أو قيادات أو أدوار ومراكز داخل

الجماعة الواحدة وبذلك تظهر المهارات الفردية ويظهر التمايز فى تركيب الجماعة .

(٥) التفاعل الاجتماعى داخل الجماعة يحدد السلوك ، الفردى للأشخاص كما يساعد على تمييز المحصلة العامة لاستجابات الأفراد فى المواقف الاجتماعية ، وبالتالى يتحدد النمط الشخصى لكل فرد فى الجماعة ، ومعنى ذلك أن التفاعل بين الأفراد يكون نوعاً من الالتزام بالنسبة لسلوك كل فرد ، وعليه فإنه يمكن التنبؤ بهذا النوع من السلوك.

(٦) يساعد التفاعل الاجتماعى على تنظيم الجماعة ، فكلما نشأ اختلال أو كلما اختل توازن المجتمع ، فإن التفاعل بين الجماعة يحفظ الجماعة من الانهيار ، فهو عملية تعاونية فيها عطاء من الفرد للمجتمع ، والجماعة للجماعة ، وفى حالة ركود التفاعل الاجتماعى يظهر مثل هذا الخلل ، لذا لا بد من التفاعل المستمر فى المجتمع . (٧)

ثالثاً :- مفهوم العمليات الاجتماعية وأنواعها .

ويقصد بالعمليات الاجتماعية Social Processes أى نمط متكرر للتفاعل الاجتماعى يمكن تحديده ويرتبط الأفراد فى المجتمع بعلاقات وروابط لا حصر لها تنشأ من طبيعة اجتماعهم ومن تفاعل رغباتهم ومن احتكاك بعضهم بالبعض الآخر ، وهذا التفاعل والاحتكاك عبارة عن عمليات

---

(٧) المرجع السابق ، ص ص ١٧٥-١٧٦ .

اجتماعيـة وتتضمـن العمليـات الاجتماعيـة الأساسيـة الصـراع ، والمنافسـة والتمثيـل ، والتوافـق والتكيـف والتعـاون والتخصـص والتمـايز والتـدرج الطبقى، ويرى كثير من علمـاء الاجتمـاع أن علـم الاجتمـاع يـدرس التفـاعل الاجتماعى ويتناول بالتالى دراسة العملية الاجتماعية .(٨)

والعملية الاجتماعية تدل علـى نمط أو نمـونج للتفـاعل الاجتمـاعى يتحرك الفرد من خلاله ليؤدى أفعالاً معينة أو يقوم بسلوك محـدد ، فـأفراد المجتمع لا يعيشون منعزلين عن بعضهم البعض ، وإنما يتصل الواحد منـهم بالآخر ، يؤثر فيه ويتأثر بـه ، وعـن طريـق هـذا التأثـير المتبـادل تتشـكل الحياة الاجتماعية ، وينشأ المجتمع الذى يتألف من كل العلاقات التفاعليـة التى تربط الأفراد فى كل متكامل .

إذ تبـدأ الحيـاة الاجتماعيـة بفعـل اجتمـاعى Social Action يصدر من شخص معين ، يتبعه رد فعل Reaction مـن شخص آخر ويطلق على التأثير المتبادل بينهما أو بـين الفعـل ورد الفعـل مـا يسـمى بمفـهوم التفـاعل الاجتمـاعى ، وهنـا لا بـد أن نفـرق بـين الفعـل الاجتماعى والفعل غير الاجتماعى ، فالفعل الاجتماعى كما يرى ماكس فيبر هو السلوك الذى يمنحه الفرد الفاعل معنى ذاتياً ، فالسلوك الذى يخلـو مـن المعنى الذاتى لا ينتمى إلى الدراسة الاجتماعية ، (٩) أى أن الفعل الاجتمـاعى عند فيبر هو السلوك الإنسانى الذى يحمل معنى خاصاً يقصد إليه فاعله بعـد

---

(٨) أحمد زكى بدوى ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٣ .

(٩) نيقولا تيما شيف ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

أن يفكر فى رد الفعل المتوقع من الأشخاص الذين يوجه إليهم سلوكه . ولهذا فإن المعنى الذى يفكر فيه ويقصده هو الذى يجعل الفعل اجتماعيا . فعلى سبيل المثال تعتبر الحادثة التى تقع بدون قصد بين راكبى دراجتين هو ذاته فعلاً طبيعياً وليس فعلاً اجتماعيا إما محاولتهما تفادى الحادث ببعض ، واللغة التى يستعملانها بعد الحادث ، فهى عبارة عن فعل اجتماعى . [١٠]

وهذا يعنى أن العمليات الاجتماعية هى النتاج الطبيعى للتفاعل الاجتماعى ، الذى بدوره يشكل العلاقات الاجتماعية ، فعندما يكون العلاقات الاجتماعية مؤقتة تسمى عمليات اجتماعية ، وعندما تكون العلاقات الاجتماعية دائمة ومنتظمة يطلق عليها علاقات اجتماعية ، إذن فمفهوم العملية الاجتماعية يشير بالضرورة إلى علاقة اجتماعية فى مرحلة التكوين وعندما تستقر وتتبلور ويصبح لها شكل معين تتحول إلى علاقات اجتماعية فالفرق بين العملية الاجتماعية والعلاقة الاجتماعية هو فرق فى الدرجة أى فى درجة الثبات والاستقرار وليس فرقاً فى النوع وبهذا تعبر العملية كما يقول تيودورسن عن نمط متكرر من السلوك، التى تؤدى إلى نمط متكرر مثل التعاون أو الصراع ، أو التنافس أو التوافق .

ولا توجد عملية اجتماعية يمكن أن نطلق عليها أنها خير فى ذاتها أو شر فى ذاتها ولا تقيم العملية الاجتماعية أياً كان نوعها إلا فى الموقف

---

(١٠) Weber, M., Theory of Social and Economic Organization., Trans. By Henderson, A. and T. Parsons, N. 4, 1947, P. 88.

الذى تحدث فيه كما تقدر بالنسبة لمجموعة من القيم أو المعايير، والعمليات الاجتماعية مثل كل العمليات هى تغيرات فى البناء الاجتماعى ، ويلاحظ أن الكلمات التى تدل على العمليات الاجتماعية تستخدم لوصف المواقف التى تحدث فيها العملية فى مكان معين وزمان محدد وتتخذ العمليات عادة أربعة أشكال هى :-

(١) يحدث التفاعل بين مجموعات من الأشخاص كالطلاب فى الفصل الدراسى .

(٢) أو بين شخص وآخر كعلاقة الأب بابنه .

(٣) أو بين جماعة وجماعة كفريقى كرة القدم أو السلة أو التنس .

(٤) أو بين شخص وجماعة كالأستاذ وطلابه ، والعملية الاجتماعية هى عملية تبادلية بمعنى أنه لا بد أن يؤخذ فى الحسبان سلوك الآخرين ، فكل فاعل يأخذ فى الاعتبار سلوك الآخرين وأغراضهم ، وكذلك العملية الاجتماعية عملية رمزية ونعنى بذلك أنها تعتمد على اللغة والرموز الأخرى .

ويتم التفاعل فى صورة التعاون أو التوافق أو التنافس أو الصراع عند أداء الأدوار داخل الأسرة أو المدرسة أو دور العبادة أو فى المصنع أو فى أماكن العمل أو النقابات أو المباريات الرياضية أو فى السوق أو بين الحكومات . لكن برغم من اهتمامنا بالعمليات الاجتماعية لا نستطيع أن نتجاهل الأوضاع البيئية للوحدات الاجتماعية التى تؤثر فى ظهور نمط معين من السلوك

واختفاء نمط آخر [١١] فمثلاً تتزايد عمليات التنافس فــى المجتمــع الحضـرى من أجل تحسين المستويات الاجتماعية والثقافية لتحقيــق مستوى أفضـل ، فسكان المدن يتحركون داخل المجتمع ، ويتنافسون لشغل مراكـز أفضـل كمـا أنهم أحياناً ما يتصارعون إذا ما ضاقت بهم سـبل الـرزق ، ولكـن الصـراع لا يذهب إلى آخر مدى إذ سرعـان

ما يتوافقون ويمتثلون من جديد .

أنواع العمليات الاجتماعية

حـاول الكثـير مـن العلمـاء والبـاحثين تقديــم تصنيفــات متباينــة للعمليات الاجتماعية ،و قد اتجــه فريـق منــهم إلى وضـع تصنيفـات جزئيـة للعمليات الاجتماعية .

بينما اتجه فريــق آخـر إلى وضـع تصنيفـات عريضـة واسـعة ينـدرج تحتها كثير من العمليات الجزئية .

ومن بين التصنيفات الجزئية مثلاً تصنيف اليكس انكليز الـذى قسـم العمليات الاجتماعية الأكثر أهمية بالنسبة لعلم الاجتماع فى ثلاث عمليـات هى الامتثــال ، والتبـاين ، والانحـراف ، [١٢] وتصنيـف روس Ross الـذى يتضمـن عـدداً كبـيراً مـن العمليـات الاجتماعيـة وهـى التعـاون والصــراع ، والتنشئــة الاجتماعيـــة ، والتــدرج الاجتمـــاعى ، والتسلط ، والتمثــل، والاندماج ، والتباعد ، والتفرد ثم تجمد أو توقف الحراك الاجتماعى . [١٣]

---

(١١) محمد سعد فرح ، ما . . . علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٧-٢٣٨.

(١٢) اليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(١٣) عبد الباسط محمد حسن ، علم الاجتماع ، مكتب غريب ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٨٥.

وتصنيف بارك وبيرجس الذى يحتوى على أربعة أنواع من العمليات هى التكيف ، والتمثل ، والمنافسة والصراع ، ثـم وضعـا تصنيـف للعمليـات الاجتماعية يرتكز على مجموعـة مـن الأسـس ، فـالبعض يصنـف العمليـات الاجتماعية على أساس نمط العلاقة الاجتماعية حيث يـرى بـارك وبـيرجس أنها تنقسم إلى نوعـين عمليـات مجمعيـة وعمليـات مفرقـة، وينـدرج تحـت العمليات المجمعة عمليات التكيف والتوافق والتعـاون فـى حـين أن الصـراع والمنافسة تمثل العمليات المفرقة .

والبعض الآخر يصنف العمليات الاجتماعية على أساس الوظيفة التى تؤديها العملية ، فهى عمليـات تطبيـع وتهيئـة وتمثلـها عمليـات التنشـئة الاجتماعية والتثقيف ، وعمليات الاندماج التى يتم فيها اندمـاج الفـرد فـى محيطه الاجتماعى ، الذى يتفاعل معه من خلال عمليات التكيف والتوافق ، والتمثيل وعمليات استجابية ناتجة عن رد فعل الفرد للموقف الـذى يتفـاعل معه وسط الجماعة أو المجتمع ، وتتحدد فى العمليات التوافقية كالتعاون أو غير المتوافقة كالصراع والمنافسة .[١٤]

ومن بين التصنيفات العريضة تصنيف كمبال يونـج Young الـذى يصنـف العمليـات الاجتماعيـة إلى فئتـين رئيسـيتين همـا :- التعـارض، والتعاون ثم يندرج تحت كـل فئـة منـهما مجموعـة مـن العمليـات الجزئيـة كالتنافس ، والصراع ، والتمايز ، والتكيف ، والاتفاق والتمثـل ، وقـد درج كثيرون من علماء الاجتماع على تصنيف العمليـات الاجتماعية وفقاً لما تسهم

---

(١٤) انظر ، جهينة العيس وكلثم الغانم ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٢٥-١٢٦ .

به فى تقوية أو إضعاف الروابـط الاجتماعية إلى فئتين رئيسيتين هما :-

أ- **العمليـات المجمعـة** Associative **أو الإنشـائية** Constructive **أو الإيجابية** Positive وهى التى تـؤدى إلى زيـادة الروابـط الاجتماعيـة ، وتقوية العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وتندرج تحتـها مجموعـة مـن العمليات الجزئية كالتعاون ، والتلاؤم ، والتكيـف ، والتمثـل والتنشـئة الاجتماعية .

ب- **العمليات المفككة أو الممزقـة** Dissociative **أو الهدامـة** Destructive **أو السلبية** Negative : وهـى التـى تـؤدى إلى التنـافر بـين الأفـراد والجماعات ـ وإضعاف الروابط والعلاقات الاجتماعيـة ، ويندرج تحتـها عدد من العمليات الجزئية كالمنافسة ، والصراع ، والقهر .[١٥] وهناك من يصنف العمليات الاجتماعية علـى أسـاس أشـكال التفـاعل الاجتمـاعى ، فهناك شكلان أساسيان للتفاعل :

الأول : هو التفاعل المباشر الناتج عن الاحتكاك والاتصال المباشر بين الأفراد

الثانـــى : هـو التفـاعل غـير المباشـر الـذى يتـم بـين الأفـراد عـــن طريـــق القرارات التى لا تكون فيها علاقة مباشرة بين الأفراد المتفاعلين.[١٦]

وبناءً على هذا فإننا سوف نتناول أهـم أنـواع العمليـات الاجتماعيـة الأكثر شيوعاً وانتشاراً فى المجتمعات الإنســانية ، وهـى عمليـات التنشـئة

---

(١٥) عبد الله الرشدان : علم اجتماع التربية ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(١٦) فادية الجولانى ، مبـادئ علـم الاجتمـاع ، مؤسسـة شـباب الجامعـة ، الإسـكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ٣٣٥ .

الاجتماعية ، وعملية الصراع ، وعملية المنافسة ، وعمليـة التعـاون وعمليـة التكيـف الاجتمـاعى ، وعمليـة التمثيـل الاجتمـاعى محددين ماهيتـها وأنماطها وأهميتها فى الحياة الاجتماعية .

(١) عملية التنشئة الاجتماعية Socialization

- مفهوم التنشئة الاجتماعية .

وتعرف التنشئة الاجتماعية باعتبارها العملية الاجتماعية الأساسية التـى تشكل السلوك الاجتمـاعى والتـى يتوقـف عليـها بـاقى العمليـات الاجتماعية الأخرى ، والتى يصبح الفـرد عـن طريقـها مندمجـاً فـى جماعـة اجتماعية من خلال تعلم ثقافتها ومعرفة دوره منها ، وطبقاً لهذا التعريـف تكون التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة علـى مـدى الحيـاة ، ويمـر الطفـل بفترة حرجـة عندما يستدمج القيـم والاتجاهـات والمـهارات ، والأدوار التـى تشكل شخصيته ، وتـؤدى إلى اندماجـه فـى مجتمعـه ، ولهـذا تعتـبر هـذه العملية ضرورية لتكوين ذات الطفل ، وتطوير مفهومه عن ذاتـه كشخص ، وخاصة من خلال سلوك الآخرين واتجاهاتهم نحوه ، وكذلك عن طريق تعلـم كيفية أداء الأدوار الاجتماعية المختلفة ، والذى يؤدى بدوره إلى ظهور الذات الاجتماعية المتميزة بالنمو السليم ، على أنـه يمكـن اعتبـار أى نشـاط يبـذل لتعلم دور اجتماعى جديد ويمكن الشخص من أداء وظيفته كعضو فى جماعـة أو مجتمع بمثابة عملية تنشئة اجتماعية ، فالشـخص الملتحـق بالجامعـة أو بهيئة الشرطة ، أو بنادى رياضى أو بأى جماعة أخرى ويتعلم فيـها قيمـاً ، واتجاهات ، وعـادات وأدوار اجتماعيـة جديـدة يعتـبر مندمجـاً فـى عمليـة

للتنشئة الاجتماعية ، ومن ثم ينظر إلى هذه العملية على أنها عملية مستمرة يمكن أن يمر بها الشخص فى مراحل العمر المتأخرة ، وتظهر بوجه خاص عندما يحاول الفتيان والفتيات دون سن العشرين تنشئة والديهم على أداء أدوار جديدة أو على تغيير بعض أدوارهم التقليدية أو اكتساب مراكز جديدة فى المجتمع الحديث .[١٧]

ويرى بول سبنسر Paul Spencer أن التنشئة الاجتماعية تتضمن مفهومين أحدهما مفهوم محدد ، والآخر مفهوم شامل ، ويتصل الأول بعملية التعلم الاجتماعى من حيث اكتساب قيم ومعايير البالغين فى المجتمع ومشاركتهم فيها ، بينما يقصد بالمفهوم الشامل أن التنشئة الاجتماعية تمتد لتشمل الأطفال والراشدين من حيث غرسها للمعايير والقيم من جانب ، وربطهم بالجماعة الاجتماعية الجديدة والتى يتوقع أن يكتسبوا من خلالها مجموعة من القيم الجديدة قبل مشاركتهم الفعلية ، ويوجد فى كل حالة توافق معين سواء من جانب الفرد أو مجموعة التوقعات التى تشتمل عليها الجماعة الأوسع نطاقاً ثم المجتمع ككل .

وفى هذا الصدد يقدم بارسونز Parsons تعريفاً آخر للتنشئة الاجتماعية باعتبارها عملية تهدف إلى تحقيق التكامل فى مجموعة من أنساق التفاعل والتوحد مع العناصر الثقافية والاجتماعية ، وتقوم التنشئة الاجتماعية بوظيفتين ، الأولى وظيفة ظاهرة وهى تدريب الطفل على أداء أنماط معينة من السلوك يرضى عنها المجتمع ويتخذها الشخص دعامة

---

(١٧) عاطف غيث (محرر) قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .

لسلوكه طوال الحياة . أما الثانية فهى وظيفة باطنة تتمثل فى ربط أعضاء المجتمع بالبناء الاجتماعى ، واكتساب نسق من المعايير التى تمثل السلطة الخارجية على أعضاء المجتمع ، كما تعمل على إعداد الفرد لأداء الأدوار الاجتماعية المختلفة التى يتطلبها منه المجتمع بعد ذلك والخروج عن نطاق ذاتيته والاتجاه نحو الاستقلال وتحمل المسؤولية . [١٨]

ويتضح من ذلك أن عملية التنشئة الاجتماعية تهدف إلى إدماج العناصر الاجتماعية فى الشخصية وربط الشخصية بالبناء الاجتماعى للمجتمع ، وتبدأ عملية التنشئة داخل الأسرة لتكوين الإنسان الاجتماعى ، أثناء عملية التأثير المتبادل بين الشخص والبناء ، فعملية التنشئة هى عملية تعلم بالمعنى العام وتهدف إلى إعداد الطفل ثم الصبى ثم الراشد للاندماج فى أنساق البناء والتوافق مع المعايير الاجتماعية المقبولة ومطالب الأدوار المختلفة واكتساب قيم المجتمع .

ولذا فإن عملية التنشئة كما يرى ولاس Wallce هى همزة الوصل بين الثقافة والشخصية ، فبدون عملية نقل الثقافة إلى الأفراد عن طريق هذه العملية لا يمكن أن نتوقع منهم انصياعاً لمعايير مجتمعهم ولا لقيمه ونظمه ، كما أن عملية التنشئة الاجتماعية هى نقطة التقاء علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى وهى بؤرة اهتمام الآباء والمربين ،

---

(١٨) محمد حسن غامرى ، التنشئة الاجتماعية للطفل فى مجتمع الإمارات ، فى كتاب دراسات فى مجتمع الإمارات ، الجزء الأول ، سلسلة كتب مجلة شؤون اجتماعية ، جمعية الاجتماعيين ، الإمارات ، ١٩٩٠ ، ص ٤٤ .

ففى عملية التنشئة الاجتماعية يكتسب الفرد العادات والأفكار والاتجاهات المتفق عليها ثقافياً وهو ينسج فى مجموعته الاجتماعية عندما يتعلم حقوق وواجبات مركزة ، ودوره الاجتماعى ، وتصبح هذه القواعد والقيود الثقافية جزءاً من شخصيته . ونظراً للأهمية البالغة لعملية التنشئة الاجتماعية ، فإن كل مجتمع ينظمها ويجعلها ذات فعالية فى إطارها المحدد باعتبارها نظاماً اجتماعياً .

- وظائف التنشئة الاجتماعية

تقوم عملية التنشئة بوظيفة أساسية ظاهرة تتمثل فى تنمية الجانب الاجتماعى للطفل ، من خلال تدريب الطفل على أداء أنماط معينة من السلوك ، والتى يرضى عنها المجتمع ، ويتخذها الفرد دعامة لسلوكه طوال حياته إلا أن للتنشئة الاجتماعية وظائف - كامنة - متعددة يمكن إجمالها على النحو التالى : (١٩)

أ- تقوم عملية التنشئة بتوحد الطفل مع مجموعة من الأنماط الثقافية للمجتمع ، وأهم هذه الأنماط الثقافية أنماط القيم الاجتماعية والأخلاقية ، وتوقعات الأدوار التى تنظم الأنساق التنظيمية للبناء الاجتماعى ، والتى يتكون منها البناء الأساسى للشخصية ، ونتيجة لذلك يكتسب الطفل مجموعة من الاتجاهات والمهارات والمعارف وأشكال الثقافة السائدة فى المجتمع الذى ينتسب إليه ، وهذه

---

(١٩) محمد سعيد فرح ، البناء الاجتماعى والشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٩ ، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

الاتجاهات والمهارات ترتبط باتجاهات ومعارف الوالدين ، فالتنشئة الاجتماعية كما وصفها ميرتون وسيلة للانتشار الثقافى ، إذ تهدف عملية التنشئة الاجتماعية تلقين الأطفال قيم الجماعة وتحقيق التماثل والتقارب بين الدوافع المشتركة للأطفال .

(ب) تساعد التنشئة الاجتماعية على إكساب الأفراد نسقاً من المعايير الأخلاقية التى تنظم العلاقات بين الفرد وأعضاء الجماعة ، وتمثل هذه المعايير السلطة الخارجية على الأفراد .

(جـ) تقوم عملية التنشئة الاجتماعية بإعداد الفرد لأداء الأدوار المختلفة التى سيواجهها يوماً ما ، فمن أهم أهدافها إعداد الطفل لأداء دور الابن ، والأخ ، والزميل ، والأب ، وإعداده لأداء الدور المهنى ، أى أن من وظائف التنشئة الاجتماعية تعليم الطفل أشكال السلوك المرتبطة مع أداء الدور ، وهذه عملية لاحقة لتحصيل قيم المجتمع .

(د) تساعد عملية التنشئة الاجتماعية على إعلاء رابطة الود والحب بين الطفل والأم وإقامة الالتزامات حول إمكانيات الانجذاب نحو الغير ، والذى يتضمن اختيار الموضوع خارج الأسرة والاستقرار فى التوجيه نحو الموضوعات الخارجية .

(هـ) تهدف عملية التنشئة الاجتماعية إلى تغيير الحاجات الفطرية إلى حاجات اجتماعية ، وتغيير السلوك الفطرى ، ليصير الفرد إنساناً اجتماعياً ، يتعلم صفات الجنس الذى ينتمى إليه ، وأخلاقيات المجتمع الذى يعيش فيه ، ويتقبل المكانة الاجتماعية التى يحددها المجتمع .

(و) تهدف عملية التنشئة إلى أن يحصل الفرد أثناء تفاعله مع الآخرين من أعضاء الأسرة على الوسائل والأدوات التى تساعده على الاندماج فى الجماعات المتعددة فى أطوار النمو المتتابعة ، وأهم هذه الأدوات اللغة كأداة رمزية تسمح بالترابط بين الجماعات ، وتحصيل المعارف.

- مؤسسات التنشئة الاجتماعية .

باعتبار أن التنشئة الاجتماعية تبدأ مع ميلاد الطفل وتستمر طوال حياة الفرد فإن هناك مؤسسات مختلفة تساهم فى تشكيل حياة الفرد الاجتماعية ابتداءً من الأسرة والمدرسة ومروراً بجماعة الرفاق والعمل وانتهاءً بدور العبادة ووسائل الإعلام .

١- الأسرة .

تعد الأسرة بمثابة حجر الزاوية فى المجتمع ، فالأسرة هى الوحدة الأساسية فى التنظيم الاجتماعى ، فبدونها يصعب على باقى المؤسسات الاجتماعية الأخرى القيام بوظائفها ، فالطفل يكتسب خصائص شخصيته وخبراته الأساسية داخل أسرته ، وتنبع أهمية الأسرة من أهمية مرحلة الطفولة الأولى ، ولا سيما السنوات الخمس الأولى ، كما أنها هى التى تحدد لنا فيما بعد الخصائص الشخصية المميزة للأفراد بغض النظر عن انتماءاتهم الأسرية .

(٢) المدرسة :

وتعد المدرسة فى المرحلة الثانية بعد الأسرة من حيث الأهمية لعملية التنشئة الاجتماعية ، وترجع أهمية المدرسة إلى أنها أول نسق

اجتماعى خـارجى يـدرك فيـه الطفـل التبـاين الاجتمـاعى علـى أسـس غـير بيولوجية ، بل على أساس قدرات التحصيل ، وأنها تدرب الصغار على أداء أدوار الكبار حسب منهج معين وتستمر المدرسة فى أداء وظيفتها مع الأسـرة حتى يبلغ الفـرد طـور أو مرحلـة الـزواج أو يلتحـق بمجـال العمـل . وعـالم المدرسة له أهمية عند الطفل لأنه صورة مصغرة للعالم الكبير الذى سينتسـب إليـه ، فمواقـف التجربـة والتفـاعل فـى المدرسـة مجـال خصـب للتنشـئة الاجتماعية السليمة وتقويم الشخص وتدريبه علـى أداء الأدوار المتخصصـة ، وتلعـب المعلمـة دوراً هامـاً فـى مرحلـة المدرسـة الابتدائيـة لأنـها اسـتمرار لشخصية الأم ، وعلاقة الطفل بالمعلمة خطـوة ملائمـة للتحـرر مـن الارتبـاط الأول بالأم .[٢٠]

(٣) جماعة الرفاق .

وهنا يتسع المجال الاجتماعى أمام الطفل مع نموه ، فلا تبقى الأسرة هى مكـان ومركـز التفـاعل الاجتمـاعى الوحيـد ، وإنمـا يمتـد هـذا المجـال الداخلى إلى المجـال الخـارجى ، وتتكـون العلاقـات الخارجيـة بـين الطفـل وأقرانه ، وأهم مـا يمـيز صدقـات الأطفـال اتسـاع مداهـا وسـطحيتها وعـدم استقرارها فى حين أن صدقات المراهقـين تكـون أكـثر تحديـداً وعمقـاً وثباتـاً نسبياً ، وتؤثر جماعة الرفاق على سلوك الفرد بدرجة قد تفوق أثر الأسرة أو المدرسة . ويرتبط مدى تأثر الفرد بجماعة الرفاق على درجة ولائه لها ومدى امتثاله لمعاييرها وتقبله لأنساق قيمها وأنماط اتجاهاتها . كما يرتبط بدرجة

(٢٠) المرجع السابق ، ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

قوة الجماعة وتماسكها وأنواع التفاعل بين أفرادها ومكانة زعيمها ، وتبدو أهمية جماعة الرفاق فى أنها تهيئ للفرد البيئة المناسبة للنمو الاجتماعى ، وتنمى فيه روح الولاء والانتماء، وتؤثر على نموه الخلقى فتجعله قادراً على تقبل المعايير والقيم ويتأثر بجماعة الرفاق حتى وإن انحرفت فى سلوكها ، ولهذا تظهر أحياناً ما يطلق عليه بالعصابات Gangs الذى يحيط سلوك أعضائها الغموض والتعصب للآراء والقيام بأعمال التخريب والسرقة وأحياناً الاعتداء على الغير أو حتى تناول الكحوليات .

(٤) دور العبادة .

يلعب الدين دوراً مهماً فى حياة الأفراد والجماعات ، وبالتالى لا يختلف العلماء الاجتماعيون على أهمية الدين فى حياة الأفراد والجماعات، وتعمل المؤسسة الدينية فى جميع المجتمعات على تحقيق الأهداف والغايات السامية التى يسعى الدين إليها ، ويتجاوز دور الدين حدود العبادات وإقامة الشعائر الدينية المطلوبة ، فالدين كنظام اجتماعى يعمل على تنشئة الأفراد تنشئة تؤثر على مختلف مؤسسات الضبط الاجتماعى فجميع الأسس والقواعد الدينية تساعد الفرد على التوافق مع باقى أفراد المجتمع ومؤسساته، فدروس الوعظ والحلقات الدينية – مثلاً – تنمى فى الفرد أساليب التعامل مع الآخرين ، وبذلك تسهم دور العبادة بطريق مباشر وغير مباشر فى عملية التنشئة الاجتماعية .

كما تعتبر دور العبادة من المؤسسات المهمة التى تسهم فى تربية الفرد وتشكيل شخصيته ، فبالإضافة إلى ما تغرسه فى نفوس الأفراد من حب

الخير ، وبعد عن الشر عامة ، فإنها تكسبهم اتجاهات وعادات ديموقراطية واجتماعية وخلقية وتعاونية سليمة . (٢١)

(٥) وسائل الإعلام

يرى كثير من الباحثين أن وسائل الإعلام تعتبر وسيلة هامة من وسائل التنشئة الاجتماعية وتتنافس مع الوسائل الأخرى كالأسرة والمدرسة وغيرهم من وكلاء التنشئة الاجتماعية فمثلاً يؤثر التليفزيون كأحد وسائل الإعلام على معتقدات الأطفال وأفكارهم واتجاهاتهم نحو أشياء أو قضايا معينة ثم تتحول هذه الاتجاهات إلى سلوك حقيقى حيال هذه الأشياء أو القضايا سواء كان هذا السلوك سلبياً أو إيجابياً بحيث يبدو السلوك – بصرف النظر عن نوعه – سلوكاً عادياً أو طبيعياً فى حياة الطفل نتيجة لما يشاهده خلال البرامج والمسلسلات ، وقد أكدت الدراسات العلمية بأن التليفزيون أقوى أثراً فى التنشئة الاجتماعية ، وأن ما يتعلمه الطفل من سلوك من خلال ما يشاهده يفوق ما تعلمه من المدرسة لارتباط ما يتعلمه من سلوك ومعرفة وتصرفات بشخصية الممثلين الذين يراهم ، أكثر من ارتباطه بالواقع العملى الفعلى ، وللتليفزيون كأداة للتنشئة الاجتماعية تأثيره المهم والقوى على الأطفال بما يزودهم من الخبرات الحياتية ، والمفردات اللغوية ، وسلوك الاتصال ويجعل الأطفال ينفتحون على العالم من حولهم حتى قبل أن يتعلموا القراءة والكتابة ، فالطفل يسهل عليه دخول هذا العالم من خلال وسائل

---

(٢١) منير المرسى سرحان ، فى اجتماعيات التربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٢٢٧ .

الأعلام دون أى صعوبة ودون حاجة إلى معرفة بالقراءة والكتابة أو تعلم اللغة أو توافر خبرة معينة .(٢٢)

- أشكال التنشئة الاجتماعية

تتخذ التنشئة الاجتماعية شكلين أساسيين هما :-

الشكل الأول : تنشئة اجتماعية مقصودة وهى التى تتم من خلال المؤسسات الرسمية مثل الأسرة والمدرسة ودور العبادة ، إلا أنها أوضح ما تكون فى المدرسة كمؤسسة تعليمية رسمية ، حيث يتعلم الطفل ما تريده له هذه المؤسسات ، ويتطبع بالطابع التى يرغب فيها المجتمع .

الشكل الثانى : تنشئة اجتماعية غير مقصودة ، وهى التى تتم فى المؤسسات السابقة باستثناء المدرسة ، حيث تكون أوضح ما تكون فى مؤسسات الإعلام المختلفة حكومية وشعبية أو حزبية أو طائفية ، ففى هذه المؤسسات تتم عملية التطبيع بصورة مباشرة ، حيث يكتسب الأفراد عادات المجتمع وتقاليده وقيمه ومعاييره ، ومختلف أنماط السلوك التى ترغب الدولة فى توصيلها وغرسها فى المواطنين .

(٢) عملية الصراع Conflict

يعرف قاموس علم الاجتماع الصراع باعتباره نزاع مباشر ومقصود بين أفراد أو جماعات من أجل هدف واحد ، وتعتبر هزيمة الخصم شرطاً

---

(٢٢) عبد الباسط عبد المعطى وآخرون ، أثر البرامج التليفزيونية على النشء والشباب ، دراسة استطلاعية لآراء عينة من المشاهدين بالمجتمع القطرى ، مركز البحوث التربوية جامعة قطر ، ١٩٩٤ ، ص ص ١٤-١٥

ضرورياً للتوصل إلى الهدف ، ويظهر فـى عملية الصراع الأشخاص بشكل واضح من ظهور الهدف المباشر ، ونظراً لتطور المشاعر العدائية القوية ، فإن تحقيق الهدف فى بعض الأوقات قد يعتبر شيئاً ثانوياً بجانب هزيمة الطرف الآخر . كما يعرف الصراع أيضاً بأنه "كفاح حول القيم ، والسعى من أجل المكانة والقوة والموارد النادرة ، حيث يهدف الأضداد إلى تحييد أعدائهم أو القضاء عليهم ."[٢٣]

ويرجع الفضل إلى جورج زيمل Simmel إلى تأكيد أن الصراع هو اختبار للعلاقات الاجتماعية وأن الصراع هو أحد الأشكال الرئيسية للتفاعل، لأنه يستهدف تحقيق الوحدة بين الجماعات ، حتى وإن تم ذلك عن طريق القضاء على أحد أطراف الصراع ، ولذلك فإنه يرى أن الصراع ربما يثير الجهد الأكبر نحو حل المشكلات ، وهو لذلك يلعب دوراً مهماً على المدى الطويل فى ظهور وحدة البناء الاجتماعى ، غير أنه أكد أن الصراع هو عملية ممزقة Disruptive Process لدرجة أن الصراع يمكن أن يصل إلى حد الهدم Annihilation أو عدم فاعلية الطرف الآخر (الخصم) وبالتالى فإن الصراع هو عملية ممزقة سواء كان ذلك على المدى القصير أو البعيد .[٢٤] كذلك حاول بعض الدارسين التمييز بين الصراع والمنافسة فى ضوء الوسائل التى تلجأ إليها الجماعات العدائية فى تحقيق أهدافها ، فقد عرف ماكيفر Macivar الصراع بأنه "نشاط كلى يتنازع فيه الأفراد مع بعضهم من أجل

---

(٢٣) عاطف غيث (محرر) قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢٤) Sutherland, R. L. Etal, introductory sociology, op cit, P. 109.

هدف معين .[٢٥]

ويوصف الصراع عادة بالمعارضة العاطفية والعنيفة Emotionalized and Violent Opposition ويكون اهتمام الفرد منصباً على تحقيق هدفه من خلال التغلب على خصمه Opponent ، فهو مواجهة مباشرة بين أفراد أو جماعات يسعى كل منها لتحقيق أهدافه على حساب أهداف الآخرين ، أى أن غاية الصراع هو هزيمة Annihilation أو الآخرين كوسيلة للوصول إلى تحقيق الهدف .

وعندما يسعى الفرد لتحقيق أهدافه من خلال الصراع مع الآخرين فإن هذا النمط من الصراع يعتبر عملية واعية Conscious Process ويتأثر بطبيعة الجماعة وبثقافتها الخاصة ، فغايات الصراع قد تكون بهدف الملكية Property أو القوة Power أو المكانة Status والحرية Freedom أو أى قيم أخرى مرغوبة ، وعندما تظهر المصالح الاقتصادية ويكون هناك أعداد من الناس والجماعات تسعى للوصول إلى تحقيق مكاسب مادية وسلطوية يصبح الصراع الاقتصادى متكافئاً أو بديلاً عن عملية المنافسة، ويختلف نوع الصراع باختلاف ثقافة المجتمع المعنى ، فقد يكون صراعاً سياسياً أو دينياً أو اقتصادياً ، الخ ولا تؤثر ثقافة المجتمع فى شكل الصراع فحسب وإنما تضع كل ثقافة القواعد التى تحكم عملية الصراع . وعندما لا يحدث الصراع بشكل منتظم فى مجتمع معين ، فإن حدته ترتفع فى حالة حدوثه ، ويظهر فى شكل ثورات عنف ومظاهرات عنيفة .

---

(٢٥) المرجع قبل السابق ، ص ٨٢ .

وبصرف النظر عن درجة ونوع الصراع بين الأفراد في المجتمع ، إلا أنه ينتهى عادة فى شكل الاتفاق أو التوافق أو تخفيف حدة الصراع بين الأطراف المختلفة .(٢٦)

وهكذا يتضح أن الصراع هو عملية اجتماعية تنشأ بين طرفين يوجد بينهما تعارض فى المصالح والأهداف ، ويسعى كل منهما لتحقيق مصالحه وأهدافه ، مستخدماً كافة الأساليب والوسائل سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة .

ولقد اختلف علماء الاجتماع فى تفسير الصراع واتجهوا اتجاهات متباينة ، فالاتجاه الماركسى أوضح أن الصراع منبعه اقتصادى وهو يدور بين الطبقات المختلفة أما الاتجاهات الغربية فى علم الاجتماع فقد ذهبت اتجاهات أخرى .

فيرى الماركسيون أن الصراع الطبقى هو من أهم صور الصراع وينشأ هذا الصراع بين الطبقات الكادحة والطبقات المستغلة فى ظروف تتنافس فيها ملكية وسائل الإنتاج مع طبيعة نظام الإنتاج وإلى تفاوت توزيع الثروات .

حيث تحتكر فئة الربح العائد من العمل لصالح الأقلية وتحرم الأغلبية من نتاج عملها ، ويدفع نظام الملكية الخاصة المستغلة لوسائل الإنتاج جماهير الكادحين إلى التمرد والنضال والعنف ضد الطبقات المستغلة، والشعور نحوهم بالكراهية والمقت ، كذلك يشعر أصحاب رؤوس الأموال

---

(٢٦) Young, K., and Mack, R., Sociology and Social life, op cit, PP. 116-117.

المستغلين بنفس الشعور تجاه طبقات الكادحين ، مما يؤدى إلى آفاق التقدم ، وقد أعطى الماركسيون أهمية خاصة للصراع ، فأظهروا وظيفته الإيجابية عندما أوضحوا أن الطبقة تعرف نفسها من خلال الصراع ، كذلك أشار الماركسيون إلى أن التناقض بين مصالح الطبقات الكادحة والفئة المستغلة تناقض جذرى يحل بالصراع الدموى وثمة تناقضات ثانوية تكمن فى المجتمع يمكن حلها حلاً سليماً . فى حين أن علماء الاجتماع الغربيين قد أنكروا وجود الصراع الطبقى الناشئ عن الظروف الاقتصادية السيئة ويرون أن الصراع كعملية ينشأ بين عناصر البناء الاجتماعى أى مجموعة العلاقات المتضمنة بين أعضاء المجتمع وبين البناء الثقافى - أى مجموعة القيم المعيارية التى تحكم السلوك - وبتعبيرات روبرت ميرتون يحدث الصراع عند الاصطدام بين الوسائل التنظيمية للبناء وبين الأهداف الثقافية ، إذ أن البناء قد يقف عقبة أمام تحقيق المطالب الثقافية والقيم لبعض الأفراد الذين يشغلون مراكز اجتماعية داخل البناء .(٢٧)

أنماط الصراع

توجد أنماط متعددة للصراع وصور شىء ونستطيع أن نحددها بناءً على المستوى والمجالات والوظائف على النحو التالى :-

أ- **الصراع من حيث المستوى** ، إذ ينقسم الصراع إلى نمطين أساسيين هما :-

١- **الصراع الداخلى** : وهو الذى يحدث داخل المجتمع الواحد بين

---

(٢٧) محمد سعيد فرح ، ما . . . . علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

الوحدات والجماعات العرقية والدينية ، أو الطبقات الاجتماعية ، وقد تتزايد حدة هذا الصراع إلى درجة تؤدى إلى قيام ثورات داخلية أو حروب أهلية كما هو الحال فى الحرب الأهلية فى لبنان أو أفغانستان وغيرها .

٢- **الصراع الخارجي** : وهو ذلك النوع من الصراع الذى يحدث على مستوى الدول والمجتمعات ويستخدم فيه القوة المسلحة أو التهديد باستخدامها لإجبار أحد الأطراف على الرضوخ أو التسليم بأهداف الخصم الآخر كما يحدث الآن بين إسرائيل وفلسطين أو بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية .

ب- الصراع من حيث المجالات .

فقد يحدث الصراع فى جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية كالجانب الصناعى أو الاقتصادى أو السياسى أو الدينى إلا أنه نظراً لترابط جوانب الحياة الاجتماعية فإن الصراع إذا ما حدث فى جانب فإنه يمتد ليشمل بقية الجوانب الاجتماعية الأخرى السياسية والصناعية والدينية وغيرها .

جـ- الصراع من حيث وظائفه .

وهنا يرى أصحاب النظرية الوظيفية إلى أن هناك طابعاً واحداً للصراع، وهو أنه يحدث بالضرورة تفككاً فى المجتمع ، ومن ثم فإن بارسونز يصفه بأنه وباء بشرى ينبغى التخلص منه ، بينما يرى ماركس أنه محرك للتاريخ ودافعاً للتغيير ، كما أن لويس كوزر Coser يرى أن

للصراع وظائف إيجابية مـن حيث أنـه يساعد دائماً علـى تنشيط المعايير السائدة وتدعيمها ، بل إنه قد يؤدى إلى ظهور معايير جديدة ، وبهذا المعنى يصبح الصراع بمثابة ميكانزم يضمن تكيف المعايير مع الظروف الجديدة ، وبالتالى يستطيع المجتمع أن يستفيد من الصراع. (٢٨)

لكن يتميز الصراع عن التنافس عادة بأنه يعنى محاولة بين شخص أو أكثر من أجل الوصول إلى هدف معين يتعارض مع هدف جماعة أخرى ، أو شخص آخر ، وفى حالة التنافس يؤكد عادة على الخصول على السلع النادرة أو أكبر نفع مع ترك قدر يسير للمتنافسين الآخرين الذين يسمح لهم بمزاولة نشاطهم ، أما فى حالة الصراع فيؤكد الحصول على أى كسب أو عائد حتى لو تطلب الأمر إيذاءهم أو هدمهم ، والصراع أيضاً يعبر عن مظهر من مظاهر التفاعل ، وقد يقوم الصراع بين جماعتين أو بين شخصين ، وأحياناً ما يكون الصراع شعورياً وتحكمه العواطف والأمزجة وعواطف الحقد والكراهية والخيانة ، وأحياناً ما يكون الصراع لاشعورياً وتحكمه أسباب دفينة مترسبة عبر أجيال من السنين وقمة الصراع نشوب الحرب والقتال .

(٣) عملية التنافس Competition .

يعرف معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية التنافس باعتباره إحدى مظاهر التفاعل الاجتماعى ، وهو محاولة كل فرد أو جماعة الحصول على نصيب أكبر من الأشياء النادرة أو المحددة ، تلك الندرة هى مصدر المنافسة،

---

(٢٨) Coser, L., The Functions of Social Conflict, N. Y., Free Press, 1950, P. 151.

ولو توفرت الأشياء التى يحتاجها الأفراد أو الجماعات لإشباع حاجاتـهم لما كان هناك داع للمنافسة . وقد تكون المنافسة مباشرة ويشعر بها الفرد كما قد تكون غير مباشرة ولا يشعر بها كأن لا يدرك الفرد أن الوظيفة التى يشغلها تحرم شخصاً آخر من العمل . وقد تكون المنافســة إنشائية Constructive حيث تنمى المهارات والقدرات وتهيئ الظروف الكافية للتقدم بالعمل كما قد تكـون المنافســة هدامـة Destructive إذا كـانت تـهدف إلى كسب الموقـف بإخراج الآخرين أو القضاء عليهم .(٢٩)

والتنافس عملية تقوم بين طرفـين يعمـل كـل منـهما لتحقيـق هـدف يسعى إليه الطرف الآخر مثل التنافس فـى المجـالات الأكاديميـة ، والفـرق الرياضية ، وفى سوق العمل فكل طرف يسعى بطريقته الخاصة لتحقيق نفس الأهداف المحددة ، وتشترك المنافسة مع عملية التعاون لأن الكفاح التنافسى يتضمن بعض الاتفاق بين الأعضاء المشتركين ، فأعضاء فريق كرة السـلة علـى سبيل المثال يتنافسون طبقاً لقواعد صلبة تفرض من خـلال رابطـة الريـاضيين لكن التنافس يختلـف عـن التعـاون مـن حيـث أن الأطـراف المتنافسـة تعمـل مستقلة عن بعضها البعض وذلك على عكس التعـاون الـذى يحتـاج إلى جـهد جمعى لتحقيق الهدف المشترك. (٣٠)

وقد عـرف أرنسـت بـيرجس وروبـرت بـارك التنـافس بأنـه عمليـة أساسية يتحدد من خلالها نظام التوزيع فـى المجتمـع ، إذ يحـدد التنـافس

---

(٢٩) أحمد زكى بدوى ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(٣٠) Sutherland R. L., Etal, op cit, P. 105.

توزيع السكان فى المجتمع ، وانتشارهم فى مناطق معينة ، وتوزيع الدخول وتوزيع المهن ، كما يؤثر التنافس على نظام تقسيم العمل وكذلك تنظيمات الأفراد ، والجماعات التى تميز المجتمع الحديث هى محصلة عملية التنافس ، وتعد عملية التنافس عملية لا شخصية بمعنى أن الشخص لا يعى إطلاقاً أنه يتنافس مع الآخرين من أجل إرساء وتدعيم قيم معينة ، وقد يعى فى بعض الحالات والمجالات أنه ينافس الآخرين، ويريد التفوق عليهم ، ورغم ذلك فإنه لا يرتبط معهم بأى تعاقد شخصى ، فالفلاح الذى يزرع القطن لا يعى إطلاقاً أنه ينافس ملايين الفلاحين فى بلده وخارج وطنه لتحديد سعر القطن .

ويظهر التنافس عادة نتيجة ندرة السلع المطلوبة وقلة المراكز والخدمات وفرص العمل المرغوبة ، وتدعيم التقاليد والعادات والقانون والنضال للحصول على هذه السلع النادرة أو شغل المراكز المحددة أو فرص العمل الشحيحة فى سوق العمل ، والتقاليد والقيود أمام التنافس المطلق وغير المطلق وغير المقيد بل ونادراً ما يحدث مثل هذا النوع من التنافس حتى فى الأفعال الاقتصادية يحرم أعضاء المجتمع التنافس بلا قيود ولا ضوابط إذ تحدد بعض القيود الاجتماعية إطار عملية التنافس .

فمثلاً فى مباريات كرة القدم أو مباريات المصارعة كل فريق يرغب فى إحراز النصر ، ولكن كل فريق يعرف إن إحراز النصر لا يتحقق إلا وفق قواعد اللعبة ، أما تحقيق النصر بالاعتداء على قانون اللعبة ، فيعنى على الأقل فقدان مذاقه وحلاوته .

ويحدث التنافس عادة بين شخصين متكافئين أو فريقين متساويين من أجل الوصول إلى أهداف معينة أو تأكيد قيم معينة وفق قواعد اجتماعية وقوانين التنافس ويدرب الأطفال على التنافس أثناء سنوات الطفولة الأولى ، وقد يظهر هذا النمط من السلوك قبل العام الخامس بالرغم من أن التعاون هو سمة سلوك الأطفال ، وقد يتنافس الأطفال لنيل حب الوالدين أو يتعلمون التنافس أو التفوق على الآخرين داخل الفصل الدراسى ويدرك الطفل أهمية التنافس فى الحياة حتى إنه يدرك أنه هناك أهدافاً معينة هامة ، ومكانات يمكن إدراكها ، ويعد التنافس خاصية هامة فى المجتمع الحديث فهو عامل عام نتيجة للتغير، إذ تتنافس الهيئات والنقابات وتنظيمات العمل من أجل زيادة الإنتاج ورفاهية المجتمع مما يؤدى إلى تغير المجتمع .

كذلك قد يدفع التنافس الأفراد إلى تبنى أشكال جديدة من السلوك الإنسانى لتحقيق الأهداف المرغوبة ، وتتطلب هذه الأشكال الجديدة من السلوك التجديد فى أساليب الإنتاج أو تحقيق إنتاج أكثر كفاءة أو تبنى قيم جديدة تؤكد الإنجاز والعمل بدلاً من قيم تقليدية تؤكد التواكلية وعدم احترام الوقت .

والجدير بالذكر هنا أن الارتباط بين التنافس والتغيير ليس ارتباطاً عرضياً ولكنه ارتباط أساسى ، فالمجتمع المتغير عندما يستبدل بالقيم والأهداف التقليدية قيماً وأهدافاً جديدة تصبح التنافس أمراً لا مفر منه لنيل المكانات الجديدة والسيطرة على مركز القوة ومصادر الثروة. [٣١]

ومن أجل تفسير السلوك التنافس ، ينبغى النظر إليه من خلال

---

(٣١) محمد سعيد فرح ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٨ – ٢٤٠ .

مستوياته الثلاثة أولها يتصل بالفرد ، والثانى يتصل بالمجتمع ، والثالث يتصل بالإطار الثقافى العام .

أ- فعلى مستوى الفرد يتفق الدارسون على أن السلوك التنافسى يحقق لهم النجاح والتفوق وإظهار قدراتهم الخاصة ومهاراتهم الشخصية .

ب- وعلى المستوى المجتمعى ، حيث يسود السلوك التنافسى فى المجتمع فى حالة ندرة الموارد وقلة الإمكانيات المتوفرة فى المجتمع ، وعجزها عن الوفاء باحتياجات الأفراد . أو عندما يكون العمل الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأهداف ولذا يتنافس الأفراد لتحقيق أهدافهم وغاياتهم . أو عندما لا يعرف الأفراد بعضهم بعضاً ، وقلة وسائل الاتصال التى تقرب بينهم وتجمعهم حول هدف مشترك .

جـ- وعلى المستوى الثقافى العام . فإن القيم والمعايير الثقافية التى تسود المجتمع ، تتحكم فى الاتجاهات السلوكية العامة للأفراد ، وتطبعهم بطابع يتفق مع النمط الثقافى العام . [٣٢] فمثلاً فى المجتمعات الرأسمالية التى تقوم على مبدأ المنافسة تزيد الحركة الاقتصادية ، ويترتب على زيادة المنافسة ظهور الاحتكارات .

(٤) عملية التعاون Co operation

يشير مصطلح التعاون إلى التفاعل أو إلى العمل العام لتحقيق أهداف مشتركة ، وقد يظهر ذلك من خلال تقسيم العمل إلى مهام متشابهة وأخرى متباينة ، ويكتسب هذا المصطلح أهميته فى علم الاجتماع باعتبار أنه يشير

---

(٣٢) عبد الله الرشدان ، مرجع سابق ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

إلى عملية اجتماعية أساسية وذلك برغم ما فى استخدامه من خلط ، يرجع إلى أن التعاون مرتبط بعمليات أخرى مناقضة له مثل الصراع والمنافسة ، ويعبر عن ذلك مصطلح تعاون الخصوم، ويؤكد التراث أهمية التعاون الجماعى Group Co Operation الذى يشير إلى كل من الأنشطة الداخلية والعلاقات بين الجماعات ، وعموماً فإن هذا النوع من التعاون يعبر عن الموافقة الجماعية حول فعل مشترك ، أو وحدة الجهود المتماثلة وغير المتماثلة من أجل استمرار الحياة أما الوحدة بين الجهود المتماثلة فتظهر فى الجماعات الأولية ، والمجتمعات المحلية الصغيرة كالقرى بينما تتحقق وحدة الجهود غير المتماثلة فى الجماعات والروابط الثانوية فى المجتمعات الحضرية .(٣٣)

والتعاون هو السمة الأساسية للتفاعل البشرى والذى ينطوى على قيام فردين أو أكثر بالعمل معاً لتحقيق غاية أو هدف مشترك ، وبهذا المعنى لا يتحقق التعاون إلا عن طريق العمل الجماعى المشترك ، بخلاف عمليات المنافسة والصراع ، ويربط التعاون أفراد المجتمع برباط وثيق لا يقتصر على المجتمعات المحلية وإنما يتعداها إلى المجتمع العالمى فى المجالات الاقتصادية ، والسياسية والعسكرية ، فما يقول البيون سمول Small أحد مؤسسى علم الاجتماع فى أمريكا أن هناك علاقة إرتباطية بين الصراع والتعاون فى كل موقف . حيث أن هناك إما ارتباط أو صراع فى المصالح .

Struggle and Co-Operation are co relates in every situation that is there is either conjunction or conflict of

---

(٣٣) عاطف غيث (محرر) قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

interests. [34]

والتعاون سلوك شائع فى أغلب المجتمعات ويتمثل فى كل مجال من مجالات الحياة ، غير أنه يبدو بوضوح شديد فى النشاط الاقتصادى، والمجالات التى يسودها تقسيم العمل والتعاون يربط أفراد المجتمع الإنسانى برباط وثيق ، فلا يقتصر على المستويات المحلية والإقليمية وإنما يتعداها إلى المجتمع العالمى الكبير وهيئاته المختلفة ، وللتعاون أهمية كبيرة بالنسبة للأفراد والجماعات والمجتمعات من حيث تحقيق الحاجات والشعور بالثقة والأمن والمحافظة على البقاء وحفظ النوع ، ويؤكد كثير من علماء الاجتماع ، وعلم النفس والأنثروبولوجيا على أهمية التعاون فى المحافظة على توازن الشخصية واستمرارية المجتمع وبنائه ، ومن ثم فإن لثقافة المجتمع بما تحتويه من قيم ومعايير وعادات وتقاليد أثر كبير فى تحديد نوع السلوك التعاونى الذى يسود الجماعة وقد أوضح شالزكولى أن التعاون ينشأ عندما تظهر المصالح المشتركة بين الناس وفى نفس الوقت يكون هناك ذكاء كاف وتحكم ذاتى للبحث عن هذه المصالح من خلال الأفعال المشتركة وتحقيق الأهداف المشتركة . [٣٥]

كما يرى كولى أن التعاون والصراع ليسا شيئين منفصلين وإنما هما وجهان لعملية إطرادية واحدة تشمل الاثنين معاً وتفصيل ذلك أن الناس عندما يتعاونون فيما بينهم تكون مصالحهم متوافقة إلى حد محدود ، وحتى

---

(٣٤) Young, K. and Mack, Sociology and Social life, op cit, P. 117.

(٣٥) Ibid, P. 119.

فى العلاقات الودية جداً فهناك أوقات تتعارض فيها المصالح أو تظهر مواقف متعارضة بالنسبة للأفراد المتعاونين ، وكما نعرف فإن أوثق أنواع التعاون تتم داخل الأسرة ولكن ذلك لا يمنع من حدوث المشاجرات ، والإخلاص لقضية معينة لا يمنع من حدوث الخلاف فى الرأى بل والانشقاق أحياناً ، وقد يتعاون الناس معاً لتحقيق مشروع اقتصادى ضخم كتكوين شركة مساهمة مثلاً أو التعاون للقضاء على خصم أو عدو خطير كما تعاونت روسيا مع أمريكا ومع دول أوربا الغربية فى القضاء على النازية ، وكما تعاونت الدول العربية معاً فى حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣م .

وقد يكون الدافع إلى التعاون شعورياً وله مبرراته العقلانية فيتعاون الأفراد معاً لإقامة مشروع اقتصادى ضخم ، وقد يكون الدافع إلى التعاون لاشعورياً ولا يستند على قواعد مثلما هو الحال عندما يتعاون الناس فى إقامة الشعائر والموالد وقد يكون التعاون لاشعورياً فقط مثلما يتعاون الفلاحون على إطفاء حريق فى القرية أو التعاون فيما بين أهل القرية فى الأفراح والمآتم وغير ذلك .

ويعكس تعاون الناس معاً وتآزرهم على اداء فعل معين وتحاشى أداء فعل آخر طبيعة القيم الاجتماعية السائدة والتعاون مثله مثل التنافس محصلة عملية تربوية وتدفع إليه عادة أسباب اقتصادية واجتماعية .

وترتبط قيم التعاون بالشعور بقوة الاتحاد والاندماج فى الجماعة والانتماء إليها ، فالتعاون ينجسد فى القيمة ويعنى الإيمان بتبادل الخدمات بين الأفراد على قدم المساواة والتأكيد على مبدأ الأخذ والعطاء وتضافر

الجهود لمقاومة العوائـق أمـام نشـاط الجماعـة . أمـا اللاتعـاون فسلوك شـاذ مستهجن ويعنى قسمة جائرة بين أفـراد المجتمـع تجعـل البعـض محظوظاً يتمتع بكل شيء فى المجتمع والبعض الآخر مستغلاً لا يكاد يحصل على مـا يقيم أوده ، فالتعاون مظهر من مظاهر التماسك والقـوة والوحـدة ويـدل علـى الإيمان بقيم المساواة والعدل .

والتعاون شأنه شأن كل القيم التى تنظم السلوك ، يبدو فـى مجـالات النشـاط الاجتمـاعى ، وفـى مجـالات الاقتصـاد ، وفـى مجـالات السياسـة ، وعندمـا تتماسك الجماعـات لمواجهـة عـدو خـارجى ، والتعـاون كعمليـة اجتماعية تجسيم لرسوخ القيم الجمعية والتخلى عن المصـالح الشـخصية فـى سبيل المجتمع والبذل والعطاء من أجل الآخرين .

وقد حاول كل من إيتون **Eaton** ونيسبت **Nisbet** وضع تصنيف للتعـاون ، ويتمثـل تصنيـف إيتـون للتعـاون فـى ثلاثـة أنمـاط رئيسـية هى :- [٣٦]

أ. التعاون الأولى : Primary Co-Operation

ويتمثل هذا النمط من التعاون فى المجتمعات البسيطة حيـث تـذوب شخصية الفرد فى إطار الجماعة التى ينتمى إليـها ، ويتـم التعـاون بدرجـة واضحـة فـى المجـال الاقتصـادى حيـث يشـترك الجميـع ذكـوراً وإناثـاً فـى مجالات الزراعة أو الصيـد أو الرعـى وغيرهـا ، ويتقاسـم فيمـا بينـهم عـائد العمل ، ويعتبر التعاون من أهـم قيـم المجتمعـات البسـيطة ويحـرص أفـراد المجتمع عليه ويعززونه بشتى الوسائل .

---

(٣٦) عبد الباسط محمد حسن ، علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٧ - ١٩٢ .

ب- التعاون الثانوى Secondary Co-Operation

ويتميز التعاون الثانوى بأن له طابعاً رسمياً متخصصاً وهو إحدى السمات المميزة للمجتمعات الحديثة التى ترتكز على التخصص وتقسيم العمل ، ونظراً لأن كل فرد يقوم بوظيفة معينة متخصصة ضمن إطار متكامل فإنه يشعر بأن عليه التزامات محددة نحو الجماعة التى ينتمى إليها وبالتالى يحرص على تعزيز عضويته من خلال وعيه بواجباته والتزاماته نحو الجماعة وتعاونه مع باقى الأفراد وينظر إلى التعاون الثانوى باعتباره وسيلة لتحقيق أهداف خاصة بالفرد ذاته ، وبالجماعة التى ينتمى إليها .

جـ- التعاون الثلاثى Tertiary Co-Operation

يحدث هذا النمط من التعاون حينما يكون هناك صراع بين جماعتين، ثم تظهر جماعة ثالثة تناصبهما العداء ، فتتفق الجماعتان المتصارعتان معاً وتتعاونان مؤقتاً للقضاء على الخطر الداهم ومن أمثلته التعاون بين حزبين متنافسين للقضاء على حزب ثالث أو التحالف بين دولتين للقضاء على دولة ثالثة .

ويتسم هذا النمط من التعاون بالاستغلال والانتهازية .

(د) عملية التكيف الاجتماعى . Accommodation

يعرف التكيف بأنه عبارة عن التفاعل الاجتماعى الذى يهدف إلى التوفيق بين الأفراد والجماعات بحيث يتفهم كل طرف من الأطراف المختلفة أفكار ومشاعر واتجاهات الطرف الآخر ، ليحدث بينهما توافق يؤدى إلى تحقيق مصلحة مشتركة . ويسود هذا النوع من التكيف فى مجالات الحياة المختلفة فعلى سبيل المثال لا الحصر ، التكيف الحادث بين الزوجين ، والتكيف بين الرؤساء والمرؤوسين فى العمل ، أو بين أصحاب العمل

والعمال، ويفرق هنا الباحثون الاجتماعيون بين التأقلم والتكيف من حيث أن التأقلم Adaptation يستخدم ليدل على تلاؤم السلوك الإنسانى مع ظروف المكان أو البيئة الطبيعية ، أما التكيف فيرتبط عادة بظروف البيئة الاجتماعية .[٣٧]

وفى الواقع أن مصطلح التكيف قد نشأ أصلاً فى علم الأحياء ليدل على العمليات التى بها يتواءم الكائن الحى مع البيئة ، ويستخدم التكيف فى علم الاجتماع استخداماً غير دقيق ليدل على الكيفية التى يتلاءم بها النسق الاجتماعى (كالأسرة ، أو المجتمع المحلى) مع البيئة الطبيعية أو الاجتماعية .

وهناك صوراً سلوكية متنوعة يتخذها التكيف فى الحياة الاجتماعية وهذه الصور نحددها على النحو التالى :[٣٨]

١- القسر أو الإجبار Coercion

وهو وسيلة من وسائل التكيف يتحدد من خلالها الفعل والتفكير فى العلاقات الاجتماعية بناءً على الضغوط وممارسة القوة ، بمعنى أن الإجبار أو القسر يتضمن وجود طرفين أحدهما ضعيف والآخر قوى فى أى موقف صراعى .

وهذه الوسيلة للتكيف لها شكلان أحدهما فيزيقى من خلال الاستخدام المباشر للقوة ، والشكل الثانى سيكولوجى من خلال الاستخدام غير المباشر للقوة .

---

(٣٧) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٣٨) نفس المرجع السابق ، ص ص ١٩٥ - ٢١٠ .

٢- التكيف من خلال التسوية Compromise

وتتضمن هذا النوع درجة عالية من المساواة فى استخدام القوة بين الطرفين بحيث يرغب الطرف القوى فى استخدام العدالة بدلاً من القوة والنفوذ فى تحديد الاتفاق ، وهذا النوع من التكيف يعتبر وسيلة واعية لحل أساليب النزاع بين كل الأطراف للوصول إلى حل وسط أو توفيقى يرضى جميع أطراف النزاع .

٣- التكيف من خلال التحكم Arbitration

وهو وسيلة أخيرة حينما تفشل كل الأطراف المتنازعة فى الوصول إلى حلول ترضى الجميع ، ويحل الخلاف من خلال طرّف ثالث محايد ، يختاره المتنازعون ويتم الاستعانة بهذا النمط من التكيف بصورة خاصة فى النزعات الدولية وتحديداً تلك المتعلقة بالنزاعات أو الخلافات الحدودية مثل التحكيم الذى تم بين مصر وإسرائيل بخصوص طابا ، والتحكيم الذى تم بين قطر والبحرين فى الجزر المختلف عليها .

(٤) التكيف من خلال القدرة على التسامح Toleration

وهو وسيلة أخرى من وسائل أساليب التكيف يظهر من خلال سياسة "عش واترك غيرك يعيش" وهو شكل للتكيف بدون اتفاقيات رسمية وهو تكيف يتم عادة من خلال المعايشة الطويلة لتجنب تطوير العداء وتضخمه .
إذن فالتكيف عملية اجتماعية وظيفتها تقليل أو تجنب الصراع ، أو هو عملية تكيف اجتماعى تؤدى إلى وقف الصراع بين الجماعات عن طريق التدعيم المؤقت ، أو الدائم للتفاعل السلمى ، ويشير هذا المصطلح إلى مضمون

سيكولوجى يتضمن السلوك الفردى أو السلوك الجماعى ، أو هو التوافق مع مواقف الصراع من خلال تجنب كافة مظاهر العداء عن طريق منح تعويضات اقتصادية ، واجتماعية ونفسية لجماعة من جماعات الأقلية .

فالتكيف هو أحد مظاهر التفاعل الاجتماعى وهو الحالة التى يتفق فيها المتصارعون على إخفاء صراعاتهم ووقف التنافس بينهم بصورة مؤقتة ، ويلجأ الأفراد أو الجماعات إلى التراضى المتبادل بتأثير إدراك الموقف ، وتبين استحالة تحقيق فوز على الغريم ، ولا يلغى التراضى المتبادل الصراع أو ينهيه بل يؤجله فقط .

ويخفيه عن الظهور ، لذا يرى كل من كامبل يونج وريموند ماك أن التكيف كعملية هو الجهود الواعية للأفراد من أجل تنسيق العمل بين أنفسهم ، وبالتالى فهو يوقف الصراع من أجل جعل علاقاتهم أكثر تسامحاً وأقل إهداراً للجهد والتعب بمعنى أنه يعنى حل مشكلة الصراع بشكل سلمى وبدون القضاء على الطرف الآخر .(٣٩)

كما أن مجهودات التكيف يمكن أن تتباين إلى حد ما مع الظروف العامة بالتكيف ، وذلك للعمل على تقليل حدة الصراع القائم بين الأفراد والجماعات كخطوة تمهيدية لإعادة تركيب التباينات فى نمط جديد . أو بمعنى آخر يمكن أن يقود إلى التماثل .

كما أنه يمكن أن يؤدى إلى أرجاء الصراع بشكل فورى ، لفترة محددة من الوقت ، كما فى حالة الاتفاقيات بين الأمم أو إدارة العمل فضلاً عن أنه

---

(٣٩) Ibid, PP. 120-121.

يساعد الجماعات المنفصلة للعمل معاً بشكل جماعي .

(٥) التمثيل Assimilation

والتمثيل يعني تماثل الأفـراد والجماعـات فـي طباعـهم ومصالحـهم وأهدافهم بفضل التكيف ، وبذلك يتقبلون ثقافة بعضهم بعضاً ، ويكونون من الأنواع الثقافية المختلفة نوعاً واحداً يسودهم جميعاً ، ويقـال تمـاثل أحـادى الاتجاه Unilateral Assimilation أى اختفـاء الوحّدة الثقافيـة المميزة لجماعة ما نتيجة لاكتسابها الكلى لثقافة الجماعة المستقلة ، وتماثل ثنائى الاتجـاه Bilateral Assimilation أى انصـهار ثقافـة الجماعـة القائمـة والجماعة المستقبلة وفقدانها لسماتها الأولية وظهور ثقافة جديـدة [٤٠] ولـذا يرى روبرت بارك أن التمثيل هو عملية تغلغل متبادل واندماج يكتسب بـها أشخاص وجماعات ما لدى أشخاص وجماعات أخرى من الذكريـات والمشـاعر والمواقف ، وهم إذ يشـاركونهم تجاربـهم وتاريخـهم ويتوحـدون معـهم فـى حياتهم معاً فى حياة ثقافية مشتركة . [٤١]

كما يستخدم مصطلح التمثيل فى علـم الاجتمـاع ليـدل علـى العمليـة التـى بـها تندمـج الأقليـة المـهاجرة أو الســلالية اندماجـاً اجتماعيـاً فـى الاستعمال، واستعمال مصطلـح التمثيـل فـى علـم الأحيـاء ،فـهو يـدل علـى امتصاص بيولوجي أو تهجين ، فالتمثيل الاجتماعي يتضمـن اختفـاء عنـاصر البيئة الأصلية للأقلية وزيادة مشـاركتهم فـى الأنسـاق الاجتماعيـة لجماعـة

---

(٤٠) أحمد زكى بدوى ، موسوعة العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ن ص ٥١٤ .

(٤١) ميشيل مان ، موسوعة العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٥١٤ .

الأغلبية . ويعنى بتثقيف جماعة الأقلية تثقيفاً يكفىّ لذوبان شخصيتها المميزة نهائياً ، وفى الوقت نفسه يفترض أن هذه العملية تتضمن تغيرات فى الجماعة المهاجرة فقط ، وأن ثمة مراحل متوسطة تتميز بعدم الاستقرار والصراع ، فى حين أن ايزنستاتد Eisenstalt أشار إلى أن التغيرات فى المجتمع الذى يقبلهم قد تحدث أثناء الاتصال مع المهاجرين وأن ثمة حالة من التجمع الثقافى تنشأ نتيجة التوازن المستقر .

وقد عرف ارنست بيرجس التمثيل بأنه عملية تفاعل وتبادل فهى عملية انصهار يكتسب بها الأفراد والجماعات ذكريات الجماعات الأخرى ومشاعرهم ، واتجاهاتهم ، وتجاربهم ويذوبون معهم فى حياة ثقافية عامة، وتلك عملية تدريجية تتطلب مشاركة الجماعة الأولى للجماعة الثانية فى مظاهر الأنشطة المختلفة والاحتكاك بهم إما بطريق مباشر أو غير مباشر واكتسابهم ببطء مجموعة من أنماط السلوك وأكثر الجماعات تقبلاً لعملية التمثيل جماعات المهاجرين ، الذين يتمثلون أكثر من غيرهم عادات المهجر وقيمه وتقاليده كما أنهم أسرع كثيراً فى التوحد مع طريقة الحياة فى الموطن الجديد .

ولا ريب أن القدرة على الاتصال هو الطلب الأول والأكثر أهمية لتحقيق عملية التمثيل ، وفى الحقيقة فإن الاتصال ضرورى لكل تفاعل اجتماعى ، بيد أن الاتصال اللازم لحدوث التمثيل يختلف حتماً عن الاتصال اللازم لحدوث التنافس .

فالاتصال ضرورى لحدوث التمثيل ، ولكن قد يتنافس الناس دون أن يحدث بينهم اتصال مثلما هو الحال بين المتنافسين على النجاح فى امتحان

الثانوية العامة .

واللغة المشتركة عنصر أساسى لحدوث عملية التمثيل ، لأن اللغة تسهل المشاركة فى حياة الآخرين ، وقد يكون الاتصال شخصياً ومباشراً ، وهذا هو أسرع أنواع التمثيل ، وقد يكون الاتصال عابراً وغير مباشر ، وأحياناً ما يكون الاتصال شفوياً من خلال أجهزة الاتصال وأحياناً ما يكون مكتوباً من خلال الكتب والمجلات وأحياناً ما يكون الاتصال مواجهة شخصية بين الأطراف وهو أكثر أنواع التمثيل تأثيراً . وعملية التمثيل جزء أساسى من عملية الحياة وبقدر ما يتعلم المرء المشاركة فى توقعات وتجارب الجماعات الأخرى بقدر ما يستطيع أن يتعلم اللغة ويسهل له الحصول على عمله وقراءة الصحف وسماع الراديو والاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية .[٤٢]

ويرى اليكس انكلز أن عملية التمثيل أو كما يطلق عليهما عملية الامتثال بأنها تعنى أن تفعل ما يتعين عليك أن تفعله كأن يؤدى التلميذ واجباته المدرسية فى المنزل أو أن يقف سائق السيارة عند مفترق الطرق التى تسمح له إشارة المرور بمواصلة القيادة ، أو أن يدفع المواطن الضرائب المستحقة عليه ، فى كل هذه الأمثلة نجد أن المكانة (أو الوضع) محددة تحديداً قاطعاً فالسلوك الذى يتعين على الفرد أن يؤديه سلوك واضح ومحدد، والقواعد التى تحكمه صريحة ودقيقة عن القوة التى تكفل تدعيم الامتثال قوة مجمدة ، وفى متناول اليد ، وهنا نجد أن علم الاجتماع ينطلق من قضية نعرفها ونقبلها جميعاً وهى أن الامتثال للدور الاجتماعى وأداء الـها

---

(٤٢) محمد سعيد فرح ، ما . . . علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥٠-٢٥١ .

المرتبطة بعد يعتمد – إلى حد كبير – على الجـزءات أى قـوة الآخريـن سـواء كـانت متمثلـة فـى الأفـراد أو الجماعـات أو المجتمـع المحلـى علـى فـرض توقعاتهم باستخدام الثواب والعقاب ، وتبدأ الجزاءات السلبية بممارسة كل أشكال القوة الفيزيقية حتى ممارسة القـهر ، كمـا تقيـم الجـزاءات السـلبية فيما تضم الجزاءات السيكولوجية كالتقليل من شأن الإنسان أو التهكم عليه، ولا تؤثر الجزاءات السلبية على ما يجب أن يفعله الإنسان ، بـل علـى مـا لا يجب أن يفعله ، ومن الأفكار الأكثر شيوعاً فى العصر الحاضر فكرة التهديد "بسحب الحب" كجزاء يمارسه الآباء على أبناءهم للتحكم فى سلوكهم .[٤٣]

والتمثيـل يحـدث فقط عندمـا يكـون هنـاك اسـتمرارية نسـبية ، واحتكـاك مباشر، كما أنه عملية تتم بصورة تدريجية نسبياً ، والتاريخ مملـوء بعديـد من الأمثلة على هذا الاندماج فى إطـار الجماعـات وثقافتـها ومـن بـين أكـثر الحالات المشهورة ما حدث فى مجتمعات الأنجلـو ساكسـونية والنورمـاندى فى إنجلترا إبان القرنين الماضيين عقب عام (١٠٦٦م) عندمـا غـزو النورمـانر إنجلترا . وكذلك عملية الانصهار التى حدثت لما يسمى بالمجتمع الأمريكـى فى الوقت الحديث هى مثال واضح لعملية التمثيل .[٤٤]

---

(٤٣) اليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهـرى وآخريـن ، مرجـع سابق ، ص ١٥٢ .

(٤٤) Ibid, P. 123.

رابعاً :- الخاتمـة :

وهكذا يتضح من التحليل السالف عبر هذا الفصل أن العمليات الاجتماعية تقوم فى أساسها على عملية التفاعل الاجتماعى ، فحينما يعمل البشر بغرض الوصول إلى هدف مشترك ، فإن سلوكهم يطلق عليه "التعاون" وحينما يقف الواحد منهم ضد الآخر ، فإنه يطلق على هذا السلوك اسم الصراع وحينما ينصهر سلوك الأفراد فى إطار الجماعة وثقافتها يطلق عليه عملية التمثيل ، وحينما يتم التفاعل بهدف التوفيق بين الأفراد والجماعات بحيث يتفهم كل طرف اتجاهات ومشاعر الآخر يطلق عليه عملية "التكيف" أما حينما يحاول كل فرد أو جماعة الحصول على نصيب أكبر من الأشياء النادرة أو المحدودة يطلق عليه مسمى "المنافسة" ويطلق علماء الاجتماع على هذه العلاقات والروابط الاجتماعية مسمى العمليات الاجتماعية Social Process تلك العملية التى تدل على نمط أو نموذج للتفاعل الاجتماعى يتحرك الأفراد أو الجماعات من خلاله ليؤدوا أفعالاً معينة أو القيام بسلوك محدد .

كما أن العمليات الاجتماعية هى نتاج لعملية التفاعل الاجتماعى الذى بدوره يشكل العلاقات الاجتماعية ، وعلى هذا فإن مفهوم العملية الاجتماعية يشير بالضرورة إلى علاقة اجتماعية فى طور التكوين أو النشأة ، وعندما تستقر وتتبلور ويصبح لها شكل أو نمط معين تتحول إلى علاقات اجتماعية .

وهـذا ما يبيـن أن التفاعـل الاجتمـاعى هو أهم ما يميز الحيـاة

الاجتماعية ، كما يعد التفاعل الاجتماعى عملية اجتماعية تصف وتحدد ديناميكية العلاقات الاجتماعية مما جعل كثير من علماء الاجتماع يجعلون موضوع التفاعل الاجتماعى هو الموضوع الحيوى لعلم الاجتماع بل واعتباره وحدة التحليل الأساسية فى علم الاجتماع ، وجعله مفهوماً أساسياً فى العلوم الاجتماعية بشكل عام .

كما اتفق علماء الاجتماع أيضاً على أن بقاء الإنسان واستمراره يعتمد بالدرجة الأولى على مجموعة العمليات الاجتماعية ، كالتعاون ، والتنافس ، والصراع والتكيف ، والتمثيل وغيرها .

الفصـــل السابـــع
الثقافـــــة

تمهيد :

تعددت الآراء ، واختلفت وجهات النظر حول مسائل الثقافة والحضارة خاصة فيما يتعلق بنشأة مفهوم الثقافة بوصفه واحداً من المفاهيم التى أصبحت مجتمعاتنا المعاصرة لا تستطيع أن تتجاهلها أو حتى تكف عن استخدامها لحظة من اللحظات ، وعموما نستطيع القول بأن فكرة الثقافة " قد نبعت عن مواجهة إنسانية كبرى فلقد كانت نتاجا فكريا رئيسياً لتلك المواجهة التى حدثت بين العالم الغربى فى كفاحه من أجل التوسع والسيطرة بين الشعوب غير الغربية أو الشعوب التقليدية من وجهة نظر هذا العالم الغربى بما تنطوى عليه حياة هذه الشعوب من عادات وتقاليد وأنماط سلوكية أثارت دهشة الغربيين ، وحفزتهم إلى ضرورة استطلاعها – التعرف عليها – ولقد كانت خبرة الغرب بهذه الشعوب هى التى جعلت من مفهوم الثقافة أداة تصورية رئيسية يمكن من خلالها تنظيم المعرفة الممكنة عن مختلف أساليب الحياة وطرائق السلوك والعمل ، وهكذا أحتل هذا المفهوم مكانه هامة فى الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية التى تطورت كنتيجة لرغبة العالم الغربى الأكيدة فى التصرف على أنظمة هذه الشعوب واستكشاف أساليب حياتها.

والواقع أن مفهوم الثقافة يشكل فى حد ذاته إحدى الأفكار الكبرى التى ساعدت البشرية على تحقيق الكثير من جوانب التقدم والتطور الاجتماعى. ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى ما ينطوى عليه هذا المفهوم ذاته من عناصر داخلية ، فالسمة أو العنصر الأول والذى تتسم به فكرة الثقافة

هى سمة العالمية بمعنى أن كل بنى البشر لديهم ثقافتهم الخاصة ، ولا تعرف مجتمعاً إنسانيا يخلو من الثقافة بغض النظر عن مستواها أو درجة رقيها وتخلفها. أما العنصر الثانى الذى يتضمنه هذا المفهوم فهو عنصر التنظيم ذلك أن كل ثقافة تظهر درجة معينة من التماسك الداخلى تبدو كما لو كانت بناء متكاملا يحوى عناصر ثقافية يربطها معا نسيج هذا البناء.

وإذن مفهوم الثقافة من المفاهيم التى أصبحت املأ يتطلع إليه الباحثون وأصحاب الأيديولوجيا فى الوقت ذاته.

ووفقا لذلك سوف نحاول أن نتناول النقاط التالية :-

أولاً: مفهوم الثقافة والفرق بينهما وبين المفهومات الأخرى.

ثانياً :أهم خصائص الثقافة .

ثالثاً :عناصر الثقافة ومكوناتها.

رابعاً : أهمية الثقافة فى المجتمع.

خامساً : نشأة وعوامل استمرارها.

سادساً: التغير الثقافى والتغير الاجتماعى.

وفيما يلى توضيح موجز لأهم هذه العناصر على النحو التالى :-

أولا: مفهوم الثقافة والفرق بينهما وبين المفهومات الأخرى.

إن مفهوم الثقافة من المفهومات المحورية فى علم الاجتماع بصفة عامة والانترويولوجيا الثقافية بصفة خاصة ، فمفهوم الثقافة يشكل إحدى الأفكار الكبرى التى ساعدت البشرية على إنجاز الكثير من جوانب التقدم

العلمى والتطور الفكرى على أساس أن هذا المفـهوم يتمـيز بأنـه ذات طبيعـة تراكمية ومستمرة ، فالثقافة ليست وليدة عقد أو عدة عقود بل هى مـيراث اجتماعى لكافة منجزات البشرية إلى ما وصلت إليه الآن ، وبالرغم مـن ذلـك فإن محاولة تعريف هذا المفهوم محاولة صعبة لأنـه رغـم استعمال مصطلح الثقافة على ألسنة العامة مـن النـاس ، إلا أن المتخصـص فـى دراسـة العلـوم الاجتماعيـة حينمـا يحـاول تعريفـه يجـد نفسـه فـى نطـاق علمـه والعلـوم المتخصصة الأخرى تعريفات هائلة وكل تعريف يعكس وجهة نظـر صاحبـة أو النظرية التى ينتمى إليها . وكذلك سوف نحاول فى البداية أن نفرق بـين مفهوم الثقافة والحضـارة والمدنيـة ثـم نحـاول تنـاول أهـم التعريفـات التـى حاولت تحديد مفـهوم الثقافـة لكـى تتمكـن مـن اسـتخلاص تعريـف محـدد وواضح لها.

الفرق بين الثقافة والحضارة والمدنية

فى الواقع أن أصل كلمة ثقافة **culture** تنحدر من الفعل اللاتينـى **colere** وتعنى الزراعة ، بينما كلمة مدنية **Civilization** فتنحـدر مـن كلمة **Civis** اللاتينية وتعنى المواطن فى صورة سلوكية معينة ، ورغم وجود اختلاط بين هذه المفهومات وهى الثقافـة والمدنيـة والحضـارة ، إلا أن بعـض العلماء المحدثين فد اجتهدوا فى توضيـح الفـروق بـين هـذه المفـاهيم ، وقـد بدأت هذه التفرقة بين مصطلحى الحضارة والثقافة فى ألمانيـا **(Unnithan p. 39)**. فنجد التفرقة واضحة عند توماس مان **Thomas man** حين قـال بـأن الثقافـة هـى الـروح الحقيقيـة ، بينمـا الحضـارة هـى الآليـة

Mechanization وكذلك العالم الألمانى الفرد ويبر weber والذى ذهب بأن الحضارة هى المجهود الإنسانى فى سبيل السيطرة على معالم الطبيعة، بينما الثقافة هى مظاهر الحياة الروحية والأخلاقية التى تسود المجتمع (مسعود ، ص ٢٠). ومن الملاحظ أن العلامة الفريد فيبر هو أول من استخدم علم الاجتماع الثقافى أساسا ليدل على استمرار العقل وتقدمه وهى التى مهدت للجهود البشرية عمليات غزو الطبيعة والابتكار فى مجال العلم والتكنولوجيا ، وأما الثقافة فى حقيقتها ظاهرة روحية وتقوم أساسا على تحقيق ذاتية الروح والنفس والعاطفة ، بهذا فالثقافة تعبر عن المظهر الروحى للمجتمع بينما الحضارة تعبر عن مظاهر التقدم التكنولوجى ، بينما المدنية هى عبارة عن مجموعة الصفات الوديعة والرفيعة والفاضلة التى يحملها الإنسان أثناء تصرفاته وعلاقته مع الآخرين ، فالمدنية تعنى التقدم والسير إلى الأمام (dun can, p.70). ولقد استطاع الفريد فيبر التمييز بين مفهومى الحضارة والمدنية من خلال التمييز بين ثلاث عمليات وهى عمليات المجتمع ، والمدنية والحضارة.

ويعنى بالمدنية نمو فروع المعرفة وتقدم سبل السيطرة الفنية على القوة الطبيعية ذلك التقدم المتماسك الذى له نظام منظم ينتقل من شعب إلى آخر ، أما عملية الحضارة فإنها تسير فى خط واضح الملامح كما تسير عملية المجتمع وعملية المدنية ، فالحضارة لا يمكن أن تفهم إلا إذا درست دراسة تاريخية تقتضى تطور أجزاء الحضارة وعلاقتها الواحدة بالأخرى ، والواقع أن الثقافة تختلف عن الحضارة اختلاف البسيط عن المعقد فلكل المجتمعات

بسيطها ومعقدها ثقافة ، وهى كل نتاج الفكر المجتمعى ونتاج هذا الفكر ومشتقاته أيضا ، أما الحضارة فهى تمتاز بالنواحى العملية والمادية لثقافة الأقوام المتحضرين أى الذين عاشوا ومارسوا أساليب الحضر . ومما يؤكد ذلك أن الثقافة تتميز بأنها تراكمية ومكتسبة وتنتقل عناصرها من جيل إلى جيل، أما الحضارة فهى وأن كانت من أوجه الثقافة إلا أنها ثقافة مميزة باعتبارها نتاجا مستقلا أى من نوع خاص قد يختص به مجتمع معين فى فترة تاريخية دون أن تنتشر فيه إلى مجتمع آخر ، على أن هناك آراء أخرى ترى أن هناك تعاقباً بين الثقافة والحضارة ومن دعاة هذا الرأى أزاوالد شبنجلر – فى كتابه "تدهور الغرب" الذى جعل لكل ثقافة حضارة ، وهو يؤكد أن المصطلحين يعبران عن مرحلتين متعاقبتين فى كل دوره مجتمعية إذ أن التاريخ الإنسانى عند شبنجلر يسير فى دورات ثقافية وحضارية مقفلة كل من منها مستقلة عن الأخرى ، وكل دورة من هذه الدورات تبدأ بالثقافة التى هى ضرورة لبناء أى جماعة ولبناء تنظيمها الفكرى-والاجتماعى ، وهى أيضا عبارة عن مرحلة البداية أو الطفولة التى تمهد للمرحلة التالية وهى مرحلة الإنتاج والنضج التى تولد فيها الحضارة عن طريق حسن استغلال ثمرات الاكتساب الثقافى الذى مر به المجتمع (محمد عبد المنعم نور ، ص ٢٣ – ٢٤) .

وفى الحقيقة أن ما يعزز الآراء السابقة رأى العالم الاجتماعى بول لانديس **paul landis** حينما قال أن الثقافة تختلف عن الحضارة من حيث أن الحضارة لها معنى أضيق من الثقافة ، فالحضارة تقتصر على تلك الشعوب

ذات المستوى الرفيع من التطـور الثقافى ، وهـذه الشـعوب التـى وصلـت إلى درجة عالية من التقدم (المتمدنة) ، تـرى الحضـارة بأنـها كافـة الموضوعـات المادية التى ابتكرها الإنسان ، وأيضا الموضوعات والأشـكال اللامادية بينمـا الثقافة تشمل ككل الشعوب بسيطها ومعقدها، فالشعوب البدائية لهـا ثقافـة والشعوب المتقدمة لها ثقافة ، ولكـن الاختـلاف بـين المفـهومين ليـس فـى النوع ولكن فى الدرجة من حيث التقدم (landis , p . 40) .

وهكذا يتضح من خلال التعريفات السابقة أن مفـهوم الثقافـة يشـمل جميـع جوانـب الحيـاة ، المعنويـة والماديـة ، وتوجـد فـى كـل المجتمعـات البسيطة والمعقدة ، المتقدمة والمتخلفة على حد سواء. بينمـا الحضـارة عبـارة عن كل المنجزات المادية والعملية فقط التى أنتجتـها المجتمعـات مـن خـلال التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية ، بينمـا كلمـة المدنيـة فتعتـبر إحـدى درجات الحضارة أى إحدى صورها فهى عنصر جديد متطور من الحضـارة ، وان غاية كل مدينة أن تصبـح حضـارة، وبـهذا يتضـح أن العلاقـة بـين هـذه المفاهيم الثلاثة هى علاقة شامل بشمول.

وبعد أن تبين لنا الفرق بين مفهومات الثقافة والحضارة يعـن لنـا أن نحدد مفهوم الثقافة تحديداً واضحا للوصول إلى ذلك سوف نحاول أن نتناول أهم التعريفات الشائعة للثقافة من أجل استخلاص تعريف واضح ومحدد لها

فقد عـرف هـارى شـابيرو الثقافـة باعتبارهـا السـلوك المكتسـب اجتماعياً، والتى تحتوى كل أنواع الأفعـال والقيـم التـى نتمثلـها باعتبارنـا أعضاء فى المجتمع المحلى (Shapiro, p . 26).

ومن أهم التعريفات التى كان لها مكان الصدارة فى تعريف الثقافة هو تعريف السيراد وارد تايلور – الذى نشر فى كتابه الكلاسيكى ، الثقافة البدائية primitive culture باعتبارها ، ذلك الكل الديناميكى المعقد الذى يشتمل على المعارف والفنون والمعتقدات والقوانين والأخلاق والتقاليد والفلسفة والأديان وبقية المواهب والعادات التى اكتسبها الإنسان من مجتمعة باعتباره عضوا فيه(Tytor , P .1). وتعريف تايلور هذا كما يقول جامس ميكى أكد على نقطيتين أساسيتين:–

النقطة الأولى : إن كل منا يكتسب الثقافة باعتباره عضوا فى المجتمع.

النقطة الثانية : أن الثقافة ، ليست مادية فحسب بل هى ظاهرة مثالية أيضا تشمل اللغة والأساطير ، والفلسفة والعادات وأيضا لا تتكون الثقافة من الأشياء والأحداث التى يمكن عدها أو قياسها بل أنها تتكون أيضا من الأشياء غير المرئية ، وما نحن نستنتجه من حولنا.

لذا ذهب روبرت ردفيلد فى تعريفه للثقافة على أنها ذلك الكل المعقد الذى يتكون من التفاهم المشترك(Redfield , P.18) .

بينما ذهب ميكى بأن الثقافة هى المعنى الذى يشير إلى العالم الرمزى من المعنى والمركب الشامل من التفاعل الاجتماعى(Mchee, p. 60).

ووفقا لذلك فإن الثقافة تحتوى على الأفكار والاتجاهات العامة المقبولة والمتوقعة التى يتعلمها الإنسان من اتصاله بالواقع الاجتماعى. فالثقافة بالنسبة للفرد فى سنواته الأولى من حياته ، تلعب دورا هاما فى إعداده ، ليكون أكثر فاعليه فى محيطة الاجتماعى ، كذلك فإن كل جيل

جديد ليس مطالبا بأن يبدأ من فراغ ، ولكن عليه أن يستفيد ممن حوله، ويتعلم كيف يتكيف مع العالم الطبيعى والاجتماعى المحيط به. وفيما بعد فإن هذا الكل – أعضاء المجتمع – مطالبون أن ينقلوا التراث إلى الأجيال القادمة ، وينقلوا لهم ما تعلموه من الماضى وما أضافه بأنفسهم إلى هذا الكل الثقافى، وجدير بالذكر هنا أن هذه الطرق الثقافية فى الأفعال ، أو التفكير لها اتصال مباشر بالحاجات الأساسية للإنسان مثل حاجته للطعام ، والشراب والحماية الجسيمة وحفظ النوع، والصداقة مع الآخرين والضبط الاجتماعى ، ويطلق مالينوفسكى على هذه الحاجات ، الالتزامات الأساسية الثقافية، ذلك لأنها تلبى حاجات عضوية – اجتماعية أساسية ، والإنسان لا يعيش فقط بحاجته البيولوجية فقط من أجل الحياة أو العلاقات المجتمعية، ففيه كل مكان نجد أن الإنسان يحاول أن يجد نفسه فى الدين والفن والترفيه أكثر من هذا فإن الإنسان يحاول أن يطور نوعها من وجهة النظر الفلسفية من مكانه فى هذا العالم ، وكل هذا يعبر عن محتوى الثقافة التى يخلفها الإنسان ويعبر عنها فى كل أفعاله ، وسوف يتضح لنا معنى الثقافة ، لو أننا قارنا البيئة الطبيعية للإنسان والمتمثلة فى العالم الطبيعى الذى حوله – والذى يعامل معه الإنسان كحيوان ، والبيئة الثقافية التى يخلقها الإنسان ويمضى فيها أوقاته ككائن إنسانى – فالبيئة الطبيعية هى ما يجده الإنسان فى العالم الطبيعى والكيمائى من ارض وماء وسحب وأمطار ونبات وحيوان باختصار كل ما فى الطبيعية سواء أكان عضويا أو غير عضوى، بينما تمثل الثقافة التى هى خلق الإنسان ، محاولته كيف يتكيف

ويحقق التوازن بين نفسه وبين العالم الطبيعى ، ولقد أطلق هربرت سبنسر على هذا العالم الثقافى اسم العالم الفوق عضوى super organic وبالرغم من اعتراض بعض علماء الاجتماع على هذا المصطلح فان كروبر kroeber يذهب إلى أن هذا لا يعنى أن الثقافة فى كليتها ليست عضوية أى أنها مستقلة كليه عن الإنسانية أو أنها تعمل خارج نطاق قوانين المادة والطاقة.

والحقيقة أن الثقافة هى محصلة إنتاج الإنسانية والتى يمكن دراستها من ناحية غلى أنها ذلك الهيكل الخاص والأنظمة وأشكال السلوك التى لها صفة الاستمرارية والتغير دون أن يرتبط هذا دائما بمجتمع أو أفراد معينة ، ومن ناحية أخرى يمكن النظر إلى الثقافة من وجهة نظر تفاعل الأفراد أو الجماعات على أنها الإنتاج النفسى الذى يتعلم وينتقل إلى الآخرين ليس عن طريق الوراثة الميكانيكية بل عن طريق التعلم الإنسانى.

ثانيا : خصائص الثقافة

فى ضوء ما سبق يتضح أن الثقافة فى جوهرها ظاهرة اجتماعية نفسية تحتل مكانها فى عقول الأفراد ولا تجد تعبيرا عن نفسها إلا عن طريق الأفراد ، ولكن الثقافة تختلف عن الشخصية الفردية فى نواحى عديدة ، فهى لا تضم على الإطلاق الوظائف العقلية التى تشير إلى عمليات التفكير والاستدلال الفعلية ، فهذه عمليات فردية لا ثقافية ولذا كان من المستحيل تفسير أية ثقافة تفسيراً يعتمد كلية على النفسية الفردية ، ففى الثقافة يلتقى المجتمع والفرد ويسهم كل منهما بنصيبه فيها ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الثقافة تتكون من أنماط مجردة للسلوك ، وهذه الأنماط

المجردة ، توصف بأنها ثقافة إلى المدى الذى يتم فيه اكتسابها وتعلمها بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال التفاعل الاجتماعى أى أننا عند الشروع فى أى بحث عن الثقافة علينا ان ندرك أنها شيء يقع خارج نطاق الظواهر الطبيعية ، فتشكل الثقافات ومحتواها لا يمكن استخلاصه إلا من السلوك الذى ينشأ عن هذه الثقافات ، وفى إطار ذلك يمكننا أن نميز بعض الخصائص العامة فى الثقافة بأنها :-

١- أن الثقافة تنشأ فى مجتمع ما ، ويظهر هذا جليا من أفعال أعضاء المجتمع التى تتأثر بذلك.

٢- تنظيم الثقافة وتوجيه المطالب الأساسية مثل السلوك الجنسى وبعض الرغبات الأخرى المتصلة باللعب ، والفنون والدين والفلسفة ومظاهر التغير الأخرى.

٣- تتخذ بعض هذه التوجيهات والأفعال الشكل الرسمى ، وتتمثل فى أنماط سلوكية معترف بها وتعد مقبولة ، ويعد الخروج عليها خروجاً على تقاليد وقيم المجتمع.

٤- تنتقل هذه الطرق والتوجيهات والأفعال ، شعورياً أو لا شعوريا من شخص إلى آخر أو من جماعة لأخرى.

٥- هذا بدوره يعطى الثقافة صفة الاستمرارية وفى تطورها يجب أن نلاحظ إلى أن الثقافة تميل إلى أن تكون تراكمية.

٦- إن الثقافة بالرغم من استمراريتها إلا أنها تتغير فى الشكل والمحتوى رغم الاتفاقات الخاصة بالحاجات العضوية والاجتماعية.

٧- إن الثقافة تمثل مقاومة تختلف شكلها من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر إلا إنها فى عمومها تواجه تيار التغير الذى يواجهه المجتمع.

وفى تحليل الخصائص الأساسية للثقافة يذهب - جورج ميردوك - إلى أن الدراسات المقارنة تكشف حقيقة هامة وهى أن الثقافات الإنسانية رغم أنها تشترك فى خصائص مشتركة ، ويمكن التعبير عن هذه الخصائص المشتركة فى سلسلة من سبع افتراضات أساسية وليس هناك ادعاء بأن هذه الافتراضات السبع جديدة كلية ، ذلك لأن بعضها يشارك فيه كل العلماء الاجتماعيين بينما يشارك الجميع فى معظمها ، وهذه الخصائص الأساسية للثقافة هى :

أ) فالثقافة كما يذهب ميردوك

ليست شيئا غريزيا أو فطريا أو ينتقل بيولوجيا ولكنها مكونة من عادات أعنى اتجاهات مكتسبة للتفاعل يكتسبها كل فرد خلال خبرته الذاتية بعد الولادة ويتفق مع هذا الافتراض معظم علماء الانثرويولوجيا إلا أن هناك بعض أوجه النقد حول هذا الافتراض ، فلقد ذهب البعض إلى أنه إذا كانت الثقافة أمر يمكن تعلمه فإنها يجب أن تخضع أذن لقوانين - التعلم تلك القوانين التى يعرضها الآن علماء النفس، وكما هو معروف أن مبادئ التعلم واحدة فى أساسها ليس فقط للجنس الإنسانى بل تنطبق أيضا على كل الأنواع الثديية وقد أكد ذلك رالف لينتون حينما قال أن الثقافة فى كل مجتمع تتألف من الكل المكون من الأفكار والاستجابات العاطفية وأنماط السلوك المضاد التى أكتسبها أفراد المجتمع عن طريق المحاكاة والتعلم

(linton p .488). ومن ثم فإننا نتوقع أن كل الثقافات نظراً لكونها تنتقل بالتعلم تكشف عن تشابهات معينة والتى تعكس العامل المشترك بينها.

٢) الثقافة شيء قابل للتناقل :

بالرغم من أن كل الحيوانات لديها القدرة على التعلم إلا أن الإنسان هو الوحيد الذى يبدو قادراً بدرجة كبيرة على أن ينقل ما اكتسب من عادات لأقرانه ، مضافا إليها العادات على أساس خبرته الذاتية وتعد اللغة عاملا أساسيا لقدرة الإنسان فى هذا المجال ، على أية حال فإن كل العادات التى تُعلم للكائنات الإنسانية تنتقل من الوالدين للطفل مرورا بأجيال متعاقبة ومن خلال عملية تهذيب مستمرة ، هذا الافتراض مقبول من معظم الانثرولوجيين أيضا إلا أن هناك بعض الاعتراضات من حيث أنه لو كانت الثقافة شيء قابل للتنقل فإن هذا يعنى أن كل ثقافة يجب أن تظهر بعض التأثيرات العامة لعملية التناقل نفسها، فعملية التناقل لا تتضمن فقط .. الإجراءات – والمعرفة بل تتضمن أيضا تهذيب الدوافع الغريزية خلال السنوات الأولى من عمره ، هذه التوجيهات واضحة من الأدلة التى يسوقها علماء التحليل النفسى مثل عمومية تحريم الاتصال الجنسى ببعض الأقارب.

٣ـ الثقافة تتميز بالدوام والاستمرار

هذا بالإضافة إلى أن الثقافة تتميز بقدرتها على الدوام والاستمرار عبر الزمن ويقول رالف لينتون فى ذلك . تتضح الصفات التى تسمو فيها الثقافة فوق مستوى الفرد فى قدرتها على تخليد نفسها، وعلى البقاء بعد انقراض أى من الشخصيات التى تسهم فيها ، أو جميع الشخصيات التى

سبق أن أسهمت فيها فى أى نقطة معينة مـن تاريخـها وربمـا يرجـع قـدرة الثقافة على ذلك نتيجة للدور المسيطر الـذى تقـوم بـه فـى تكويـن وتشـكيل شـخصية الأفـراد الجـدد الذيـن وقعـوا تحـت تأثيرهـا ، فجـانب هـام مــن الشخصية الإنسانية يمثل التفاعل بين العناصر الفطرية التى نولـد مزوديـن بهـا ، وبين البيئة الخارجية والتعبيرات الظـاهرة للثقافـة التـى توجـد فـى مجتمع من المجتمعات ذلك بدوره يخلق فــى شـخصية الطفـل مركبـا ثقافيـا مميزا من الصــلات والقيـم العاطفيـة والعـادات ، وأن الطفـل يكتسب ثقافـة المجتمع الذى تربى فيه، ثم يقـوم هـو نفسـه بعـد ذلـك ينقـل هـذا المركـب الثقافى للآخرين ، ومع أن الثقافة تخرج تماما عـن نطـاق الـتركيب الفطـرى للفرد، إلا إنها تصبح خلال مراحل نموه جــزءا مـن شـخصيته ، ومعظـم - عناصر الثقافة تنفذ إلى أعمال شـخصية وتتحـد اتحـادا كليـا فتحـرك سـلوك الفرد وتوجهه دون أن يشعر هو بذلك.

٤) الثقافة ميراث اجتماعى :

فالعادات الخاصة بالنظام الثقافى ليس فقط تتميز بالانتقال وتســتمر خلال الزمن ، فهى أيضا أمور اجتماعيــة أى أنـها أشـياء يشـارك فيـها كـل الكائنات الإنسانية التى تعيش داخل تجمعـات منظمـة أو جماعـات تحتفظ بالامتثال والتطبيق النسبى تحت وطأه الضغوط الاجتماعيــة ، هـذه العـادات هى باختصار عادات جمعية ، وهذه العادات التى يشارك فيها أعضاء جماعة اجتماعية كل منهما الآخر تشكل ثقافة هذه الجماعة ، وبــالرغم مـن قبـول بعض العلماء لهذا الافتراض إلا أن ، بعضــهم يـرى أن الثقافـة تمثـل وحـدة

طبيعية واحدة هى الثقافة لكل الإنسانية فى كل الفترات وفى كل الأمكنة ، ويرى ميردوك أن هذا الأمر لا يمكن قبوله ، فالعادات المشتركة والجمعية للجماعات الاجتماعية ، كما يذكر ميردوك، سواء كانت أسرة أو قرية أو طبقة أو قبيلة تمثل وحدة طبيعية لأى ثقافة فرعية ، ولو افترضنا أن الثقافة شىء اجتماعى فان مصيرها يعتمد على مصير المجتمع ، وكل الثقافات التى استمرت تعكس بعض التماثلات نظرا لأنها تعتمد على الاستمرار المجتمعى، ومن بين هذه العموميات الثقافية يمكن ذكر أمور مثل المشاعر الخاصة ، والتمسك الاجتماعى وميكانزمات الضبط الاجتماعى ، تنظيم الدفاع ضد الجيران الأعداء ...الخ.

٥) الثقافة شىء مثالى

يمكن القول بأن عادات الجماعة والتى تتكون منها الثقافة توضع فى معايير مثالية أو أنماط سلوك مثالية ، وباستثناء قواعد اللغة – رغم كونها أمر ثقافى – إلا أن تكوينها غالباً ما لا يدرك شعورياً ، فان هناك دائما درجة ما بين الوعى لأفراد المجتمع بمعايير ثقافتهم ، وهذه القدرة تجعلهم يستطيعون التمييز بين هذه المعايير وعاداتهم الفردية. كذلك يعكس هذا إمكانية تصورهم بالتفضيل بينما فى ذلك الظروف التى يستخدم فيها كل هذه المعايير والجزاء المتوقع فى حالة عدم الامتثال لها ، ولهذا فانه من المفيد أن تنظر إلى الثقافة على أنها مثالية، وأن تنظر إلى أى عنصر فى الثقافة على أنه فكرة مقبولة بطريقة تقليدية من أعضاء الجماعة الفرعية وأن تنظر إلى نوعا معينا من السلوك على أن يجب أن يتطابق مع المعايير القائمة ،

ويجب هنا أن نميز بين المعايير المثالية بين السلوك الواقعى، ففى أى موقف معين نجد أن الفرد يتصرف وفقا لاستجابة حالية ككائن عضوى ، أى وفقا لدوافعه فى هذه اللحظة ووفقا لإدراكه للموقف الكلى الذى يجد نفسه فيه وعندما يفعل الفرد هذا يميل طبيعياً إلى أن يتبع عاداته المقدرة بما فى ذلك ثقافته. ويعنى هذا أن لدوافعه أو لطبيعة الظروف المحيطة به تأثير فى انحراف الفرد عن معاييره ، ولهذا نقول أن السلوك لا يتبع الثقافة بطريقة آلية ، وبالرغم من أن الثقافة أحد محدداته الرئيسية ، وبطبيعة الحال ، هناك معايير للسلوك والثقافة ولكن على العكس ، من الثقافة فإن المعايير الخاصة بالسلوك يمكن أن تقرر فقط بواسطة الوسائل الإحصائية ، وهناك اختلافا بين علماء الاجتماع والانثروبولوجيا حول هذا الموضوع، فالأنثروبولوجيون حتى وقت حديث ، يهتمون بالمعايير المثالية أو الأنماط، بينما يفترض علماء الاجتماع معرفة بالثقافة وبصفة عامة المعايير الإحصائية للسلوك الواقعى ، فبالحد الذى يمكن أن تنظر إلى الثقافة على أنها شىء مثالى فإننا يمكن أن نخلص أن كل الثقافات يجب أن تكشف عن بعض التشابهات المنبثقة من القوانين العامة التى تحكم العمليات العقلية الرمزية.

٦) **الثقافة لها وظيفة الإشباع** :

الثقافة دائما وبالضرورة تشبع الحاجات البيولوجية الأساسية ، والحاجات الثانوية المنبثقة عنها ، فعناصر الثقافة وسائل لإشباع الدوافع الإنسانية فى تفاعل الإنسان بعالمه الخارجى بالطبيعة أو أقرانه، ويستمد هذا الافتراض قوته من دراسات علم النفس حول البواعث والاستجابات ،

فلقد اظهر علم النفس أن الثقافة تتكون من مجموعة من العـادات ، وأن هـذه العادات لا تستمر فى البقاء إلا إذا حققت إشباعا ، والإشباع يدعم العـادات ويقويـها ، بينما افتقـار الإشباع يـؤدى إلى اختفائـها ، وتسـتمر عنـاصر الثقافة فقط عندما يضمن لأفراد المجتمـع حـد ادنـى مـن الإشباع أو تـوازن معقول بين اللذة والألم ، وبـالرغم مـن قبـول البعـض لهـذا الافـتراض فـإن الانتقاد الذى يوجه له هو أنه طالما أن الثقافة تتميز بخاصية الإشباع ، فإننا نتوقع تشابهات على نطـاق واسع فـى كـل الثقافـات وذلـك لتشـابه الدوافـع الإنسانية الأساسية.

٧) الثقافة لها وظيفة التوافق

تتغير الثقافة ، وعلمية التغير هى التى تأخذهـا الطـابع التوافقـى، فالثقافة تحاول خلال الفترات الزمنية أن تتوافق مع البيئة الجغرافية، رغم تأثيرها (البيئة الجغرافيـة) الضعيـف فـى التطـور الثقـافى، كذلـك تتوافـق الثقافة من خلال الاستعارة والتنظيم للبيئة الاجتماعيـة للشـعوب المحيطـة بـها، وأخـيراً فـإن الثقافـة تميـل إلى التوافـق مـع المطـالب السـيكولوجية والبيولوجية للكائن البشرى ومن ناحية أخرى فإن تغير ظروف الحياة يعنى إلغاء بعض الأشكال التقليدية التى كانت تستخدم لتحقيق الإشباع المطلـوب، وهذه يعنى أيضا ظهور حاجات – جديدة تتطلب توافقـات ثقافيـة جديـدة، ويقوم هذا الافتراض على دعوى التقدم أو الحـالات التطوريـة، والنقـد الـذى يوجه إليه هو نفس النقد الذى يوجه لفكرة التغير الثقافى كحصيلة توافقيـة أو كونه عمليه تاريخية .

ثانيا : عناصر الثقافة ومكوناتها

لقد حدد هارى جونسون H. johnson عناصر الثقافة الأساسية فى ثلاثة عناصر رئيسية على النحو التالى:-

١) العناصر المعرفية Cognitive elements

حيث تشتمل ثقافة شعب من الشعوب على طائفة هائلة من المعـارف التى تتصل بالعالم الطبيعـى والاجتمـاعى ، وليسـت هـذه المعرفـة غايـة فـى ذاتها وإنما لها تطبيقات أو أهداف عملية ، فهى تستهدف إحداث التوافـق بينـهم وبـين البيئـة ، وتدعيـم الحيـاة الجماعيـة والمحافظـة علـى بقائـهم واستمرارهم فى الوجود ، مثل معرقة كيفية الحصـول علـى الطعـام " وبنـاء المساكن وطريقة السفر والترحال ، وحماية أنفسهم من قسـوة المنـاخ ...الخ ، وهذه المعرفة يكتسبها بالطبع كل فرد فى المجتمع عن طريق التعليم وتنتقـل من جيل إلى آخر ويوجد فى المجتمعـات المتقدمـة ، نظـام علمـى وتطبيقـات تكنولوجية على درجة عالية من التنوع والتعقيد تجعل كل فـرد قـادراً علـى السيطرة على جانب معين من العالم المحيط بـه، بالإضافة إلى معرفـة العـالم الطبيعى ، وثقافة العلاقات السائدة بين الأفراد والجماعات .

٢) المعتقدات Beliefs

المعتقدات هى جوانب من المعرفة ، لا تخضع للإثبات أو الرفض عـن طريق البحث التجريبى، فالإسكيمو – مثلا – لديهم بعـض المعتقـدات التـى تتم بمقتضاها ممارسة طقوس معينـة بواسـطة " العرافـين " لإخـراج الأرواح الشريرة عن أبد ان المرضى حتى يتم شفاؤهم ، ويمكن تبرير سلوك العرافـين

هذا أيا كانت النتائج ، فحتى إذا مات المريض سوف يفسرون ذلك تفسيرا يجعل الاستمرار فى الاعتقاد فى وجود الأرواح الشريرة مكانه ، وللإنسان المتحضر أيضا معتقدات مماثلة تنتقل من جيل إلى جيل. -

٣) القيم والمعايير Values and norms

القيم هى كل المبادئ والأحكام والاختيارات التى اكتسبت معانى اجتماعية خاصة خلال التجربة الإنسانية ، والقيم فى ضوء ذلك موجهات تميز بين ما هو مرغوب فيه ، وما هو مرغوب عنه ، كما تتميز القيم بأنها نسبية، فالجمال قد يكون قيمة مرغوب فيها فى مجتمع من المجتمعات ، يمنحها الأفراد أهمية أولوية ، ولكنه قد لا يكون كذلك فى مجتمع آخر، كذلك تتدرج القيم الاجتماعية فى مجتمع معين وفقا لمدى سيطرتها على الأنساق الاجتماعية ، المختلفة ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نميز فى كل ثقافة قيم لها الغلبة والسيطرة dominant values وقيم أخرى فرعية ليست لها هذه الخاصية ، واهم ما يميز الأولى أنها تكون واسعة الانتشار أى يتبناها معظم سكان المجتمع ولها أيضا تاريخ طويل أو أنها استمرت عبر فترة طويلة من الزمان ، كما أن كل من يحمل هذه القيمة يحظى بهيبة ومكانة اجتماعية عالية ، وللقيم والمعايير وظائف هامة بالنسبة للثقافة إذ هى أحد مقومات التكامل الثقافى ، وعلى أية حال ، فإننا نستطيع القول بأن الثقافة مصطلح يستخدمه الأنثروبولوجيون لكى يشير إلى طائفة من الظواهر والوقائع نستطيع تلخيصها فيما يلى :-

١- الثقافة بالمعنى العام، تشير إلى أساليب الحياة التى تنتشر فى كافة المجتمعات الإنسانية خلال فترة زمنية معينة، وقد تكونت أساليب الحياة هذه فى مجتمع بأكمله، أو قاصرة على جماعة فرعية من هذا المجتمع ولكنها لا تنفصل عن الثقافة العامة انفصالا كاملا.

٢- الثقافة تجريد للسلوك ، لا يجب أن نخلط بينها وبين الأفعال الفردية أو ما يعرف بالثقافة المادية ، والأشياء المعنوية التى ترتبت على أنماط معينة للسلوك.

٣- إن أساليب السلوك التى يتم تجريدها مباشرة من ملاحظة ومشاهدة للسلوك الفعلى للأفراد يطلق عليها أنماط ثقافية **cultural patterns** وهذه الأنماط قد تكون مثالية، أى تشير إلى ما يجب أن يكون عليه السلوك أو واقعية أى تعبير عن تصرفات الناس إزاء مواقف معينة.

ووفقا لذلك فإن الثقافة تنقسم من حيث عناصرها المكونة لها إلى عنصرين أساسين هما(landis , p .13) .

أ. الثقافة المادية Material culture

والثقافة المادية هى التى تنتج عن التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية، وكلما استطاع الإنسان أن يتقدم ويسيطر على البيئة والطبيعة التى تحيط به، واستطاع أن يذللها عن طريق العلم والتكنولوجيا كلما استطاع الإنسان أن يضيف اختراعات جديدة، وبذلك يكون التفاعل الثقافى للإنسان مع الطبيعة هو أساس الجانب المادى للثقافة وخاصة التكنولوجيا هى العامل الأساسى فى العصر الراهن من زيادة الاختراعات والمنتجات والأدوات

الحديثة، فالتكنولوجيا هـى فـن الإنتـاج أى الأسـاليب والأدوات والوسـائل المستخدمة فى عمليات الإنتاج بغرض زيادة الإنتاج وتحقيق مستويات عالية ومعدلات سريعة للنمو أى أن القضية مرتبطة بمدى الاستعانة بالتكنولوجيـا الحديثة وكيفية اسـتيعابها، والانتفـاع بـها وأن الاكتشـافات والاختراعـات التى وصلت إلينا الآن قد مرت بعده مراحل مختلفة حتى وصلت إلينـا بـهذه الصورة الدقيقة، فنجد أن القطار العصرى مثلا مر بمرحلة القطـار البخـارى ثم القطار الفحمى، ثـم القطـار الحديـث الـذى تـراه الآن، وكذلـك العربـات والطـائرة وكـل أنـواع السـلع المعمـرة (كالسـيارات والثلاجـات والسـلع غـير المعمرة) لكن مما تجدر الإشارة إليه أن التغـير التكنولوجـى للثقافـة الماديـة أسرع من التغير المعنوى من الثقافة، حيث أن التغير الـذى يتـم فـى مظـاهر الثقافـة الماديـة كتشـييد المبـانى والوسـائل والأدوات والاختراعــات والآلات الحديثـة يسـير بسـرعة أكـبر مـن المظـاهر المعنويـة مـن الثقافـة كـالجوانب السياسية والعائلية والفنية والتربوية والروحية، وقد أثار هذه القضية وليـم أوجـبرن وهـى التـى تتمثـل فـى عـدم مسـايرة الثقافـة الماديـة مـع الثقافــة اللامادية، وحينما لا يحدث هذا التكيف ينشأ ما يسـمى بـالتخلف الثقـافى Cultural lag فهو يحث عندما تحدث التغـيرات الماديـة، والتكنولوجيـة بصـورة أسـرع مـن التغـيرات اللاماديـة فـى القيــم والاتجاهــات والتنظيــم الاجتماعى، فعلى سبيل المثال، إذا أخذنا مدى تقبل الناس لاختراع العربة، فى مقابل تقبلهم لنظام المدرسـة الشـاملة بالقريـة فنلاحـظ أن النـاس تتقبـل اختراع العربة بطريقة أسرع من تقبلهم لنظام المدرسة الشاملة، علـى أسـاس

أن فائدة العربة ملموسة بالنسبة للقرويين أما الفائدة العائدة من وراء استخدام المدرسة الشاملة يحتاج إلى وقت كبير من أجل أن يلمسون العائد من وراءها(Rogers, p .48).

ولا شك أن الثقافة المادية هى نتيجة التراكم العلمى والتفاعل الثقافى كما يقول – سوروكن – Soroken فعلى سبيل المثال لم تظهر الطائرة بدون ان تمر فى سلسلة من الاختراعات الثقافية إلى ما انتهت إليه الآن ، وقد أضاف كل إنسان شيئا جديد إليها.

ب- الثقافة اللامادية Non – Marterial culture

والثقافة اللامادية هى التى تتكون من العادات والتقاليد التى تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التنشئة الاجتماعية ، فالثقافة اللامادية كالديانات والأيديولوجيات السياسية وعادات، الزواج ونظام المحرمات وكافة أوجه الثقافة اللامادية، ويرجع التمييز بين الجانب المادى واللامادى للثقافة إلى الأهمية الوظيفية لكل منها فى المجتمع، وبهذا التفسير لا نجد اختلافا بينهما وبخاصة إذا نظرنا إلى الثقافة على أنها ذلك الكل المعقد الذى يشتمل كل شىء نفكر فيه ونقوم به باعتبارنا أعضاء فى المجتمع، هذا وتنقسم الثقافة اللامادية الى ثلاثة عناصر وهى:-

الأفكار – القيم – المعايير

أولا : الأفكار : Ideas

وتعد الأفكار أهم العناصر الثقافية غير الملموسة إذا ما قورنت بغيرها من العناصر وتختلف الأفكار من مجتمع لأخر فالأفكار تتميز فى

المجتمع البدائي بالبساطة وعدم التعقيد بينما تتميز الثقافة فى المجتمع الحديث ، بالنضج والتقدم ، ومن أهم مكونات الأفكار فى نظر - بيرستد - Bierstedt هى الحقائق العلمية والمعتقدات الدينية والخرافات والأساطير والأدب والخزعبلات والحكم والأمثال والطرق الشعبية ، وعادة ما تحفظ الأفكار فى البلدان المتقدمة فى الكتب والسجلات بينما فى المجتمعات البدائية تحفظ الأفكار فى صورة الأساطير والخزعبلات والحكم والأمثال ، هذا ويؤكد عديد من علماء الاجتماع إلى إعطاء أهمية كبيرة لدور الأفكار فى تغيير المجتمعات الإنسانية ومن أمثال هؤلاء العلماء أوجست كونت ، وماكس فيبر وروبرت بيرستد ، بينما يعترض على ذلك الماركسيون ويرون عدم المغالاة فى إبراز الفكر فى الحياة والتطور الاجتماعى وأكدوا على أن البناء الأساسى المادى للمجتمع هو الذى يشكل الأفكار ، لكن مما تجدر الإشارة إليه أن الأفكار تلعب دوراً هاماً فى تغيير صورة الحياة الاجتماعية باعتبار إنها تشكل مجريات الأحداث ، فكما يقولون ليس بالخبز وحدة يحيا الإنسان فالإنسان أول ما يتعلم منذ صغره كيف يعيش على هذا الكون ، ولذا فإنه لن يستطيع أن يعيش وأن يطور نفسه إلا عن طريق الفكر ، ولذا أكد علماء الاجتماع وغيرهم من المتخصصين على أهمية الأفكار فى تشكيل حركة الحياة ومجرى التاريخ.

ثانيا: القيم الاجتماعية Social values

فى الواقع أن محاولة تعريف القيم محاولة صعبة وذلك لارتباط هذا المفهوم بمصطلحات عديدة مثل الاتجاهات والمعتقدات والدوافع والرغبات

والحاجات والاهتمامات والمعايير وأيضا يشترك فى دراسة هذا المفهوم تخصصات مختلفة ، وكذلك يستخدم هذا المفهوم استخداما فضفاضاً ، فالناس تستخدم هذا المفهوم بمعنى الفائدة حيناً وبمعنى السمو أحيانا أخرى وفى أحيان ثالثة تستخدم بمعنى عملية المقايضة أو الشراء (دياب ، ص ١٩، ٢٠)

لكن القيم – كما عرفت في قاموس علم الاجتماع لفارشليد – هى عبارة عن التفضيلات الاجتماعية والتصورات لما هو مرغوب فيه بصفة عامة ولذا تتضمن القيم كل المعانى، والموضوعات والأفكار والمبادئ التى أصبحت ذات مغزى هادف خلال الحياة الإنسانية ، وهذا يوضح أن مصدر القيم هى الثقافة والتفاعل بين الأفراد ، وإن القيم تتسم بأنها نسبية بمعنى أن القيم تتسم بأنها نسبية بمعنى أن القيم تتميز بالاستمرار النسبى والتغير النسبى فلو أن القيم كانت دائمة ومستمرة ، لكان التغير مستحيلا ، وأن كانت دائمة التغير لأصبح نمو الشخصية الإنسانية متعذراً ، هذا وتكتسب القيم من المجتمع قوة أو ضعفا تبعاً للروابط التى توجد فى المجتمع ومدى تماسكه وتفككه فعلى سبيل المثال القيم تكون قوية فى المجتمع الريفى والبدوى وضعيفة فى المجتمع الحضرى ، وتتغير القيم تبعاً لتغير الثقافة والنظم الاجتماعية السائدة ، لذا فقد تغيرت القيم السائدة فى بعض المجتمعات العربية نتيجة للتغيرات التكنولوجية والثروة النفطية بها، وبذلك تكون القيم لها دور هام فى توجيه الفعل الاجتماعى وضبطه. هذا وتؤلف مجموعة القيم المكتسبة نسقاً متماسكاً للقيم – حيث تحتل كل قيمة فى هذا النسق أولوية خاصة بالقياس إلى القيم الأخرى ، وهذا الترتيب للقيم يمكننا من

دراسة الثبات والتغيرات التى تطرأ على انساق القيمة ، كما أنها خاضعة للتغير بقدر ما يشهده المجتمع والثقافة من تغيرات حاسمة وجدير بالذكر أن تباين الخبرات الشخصية والثقافية لا تؤدى فحسب إلى فروق فردية فى استقرار هذه الأنساق ، فضلا من ذلك يتضمن نسق القيم نوعان رئيسيان من القيم إحداهما هى القيم الغائية - Terminal values (غايات الوجود الإنسانى) وقيما أخرى وسيطة أو وسيليه instrumental values وهى أساليب السلوك المفضلة لتحقيق الغايات المرغوبة ، ويفترض بعض الباحثين أن عدد القيم الغائية والوسيلية محدود نسبياً يمكن إخضاعها للقياس والتحليل.

هذا وتمارس انساق القيم وظائفها بطرق مختلفة على النحو التالى:

أ- القيم تدفعنا إلى اتخاذ مواقف خاصة من المسائل الاجتماعية الرئيسية.

ب- تدفعنا القيم إلى تفضيل أو تبنى أيديولوجية سياسية أو دينية .

جـ- انساق القيم هى المستويات التى يحتكم إليها فى عرض ذواتنا أمام الآخرين أو هى الموجهات التى تحرك تصرفاتنا لكى نبدوا أمام الآخرين بالصورة التى نفضلها.

د- انساق القيمة هى مستويات توجهنا فى إقناع الآخرين والتأثير عليهم لتبنى مواقف أو معتقدات أو اتجاهات أو قيم تعتقد إنها جديرة بالاهتمام والدفاع عنها.

هـ- القيم هى المستويات التى يعتمد عليها فى تبرير أنماط معينة من السلوك أو الاتجاهات أو المعتقدات لكى تكتسب أكبر قد من القبول الاجتماعى.

و- انساق القيمة هـى مستويات يعتمد عليهـا الأشخـاص فـى الاحتفـاظ بالتقدير الذاتى عاليـا باسـتمرار ، ومـن الأمـور الهامـة أن دراسـة القيـم بوصفها مستويات للتوجيه values as standerd تطـرح العديـد مـن التساؤلات التى ينبغى حسمها أمبريقيا من هذه التساؤلات مثلا: ما هـى الظروف التى على أساسها تستخدم قيمة معينة بوصفها مستوى للتوجيه دون الأخرى ، هل هناك فروق ثابتة فيما يتعلق بطرق اسـتخدام القيـم ، هل هناك نماذج مختلفة ثابتة فيما يتعلق بطريق استخدامهم للقيم ، هل هنـاك نمـاذج مختلفـة لاسـتخدام القيـم كمسـتويات للحكـم أو التقويـم، وبعضهم يستخدمونها كمستويات للفعل أو السـلوك ويسـتخدمها آخـرون كمستويات للتبرير؟

هكذا، فإن نسق القيم يحقق التوافق واحترام الذات ، وتحقيق الذات ويتفاوت الأفراد فيما يتعلق بالأهمية النسبية للقيم التى تؤدى هذه الوظائف الخاصة بتوجيه الفعل الإنسانى فى المواقف اليومية،والتعبير عن الحاجـات الإنسانية الرئيسية.

ثالثا : المعايير : Norms

والمعايير هى قواعد السلوك التى تحدد الالتزامات الاجتماعيـة علـى مستوى الخصوصية ، أى إنـها تشـير إلى نمـط سـلوكى فقـط ، هـذا وتنقسـم المعايير إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهى الطرق الشعبيـة والأعـراف والقوانين (Merrill, PP . 40 –41).

ل‌الطرائق الشعبية Folk Ways

وتشتق كلمة الطرائق الشعبية من كلمتين هما كلمة (Folk) وتعنى الناس أو الشعب وكلمة (Ways) أى الطرق والأساليب والكلمة فى مجملها تعنى الأساليب الشعبية ، والطرق الشعبية هى قواعد السلوك غير الرسمى التى تقوم على العادات والتقاليد، وتلعب الطرق الشعبية أهمية كبيرة فى المجتمع باعتبار أنها تعمل على تماسك المجتمع ، فلا يمكن أن يبقى المجتمع ويستمر بدونها، وأيضا أنها تعمل على استقرار العلاقات الاجتماعية ، وتشكل عنصراً هاما من عناصر الإطار الثقافى للمجتمع.

أما عن نشأة هذه الطرق الشعبية فيرجعها بعض العلماء فى مقدمتهم ويليام جرهام سمنر إلى الحاجات الضرورية الحيوية التى تتطلب الإرضاء والإشباع ، ويمكننا أن نخلص آراءه فى هذه الناحية فى أنه لكى يتم رضاء الحاجات الضرورية ، لابد من قيام الناس ، أفرادا وجماعات بأفعال أو طرق أو أساليب مختلفة من النشاط يغلب عليها المحاولة العشوائية ، وغنى عن البيان أن هذه الأساليب التى يمارسها الناس لإرضاء حاجاتهم الضرورية ، لابد وأن تتكرر مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم وسنة بعد سنة وفى أثناء هذا التكرار لا يلبث الناس ، عن طريق التجربة والخطأ أن يكتشفوا أن هناك طرقاً ناجحة صائبة مفيدة ، وطرقا فاشلة ، وغير صائبة وضارة بطبيعة الحال ، يختارون الطرق والأساليب التى نجحت فى إشباع حاجاتهم ويعتبرونها صالحة وسليمة ومجزية ولذلك يتبعونها،ومن جهة أخرى

يتجنبون الطرق والأساليب التى أخفقت فى إرضاء حاجتهم أو التى سببت لهم الآفات وأضرارا تؤثر على رفاهيتهم وسعادتهم .

ومن البديهى أن الناس عندما يتبين لهم صلاحية أسلوب ما أو قيمة طريقة ما من طرق السلوك فى إرضاء حاجاتهم ، فإنهم يرغبونها ويكررونها فى كل مناسبة تتطلبها ، ويتمسكون بها مع مرور الزمن ، وبذلك تتبلور وتصبح عامه واجتماعية يتعارف الناس عليها ويعملون على ترسيخها وتأصيلها وتثبيتها فى نفوس الأفراد، كما يعملون أيضا على نقلها أفقيا من الجيل الواحد ورأسياً إلى الأجيال المتعاقبة فى شكل أعراف وتقاليد، تحرص عليها الجماعة وتحترمها ما دامت قد أصبحت ضروريّة لسلامة البنيان الاجتماعى ولرفاهية الجماعة فهى تمثل التصرفات الصحيحة والصائبة والسلوك المتسم بالصواب والحكمة ، وفى هذا يقول الدكتور حسن الساعاتى لأن ما يفعله الإنسان مرة ويستحسنه يميل إلى فعله مرة أخرى ، ومرات إذا ما تكرر فعله وكان لا يزال يستحسنه ويستسهله فإنه يود لو أن غيرة يفعله أيضا ، ولا سيما إذا كان هذا الشخص الآخر عزيزاً عنده ، كابنة مثلا وإذا استمر هذا الميل من جيل إلى جيل آخر ، قويت الطرق الشعبية كثيراً ، ويمكننا أن نقول أن الطرق الشعبية كالدرب الذى كلما طرقة المارة تعبد وسهل السير فيه، حتى أنهم لا يستطيعون فى آخر الأمرّ ، العدول عنه إلى درب آخر غير مطروق (الساعاتى ، ص ص ٥٠ ، ٥١) .

وهذا يعنى أن الطرق الشعبية بكل فروعها من عادات وتقاليد وآداب السلوك ، تستمد أصولها وتشتق وجودها من التجربة الاجتماعية للناس من

تفاعلهم ، وتعاملهم مع بعض فى حياتهم الاجتماعية المشتركة ، وفى هذا يقول سمنر ، ففى سبيل التصارع من أجل البقاء ، وعن طريق تعاون الناس بعضهم مع بعض ، تتكون الطرق الشعبية بطريقة غير واعية وغير شعورية، وبمرور الزمن تبدو ثابتة وأصلية وراسخة ، على الرغم من أن أحداً لم يعتقد حدوثها أو يعتمد تكوينها أو يخطط لها أو يعرف عنها مقدماً.

ب -الأعراف :

والأعراف هى عبارة عن القواعد التى تنحدر عن الوالدين الى الأبناء كجزء أساسى من تشكيل حياتهم ، وهى أشد صرامة من الطرق الشعبية وأقل مرونة منها ومرتبطة بصفة خاصة برفاهية الجماعة ومدعمة من القواعد الدينية وأخلاقيات الجماعة ، والناس لا يستطيعون الخروج عليها ، وسوف يتعرض الخارج عليها لجزاء اجتماعى صارم ، لذا لابد من خضوع الأفراد لها فالأعراف تزود الأفراد والجماعات بالإطار المرجعى FRAME OF REFERENCE بما هو صحيح وخطا، وعما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون. والأفراد متمسكون بها بشدة ولا يستطيعون تغييرها لأن تغييرها سوف يعرض حياة الجماعة للخطر ، والأعراف تورث للأجيال اللاحقة بدون مناقشتها وبعضها يحول إلى القانون بصورة رسمية لتعزيز تماسك الجماعة وزيادة قوتها.

لكن من الملاحظ أن كثيرا من الكتاب يخلطون بين العرف والتقاليد، فيستعملون المصطلحين بمعنى واحد ودون تمييز بينهما ، ومع أن هناك

فروقاً واضحة بين هذين المصطلحين فالعرف نوع من العادات التقليدية يشبه التقاليد من ناحية أنه تقليدى وعريق ومتوارث وملزم ، إلا أن يختلف عنـها فى درجة إلزامه وانتشاره وشموله وعموميتـه فالتقـاليد كمـا سبق أن بيننـا عادات تهم جماعة أو فئة أو طبقـة، فـهى عـادات ضيقـة النطـاق نسـبيا فـى انتشارها ، أما العـرف فـهو ذلـك النـوع مـن العـادات الواسـعة النطـاق فـى انتشارها التى ليست فى مصلحة جماعة بالذات دون أخرى ، بل هى عادات فى مصلحة الجماعات كلها متلاقية فى وحدة واحدة هـى المجتمـع أو الأمـة ولذلك كان العرف فى إلزامه وعموميته أقـرب إلى القـانون منـه إلى التقـاليد. وهناك فرق آخر بين التقاليد والعرف ، إذا نظرنا إليهما من حيث علاقتهما بالقانون ذلك أن التقاليد تعمـل علـى تدعيم الطبقات والجمـاعـات وتوطيـد أركانهـا ومراعـاة مصلحتها، لدرجة أنها تتعارض أحيانا مع القانون ومع النظام العام للدولة كما فى تقاليد الأخـذ بالثـأر وعنـد بعـض الجماعـات فـى مصر، فالأخذ بالثأر كثيراً ما يقتل شخصاً بريئـا لمجـرد صلـة القربـى التـى تربطه بغريمه الحقيقى ، ويجدر بنـا فـى هـذه المناسبة أن نوضح تعـارض تقليد الأخذ بالثأر مع القانون ، بما ذكره الدكتور أحمد محمـد خليفـة فـى هذا الصدد إذ يقول : فالقاتل الذى يقبل الأخذ بالثأر يعلم ما قد يـؤدى إليـه فعله من محاكمة وحكم ، ولكن ذلك لا يرده عـن أداء فريضـة التقـاليد التـى تأخذ حياته وتطالبه بالثأر ، ويقول فى مكان أخر ، كثيرا ما عمـد أصحـاب الدم إلى الاخذ بثأرهم من غريمهم علـى الفـور وهـو مـاثل بـين أيـدى رجـال الشرطة والتحقيق ، أما العـرف فإنـه يرمـى إلى حفـظ كيـان الجماعـة كلـها

متلاقية فيه وحدة واحدة هى المجتمع، ولأنه أيضا انبثق فى الثقافة ليسهم فى سعادة المجتمع كله وفى استقراره ومصلحته العامة ، فهو يتوافق مع القانون ، والقانون بدورة يتوافق مع العرف ، ولذا فالعرف فى سيطرته وضغطة على الناس قوى قدير، وسيد مطاع ولذلك قيل العرف سلطان Custom is King والحق أنه طاغية Tyrant وبخاصة فى المجتمعات البدائية والجماعات الريفية المنعزلة أو المقفلة فهو فى هذه المجتمعات الحاكم بأمره الذى يقوم مقام القوانين الوضيعة (الخواجه ، ص ١٥٥).

وليس معنى هذا الإقلال من شأن العرف وأثره فى الثقافات المتمدنة urban culture والمجتمعات المعقدة التى لجأت إلى القوانين والوضعية لتحقيق الضبط المطلوب والتنظيم المرجو بين أفرادها وجماعاتها فحتى فى هذه الثقافات الحضرية ، كما يقول أحد الباحثين، لا يزال حقيقياً أن معظم الناس محكومون فى سلوكهم وأعمالهم بالمظهر العرفى للضبط ، أى بالسنن أو الأعراف الآمرة ، أكثر من كونهم محكومين بالمظهر الشكلى الظاهرى للضبط الاجتماعى أى بالقانون .

وخلاصة القول أن العرف وسيلة مهمة وجوهرية وأساسية فى الضبط الاجتماعى، وهى تحكم فى وجود القانون وفى عدم وجود القانون، وتظهر أهمية العرف فى الضبط اى فى رعاية القيم الروحية والخلقية ، عندما يحكم هو بتحريم شىء يحلله القانون كتحريم البغاء وممارسه الدعارة ، فقد كانت هذه الرذيلة مسموحاً بها قانوناً فى مصر أيام الاحتلال البريطانى حتى سنه ١٩٤٩ م ومع ذلك فإن الناس كانوا يستهجنونها ويحتقرون من

يمارسها لأنها تنافى العرف والأخلاق.

جـ- القانون Law

القانون هو آخر الخطوات النهائية فى صياغة قواعد السلوك باعتبار أن قواعده مكتوبة ومحددة وواضحة فى الدستور ، هذا بالإضافة إلى أن القانون ، يسن من خلال المشرعين والسياسيين وينفذ بقوة المحاكم والبوليس بصورة رسمية (Betrend, P.38.). ووظيفة القانون الأساسية هو العمل أن يعيش الأفراد داخل المجتمع فى أمان وسلام حتى لا تعم الفوضى وتتفشى الاضطرابات وحتى لا يترك للفرد العنان لمطامعه وأهوائه والعمل على إقرار النظام فى المجتمع ، ولذا لابد أن تساير النظم القانونية التغير فى ظروف الحياة الاجتماعية ، هذا ويختلف القانون عن المعايير والأعراف فى أن هناك هيئات بوليسية تسهر على تنفيذها.

لكن مما تجدر الإشارة إليه أن العرف والقانون مترابطان أشد الارتباط ، ومتداخلا الواحد منهما فى الآخر ، ومما يثبت هذا أن القانون يتعارض مع عرف قوم يقابل بموجات النقد ويكون تنفيذه أمراً عسيراً ، كما يحدث بالنسبة لقانون فولستد فى الولايات المتحدة بأمريكا، لمنع تناول المشروبات الروحية ، فقد اخفق هذا القانون أيما إخفاق لأنه هاجم عادة اجتماعية أصيلة ومستقرة فى سلوك الناس منذ زمن طويل إذ أنها ارتبطت بصفة خاصة بكثير من التقاليد فى مناسبات اجتماعية مختلفة يعترف بها القوم ، ويقرر علماء القانون فى مصر أن العرف من أهم مصادر التشريع وأنه مصدر يبقى وسيبقى على مدى الأيام ليكمل التشريع ، ويلجأ إليه إذا لم

يوجد فى التشريع قاعدة لمسالة ما، لذلك نجد أن المشرع المصرى ينص فى الفقرة الثانية من المادة الأولى من القانون المدنى على أنه " إذا لم يوجد نص تشريعى يمكن تطبيقه ، حكم القاضى بمقتضى العرف ، كما ورد فى المذكرة الإيضاحية للمشروع التمهيدى للقانون المدنى تعليقاً على المادة الأولى التى تجعل العرف مصدراً رسميا على التشريع لأن العرف هو المصدر الشعبى الأصيل الذى يتصل اتصالا مباشرا بالجماعة ، ويعتبر وسيلتها الفطرية لتنظيم المعاملات ومقومات المعايير التى يعجز التشريع عن تناولها بسبب تشعبها أو استفحالها ،و لذلك ظل هذا المصدر وسيظل إلى جانب التشريع مصدرا تكميلياً خصباً لا يقف إنتاجه عند حدود المعاملات التجارية ، بل يتناول المعاملات التى تسرى فى شأنها قواعد القانون المدنى ، وسائر فروع القانون الخاص والعام على السواء ، فالقانون المدنى المصرى يأخذ بحكم العرف والعادات فى المشاركات وفى حق الاتفاق وفى علاقات الملاك والزراعيين ، وكثيراً ما يرجع الى العرف والعادات التجارية فى تفسير الاصطلاحات التجارية وشرح مشاكل مهمة من الاتفاقيات والتحاويل كما نلاحظ ذلك فى عقود السفن بالإسكندرية التى تفسر بمقتضى العرف القائم هناك.

وخلاصة ما سبق أنه وأن كان القانون قد أصبح السلطة الأولى فى المجتمع، فانه لا يمكن أن يستغنى عن العرف كأداة تسانده وتكملة فالواقع أن الأداتين معاً ضروريتان لضبط الحياة وصيانتها فى المجتمع.

كما يتضح أنه توجد فروق واضحة بين القيم والمعايير باعتبار أن القيم تتضمن التفضيلات الإنسانية عن الواجبات والالتزامات وكلاهما خاضع للتغير خلال علمية التحديث فى المجتمع التفضيلى المبنى على مفهوم سمنر، ومما تجدر الإشارة إليه أن القيم والمعايير تختلطان على مستوى الممارسة practise لكن من الضرورى على المستوى النظرى أن نكون على وعى بالفارق التحليلى بينهما وعلى هذا فالقيم هى الأساليب التفضيلية لتوجيه الناس نحو فئات محددة للخبرة الإنسانية ، والمعايير هى قواعد للسلوك فى مواقف معينة.

والخلاصة أن هناك جوانب تختلف فيها القيم عن المعايير الاجتماعية ، فالقيمة تشير إلى نمط مفضل للسلوك أو غاية من غايات الوجود بينما يشير المعيار الاجتماعى إلى نمط سلوكى فقط أى أن القيم تتسامى على المواقف الخاصة ، بينما المعيار هو تحديد للسلوك أو منع لسلوك آخر فى موقف معين ، ثالثا القيم هى أكثر شخصية وداخلية بينما المعايير اتفاقية وخارجية ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن المعايير هى قواعد السلوك ، فهى تحدد ما يجب أو مالا يجب إتيانه من أنماط سلوكية فى ظروف محددة ، بينما القيم هى مستويات للتفضيل مستقلة إلى حد ما عن المواقف الخاصة ، بمعنى أن قيمة معينة قد تكون بمثابة نقطة مرجعية لعدد كبير من المعايير مثال ذلك أن قيمة المساواة قد تتدخل فى معايير السلوك بوصفها مستويات لتحديد ما يجب النظر إليه باعتباره مفضلا وتضع الأساس الذى ينهض عليه قبول أو رفض بعض المعايير مثال ذلك أن قيم الإنجاز التى تؤكد تفضيل

الوسائل الفعالة للأداء ، قد تنعكس فى معايير العمل والرياضة وخدمة المجتمع، والحياة السياسية والتعليم والعمل وغيرها ، أذن القيم تحدد التفضيلات الاجتماعية social preferences والمعايير والقيم تحدد الالتزامات الاجتماعية والقيم تحدد المفضل والمرغوب على مستوى العمومية، والمعايير قواعد للسلوك المرغوب على مستوى الخصوصية.

رابعا : أهمية الثقافة فى المجتمع

للثقافة وما تتضمنه من خصائص أهمية كبيرة ، أشار إليها شابيرو فى كتابه مظاهر الثقافة aspects of culture فى قوله أن الثقافة كالهواء الذى تستنشقه نسلم به تسليما ولا نكاد نشعر به ، فالثقافة هى المفتاح الذى يمكن بموجبة تفسير وإدراك – الحياة الاجتماعية للإنسان (Shapiro, p 7-33.).

إن معرفة ثقافة الشعوب هامة لنجاح أى برنامج يتعامل مع هذه الشعوب فالثقافة إما تسهل أو تعوق التغير فعلى سبيل المثال كانت الثقافة عائق للأفكار الجديدة التى استخدمتها هيئة التنمية الوطنية فى إنتاج غله مهجنة من أمريكا وأسبانيا وتطبيقها فى المكسيك أثناء الحرب العالمية الثانية.

فالمحاصيل فى البداية كانت مرتفعة فجذبت عديد من الفلاحين لزراعة هذه المحاصيل المهجنة فى أراضيهم ومع ذلك خلال السنة القادمة كل الفلاحين رفضوا استخدام هذه المحاصيل الجديدة كبذور أو تقاوى لأنهم لا يتذوقونها هم وأسرهم كالمحاصيل المحلية لوطنهم ومن هنا يتضح أن

الثقافة كانت عائق للتفسير .

وأيضا كانت القيم الثقافية فى المجتمع الأمريكى عائق للأفكار الجديدة فعلى سبيل المثال الفلاحين الأمريكان قاموا بصفة عامة بتبنى فكرة التلقيح الصناعى للمواشى التى تدر الألبان وبرغم أن عملية التلقيح الصناعى رفعت من دخل الفلاحين النقدى وارتفعت أيضاً إنتاج الألبان للمواشى إلا أنهم كانوا لا يعتقدون فى تطبيق هذه الفكرة لأن السلالة سوف تكون هزيلة وضعيفة ولعل هذا اعتقاد خاطئ من وجهات نظرهم وهذا مما أملته عليهم الثقافة الوطنية (.Rogres , p 40).

وتمثل الثقافة ضرورة أخلاقية ولعل الأهمية الأخلاقية للثقافة هى التى تكسب تفاعل المجتمع دعائم قوية ، وهذه الأخلاق المتمثلة فى تراث المجتمع من عادات وعرف وتقاليد وقيم هى التى تشكل معالم الحياة ، وخاصة فى المجتمع الريفى ، حيث تقوى هذه الصورة الأخلاقية ، وتشتد سطوه العرف والمعايير والقيم ، فهذا التراث فى نظرهم هو بمثابة دستور الأسلاف المقدس والذى يجب احترامه والمحافظة عليه ، ولما كانت الثقافة ضرورة أخلاقية فهى بالتالى نوع من أنواع الضبط الاجتماعى الذى يمارس سطوته ونفوذه على الأفراد ، حيث لا يقدرون الخروج على قواعده ، وذلك لأن ضبط النفس يلبسهم ويحيط بكل حياتهم ، إذ أن ما يفعله الأفراد أو ما يقولونه أما هو تعبير عن تيارات ثقافية تأصلت فى نفوسهم عن طريق التنشئة الاجتماعية التى ساروا عليها وتعتبر الثقافة من حيث إلزامها نوع من الواجب الاجتماعى الذى يخضع له الأفراد دون نقاش وألا كان

الاستهجان الاجتماعى هو العقاب الذى يقف لهم بالمرصاد لتحديهم هذا الطراز الثقافى الذى يمثل السلطة الاجتماعية التى يلقى الأفراد فى الخروج على قواعدها أشكال العقاب الأدبى والقانونى.

وتمثل الثقافة أيضا ضرورة تعليمية للأفراد ، فهى تعلمهم كيفية التصرف فى المواقف المختلفة التى يتعرضون لها فى حياتهم الجارية ، كما أنها تعلم الفرد كيف يكون حسن التصرف وكيف يستطيع أن يستنتج الأمور فى مقدماتها بسرعة ، ولياقة ، وتعوده كيف يتصرف فى المواقف الحرجة ، فهى بهذا تجعل الفرد مرنا بدرجة كبيرة، إذ تجعله قادرا على أن يتفاعل مع الأحداث المختلفة وبذلك تزداد ثقته بنفسه وتزداد معها حيويته ولاشك أن أى مجتمع فى حاجة حقيقية إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يمتلئون ثقة بأنفسهم ولمجتمعهم ، وغنى عن البيان فإن الثقافة تمثل ضرورة إنسانية عامة ، ولازمة لرقى المجتمعات وتقدمها، وقد دعت المجتمعات المتقدمة إلى الاهتمام بأمرها والعمل على حمايتها ونشرها وخاصة فى البلاد التى ينخفض فيها المستوى الثقافى حتى لا تقف عقبة فى سبيل تقدم الإنسان.

وبذلك يتبين لنا أن الثقافة هى وسيلة وقائية أو غطاء متوارث يفى به الإنسان غوائل البيئة وقسوة الظروف ، ولذلك قيل أن الإنسان مثل الحيوانات اللافقارية الصدفية أو القشرية ، يعتمد فى بقائه على هيكل خارجى أو غلاف ثقافى يتألف مما يصنعه الإنسان ويقوم به من جهود وأعمال ، وما يتركه من مخلفات ، كالكهوف والأكواخ والسراديب والمنازل

والقرى والمدن التاريخية ، وسائر أشكال الثقافية المادية ، حيث يدرس " المؤرخ الثقافى " أو الأثرى ، ماضى الإنسان فى ضوء تراثه ومخلفاته ، فنجد فى عالم الآثار أن الأحجار تتكلم فيستخرج الباحث من دراسته للتراث الثقافى بعض المعانى الجيدة التى تعيد من تركيب الماضى فى صور وأشكال جديدة.

ومن هنا كان الفن الأثرى هو ظاهرة ثقافية تشبع حاجات الإنسان إلى القيم الجمالية ، فاصبح الفن لغة رمزية حين تتكلم الأحجار كى تحكى تاريخ الفكر والوجدان وبهذه الوسيلة أمكن ربط الفن بأجزاء التاريخ وأنساق الثقافة ، كوسيلة للتعبير والإشباع لرقى حاجات الإنسان كما تتمثل فى مظاهرها العليا فى الذوق والفن والوحدات ، وجملة القول فان الثقافة هى استجابة لحاجات بيولوجية صرفه ، فلكل حاجة أولية استجابة ثقافية ، كما أن سد وإشباع هذه الحاجات البيولوجية ، قد يصاحبه فى نفس الوقت بعض الدوافع الاجتماعية .

خامسا : نشأة الثقافة وعوامل استمرارها

يعتبر ظهور أو نشأة الثقافة ملازم لنشأة الإنسان ، فالثقافة هى السمة الرئيسية التى يتميز بها المجتمع عن غيره من الكائنات الحية وهى عبارة عن أدوات وزموز وهى العامل الذى يؤدى إلى بناء الجماعة واستمرارها كما أنها الوسط الذى تنمو فيه - الشخصية ، وعلى ذلك اقتصرت الثقافة على الإنسان باعتباره ميالا بطبعة إلى التقدم بدافع من غريزته ، والذى استطاع بفضل ذكائه وبراعته التغلب على النواحى

الطبيعية واستطاع أيضا أن يكيف نفسه معها بمطالبة الملحة علية فعن طريق اللغة والرموز والقدرة على الاتصالات بالمجتمعات النوعية ، استطاع الإنسان ابتداع المعرفة وتكوين ما يسمى بالسلوك الثقافى كما أن استخدام اللغة لا يعنى قدرة الإنسان على الاستجابة إلى استعمال اللغة فقط ، بل يتعداه إلى القدرة على ابتكارها ، ومن هنا تكون الرموز هى الوحدة الأساسية للثقافة .

ومن هنا تكون الجماعات الحيوانية والتى لن ترقى إلى فكرة الإنسان وعقلة لا تستطيع أن تكون جماعات ثقافية ، وأن كانت هناك جماعات حيوانية يعيش بعضها فى مجموعة ، إلا أنها لا تكون جماعات ثقافية لأن الدراسة الاجتماعية تدل على أن هذه الجماعات تخضع لرائد أو رئيس تطيعه طاعة آلية عمياء ، بحيث نجد أن الأفراد ليسوا إلا أدوات تتحرك على أساس التأثير والانعكاس الغريزى وذلك بعكس الإنسان الذى تقوم اجتماعاته على أساس عقلى تنظيمى ناتج عن صفته ككائن مفكر استحدث بفكرة وعقلة إخضاع مظاهر الحياة الطبيعية تحت طوعه ورغبته وأخذ يصنع الأدوات ويستعملها وكانت تلك الأشياء المصنوعة لفترة ما قبل التاريخ ، هى المظهر الذى ظلتا عليه المجتمعات فى معيشتها منذ زمن طويل ، ومن ثم كانت البقايا الحجرية وماديات أخرى ، هى فقط التى اعتبرها المفكرون أساسا لإعادة بناء الثقافة ، ولم يكن لتوقعات الجماعة لها وجود مستقل ككل مثل الجماعة التى سبقتها ، بل استدل عليها فقط من البقايا الفيزيقية كما وجدت المعانى والأنساق الرمزية مطابقة لهذه العناصر الفيزيقية والتى

كانت مفتاح لثقافة أى مجتمع تلاشت منذ زمن طويل ، أما عن عوامل نشأة الثقافة واستمرارها فقد اختلفت الآراء حول تحديد أهم العوامل التى مهدت لنشأة واستمرار الثقافة أو الحضارة ، وقد أرجعها بعض علماء الاجتماع إلى العوامل الآتية :-

أولا : الجبرية المكانية (الحتمية الجغرافية)

وتدعوا إلى أن العوامل الجغرافية تقرر وتصمم حياة المجتمعات من حيث توزيع السكان على الأرض ، طراز المساكن البشرية ، وكذلك وسائل النقل واللباس والطعام وما إلى ذلك ، وأن أى تغير يصيب البيئة سيكون تغيراً فى استجابة الكائن الحى لها، وأن كل اختلاف فى البيئة الطبيعية يعنى اختلافاً فى العادات وفى أساليب المعيشة ، وبمعنى آخر أن عادتنا وأساليب حياتنا سوف تختلف كلما اختلفت البيئة الطبيعية.

ولقد ذهب العالم الإنجليزى بكل bukle إلى التأكيد على الحتمية الجغرافية حيث لعب دوراً بارزا فى ابتداع شكلا من أشكال الحتمية الجغرافية فى الفكر السوسيولوجى ، فقد اعتقد أن للبيئة الجغرافية أثرها القوى عند البدائيين غير أن هذا التأثير يأخذ فى التناقص كلما تقدمت الثقافة ، حيث تتميز المراحل اللاحقة بسيطرة الإنسان على الظواهر الطبيعية الخارجية ، ويعطى كل من أوجبرن ونيمكوف التوضيح الكافى حول هذا الموضوع فيقولان أن الطبيعة إذ تخلق كل الظواهر الطبيعية فإنها لا تخلق معها وسائل استغلالها والإفادة منها و إنما يرجعان إلى أهمية دور العقل والحضارة البشرية فى النمو فى الوصول إلى استخدام هذه البيئة لمصلحته والتحرر منها حسبما تقتضيه مصالحة ، ويضيف ماكيفر بأن

الحضارة نفسها نادر على أن تعدل من تأثيرها الجغرافى ولا يمكن لها أو عواملها أن تحدد بنفسها مجرى الأحداث الإنسانية ، ولهذا نرى كثيرا من الجغرافيين المعاصرين قد أخذ بأهمية الجانب الاجتماعى ، فالقول بأهمية عامل الجبرية المكانية التى نادى بها الجبريون الطبيعيون قد قضى عليه الإنسان أو كاد ، فقصة الحضارة - إلى حد كبير -هى قصة صراع الإنسان مع هذه الجبرية ، وقد تمرد وتغلب عليها الإنسان ، وهذا يتضح من تمهيده للأرض - وزراعتها وإنارة الظلمات واستئناسه للحيوانات وغير ذلك من سلطات الإنسان على البيئة الطبيعية.

ثانيا: التفوق العنصرى

ويؤكد هذا الاتجاه بأن الحضارات العظيمة ، قد اختص بها عنصر من الجنس وهم الآريون ، وان عناصر أخرى من شأنها أن تنتفع بتلك الحضارات وتحافظ عليها ويقصد بذلك الجنس الأبيض ، أما العناصر الأخرى وهم الملونين ، فشأنهم فى هذه الحياة هو القضاء على الحضارات العظيمة التى صنعها قوم وانتفع بها آخرون ، وأن صيانة الحضارة واجب مقدس ، وهذا الواجب يفرض سيادة العنصرى.

ويعتبر آرثر جوبينو باعث النظرية العنصرية فى علم الاجتماع، فقد أكد على أهمية العامل العنصرى فى التطور الاجتماعى وأسباب ظهور المدنية ، وانحطاطها ولقد استمرت النظرية العنصرية Racism من بعد جوبينو ، وظهرت من خلال عمل شامبرلين الذى سار على منوال سلفه ، إلا أنه اعتقد بأن الاختلاط العنصرى لا يكون دائما معوقا ثقافيا ، فيمكن أن

تظهر نتيجة لهذا الاختلاط أنواعاً مرغوبا فيها ، ولقد انتقد جنزيرج أسطورة العنصر في السيطرة على البيئة الاجتماعية ، وناقش أصحاب النظرية العنصرية في تحديد معالم الحضارة والتقدم بالنقاط التالية.

١- أرجع بعضهم أسباب المستوى الحضارى إلى الاختلافات والمواهب الفطرية الكامنة في الجنس ، في حين أوضح جنزيرج بأن هذا الادعاء تافهة.

٢- ادعى أصحاب النظرية العنصرية أن أسباب تدهور المدنيات يرجع إلى أسباب عنصرية ، والواقع أن هذا يعوزه الدليل العلمى ، حيث أن للعوامل الاجتماعية والاقتصادية المتشابكة دورها الفعال .

٣- عند بحث علماء الآثار في بحوثهم قبل التاريخ الأوروبى ، نلاحظ انهم ربطوا الحضارات بجماعات معينة من الأجناس ، بينما تدل الشواهد أن حملة الحضارات هى الشعوب وليس الأجناس .

ثالثا: الجبرية الزمانية

وينادى بها التطوريون منهم والمحدثون متأثرين فى ذلك بالمنهج الحيوى وبالتفكير الداروني في جعل التطور الثقافي يبدأ من البسيط ويسير إلى المعقد كما يحدث في العالم البيولوجى ، أو الطبيعى لكن لم تصب هذه النظرية كثيراً فيما ذهبت إليه حيث نشاهد وجوها للثقافات البشرية المختلفة في المجتمعات المعاصرة ، فالطقوس الدينية اليوم - وفى ارقى المجتمعات - أقل تعقيدا وأكثر بساطة مما يزاوله الأستراليون القدامى مثلا وأيضا تعد اللغات البعيدة الانتشار والتى تعبر عن أكثر المسائل العقلية

تجريداً أبسط من كثير من اللغات البدائية من حيث تركيباتها واستعمالاتها بل أن هذه اللغات نفسها تطورت عن لغات أخرى كانت أصولها أكثر تعقيدا منها ، والنظام العائلى كنظام آخر ، إذ أن الأسرة الزوجية التى انتشرت فى المجتمعات المعاصرة ، أقل حجما ووظيفة عن السرة الكبيرة التى عرفتها البشرية فى صورها المختلفة وهكذا يخفق أصحاب هذا الإتجاه فى إسنادهم نشأة الثقافة إلى عامل الجبرية الزمانية كلية.

رابعا : الحتمية الاقتصادية

ويرى أصحابها أن العامل الاقتصادى هو الأساس فى نشأة الثقافة وتغير المجتمعات فهو الذى سيؤدى إلى تغير العلاقات والقيم الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والأسرة والدين وما إلى ذلك .

وتتلخص نظرية ماركس فى أن كل ما يحدث فى المجتمع البشرى مرجعة وأساسه العامل الاقتصادى ، وهو فى نظره أساس الأنشطة اليومية والتحويلات الاجتماعية والقيم الأخلاقية بمعنى أن العمل الذى يحدد عملية التطور هو العامل الاقتصادى ولهذا فقد قسم المجتمع إلى عدة بناءات السفلية منها وهى القاعدة الاقتصادية والفوقية هى القانونية والسياسية وغيرها واعتبر أن أى تحسين على سوائل الإنتاج يتطلب من جهة نموذج جديد للإنسان ومميزات جديدة من مهارات ومواقف – هذا ولقد وجهت انتقادات كثيرة من قبل الباحثين للنظرية الماركسية فى التطور ، فنيقولا تيما شيف يقول أن ماركس اعتمد على جانب واحد من الحياة الاجتماعية والاقتصادية ،

وهو العامل الاقتصادى فى التأثير وتحريك كل محتويات البناء الاجتماعى واعتبار القيم والفن والفلسفة نتيجة الأساس الاقتصادى المادى.

على الرغم من أهمية هذا العامل إلا أنه من العسير تفسير كل الحضارات على هذا الأساس ، وذلك أن الإنسان فى سبيل نشاطه الاقتصادى قد استخدم أموراً غير اقتصادية من نظم وقيم ، الخ لذلك فالعامل الاقتصادى هو أحد العوامل وليس العامل الأوحد المفسر ،لنشأة الثقافة ، ففى واقع الأمر لا يوجد سبب اجتماعى أو ميتافيزيقى أو فلسفى أو نفسى أيا كان ، هو السبب الوحيد والمفسر لنشأة الثقافة وتطورها ، لأن تلك الأسباب هى من اختراعات الإنسان وتصوراته ، واكتشافاته فى ظل حضارات معينة وأوقات متباعدة كما أن النظريات التكاملية التى تذهب إلى الأيمان بالأسباب المتعددة فترفض إرجاع نشأة الثقافة أو انتشارها إلى عامل واحد فكل تلك العوامل والأسباب تعتبر أساسية وجوهرية إذ تعتمد وتتساند مع بعضها البعض لتنتج مركبا جديداً يختلف كل الاختلاف عن مكوناته فى صورته النهائية وإن كان ذلك لا ينقص من جوهرية بعض العناصر وأهميتها النسبية فالعمل الثقافى إذن هو حصيلة كل الأسباب سالفة الذكر معا، بعد أن تكون قد دخلت فى علاقات مع مختلف النظم والتنظيمات القائمة ، وصيغت فى القوالب والرموز الاجتماعية واختلفت شخصيتها الفردية وذابت كينونتها فى الكل النهائى الذى هو مجتمع متحد مركب وليس هو منفرد ومستقلا ، وفى هذا الصدد يعن لنا أن نطرح تساؤلا هاما وهو كيف يتم انتشار الثقافة من جماعة التى أخرى أو من وسط ثقافى إلى آخر فى الواقع أن انتشار الثقافة

معناه انتقال الخط الثقافى من جماعة إلى أخرى أو من وسط ثقافى إلى آخـر ، وتنتشر الثقافات عن طريق الأفراد والجماعات فالأنماط الثقافية لا حياة لهـا فى ذاتها ولا تنتقـل إلا بواسطة الأشخاص الذيـن يحملونـها ، ويلاحظ أن الأنماط الثقافية التى لا تنتشر فى مجال ما وراء المجتمع الذى صدرت عنـه ليس لها سوى حظ ضئيـل فـى فرصـة البقـاء الدائـم ومـن الممكـن ان تفنـى أو تستغرق خلال الثقافــة التـى تظـل متصلـة بـهـا ، أو أن يخرجـهـا مـن حـيـز الوجود نمو طارئ فى هذه الثقافة ، ففــى حالـة الانتشـار يحـاكى المجتمـع ناحيـة أو عـدة نواحـى مـن ثقافـة مجتمـع آخـر، وهـذا خـلاف التقليــد أو المحاكاة، فإن قطاعاً من المجتمع - هو فــى العـادة الجيـل الناشـئ -يقلـد طائفة أخرى فى المجتمع وقد تم الانتشار فـى داخـل إطار الثقافـة الواحـدة وذلك كما فى حالة محاكاة أفراد المجتمع اختراع مخترع أو تجديد مجدد.

ودوافـع أو ميكانزمـات انتشـار الثقافـة متعــددة منــها الهجــرة ، والاستعمار والإرساليات والتجارة ويمتاز عصرنا الحــاضر بسـرعة الانتشـار الثقافى ، فقد ساعد على ذلك ارتقاء وسـائل المواصـلات العاديـة التـى كـانت سببا فى تيسير الاتصال الفكرى والروحى بين شعوب العالم والتقريــب بـين وجهات نظرها ، وتنتشر الثقافة عادة عن طريقتين .

الأولى بطريقة عرضية :

ومنه يتم انتشار الثقافة عن طريق الهجرات التي يقوم بها الشـخص فيـتركون بلادهـم بفعـل عوامـل الضغـط الاجتمـاعى أو عوامـل الطـرد المـادى حاملين معــهم الأنمـاط الثقافيـة السـائدة فـى بلادهـم فـإذا لائمـت الأنــماط

الثقافية الوسط الذى هاجروا إليها انتقلت هذه الأنماط إلى ثقافة هذا الوسط الأخير أو الجديد.

الثانية: الطريق الشعورى المتعمد:

وفيه يتم انتشار الثقافات عن طريق الهجرات الاستعمارية أو التجارية التى تهدف من خلال فرض ثقافتها إلى استغلال الشعوب المستعمرة ويلعب عامل التحكم الجغرافى دورا هاما فى انتشار الثقافات فإن السلالات البشرية تتخذ فى هجرتها وحركتها الطريق الأقل ، مقاومة والتى تتشابك مع ثقافة الشعوب المهاجر إليها (الأصلية) لتختلط مع ثقافتها أو تحل محلها أو تسيطر عليها وكثير من التغييرات التى طرأت على الثقافة المادية والفنية والروحية التى ترجع فى كثير من الحالات إلى هجرات الشعوب وانتصار بعضها على البعض الآخر ، ذلك لأن تصادم الثقافات المختلفة نتيجة للغزو أو الهجرة يعمل على سهولة انتشار الأفكار الجديدة، ويزيد من صلابة ومقاومة الثقافة الخاصة بكل مجتمع ونلاحظ أن المناطق المعزولة جغرافيا ذات ثقافات فيما يتعلق بانتشار الثقافة ونشأة الأنماط الثقافة إلى مصدر واحد ومنهم من يرجعها إلى مصادر متعددة.

أ- نظرية المصدر الواحد

يذهب أنصار هذه النظرية إلى أن الأنماط الثقافية نشأت من مصدر واحد ومن هذا المصدر انتقلت من وسط إلى وسط أو من جماعة إلى جماعة .

ب-نظرية المصادر المتعددة.

يذهب أنصار هذه النظرية إلى القول بأن الأنماط الثقافية نشأت في منطقتين منفصلين عن بعضها ولكن أنصار هذا الرأى ينقسمون إلى فريقين :-

فريق يقول بظاهرة المتوازيات الثقافية وهي أن نمطا ثقافيا معينا ينشأ في منطقتين منفصلين وينتشر في كل منهما بشكل متماثل وفريق آخر يقول بظاهرة الثقافات المتلاقية ، إذا كان هناك نمطان ثقافيان أو اكثر نشأت في مناطق متعددة وقدر لهذه الأنماط الثقافية أن تتطور بصفة مستقلة وبشكل متباين حتى تبدو متشابهة بدون اتصال ثقافي .

وقد عنى كثير من العلماء بدراسة انتشار وسريان الثقافات وتفرعها فاصطلح العلامة" جرينر " منهجا خاصاً لاختيار مقياس يمكن بواسطته وضع الثقافات المحلية المتجاورة أو المتماثلة في دوائر ثقافية محلية ، وتوضيح ترابط هذه الثقافات بعضها بالبعض الآخر بالامتزاج والاختلاط والتلازم في الزمان والمكان وتتبع الاتجاهات التي تحدد نمو الثقافات الجزئية الماثلة ومراكز تلاقيها وتتابعها ، ويجد ربنا أن نشير في هذا المجال إلى نظرية ، الاستمداد الثقافي أو الاستعارة الثقافية Cultural borrowing التي كثيرا ما يعتمد عليها الاستعمار في محاولة بسط سيطرته الثقافية على مستعمراته ومناطق نفوذه المختلفة عنه ثقافياً ومن النظريات الهامة في هذا الصدد نظرية العلامة توينبي عند كلامه عن نمو وازدهار الثقافة أو انحطاطها ويكفي أن نشير إلى ملخصها فيما يلي:

أ- إن الخصائص الفردية المميزة للثقافة الأجنبية تكون أكثر قبولا وانتشاراً

من خصائصها العامة .

ب- إن قوة النفاذ لأى إشعاع ثقافى تكون عـادة نسـبة عكسـية للقيمـة لذلـك الإشعاع.

جـ- إن قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجر وراءه سائر عناصرها الأخرى.

د- إن هذا العنصر المفرد قد يكون أكـثر إزعاجـا للمدنيـة أو الثقافـة القابلـة أكثر مما لو تبنت كل المظاهر الثقافية الأجنبية كلها.

وآية ذلك أن الاستمداد التكنولوجى سيجلب بالضرورة تغيرات فـى المواقـف الاجتماعيـة والفكريـة وتلـك التغـيرات ستجر ألـوان أخـرى مـن الاستمدادات العلمية والفلسفية والخلقية والدينية.....الخ.

فضلا ما تتطلبه الذاتية الثقافية من ضمانات سياسية.

هذا ولتحقيق الانتشار الثقافى يجب توافر عدة عوامل منـها وجـود عناصر جديدة أو أنماط ثقافية مستحدثة بالنسبة للبيئة الاجتماعيـة المنتقلـة إليها ، ومنها تقبل المجتمع الذى تنتقل إليه هذه الأنماط الجديدة أو بعـض طوائفه لتلك العناصر وخاصة إذا كانت تتمشى مع إمكانياته الماديـة وتساير إلى حد ما أيدلوجيته المذهبية والفكرية وتجـارىء أسـاليب الـترابط الثقـافى بين البيئتين المنقول منها والمنقول إليها تلك العناصر الثقافية كـان يجمعـها وحدة اللغة والسلالة كما هـو الشـأن فـى المتحـد الثقـافى بـين أجـزاء الأمـة العربية فهناك جذور أصليـة متداخلـة مـن وحـدات حضاراتـها منـذ النشـأة الأولى ،فهذه الجذور تعتبر نواه ونقطة انطلاق للإشعاع الثقافى ويعبر عنـها

اصطلاح Core ومنـها تشع المتغـيرات المحدثـة فـى الثقافـة التـى تمـهد السبيل لنمو وازدهار الثقافة.

سادساً : التغير الثقافى والتغير الاجتماعى

فى الواقع أن الثقافة تخضع باستمرار للتغير ، وهذه حقيقة واضحة حتى لغير المتخصصين ، فكلنا نعلم أن أجدادنا كانوا يتبعون أنماطا سـلوكية سواء تعلقت بالعلاقة بين الكبار والصغار أو بالملبس أو بالمأكل أو الـترويح ، أو المجاملات تختلف عن تلك السائدة بيننا فى الوقت الحاضر ، كما تظـهر الكتب ، والصحف ، والمسجلات القديمة شواهد عديدة على التغير الثقافى ، وتحدث التغيرات الثقافية نتيجة للتجديدات التـى تتسـرب إلى الثقافـة مـن الدخل أو الخارج ، فأما التغيرات التى تنشأ من عوامل داخلية فتكـون علـى شكل اختراعات واكتشافات ، وأما التغيرات الناجمـة عـن عوامـل خارجيـة مثل الاحتكاك الثقافى ، فتعود إلى عملية الاستعارة وانتشـار الثقافـة ، فمـن الواضح أن كل نمط ثقافى ، سواء تضمن تكتيكا فينا ، أو طريقة للسلوك نحـو الأقارب ، أو شكلا من أشكال العبادة الدينية. يرجع إلى اختراع أو اكتشـاف ظهر فى منطقة من المناطق ، وعلى الرغم من أن بعض الأنمـاط الثقافيـة تظـل موجودة بالطبع فى الثقافة الأصلية التى ظـهرت فيـها لأول مـرة ، ومـن ثـم تخضع فقط لتعديل بطىء خلال الزمن إلا أن طائفة أخـرى مـن هـذه الأنمـاط الثقافية تنتشر إلى ثقافات مجاورة ومن ثم تخضع هناك، ليـس فقـط إلى تلـك التعديلات التى تحدث بفعل عامل الزمن ، ولكن إلى أشكال أخرى عديدة من التعديل والتبديل فى تلك الثقافات العديدة التى تقبلها ، وأذن ، فالاخـتراع

والاكتشاف من ناحية ، والانتشار من الناحية الأخرى، يمثلان أهم – العوامل فى دراسة التغير الثقافى.

ولكى نوضح عملية التغير الثقافى والنتائج المترتبة على التجديدات نستعين بمثال يوضح ما حدث فى قبيلة "التنالا" ، ففى الفترة التى سبقت المائتى سنة الأخيرة ، كانت حياة القبيلة الاقتصادية تقوم على أساس زراعة الأرز باستخدام طريقة القطع والجرف ، دون الاعتماد على طريقة الرى، وفى الظروف المحلية كانت هذه الطريقة تعطى محصولا جيداً فى السنة الأولى ، ومحصولا لا باس به إجمالا فى الأرض نفسها بعد خمس أو عشر سنوات ، وبعد ذلك كانت الأرض تترك بوراً مدة لا تقل عن عشرين إلى خمس وعشرين سنة ، حتى تنمو فيها ثانية أدغال تكون على درجة مقبولة من الكثافة ، ولما كانت الأرض المنظمة حديثا تنتج محصولا أوفر من غيرها كانت الطريقة المحلية الدارجة تتلخص فى استغلال الأدغال التى أمكن استغلالها بصورة مريحة من مركز معين هو القرية ، وبعد ذلك كانت القبيلة ، تنتقل إلى مكان جديد وتبدأ العملية نفسها ثانية من مركز جديد، وهكذا لم يتسع المجال لتطور نظام الملكية الفردية للأرض ، وكانت القبيلة تمتلك منطقة تنتقل داخلها من مكان إلى مكان أما حيوانات الصيد ، المتوافرة فى غابات المنطقة فكانت من نصيب الشخص الذى يظفر بها ، أما توزيع الأراضى لهذه الغابة فكان يجرى بأقصى ما يمكن من العدالة والأنصاف ، وكان أعضاء العائلة يعملون معاً على شكل فريق يبدأ بعملية التنظيف من الخط الذى يحد الأرض المقررة لهم ، يواصلون العمل إلى أن يقطعوا المساحة

التى يعتقدون إنـها ضروريـة لأن تفـى بحاجاتـهم وإذا شـاء سـوء الطـالع أن تحصل عائلة ما ناتج هزيل فى إحدى السنتين فإنها ستعامل معاملـة خاصـة عند توزيع الأراضى فى السنة التالية ، وينتج عن ذلك أنه لم ينشأ أى تفاوت ملحوظ فى توزيع الثروة بين العـائلات المشـتركة ، وبمـا أنـه لم يكـن هنـاك سوق لتصدير أى فائض إليها لم تبدل أية محاولة لزراعة مساحة مـن الأرض أكثر مما يفى بالجماعات الواقعية وكان زعيم العائلة المشتركة يتـولى توزيـع الناتج على البيوت فى ضوء حاجات كل منها.

أما زراعة الأرز بطريقة الرى فظهرت لأول مرة عنـد العشـائر التـى تسكن الطرف الشرقى فى منطقة "التنالا" ،وقد استعارته هـذه الشـعائر مـن قبيلة مجاورة وكانت هذه الزراعة فى أول عهد مجرد نشـاط ملحـق مارسـته العشائر إلى جانب زراعات أخرى ويبدو ان البيوت الصغـيرة فـى البـدء هـى التى تولت هذا النوع من النشاط الزراعى ،وليس العائلات المشتركة الكبيرة، لأن المهمة كانت أصغر من أن تستلزم تعاون الجماعة بأمرها وفى وقت لاحق استعير نظام تدرج الأرض وادخـل علـى نطـاق ضيـق، ومـا أن تم قبـول هـذا التحسين الجديد حتى قـام نمـونج أفـراد العـائلات الصغـيرة بزراعـة الأرز بطريقة الرى المشتركة بأعمال التدريج أو بالاشتراك فى الناتج.

وهكذا ظهرت بصورة تدريجية ولا شعورية طبقة من ملاكى الأراضى فى مجتمع كان يخلو فى السابق من نظام الطبقات وساعد هذا التطور الجديد على إضعاف التنظيم العائلى المشترك ، وقبل حدوث التطـور الجديـد ، كـان العامل الرئيسى الذى يكفل استمرار ولاء الأعضاء لوحدتهم العائلية المشتركة

هو اعتمادهم نظم التبادل بعضهم مع بعض وحاجاتهم الدائمة إلى التعـاون ، وأما بعد حدوث التطور فقد أصبح بإمكـان عائلـة مـن العـائلات الصغـيرة أن تقوم بما يخصها من حقول الرز المروية ، دون مساعدة أحد ، ومـن الطبيعـى والحالة هذه يتردد زعيم العائلة فى إعطاء نصيب من المحصول لأشخاص لم يسهموا شيئا فى إنتاجه ، وقد فرضت هـذه الطريقـة الجديـدة فـى الزراعـة مطلبا آخر هو الاستقرار فى الأرض ، وتلاشى ظاهرة الانتقال الدورى للقرية من مكان إلى آخر ، وتغير تركيب السكان القائم بعـد أن انقسـمت القريـة إلى فريقين هما :-

فريـق الأرض الـذى دفعتـه الحاجـة الى الانتقـال ، وفريـق مـالكى الأراضى الذين اسـتخدموا ثرواتـهم وعملـوا علـى تنميتـها فـى المكـان الـذى يقيمون فيه ، وعموما ، فإننا نستطيع أن نلخص أهـم مظـاهرة التغـير التـى شهدتها قبيلة التنـالا فـى أنـها انتقلـت مـن نظـام قـائم علـى قـوى متناقلـة ومستقلة بذاتها ومجتمع مؤلف من عائلات مشتركة قويـة لا أثـر للطبقـات فيه إلى الملكة ذات سلطة مركزية ، ورعايا منقسمين إلى فوارق اقتصاديـة ، وسلالات لا تتمتع إلا بأهمية دينية شعائرية ، وهذا التحول العميـق يمكـن تتبعه خطوة أثر خطوة إذ يعـود فـى الأصـل إلى تبنـى زراعـة الأرز بطريقـة الرى، فقد خلقت هذه الطرق الجديدة فى الزراعة وصفا استدعى أمـا تعديـل النماذج القديمة أو تبنى نماذج سبق أن تطـورت عنـد قبائـل متجـاورة مـن التى أتيح لها موقف أطول لمعالجة مثل هـذه المشكلات .

وفى هـذا الإطار يعن لنا تساؤلا أساسياً يتعلق بالفرق بين التغـير

الثقافى والتغير الاجتماعى.

فى الحقيقة عندما نشير إلى التغير الاجتماعى فإنما نعنى التغيرات التى تحدث فى التنظيم الاجتماعى ، أى بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة والمختلفة.

ولهذا يكون التغير الاجتماعى جزء من موضوع أوسع هو التغير الثقافى **Cultural change** والتغير الثقافى يشمل كل التغيرات التى تحدث فى كل فرع من فروع الثقافة بما فى ذلك الفن والعلم ، والتكنولوجية والفلسفة ... الخ.

وهذا بالإضافة إلى التغيرات التى تحدث فى صورة قواعد التنظيم الاجتماعى ولكن إذن موضوع التغير الثقافى أوسع نطاقاً من موضوع التغير الاجتماعى ، ولكن اهتمامنا يتركز فى علم الاجتماع حول الموضوع الضيق ، ولذلك لن نهتم بمسائل معينة مثل تطور – أو نمو الأصوات فى اللغة أو تاريخ الصور الفنية أو تطور الأساليب الموسيقية أو نمو النظرية الرياضية وطبيعى إننا يجب أن نفهم دائما ، أن كل أجزاء الثقافة ترتبط بطريقة ما بالنظام الاجتماعى ، ولكن يجب أن نفهم فى نفس الوقت أن بعض التغيرات التى قد تحدث فى بعض فروع الثقافة لا نستطيع أن نلاحظ تأثيرها فى النسق الاجتماعى ، ولهذا نهتم من الناحية السوسيولوجية بالتغير الثقافى إلى المدى الذى يدرك فيه تأثيره فى التنظيم الاجتماعى، أى أننا لا نهتم به منفصلا عن التغير الاجتماعى.

أى أن التغير الاجتماعى يعتبر تغيراً في المجتمع الذى يتكـون مـن قواعد صريحـة أو ضمنيـة للتفـاعل والاتصـالات) واصطـلاح التغـير الثقـافى باعتباره تغيراً فى الثقافة (التى تعنى التراث الاجتماعى أى كـل مـا خلقة شـعب معـين أو حفظـه ويشـمل هـذا وسـائلهم الفنيـة وعاداتـهم ولغتـهم ، ونظمهم الاجتماعية والفن والأفكار والأسـلحة والصـور الثقافيـة التـى مـرت على تاريخ طويل وتبدى نوعاً من الصلابة والاستمرار) ، وربمـا أدت الثـورة الاقتصاديـة والسـياحية والاجتماعيـة إلى تغـيرات كـبرى فـى العلاقـات الاجتماعية ولكن الثقافة قد ينبغى أن تتغير إلا قليلا وبذلك تسـتند التفرقـة بين التغير الثقافى والاجتماعى على أساس التفرقة التى يرها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بين الثقافة والمجتمع.

المراجع التى أعتمد عليها هذا الفصل

١- **د. السيد الحسينى وآخرون** ، دراسات فـى التنمية الاجتماعية ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٧٩م.

٢- **د. جلال مدبولى** ، علم الاجتمـاع الثقـافى ، القـاهرة ، دار الثقافـة للطباعـة والنشر ، ١٩٧٩م.

٣- **روبرت رد فيلد** ، المجتمع القـروى وثقافته ، ترجمـة د. فـاروق العـادلى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥م.

٤- **د. فوزية دياب** ، القيم والعادات الاجتماعيـة ، بحـث ميدانـى فـى العـادات والاجتماعية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٦م.

٥- **د. قبارى إسماعيل** ، علم الاجتماع الثقافى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

٦- **د. عبد الحميد مسعود** ، دراسات فى علم الاجتماع الثقافى ، مكتبـة نهضـة الشرق ، ١٩٨٠م.

٧- **د. محمد على محمد** ، دراسات فـى علـم الاجتمـاع ، الإسـكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م.

٨- **د. محمد عاطف غيث** ، التغير الاجتمـاعى والتخطيـط ، الإسـكندرية، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤م.

٩- **د. نجيب إسـكندر وآخـرون** ، قيمنـا الاجتماعيـة وأثارهـا فـى تكويـن الشخصية، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢م.

١٠- **د. محمد عبد المنعم نور** ، الحضارة والتحضر دراسة فى علم الاجتماع الحضرى ،مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠.

١١- **محمد ياسر الخواجه** ، المعوقات الثقافية للتنمية الريفية ، دراسة ميدانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مودعة بكلية الآداب جامعة طنطا.

١٢- **نيقولا تيماشيف** ، النظرية الاجتماعية طبيعتها وتطورها، ترجمة د، محمود عودة وآخرين ، دار المعارف ، ١٩٧٨.

١٣- **حسن الساعاتى** ، علم الاجتماع القانونى ، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة، ١٩٦٨.

1) Duncan M.; Dictionary of Sociology,. England , 1963.
2) landis P. introductory of sociology., N.Y. 1978.
3) Mchee. J, an introduction to sociology U.S.A , 1974.
4) Chitamber ., B., introductory rural sociology, New delhi , 1972.
5) Shapriro horry, aspects of culture, N.Y . 1970.
6) Bertrend,A., aliun, rural sociology (an Analysis of contemporary Rural life .MiCGraw-Hill, N.Y . 1958.
7) Lengerman M. definition of sociology, patricia Merrill , 1979.
8) Unnitham and others , towards a sociology of culture in india, New delhi, 1965.
9) Typlor , primitive culture , London V-1 , 1871.
10) Linton, R.; The study of man , appleton century , N.y., 1936.
11) Merrill, F., Society and culture, MicGraw-Hill, N,y 1965.
12) Redfield , the folk culture ofiyucntan , 1941.
13) Rogrers, E., Social change in rural society, N.Y., 1960.

الفصل الثامن
التغير الثقافي

تمهيـد :

إن قضيـة التغـير الثقـافى تمثـل أحـد الاهتمامـات الأساسـية فـى الأنثروبولوجيـا الثقافيـة ، لأن الثقافـة تخضـع بصفـة مسـتمرة للتغـير ، والتغـير هـو سنة مـن سنن الحيـاة وهـذه حقيقـة واضحـة حتـى لغـير المتخصصين، فكلنا نعلم أن أجدادنا كانوا يتبعون أنماطا سلوكية سواء تعلقت بالعلاقة بين الكبار والصغار أو بالملبس أو بالمأكل أو الترويح أو المجاملات ، تختلف عـن تلـك السـائدة بيننـا فـى الوقـت الحـاضر ، كمـا تظـهر الكتـب والصحف والمجلات القديمة والأفلام السينمائية والتسجيلية شواهد عديدة على التغير الثقافى .

كما يدلنا التاريخ الإنسانى على أن احتمالات التغير الثقافى موجودة لا تنقطع ولا تتوقـف فـى شتـى أشكال ومراحـل التنظيـم الاجتمـاعى ، وأن التغيير يمثل طبيعة خاصة من ذات الإنسان ، وجزءا لا يتجـزأ مـن تركيبـه النفسى ، وأحد المقتضيـات الأساسـية لوجـوده الاجتمـاعى وأدائـه لواجبـات حياته اليومية . ومع ذلك فإننا نجـده يحـدث فـى مختلـف مراحـل التطـور الثقافى وشتى الدوائر الثقافية بصورة متباينة أشد التبـاين ، كمـا يتـم بسـرعات متفاوتة كل التفاوت ، ويمتد على فترات قد تطـول أو تقصـر مـن مكـان لآخر .

ويثيـر تعـدد عوامل التغيـر الثقافى صعوبات كثيرة ومشكلات معقدة من أهمها :

أ- صعوبة الاتفاق على الأسس العامة لتحديد أى العوامل يتقدم العوامـل

الأخرى ويؤثر بفاعلية فى إحداث التغيير .

ب- صعوبة تحديد السمات المشتركة بين عوامل التغير

جـ- صعوبة تقييم اتجاهات الأفراد والجماعات

ولذلك سوف نهتم فى هذا الفصل بإبراز التحديد العلمى لمفهوم التغير الثقافى وديناميته وعوامله ، والنظريات المفسرة لطبيعته ثم نتناول أهم معوقات التغير الثقافى ومشكلاته وهذا ما يتم توضيحه فى الصفحات المقبلة .

١- مفهوم التغير الثقافى :

بالرغم من أن استخدام مصطلح التغير الثقافى ينتشر بين علماء الأنثروبولوجيا الأمريكان ، إلا أن علماء الاجتماع يفضلون استخدام مصطلح التغير الاجتماعى . فى حين يفضل غالبية العلماء الاجتماعيين الحديث عن التغير الاجتماعى والثقافى Socio –Cultural Change

ويمكن تعريف هذا المفهوم على انه يشير إلى تعديلات تشهدها الثقافة خلال الزمن ، ويظهر بوضوح عند تحليل المواقف والعمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية . أو أنه أى تغير يطرأ على جانب معين من جوانب الثقافة المادية واللامادية سواء عن طريق الإضافة أو الحذف، أو تعديل السمات أو المركبات الثقافية.

ويمكن أن يحدث التغير الثقافى نتيجة لعوامل عديدة ولكن فى الغالب يحدث بفعل الاتصالات بثقافات أخرى أو التجديدات والمخترعات

التى تدخل ثقافة معينة .[١] وفى الحقيقة عندما تتغير الثقافة يتغير المجتمع ، لأن الثقافة من صنع الإنسان ، ولهذا كان التغير الثقافى عبارة عن عملية تفاعل إنسانى ينميها الفكر الخلاق والاختراع ، وليس معنى ذلك أن الثقافة من صنع فرد أو جيل معين ، لأن من أهم خصائصها " التراكم والدوام والانتشار " وكل ثقافة مهما كان طابعها تخضع لعمليات التغير ، وفى المجتمعات الثابتة نسبيا أو المنعزلة عن المجتمعات الأخرى يكون التغير بطيئا جدا ، ولكن التغير فى المجتمعات الدينامية يكون سريعا جدا فى ميادين كثيرة مثل التكنولوجيا والعادات والاتجاهات حيث أن الباحث يمكنه أن يميز الاختلافات الواضحة بين جيلين يعيشا فى نفس الزمن .[٢] ويعبر مصطلح التغير الثقافى عن كل تغير يطرأ على الظروف أو العناصر الثقافية ، طالما كان هذا التغير يؤثر على بناء المجتمع موضوع الدراسة أو على أداؤه الوظيفى ، وهذا التحديد هو الذى يميز التغير الثقافى عن التغيرات السطحية أو المحدودة ذات الطبيعة المادية أو الشخصية التى لا تؤدى إلى إحداث تغيرات بنائية ، وهى تغيرت كثيرة متجددة لا تكاد تقع تحت الحصر ، ولا يمكن أن تحظى منا بنفس الاهتمام الذى نوليه لتيارات التغير الرئيسية الكبرى.

وينصب التغير الثقافى على الظواهر التى تتسم بالترابط فيما بينها والتأثير المتبادل أى أن ما نورده من تقسيمات وتصنيفات إنما هو بغرض التبسيط والتوضيح . ولا يعنى أن تلك الظواهر منفصلة فى الواقع بهذا الشكل

الذى نعرضه بها و إنما هى عوامل متشابكة ومترابطة ويصعب الفصل بينهما على الصعيد الواقعى .

(١) القيم والميول الفكرية والتصورات الدينية ،وأساليب التربية والتعليم ومؤسساتها القائمة فى المجتمع .

(٢) أساليب السلوك الفنى (التكنولوجى) والاقتصادى والكفاية الإنتاجية، أساليبها ومستواها.

(٣) أشكال التعبير فى الفنون التشكيلية،والموسيقى والأدب والرقص، ...الخ .

(٤) مدى العلاقات الاجتماعية وكثافتها والكيانات المترتبة عليها، وأعداد السكان و كثافتهم وتوزيعهم، ويهمنا بوجه خاص طبيعة العلاقات بين التجمعات الريفية والحضرية ودرجة تقسيم العمل وأشكاله وأسسه والبناء المهنى فى المجتمع ، والأهمية النسبية لكل قطاع من القطاعات الاقتصادية . وأخيرا النظام الاجتماعى العام ، وخاصة البناء الطبقى القائم ودور الجماعات الموجودة ، كالأسرة ..؟ والمجتمع المحلى والدولة ...الخ ؟ [٣]

(٢) عوامل التغير الثقافى.

لقد أصبح من الشائع أن التغير الثقافى يحدث نتيجة عوامل داخلية وأخرى خارجية تحكم عملية التغير تلك ، فالعوامل الداخلية كتلك التى تطرأ على التغير المورفولوجى مثل الزيادة السكانية تكون نتيجة للزيادة فى معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات أو الهجرة الداخلية وظهور النفط

واستثماره وارتباط ذلك بالمشروعات التنموية وزيادة الخدمات أو عوامل خارجية تمثلت فى الهجرة ووجود العديد من الثقافات العرقية ذات الثقافات المتباينة وبالتالى زيادة الاتصال الثقافى، ولكننا لا نستطيع ان نفصل ونحدد فنقول أن هذا مرده إلى عوامل داخلية ، وذلك مرده إلى عوامل خارجية ، وأن ما نراه اليوم من متغيرات إنما هو حصاد التفاعل بين هذه العوامل جميعا. [٤] .

وقد ينبع التغير الثقافى عن طريق الاختراع بالاكتشاف وقد يأتى عن طريق انتشار السمات الثقافية الجديدة من ثقافات أخرى غريبة أو بعيدة . والاكتشاف إضافة جديدة إلى المعرفة كاكتشاف قارة جديدة أو جزيرة مجهولة أو طريق جديد .

أما الاختراع فهو عبارة عن تطبيق جديد لمعرفة قائمة بالفعل وذلك مثل الجمع بين الآلة البخارية والقارب النهرى لعمل سفينة تجارية .

والانتشار هو انتشار العناصر من ثقافة لأخرى ويجب ألا نسير وراء الأفكار الخاطئة التى تقول أن الاختراع عمل فردى ظهر من العدم. لأن شيئا لا يخرج من العدم ، ومصداق هذا القول أن الاختراعات الكبرى فى تاريخ الإنسان توصل إليها فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة ، ولم يكن ذلك ممكنا لو أن الاختراعات لم تقوم على المعرفة المتراكمة قبل ذلك .ولهذا فالقول أن الحاجة أم الاختراع

The Needs is the mother of invention

فيه من الصدق ما يجعلنا نعيد صياغته على النحو التالى :

" أن الثقافة القائمة هى أم الاختراع " (٥)

كما أن هذا القول كما يقول رالف بيلز وهارى هوجر فيه الكثير من الصدق اقل مما فيه من الفساد ، فحقيقة لأننا نجد فى مجتمعاتنا المعاصرة كثير من الاختراعات باعتبارها ثمرة البحوث والتجارب الموجهة عمدا ،إلا أن هذا الوضع نادر فى سائر المجتمعات الأخرى ، وهو لم يعرف فى مجتمعنا إلا مؤخرا جدا ، والأرجح أن معظم الاختراعات التى صنعها الإنسان قد تمت بطريق المصادفة البحتة كنتائج غير متوقعة لبعض الأفعال، وباستثناء الاختراعات الكثيرة التى لدينا معلومات وافية عنها فى التاريخ الحديث لثقافتنا ، فليست لدينا سوى معلومات ضئيلة للغاية عن أصول الاختراعات الأساسية التى شهدها التاريخ الإنسانى ، فمعلوماتنا عامة كل العمومية عن تاريخ سيطرة الإنسان على النار واستخدامه للقوس فى استخداماته الكثيرة ، والأساليب الفنية التى تقوم عليها الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة وغيرها كثير من الاختراعات الرئيسية التى تنهض عليها ثقافتنا المعقدة الراهنة بما فيها العجلة ، والقوس ، والتقويم ، والكتابة وطرق تصنيع المعادن . وقد انتشرت هذه الاختراعات من مكان نشأتها إلى أن وصلت الأماكن التى تنتشر فيها حاليا ، مارة كذلك بعديد من التغيرات والتعديلات والتحسينات بواسطة اختراعات أخرى ثانوية .

ولذا فإن الأنثروبولوجيين لا يعجزوا فقط أن يحددوا طريقا دقيقا لزمان ومكان ظهور كثير من الاختراعات وإنما مازال أمامهم الكثير الذى يجب أن يعرفوه عن عمليات الاختراع والانتشار ، وعلاقة هاتين العمليتين

بالتغيير الثقافى ، فقد شهد الشرق الأدنى عددا كبيرا من الاختراعات الأساسية. فى فترة من فترات تاريخه ، وذلك فى ميدان التكنولوجيا صحبتها بعض التجديدات الرئيسية فى ميدان التنظيم الاجتماعى والسياسى، والدين وعدد كبير من العناصر غير المادية للثقافة ، ويمكن أن نلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للصين ، حيث شهدت فى فترة من تاريخها بعض الاختراعات الهامة مثل نسج الحرير وتصنيع الورق ، والطباعة بالحروف المتحركة وتصنيع البارود ، والبوصلة الملاحية .

وأكد بعض المؤرخين أن هناك أربع اختراعات هامة فجرت إبان عصر النهضة الأوربية سلسلة ضخمة من التغيرات الثقافية مازالت موجودة فى كل من أوروبا وأمريكا حتى الوقت الحاضر ، وهذه الاختراعات هى الورق والطباعة مما أدى إلى سرعة انتشار المعرفة ، ثم البارود ثالثا الذى ساعد على قيام دول استعمارية عظمى ، ورابعا البوصلة التى أدت إلى تسهيل الملاحة وتقدمها وما ترتب على ذلك من عصر الاكتشافات والتجارة الدولية ، والاستعمار، وقد حدثت هذه الاختراعات الأربعة جميعا فى أول أمرها خارج أوروبا .

وتوضح هذه الأمثلة أن التجديدات الرئيسية سواء أكانت نتيجة الاختراع أو الانتشار - لا تتم منفردة وإنما فى مجموعات ، وبينما كانت هناك ثمة علاقة وظيفية تربط بينهما.

والحقيقة أن بعض الأنثروبولوجيين يؤكدون أن الاختراعات التكنولوجية الأساسية - وخاصة ما يتعلق منها بالبحث عن الطعام - تؤدى

دائما إلى تفجير حلقات من التغيرات الاجتماعية والثقافية السريعة وإلى تنشيط حركة التغيير فى كافة ميادين الثقافة الأخرى ، إلا أن الشواهد على هذا الرأى مازالت قليلة ، ذلك أن هناك بعض ميادين الثقافة كاللغة والفنون، وأنساق المعتقدات الدينية – التى تبدو فيها التجديدات مستقلة بشكل واضح عن التكنولوجيا أو التى تبدو فيها التجديدات على الأقل غير مرتبطة ارتباطا وثيقا مباشرا بالتغيير التكنولوجى.

ويتبين لنا بوضوح من العرض السابق أن الانتشار كالاختراع تماما يمثل حقيقة من حقائق الثقافة ، إلا أن الدراسات الخاصة بالانتشار اليوم تزداد ندرة لعدة أسباب يأتى فى مقدمتها أن دراسات الانتشار يمكن أن تدلنا بالقدر الكافى على كيفية حدوث ذلك أو سبب حدوثه ، ذلك أن دراسات الانتشار تدل على الطابع الوصفى وليس التفسيرى . بمعنى أن تطرح مشكلات أكثر مما تقدم إجابات . ومن الأسباب الأخرى تركيزها المتزايد على التحليل المركز لثقافات بعينها، فإذا نظرنا من وجهة نظر ثقافة معينة فسوف نجد أنه ليس من الأمور ذات الخطورة ما إذا كان عنصر معين قد نشأ نتيجة عملية اختراع داخلى أو أنه أستعير وتم تكيفه مع بقية عناصر الثقافة ، ويبدو أن المشكلة الهامة اليوم تمثل أساسا فى موضوع التجديد والتغيير وتطرح تساؤلات عن أشخاص المخترعين وعن عمليات التجديد والقبول الثقافى.[٦]

وقد يحدث التغير الثقافى عن طريق المجال الدينى (حيث نجد على سبيل المثال أن ظهور الدين الإسلامى قاد أكبر حركة تغير فى ثقافة

المجتمع العربى ثم الإسلامى فيما بعد ، وفى تنظيمه الاجتماعى (وشتى نواحى حياته) كما قد تنتقل شرارة التغير الثقافى والاجتماعى من داخل المجال الاقتصادى (كتطور نظم التجارة وأساليب الإدارة والصناعة ...الخ) أو من داخل المجال السياسى (كظهور بعض النظم الديكتاتورية أو نمو الاتجاهات الديموقراطية أو تطور الحركات العمالية وتعاظمها واتخاذها دورا سياسيا مؤثرا ...الخ) فكل تلك الظواهر المؤثرة عبارة عن طاقات فكرية وروحية جبارة يتطلب تحقيقها سلوكا اجتماعيا واسع النطاق بعيد المدى ، يكون هو نفسه حركة نمو للتغيير ، ويدلنا التاريخ الإنسانى على أن مظاهر التغير الثقافى موجودة لا تنقطع ولا تتوقف فى شتى أشكال ومراحل التنظيم الاجتماعى . وأن التغير طبيعة كامنة فى ذات الإنسان ، وجزء لا يتجزأ من تركيبه النفسى ، وأحد المقتضيات الأساسية لوجوده الاجتماعى ، وأدائه لواجبات حياته اليومية .

وقد يرجع التغير الثقافى كذلك إلى بعض الظروف الطبيعية أو الأفعال الإنسانية ، وقد تؤدى تلك الظروف إلى إحداث تلك التغيرات .

كما أن التغير يمكن أن يكون تلقائيا عارضا ، كما يمكن أن يكون مخططا أو مقصودا ، وربما يتم على مدى طويل وقد يتم على فترة وجيزة، قصيرة ، ومعنى هذا أن مفهوم التغير فى حد ذاته مفهوم محايد ، لأن التطورات التى تتم فى الثقافة يمكن أن تتخذ اتجاها إيجابيا ، كما قد تنمو نموا سلبيا ، وقد تقود إلى النمو والازدهار كما قد تدفع إلى الذبول أو الانهيار أو على الأقل التقلص .

وعلى هذا يمكن أن نشير إلى أهم المبادئ العامة فى التغير الثقافى على النحو التالى :-

(١) أن التغير الثقافى يشمل كل تغير فى أساليب السلوك والعمل التقليدى فى أى قطاع من قطاعات الثقافة ، طالما كان هذا التغير يؤثر فى حياة جانب كبير من أعضاء الجماعة وفى البناء الاجتماعى لهذه الجماعة .

(٢) تنطوى عملية التغير الثقافى على عملية اختيار (قد تكون واعية فى أغلب الأحيان بين العناصر الثقافية والعناصر الجديدة والمستحدثة ، كما تنطوى دائما على ضرورة استبعاد بعض العناصر الثقافية الموروثة التى يثبت عجزها عن التوافق والتناغم مع العناصر المستحدثة ومن ثم يصبح من اللازم التخلى عنها ونبذها وكثيرا ما تتأخر عملية الاستبعاد هذه إلى ما بعد فترة التجربة الأولية للاختراع أو التجديد ، وهو ما يمكن أن نسميه فترة انتقال يظهر فيها بكل جلاء عدم اتفاق بعض العناصر الجديدة مع العناصر القديمة ، وبعد أن تتم عملية الاستبعاد تلك يتحقق تكامل جديد للثقافة ، وذلك إذا فهمنا التكامل أو التوازن بمعناه الدينامى المستمر فى الحدوث للتلاؤم مع الظروف المتغيرة.[٧]

(٣) تميل بعض نواحى الثقافة إلى التغير أكثر من نواحى أخرى وهذا يرجع إلى طابع المجتمع ونمط الثقافة وربما كان هو سر التخلف الثقافى فى عدد من المجتمعات فقد تتغير التكنولوجيا مثلا ولا يتغير نظام الأسرة أو القوانين المنظمة للعلاقات الدولية .

(٤) قد يكون انتشار العناصر الثقافية نتيجة لاتصال عرضى غير مخطط بين ثقافتين ، وقد يكون راجعا إلى تأثير وسائل الإعلام أو النشر وربما يكون نتيجة لثورة تغير من نظام الحكم ومن التنظيم الاجتماعى

(٥) قد تكون الاختراعات أو التجديدات أو العناصر المستعارة من ثقافات أخرى ، اسهل فى تقبلها أو الأخذ بها أثناء الأزمات ، وفى أوقات التفكك الاجتماعى بعكس الحال أثناء فترات الاستقرار فقد تغير مركز المرأة كثيرا إبان الحرب العالمية الثانية، وفى الفترة التى أعقبتها مباشرة وهى فترة تفكك اجتماعى ، ولهذا قامت المرأة بأعمال واحتلت وظائف كانت ممنوعة منها .

(٦) يقبل الناس عناصر الثقافة الجديدة إذا تأكدوا من فائدتها وبشرط ملاءمتها لبقية عناصر الثقافة ، وينطبق هذا على عناصر الثقافة المادية وغير المادية ، على الرغم من المقارنة التى تحدث فى أول الأمر

(٧) كلما كانت الثقافتان متوازنتين ، كلما كان من السهل استعارة عناصر من الثقافة (أ) إلى الثقافة (ب) والعكس ، ولذلك نجد أن الثقافة الغربية تنفر من استعارة عناصر معينة من الثقافة السوفيتية والعكس

(٨) يكون انتشار شكل العنصر الثقافى اسهل فى انتشار معناه أو وظيفته ويرجع ذلك إلى الصعوبات التى تنشأ بسبب اختلاف اللغات ، وذلك مثل ما حدث عند استعارة بعض عناصر الثقافات اليابانية أو الهندية أو الصينية .

(٩) تبقى الرواسب الثقافية CULTURAL RESEDIUES التى

غزتها العناصر الثقافية الجديدة ، ذات فاعلية بعض الوقت ، وتظهر مقاومة تخف قوتها تدريجيا خصوصا إذا كان المجتمع يحاول إنهاء فترة الانتقال بسرعة .

(١٠)التغير فى جانب من الثقافة غالبا ما يؤدى إلى تغير فى جانب آخر ، ومثال ذلك ، أن تغير الأساس الاقتصادى للمجتمع لابد أن يستتبعه تغير فى التسلسل الطبقى ، وفى نظام التربية وفى طبيعة العلاقات الاجتماعية ، كما أن تغير أيدلوجية المجتمع المتعلقة بالرفاهية الاجتماعية .

(١١)تدخل العناصر الثقافية الجديدة عن طريق الأفراد ، وباعتناقهم المستمر لها واستخدمهم إياها ، تأخذ صفة العمومية تدريجيا عن طريق التقليد أولا ثم عن طريق الاقتناع ثانيا ، وفى الغالب يقبل الشباب على الترحيب بمثل هذه العناصر وخاصة إذا كانوا غير مرتبطين بمصالح تقليدية يخافون عليها. [٨]

(٣) أهم النظريات الأنثروبولوجية المفسرة للتغير الثقافى .

لقد كانت دراسات التغير الثقافى تمثل أحد الاهتمامات الأساسية المبكرة للأنثروبولوجيا لكنها أخذت مضامين نظرية مختلفة خلال سنوات تطور هذا العلم ، ففى منتصف القرن التاسع حينما انفصلت الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع عن التاريخ والفلسفة الاجتماعية ، كان الاهتمام الأساسى هو تفسير التقدم من العبودية إلى المدنية ، وفى محاولة لكشف القوانين العامة التى تحكم تطور الثقافة للمجتمع ، ويظهر ذلك فى أعمال

مورجان وسبنسر ، ثم حدث عام ١٨٩٦ تطور فى اتجاه هذه الدراسات ، تمثل فى الهجوم الذى أثاره كل من ريفيرز Rivers ، وبواس Boas وغيرهما على الإفراط فى تبسيط التعميمات التى يعتمد عليها الاتجاه التطورى ، مما أدى إلى توجيه الاهتمام إلى تاريخ ثقافات معينة بالذات ، فظهرت الثقافات التاريخية والانتشارية عن النمو والتغير الثقافى ، وفى عام ١٩٢٠ اتجه المدخل الوظيفى نحو دراسة الاتصال الثقافى والتثقيف ، كما ازدهرت الأنثربولوجيا التطبيقية التى عنيت بتحليل عمليات التغير الثقافى ونتائجها فى مجتمعات مختلفة. (٩)

ونحاول أن نقدم عرضا موجزا لهذه النظريات خلال الصفحات القادمة على النحو التالى:-

(١) نظرية التطور الثقافى

وترجع أصول هذه النظرية (النزعة التطورية الثقافية) إلى تايلور فى كتابه الشهير الثقافة البدائية Primitive culture وإلى لويس مورجان فى كتابه المعنون المجتمع القديم Ancient Society. على أننا لا يجب أن نربط النزعة التطورية الثقافية بالداروانية الاجتماعية الفجة عند هربرت سبنسر واتباعه الذين طبقوا بشكل مخل المبادئ التى فهموها من فكرة البقاء للأصلح على المجتمعات وعلى الإنسان فى المجتمع .

وقد ظهر تأكيد التطورية الثقافية على فكرة التقدم أو على التطور إلى الأمام فى جزء منه على الأقل كإجابة على نظرية التدهور الثقافى ، فقد كان كل من تايلور ، ومورجان يرى من البديهى أن جميع القبائل والأمم تقدمت

ثقافيا بوجه عام ، على الرغم من أن هذا التطور قد مر ببعض النكسات العارضة وتم بدرجات متباينة بطبيعة الحال ، ويقول مورجان فى هذا الصدد أن تاريخ النوع الإنسانى واحد فى مصدره، واحد فى تجربته وواحد فى تقدمه.[١٠] ثم انطلقت النزعة التطورية من الحقيقة المؤكدة التى مؤداها أن الشعوب القائمة حاليا ، وكذلك الشعوب الماضية قد عاشت ومازالت تعيش فى مستويات ثقافية متباينة ، وقد قدم مورجان Morgan أكثر المراحل التطورية تحديدا ، إذ يرى أن الثقافة تبدأ بالمراحل الآتية :-

(١) مرحلة التوحش الدنيا حيث لم يكن الإنسان يزيد كثيرا عن الحيوان فى درجة التقدم ، ثم تقدم بعدها إلى المرحلة التالية وهى

(٢) مرحلة التوحش الوسطى .

(٣) ثم مرحلة التوحش العليا وذلك تبعا لبعض مظاهر التقدم التى أحرزها فى مجالات الأساليب الفنية ، والتنظيم الاجتماعى ، والدين .

(٤) ثم انتقلت الثقافة إلى مرحلة البربرية الدنيا .

(٥) ثم مرحلة البربرية الوسطى .

(٦) ثم مرحلة البربرية العليا. وقد تميزت حركة الثقافة هذه من مرحلة إلى أخرى باكتساب الإنسان تدريجيا لمزيد من الأساليب الفنية ونمو نظم اجتماعية أكثر تقدما .

(٧) وأخيرا وصلت الثقافة إلى المرحلة السابقة وهى مرحلة الحضارة وتتميز هذه المرحلة باختراع الكتابة الصوتية وبدايات الثقافة الأوربية كما نعرفها اليوم، ويؤكد الفكر التطورى أن هذا التسلسل

ضروري وحتمي وهو يخضع - على حد قول - مورجان للمنطق الطبيعي - للعقل الإنساني .

لكن ينبغي أن نؤكد أن هذا المخطط العام لا يزعم أنه يكشف عن تاريخ ثقافات أو شعوب معينة ، وإنما هو يوجز على وجه الإجمال توجه الثقافة ككل ، فنحن هنا إزاء تلخيص لتطور الثقافة ، وليست ثقافة معينة أو شعب معين ، فمن المؤكد تماما أن ينتقل مجتمعا ما - بفضل اتصالاته مع شعب آخر اكثر ثقافة - من ثقافة ممثلة لمرحلة التوحش انتقالا مباشرا إلى ثقافة من ثقافات عصر الحضارة ، ومن ثم يسقط مرحلة البربرية كلية ، فالثقافة فقط فى كل جوانبها هى التى يمكن أن يقال أنها من أدنى مراحل التوحش مارة بكل المراجل الوسيطة حتى تحقق ازدهارها الكامل فى مرحلة الحضارة .لكن برغم هذا الانتقاد إلا أن هناك إسهامات إيجابية للمفكرين التطوريين يمكن إجمالها على النحو التالى :-

١- كان المفكرون التطوريون أول من أدركوا واستخدموا مفهوم الثقافة ، وخلصوا هذا المفهوم من الخلط الذى كان قائما بينه وبين مفهوم العرق والسلالة ونجد تعريف تايلور الشهير يؤكد هذه النقطة .

٢- كان المفكرون التطوريون من بين أول من أدركوا إمكانات قيام علم الثقافة ، بمعنى أنهم رأوا أن الظواهر الثقافية ليست عشوائية وإنما هى تخضع كالظواهر الطبيعية للقوانين والتعميمات العلمية .

٣- كما طور المفكرون التطورين نموذجا إجماليا للتغير الثقافى ، كان بمثابة إطار لوضعهم ، ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مجموعة من الفروض عن

الإنسان والثقافة لتفسير الأحداث التى ينظمها هذا النموذج ، وكانوا يفترضون أن الظواهر الثقافية المتشابهة التى توجد فى أجزاء متباعدة من العالم تمثل اختراعات مستقلة ، والنتاج الحتمى محدد سلفا من التطور الثقافى.[11]

وهذا يبين أن الاتجاه التطورى كان له اكثر من قيمة وفائدة تاريخية، فقد هيا الأساس للمنهج التاريخى الجدلى عند الماركسية ، ومن منطلق النظرية التطورية تأخذ كما يقول Hersokovits بتلك المسلمة القائلة بأن التاريخ الإنسانى إنما يتجه فى تتابع وحيد ، حيث تتطور النظم والعقائد استنادا لمبدأ الوحدة النفسية لبنى البشر ، ومكن هنا تتطور الثقافة فى المجتمعات الإنسانية.[12]

(٣) النظرية التاريخية والانتشارية

ويمثل هذه النظرية كل من فرانز بواس Franz Boas وليزلى سبير Leslie spier وكارل ويسلر وتدور دراسات بواس وزملاؤه من العلماء الانثربولوجيين حول التركيز على النظرة التعددية إلى تاريخ الثقافة، على خلاف النظرة الواحدية التى كان يؤمن بها التطوريون الأوائل

وقد ركز بواس أراءه أساسا حول سكان أمريكا الأصليين ، وكانت فلسفة المنهج عند بواس قد تطورت كاستجابة حادة للنزعة التطورية ، وكان يعارض هذه النظرية الثقافية بشدة باعتبارها نظرية فلسفية أو منطقية مبتسرة تقوم على التأمل اكثر مما تقوم على البحث العلمى الدقيق .

ولذلك اتجه بواس بدلا من هذا إلى البحث الميدانى لبعض المشكلات

المحددة تحديدا دقيقا . وقد بلغ من تحديدها أن الباحث يستطيع أن يتحكم بشكل صارم فى المدخلات العديدة الداخلة فى البيانات الثقافية، وكان بواس يرى أن دراسة العديد من هذه المشكلات يمكن أن يؤدى بنا إلى نظرية متسقة وسليمة من الناحية التاريخية .

والجدير بالذكر هنا ان بواس لم يستطع أن يقدم صياغة منظمه لنظريته ومنهجه وإنما توصل بالاشتراك مع العديد من مساعديه وتلاميذه إلى منهج فى دراسة المشكلات الثقافية يعتبر ذا طابع إمبريقى.

وتتلخص أهم النتائج التى توصل إليها بواس من دراسته عن مثيولوجيا التسمشيان فى أن الثقافات تتكون من عناصر متفرقة ، أى من موضوعات يمكن فصلها عن بعضها البعض ، ويمكن أن تكون أنماطا متميزة للسلوك أو ثمرة هذه الأنماط السلوكية التى تبدو فى الأشياء المادية ، وتكتسب هذه العناصر الثقافية طابعها نتيجة العوامل التاريخية أساسا ، التى يلعب فيها الانتشار دورا بارزا، ومن هنا فإن أى ثقافة معينة تتكون فى معظمها من عناصر وفدت إلى الثقافة من عناصر شديدة التباين عن بعضها، على الرغم من أنها قد تتضمن بعض العناصر القليلة التى ظهرت عن طريق الاختراع المستقل ، وعلى هذا يرى ليزلى سابيران الغالبية العظمى من الأنثروبولوجيين الأمريكيين يعتبرون أن كل ثقافة تتكون من عدد كبير من العناصر المنفصلة التى ترتبط ببعضها من خلال سلسلة من الأحداث التاريخية ، فدارس هذه الثقافة لم يكن يعتقد أن هذه العناصر ترتبط ببعضها ارتباطا وظيفيا ، وإنما هى ترتبط ببعضها فى نظر حملة الثقافة بسبب عملية إعادة التفسير التى خضعت لها هذه العناصر.

ولاشك أن هذا الاعتقاد قد فند الرأى القائل بأن الأشكال الثقافية توجد فى تسلسل حتمى أيا كان ، وهو موقف أساسى من المواقف التى يتمسك بها أصحاب النزعات التطورية الثقافية .

ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن التطور الثقافى ليس له وجود ، فبواس ومدرسته لم يكونوا يعارضون التطور بقدر ما كانوا يتجنبون الخوض فيه مفضلين عنه البحوث التاريخية ذات الموضوعات المحددة تحديدا دقيقا ، وقد كان هذا التركيز على المشكلات التاريخية وعلى ظاهرة الانتشار مميزا للمدرسة الأمريكية خلال الثلث الأول من هذا القرن ، وادى هذا إلى ظهور أداتين منهجيتين هما :-

- نظرية المنطقة الثقافية The Cultural Area
- ونظرية العمر والمنطقة The age –area Theory وإذا نظرنا إلى مفهوم المنطقة الثقافية فى ذاته وجدناه مجرد أداة لتصنيف الثقافات أو بالأحرى لتصنيف مجموعات من العناصر الثقافية بالنظر إلى الأقاليم الجغرافية ، وقد ظهر هذا المفهوم فى الواقع كوسيلة لترتيب المواد والبيانات الثقافية المحفوظة فى المتاحف ، (وقد عمل كارل ويسلر Wissler وهو أول من صاغ مفهوم المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة لعدة سنوات أميناً لمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى) ثم اتجه ويسلر وآخرون فيما بعد إلى استخدام هذا المفهوم كأداة فى الدراسات التاريخية .

وقد لاحظ ويسلر فى محاولته تصنيف المواد والبيانات المتوفرة عن

ثقافات الهنود الحمر الأمريكيين ما يلى :-

(١) أن بعض العناصر الثقافيــة المعينـة (سـواء كـانت تضـم بعـض الأشـياء المادية كــالأدوات ، والأوانــى أو المســاكن أو طــرق معينــة للتنظيــم الاجتماعى أو المعتقدات الدينية) تميل إلى التجمع فــى أقـاليم معينـة، ولذلك أطلق عليها اسم المناطق الثقافية ، وان تقتصر على هذه الأقاليم .

(٢) أن كل شعب من شعوب منطقة ثقافيــة معينـة يتمـيز بالعنـاصر المـيزة للمنطقة بدرجة تقل أو تكثر من شـعب لآخـر ، علـى الرغـم مـن أنـها ليست متطابقة ثقافيا .

(٣) أن بعض شـعوب منطقـة ثقافيـة معينـة تتمـيز بكـلّ العنـاصر الثقافيـة الميزة لتلك المنطقة أو بالغالبية العظمى منها على الأقل ، وهنا توصـف ثقافات تلك الشعوب بأنها طرازيه أو ممثلة للمنطقة وتمثـل مركزهـا الثقافى .

(٤) أن بقية شعوب المنطقة الثقافية تتميز بقـدر اقـل مـن العنـاصر الثقافيـة الميزة لتلك المنطقة ، ويتقلص عدد تلك العناصر تبعا لدرجة بعـد هـذه الشعوب عن المركز الثقافى للمنطقة .

(٥) أن الشعوب التي تعيش على تخوم المنطقة تكون ذات ثقافات هامشية أو مختلطة ، بمعنى أن عناصر ثقافتها تكون مشـتقة مّن أكـثر مـن مركـز ثقافى واحد .

وقـد حـاول ويسـلر أن يضفـى علـى مفـهوم المنطقـة الثقافيـة مدلـولا تاريخيــا عــن طريق الربـــط بينه وبين مفهوم العمر والمنطقة ، من خلال

التركيز على نقطتين أساسيتين هما :-

(أ) أن العناصر الثقافية تتجه إلى الانتشار بنفس المعدل فـى كـل الاتجاهـات انطلاقا من نقطة المنشأ .

(ب) أن المنطقة التى ينتشر فيها عنصر معين تدل على حد ما على عمر هـذا العنصر بالقياس إلى العناصر الأخرى المنتشرة داخل نفس الإقليم وهكذا

فمثلا إذا كان هنـاك عنصـران ثقافيـان مثـل أ،ب انتشـر أ مـن نفس المصدر ، إلا أن العنصر (أ) قد انتشر فى منطقة أوسع من العنصر (ب) فإننا نستنتج أن العنصر (أ) أقدم من العنصر (ب) وقد وجهت انتقادات حادة إلى هذه الوسيلة (المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة) فى إعادة رسم صـورة التاريخ الثقافى . وذلك لأن العنـاصر الثقافيـة نـادرا – هـذا إذا حـدث علـى الإطلاق – ما تنتشـر بنفـس المعـدل فـى كـل الاتجاهـات انطلاقـا مـن مركـز نشأتها، ومن ثم فلابد من إدخال فريد من التجديدات علـى الفكـرة القائلـة بان العناصر الثقافية التى تتباين مناطق انتشـارها تتبـاين أيضـا مـن ناحيـة العمر ، فهناك بعض العوامل الجغرافية والاجتماعية التـى يمكـن أن تعـوق انتشار عنصر ما فى اتجاه معين وتعجـل بـه فـى اتجـاه آخـر ، وهكـذا فـإن العناصر يمكن أنم تنتشر على امتداد طرق التجارة بسرعة أكبر من انتشارها فى اتجاهات أخرى ، ثم أن هناك بعض العناصر(كالزراعة بـدون رى) التـى لا تستطيع الانتشار فى إقليم غير مناسب لها كالصحراء الجافـة علـى سـبيل المثال ، كما أن هناك بعض العناصر الثقافية – كبعض العنـاصر الطقوسـية – قد تنتشر بسرعة اقل من عناصر ثقافية أخرى كالأدوات ، أو المساكـــن

والأوانى أو بعض قطع الملابس .

لكن نظرية المناطق الثقافية تتميز بعمق زمنى ، كما تتميز أيضا بالسمات الدالة على الثبات فى نفس الوقت . (١٣)

(٣) نظرية الاتصال الثقافى أو التثقيف . Acculturation

التثقيف أو التثاقف هو العملية التى يستطيع الفرد أو الجماعة عن طريقها اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال الاتصال والتفاعل بينهما ، غير أن التثاقف بالنسبة للفرد هو عملية تعلم اجتماعى أشبه بعملية التنشئة الاجتماعية التى تلعب فيها اللغة دورا جوهريا أما بالنسبة للمجتمع فالتثاقف هو عملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى مجتمعات أخرى مع تعرضها لعملية التبدل التى تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمع التى دخلت إليها.

غير أن هذه المقاييس والقيم والأحكام التى دخلت إلى هذه المجتمعات غالبا ما يسبب لها ظاهرة الصراع الحضارى أى الصراع بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة . (١٤)

وقد شاع استخدم هذا المصطلح فى الانثربولوجيا فى أواخر القرن التاسع عشر وخصوصا فى الولايات المتحدة ، والتى اهتمت الأنثربولوجيا فيها بالدراسات الثقافية . وكان من المألوف النظر إلى الثقافة عامة من منظور زمانى معين ، أو اعتبار ثقافة بعينها نقطة مرجعية فى تتبع التأثيرات المختلفة التى تظهر نتيجة الاتصال فى ثقافات أخرى ولذلك اهتم الأنثربولوجيون بدراسة انتقال التراث الثقافى زمنيا داخل الثقافة الواحدة

أو عبر ثقافات متعددة ، وفي نفس الوقت أخذت مفهوما مثل الانتشار والتمثيل مضمونات أخرى تستقيم مع مفهوم التثقيف.

وتشبه عملية التثقيف من وجهة نظر الفرد التعليم الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية للبالغين التي يؤدى منها الاتصال اللفظى دورا سياسيا .

ويعنى التثقف من وجهة النظر الاجتماعية انتشار القيم والأساليب والنظم ، وما يظهر عليها من تعديلات في ضوء ظروف معينة ، مما قد تؤدى في بعض الأحيان إلى ظهور ما يسمى بالصراع الثقافي.[١٥]

والاتصال الثقافي يحدث من خلال عملية الإنتشار أى انتشار العناصر أو النماذج الثقافية من مكانها الأصلى إلى المكان الذى تفد إليه ، ومن الممكن أن تكون تلك العناصر الواحدة من القوة والشمول بحيث تحدث تغيرات جذرية أو شاملة في الثقافة الجديدة . وقد ميز ازوالد شبرانجر Spranger بين أربعة أنماط رئيسية للالتقاء الثقافى وهى كالتالى:-

١- الهجرة التلقائية ،(العفوية غير المقصودة) .

٢- الاستعمار وما ارتبط به من تغيير مقصود .

٣- التأثير الفكرى على البعد .

٤- الأحياء بمعنى إعادة صياغة بعض عناصر الثقافة القديمة بشكل خلاق وأسلوب عصرى جديد.

وانتقال بعض عناصر الثقافة إلى ثقافة أخرى سواء فى شكلها المادى أو غير المادى من الثقافة ، هو تقسيم مصطنع من اجل التحليل العلمى فقط ذلك أن الثقافة كما نعلم كيان واحد متكامل تربط أجزاؤه علاقات تفاعل

كثيفة لا تسمح بهذا الفصل إلا للأغـراض النظريـة فقـط . وهـذا التفـاعل هـو الذى يفسر اعتقادنا بان التغير فى أحد قطاعات الثقافـة يحـدث ردود الفعـل مؤكدة فى بقية القطاعات .

وقد تتم عملية التثقيف على نحـو غـير إرادى وغـير مرغـوب مثـل الحالات التى حدثت فى ظل عصـر الاسـتعمار ، حيـث بـدأت بعـض الـدول الاستعمارية بفرض عناصر ثقافتها عنوة وبقرارات سياسية او بشكل تسلطى على ثقافات المجتمعات الخاضعة لها ، وحدثت حالة أخرى شهيرة من هذا النوع عندما خضعت اليابـان عنـوة للتأثـير الأمريكـى بعـد الحـرب العالميـة الثانية.

غير أنه من المكن أن يحـدث انفتـاح الثقافـة المتخلفـة علـى الثقافـة المتطورة بشـكل سـلمى هـادئ مرغـوب ، وقـد يكـون غـير واعـى فـى بعـض الأحيان، ومن أن التثقيف الذى يتم على هذا النحو يصبح أكثر فاعلية وابعد تأثيرا على المدى الطويل ، ولعل هذا النوع من التثقيف هو القاعدة الشـائعة الآن فى المرحلة الراهنة من تطـور البـلاد الناميـة . حيـث يسـعى المجتمـع النامى فى حماس وإقبال نحـو الثقافـة المتقدمـة ، يسـتلهم نظمـها ويقتبـس عنها ويقلدها ، ويدعم المؤثرات الوافدة منها .

إلا أننا لا يصح أن نتصـور أن التأثـير فـى عمليـة التثقيـف يتـم فـى جانب واحد فقط ، وأن عملية التثقيف تسير فى اتجاه واحد ، ذلك أن أبنـاء الثقافتين الذين يدخلون فى علاقة تفاعل ، وفى أثناء عملية التثقيف يؤثرون فى بعضهم البعض ، وإن كان من الضرورى والمنطقى أن يكـون تـأثر الجـانب

النامى أقوى واشد من تأثر الجانب المتقدم . كما أن التثقف يمكن أن يتم رأسيا عن طريق بعض الطبقات الاجتماعية على الأدنى أو العكس ، وكثيرا ما تتلاقى فى خطوط التثقيف واتجاهاته فى نفس الوقت فتحدث حركة التغيير بشكل رأسى وبشكل أفقى فى وقت واحد ، وتتقاطع مع بعضها حيث يمكن أن تبدأ العلاقة الثقافية –أفقيا– بأن تستعيد بعض جماعات الصفوة وبعض العناصر والنماذج الثقافية – خلال الاتصال بثقافة أخرى ، ثم تبدأ تلك الجماعات نفسها بالعمل على نشر تلك العناصر أو بعضها – ربما كما هى أو بعد تعديلها – إلى الجماعات والقطاعات الأدنى داخل المجتمع. وهكذا. (١٦)

(٤) الاتجاه الوظيفى :

ويمثل هذا الاتجاه كتابات مالينوفسكى العديدة وبخاصة التى تتعلق بالثقافة وبصفة خاصة فى كتابيه نظرية علمية فى الثقافة الذى صدر عام ١٩٤٤ وديناميات التغير الثقافى عام ١٩٤٥. (٠)

ويؤكد مالينوفسكى فى البداية أن كل ثقافة حية هى عبارة عن كيان كلى وظيفى ومتكامل ، شبيه بالكائن الحى ، وأننا لا نستطيع أن نفهم أى جزء من أى ثقافة إلا فى ضوء علاقته بالكل .

فالأداء الوظيفى للعنصر الثقافى داخل النسق الكلى للثقافة هو الذى يفسر هذا العنصر ويكشف عن هويته الحقيقية ، فنحن لا نستطيع أن نفهم العنصر الثقافى عن طر يق إعادة رسم صورة تاريخ إنشاؤه وانتشاره ، وإنما من خلال طرق تأثيره فى عناصر النسق الأخرى ، فمن الواضح إن التاريخ لا

يلعب دورا فى هذه النظرة ، فالثقافة تدرس كما هى موجودة بالفعل وحسب مستوى زمنى واحد ، وليس فى ضوء نموها التاريخى أو التطورى .

أما الجانب الثانى فى نظرية مالنيوفسكى فهو محاولة لتفسير الثقافة ذاتها من أجل تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الإنسانية ، ومن ثم تفسير وجودها عند الناس وما حاول مالينوفسكى أن يربط الثقافة فى كل جوانبها الرئيسية بالاحتياجات الإنسانية أى يوجد علاقة بين متطلبات الإنسان ككائن حى بيولوجى وأساليبه فى إشباع هذه المتطلبات ، التى يمكن أن تنطبق على الإنسانية جمعاء .

وفى رأى مالينوفسكى أن البشر فى كل مكان عليهم أن يشبعوا سبع احتياجات بيولوجية أساسية إذا ما أرادوا ان يكتب لهم البقاء ، وهذه الاحتياجات هى :-

الاحتياجات الغذائية والاحتياجات التناسلية والحاجة إلى الراحة، والأمن، والحركة والنمو والصحة. ونجد فى كل مجتمع فى العالم نوعها من الاستجابات الثقافية Cultural Responses لكل من هذه الاحتياجات الأساسية Human Needs. وهذا ما يوضحه الجدول الآتى:-

الحاجات الأولية	الاستجابة الثقافية
١-الطعام	١-نظام التغذية
٢-الحاجة إلى الراحة	٢-النوم والتهوية
٣-الدفاع عن النفس	٣-الأسلحة والرماح

٤-الوقاية من ويلات الجوع وشدة الحرارة	٤-المأوى ، والخيام والمنازل ، والملابس ، والأزياء.
٥-الجنس	٥- ضبط السلوك الجنسى
٦-التناسل	٦-نظام الأسرة وتربية الأطفال
٧-الصحة	٧-العلاج والشفاء والأدوية
الحاجات الثانوية أو المشتقة	**الاستجابة الثقافية**
٨-انتقال الثقافة	٨-التربية
٩-الاتصال	٩-اللغة
١٠-القدرة على العمل اليدوى	١٠-الثقافة المادية في النسق الاقتصادى
١١-تنظيم المناشط الجمعية	١١-القيادة
١٢-الضبط الاجتماعى	١٢-جزاءات القانون والعادات

هذا وتستند الطريقة التى تربط وتصل بين استجابات الثقافة وحاجات الإنسان إلى نمطين من أنماط السلوك الاجتماعى للإنسان ، أولهما أن بنى البشر إنما يعيشون حاجاتهم بطريقة جمعية collectiveبالانخراط فى شتى الجماعات والزمر.

وثانيهما أن إشباع تلك الحاجات إنما يأتى عن طريق المناشط التى تحدد مجالها قواعد العرف الاجتماعى أو ما نسميه بالنظم Institutions، حيث أن النظم هى وسائل الثقافة أو استجابتها لإشباع وسد حاجات الإنسان.

ويتحقق النظام عند مالينوفسكى بانبثاقه عـن مجموعـة أو جماعـات مشخصة تربطهم رابطة الفكر والعمل ويتبعون نسقا من القواعد والجـزاءات تسود فى بيئة خاصة ومن هنا تتضح لنا العلاقـة الوثيقـة التـى تربـط بيـن النظـام كوحـدة ثقافية معزولة من جهة وبين نسق الحاجات الإنسانية التـى تكون عناصر الثقافة هى استجابتها ورد فعلها المباشر .

وتتميز نظرة مالينوفسكى إلى الثقافة باسـتخدامها مفـهوم الوظيفـة، وتأكيدها على الاتجاه غير التاريخى فى فهم الظواهر الثقافية، وربما كـانت تلك السمة الأخيرة هى التى تربط مالينوفسكى براد كليف براون لكن براون على خلاف مع مالينوفسكى فقد ركز اهتمامه على المجتمع وليس الثقافـة ، ويعتبر براون نفسه عالم اجتماع أو أنثروبولوجيا اجتماعية أكثر منه دارسـا للثقافة.

كما يلاحظ أن راد كليف براون لم يحاول – كما فعل مالينوفسـكى – أن يفسر المجتمع أو الثقافة فى ضوء الاعتبارات البيولوجية ، وكرس جهده لدراسة المجتمعات نفسها دراسة مقارنة ، معتمدا على المـادة المتاحـة التـى قدمها علم الانثربولوجيا الاجتماعية ، ولم يكـن هدفـه مـن تلـك الدراسـات تاريخيا أو تطوريا ، فـهو يرفـض هذيـن الاتجـاهين معـا ، مفضـلا عليـهما البحوث غير التاريخية .(١٧)

وسعى راد كليف براون إلى تحقيق الأهداف التالية :-

(١) الوصف الدقيق للأداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فعلا فى المجتمعات الإنسانية مؤكدا بوجه خاص دورها فى الحفاظ على البناء الاجتماعى .

(٢) التصنيف المنهجى للظواهر الاجتماعية ، مع استخدام مصطلحات على قدر مناسب من الدقة .

(٣) صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، وذلك من خلال المناهج العلمية التى تناظر مثيلاتها فى العلوم الطبيعية.

وقد استطاعت دراسات مالينوفسكى وراد كليف وبراون أن تحول كثيرا من علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين عن اهتمامهم السابق بالدراسات التاريخية لكى يبدو اهتماما جديا بفحص مناهجهم واتجاهاتهم و إعادة تحديدها . ومن ثم عمل كثيرا من اتباعهم فى السنوات الأخيرة على السير قدما بعملية تحليل التكامل الثقافى. [١٨]

(٤)معوقات التغير الثقافى ومشكلاته

لا شك أن طبيعة التغير الثقافى تتسم بأنها يمكن أن تتم بشكل متناغم أو بشكل مختل ، ويتميز التغير الثقافى المختل بوجود فروق كبيرة واضحة فى السرعة التى يتم بها ، والمدى الزمنى الذى يحدث فى محاولات التنمية على الصعيد التكنولوجى الفنى ، والاقتصادى والاجتماعى والثقافى . كما قد يميز التغير الثقافى المختل عمليات الاندفاع إلى الأمام والتقهقر ، والنمو والجمود والدينامية والإستاتيكية، كما أن هذا التغير الثقافى المختل

يؤدى إلى تناقضات وصراعات حادة فى المجتمع ، وتلك الظاهرة هى التى يطلق عليها وليام أوجبرن اسم الهوة الثقافية Cultural Lag.

وبهذا فإن معوقات التغير الثقافى هى عقبات تحد من طاقة النسق الثقافى وديناميته ، وهى مشكلات يمكن أن تؤدى إلى تباطؤ أجزاء ثقافية فى مقابل سرعة أجزاء أخرى ، قد تؤدى إلى تغيير ميكانيزمات التفاعل الاجتماعى فى اتجاه التنمية.

ويمكن أن نحصر فى هذا الصدد أهم معوقات النسق الثقافى على النحو التالى :-

(ا) العزلة الاجتماعية :

وتمثل حالة العزلة الاجتماعية عندما يتمسك الفرد بالسنن القديمة وتقاليد المجتمع التى تؤدى إلى جمود نسبى فى مظاهر الحياة الاجتماعية ، وحينما يحدث أى تغير ثقافى فى المجتمع تحدث هنا حالة من الصراع الثقافى الناجم عن مقاومة التغير والارتباط بالعالم الخارجى والتمسك بالمعايير والسنن الأخلاقية القديمة، وتتميز المجتمعات المحافظة كالمجتمع الريفى والبدوى بأنها أكثر التفافا حول الذات من المجتمعات الحضرية ، حيث يظهر التضامن العائلى إلى أقصى حدود التضامن ، فتحول الأسرة دون امتزاج أفرادها فى جماعات ، فتمحو الشخصية المستقلة والآراء الذاتية ، ولذا يشعر الفرد بالعزلة الاجتماعية عن أى اتصال خاص إلا فى الحدود التى ترسمها له أسرته وتقاليده وبيئته ولذا يظل محروما من كل تجديد لبعده عن مؤثرات التطور .[١٩]

(٢) انعدام التكامل الثقافي

باعتبار أن الثقافة كما يقول مالينوفسكى وحدة كلية وظيفية تتصل فيها الأجزاء والعناصر اتصالا وثيقا مباشرا ، فإن كل ثقافة تخضع لعمليات التغير ، والتغير عادة ما يكون بطيئا فى المجتمعات الثابتة نسبيا أو المنعزلة عن المجتمعات الأخرى ، وقد يكون التغير فى المجتمعات الدينامية سريعا جدا فى ميادين كثيرة مثل التكنولوجيا والعادات والاتجاهات .

لكن فى حالة إذا ما حدث أن عمل عنصر ثقافى منفردا ومستقلا عن باقى العناصر الثقافية الأخرى التى تؤلف الثقافة جميعا فأن الاثر الأكبر هو اتجاه مظاهر الارتباط والتكامل إلى الانفصال والتفكك وعدم التكامل الثقافى.

(٣) سوء التكيف الثقافي Maladptation

باعتبار أن الثقافة كما تقول روث بندكت تشبه الفرد من حيث أنها نمط متسق بدرجة تقل أو تكبر للفكر والسلوك ، فكل ثقافة تشهد مجموعة متميزة من الأهداف والغايات التى قد لا يشترك منها بالضرورة مع مجتمعات أخرى ، ومن ثم فإن كل شعب عليه أن ينظم خبراته ، وأن يتجه اللاتجانس بين أنماط السلوك إلى أن يأخذ شكلا أكثر تكاملا فى ضوء متطلبات الأغراض المتميزة للثقافة.[٢٠] فإن الثقافة تخضع باستمرار للتغير المستمر ، ولذا فإن أى تغير فى عناصر الثقافة لابد أن يتبعه تكيف من جانب الأفراد الذين يحملون عناصر الثقافة . لأن ظاهرة التكيف هى عملية قبول أفراد المجتمع للمواقف الجديدة التى تسود الآراء والاتجاهات المستحدثة فى جوانب الحياة الاجتماعية وسعى الإنسان إلى التكيف مع

البيئة والمحيط الذى يعيش فيه .

وعلى هذا فحينما لا يتقبل أفراد المجتمع التجديدات التى تحدث فى المجتمع وفى عناصر الثقافة فإنه يحدث ما يسمى بسوء التكيف وبالتالى عدم تقبل أنماط الثقافة الجديدة . (٢١)

ولعل أهم مشكلات التغير الثقافى اليوم تستلزم العمليات الثقافية ، وتتضمن تلك العمليات مشكلة الشخص المجدد ، وتبنى بعض الباحثين الرأى القائل بأن التغير لا يمكن أن يدرس دراسة مفيدة إلا فى ضوء اتجاهات الأفراد وسلوكهم ، وبالرغم من تأكيد بعض الدراسات بأن أكثر الأفراد إيجابية هم أولئك الذين يشغلون مواقع رفيعة فى المجتمع ، إلا أن بارنت Barnett قال بأن وجود الأفراد المجددين والأشخاص الذين يتقبلون التجديد هم اكثر الناس احتمالا لأن يكونوا منشقين عن المجتمع أو ساخطين عليه . وتبنى آخرون وجهة النظر القائلة أن هناك عمليات دينامية فى الثقافة والمجتمع تنطوى على التغير وأنه من المكن عزل تلك العمليات ودراستها .

الخاتمة :

وهكذا يتضح من التحليل السابق لقضايا التغير الثقافى وديناميته وعوامله ، أن التغير الثقافى ظاهرة عامة تسود كل المجتمعات الإنسانية، سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، وإن كانت بدرجات متفاوتة، فالتغير عادة ما يكون بطيئا فى المجتمعات المنعزلة كالمجتمعات الريفية أو الرعوة والبدوية ، وعادة ما يكون التغير الثقافى سريعا فى المجتمعات الحضرية

والمفتوحة .

لكن على الرغم من أن معدلات التغير الثقافى يمكن أن تتفاوت من ثقافة إلى أخرى إلا أن استمرار بعض عناصر التراث الثقافى تدل على أن الثبات النسبى يمثل سمة مميزة للثقافات الإنسانية بنفس القدر . ولذنا يعتبر فهم عملية التفاعل المتبادل بين هاتين الظاهرتين ذا أهمية بالغة للنظريات التى تحلل ظاهرة الثقافة بصفة عامة .

كما حاولنا تحليل أهم النماذج النظرية التى تفسر قضية التغير الثقافى وطبيعته وديناميته والعوامل التى تلعب دورا هاما فى إحداثه ، ثم حللنا بشكل واضح المعوقات التى تحول دون تحقيق التغير الثقافى على النحو الطبيعى ثم بيان المشكلات الناجمة عن التغير الثقافى .

وهذا ما يوضح أهمية هذا الموضوع الهام فى ميدان الانثروبولوجيا الثقافية . خاصة أنه لا يستطيع أى باحث أن يتغافل التأثيرات العميقة التى تمارسها الثقافة خاصة فى الوقت الراهن على أنماط التفاعل الاجتماعى ، وما يتخذه من صور نطلق عليها النظم الاجتماعية ، فالتغير الثقافى الآن نتيجة للاختراع وما يترتب عليه من تغيرات تكنولوجية بعيدة المدى يعيد ترتيب العلاقات الاجتماعية ، ويصنع قواعداً وأهدافا جديدة للسلوك الاجتماعى . ومن أجل هذا جذبت فكرة التغير الثقافى اهتمام علماء الانثروبولوجيا والاجتماع واصبح معالجة العوامل الثقافية فى المجتمع أو الشخصية أو التفاعل الاجتماعى أو العمليات الاجتماعية أمرا ضروريا لا يتم فهم أى موقف اجتماعى أو كشف حقيقة اجتماعية دون الإشارة إليها .

المراجع الخاصة بهذا الفصل

(١) إعداد نخبة من الأساتذة : قاموس علم الاجتماع ، تحرير عاطف غيث، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ١٠٠.

(٢) **عاطف غيث** ، دراسات فى علم الاجتماع نظريات وتطبيقات ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٨٤.

(٣) **محمد الجوهرى** ، علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥، ص ١٠٤.

(٤) **فاروق إسماعيل**، التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمع القطرى –عوامله و أبعاده ، فى كتاب قضايا التغيير فى المجتمع القطرى خلال القرن العشرين، مركز الوثائق ، جامعة قطر ، الجزء الأول ،١٩٩١، ص ١٩٤.

(٥) **عاطف غيث** ، مرجع سابق ، ص ٨٤.

(٦) **محمد الجوهرى وآخرون** ، التغير الاجتماعى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥، ص ص ٤١٩-٤٢٣.

(٧) **محمد الجوهرى** ، علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، مرجع سابق ، ص ص١٠٥-١٠٨.

(٨) **عاطف غيث** ، مرجع سابق ، ص ص ٨٥-٨٦.

(٩) إعداد نخبة من الأساتذة،قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٠١.

(١٠) انظر فى هذا الصدد :

Jewis ,H. Morgan , Ancient Society. N.Y Henry Hotland CO., 1877.

نقلاً عن محمد الجوهرى مرجع سابق ، الأنثروبولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٣٢٤.

(١١) **محمد الجوهري** ، مرجع سابق ، ص ص ٣٢٤-٣٢٨.

(١٢) Herskovits,M., cultural Anthropology, N.y, 1964, pp 438-439.

(١٣) لمزيد من التفاصيل أنظر ، **محمد الجوهري** ، مشكلات التغير الثقافي، في كتاب، التغير الاجتماعي، تأليف محمد الجوهري وآخرين ، مرجع سابق ، ص ص ٤٢٩-٤٤١.

(١٤) **دينكن ميتشيل** ، معجم علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(١٥) إعداد نخبة من الأساتذة ، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٤.

(١٦) **محمد الجوهري** ، علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، مرجع سابق ، ص ص ١١٠-١١٢.

* **مالينوفسكي** Malinowski عالم أنثروبولوجي بريطاني وأحد مؤسسي المذهب الوظيفي Functionalism وقد ولد في بولندا لأب سلافي وكان يتحدث البولندية ، والروسية ، والفرنسية ، والإنجليزية والإيطالية والأسبانية، وحصل على الدكتوراه من جامعة كراكو عام ١٩٠٨ ، وفي عام ١٩١٠ التحق بمدرسة لندن للاقتصاد لإجراء بحوث حول ثقافة السكان الأصليين في استراليا ، وفي عام ١٩٢٧ تم تعيينه في منصب أستاذ كرسي في الأنثربولوجيا بلندن ، وفي عام ١٩٣٨ توجه إلى الولايات المتحدة وقام بالتدريس في جامعة بيل من عام ١٩٣٩ وحتى وفاته . ومن أعماله الرئيسية مغامرون في غرب المحيط الهادي عام ١٩٢٢ ، والسحر والعلم والدين ومقلات أخرى ، أنظر :

ميشيل مان موسوعة العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٤-٤٠٦.

(١٧) انظر فى هذا الصدد، ما كتبه مالينوفسكى عن الثقافة والحاجات فى كتاب، قبارى إسماعيل، علم الاجتماع الثقافى، مرجع سابق، ص ص ٥٣٧ – ٥٤٤.

(١٨) **محمد الجوهرى وآخرون** ، التغير الاجتماعى، مرجع سابق، ص ص ٤٤٨- ٤٥٢.

(١٩) انظر فى هذا الصدد ، **عاطف غيث** ، المجتمعات المحلية (المجتمع القروى) دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٧٩، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٢٠) **محمد على محمد** ، دراسات فى علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٣١٧ .

(٢١) انظر فى هذا الصدد **على الكاشف** ، التنمية الاجتماعية : المفاهيم والقضايا، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٠.

الفصل التاسع

التكوين المهنى للمشتغلين بعلم الاجتماع

- مقدمة
- ١- علم الاجتماع والتطبيق الاجتماعى
- ٢- علم الاجتماع والتخطيط الاجتماعى
- ٣- علم الاجتماع والنقد الاجتماعى
- ٤- علم الاجتماع كمهنة
- ٥- مستقبل علم الاجتماع فى مصر

مقدمـــة :

يحاول هذا الفصل أن يلقى الضوء على الدور المهنى الذى يمكن أن يمارسه علم الاجتماع فى المجتمعات الإنسانية المعاصرة، وبخاصة فى مصر بعد أن انحصر دور علم الاجتماع داخـل قاعـات التدريـس بالجامعة ، وتخريج أعداد غفيرة من حاملى شـهادات الليسـانس فـى علم الاجتماع وهم غير قادرين على ممارسة دورهم الاجتماعى بصورة سليمة ؟

وربما يرجع ذلك فى الواقع إلى أن الوضع الراهـن لعلـم الاجتمـاع يمر بأزمـة فكريـة ومنهجيـة حـادة يتمثـل جوهـر هـذه الأزمـة فـى الانفصال الحاد للعلم الاجتماعى عـن التطبيـق العملـى ، كمـا إن علـم الاجتماع بوضعه الراهن غير قادر على تقديم نتائجه إلى صانع القـرار بصورة تجعلهم يثقون فى هذه النتائج أو علـى أقـل تقديـر الاعـتراف بـهـا ، كمـا إن المشـتغلين بعلـم الاجتمـاع سـواء مـــن الأكـــاديميين أو المهنيين والذين تقلدوا مناصب فـى دواويـن الحكومـة يلعبـون دورهـا هامشياً فى صنع السياسة الاجتماعية ، فضـلاً عـن أن حركـة البحـث الاجتماعى – فى بلادنا – لا تسـير وفـق خطـة منهجيـة مدروسـة أو إستراتيجية شمولية متكاملـة ، بـل إن معظـم البحـوث التـى تجـرى سواء داخل الجامعات المصرية أو مراكز البحوث المتخصصة فمعظمـهـا

بحوث جزئيـة ، ومبعـثرة تجـرى فـى نطـاق الحصـول علـى رسـائل الماجسـتير والدكتـوراه أو بحـوث الترقيـة لدرجتـى أسـتاذ مسـاعد ، وأستاذ ، كما تقتصر هذه البحوث علـى المسـائل الهينـة والبسـيطة نسبياً من الواقع الاجتماعى مما جعل هـذه البحـوث لا تتـم بشـكل يسمح بالاستمرارية والتراكم المعرفى ، ولذلك فإن هناك إهدار لكثـير من الطاقات والجهود نتيجة البحوث المتكررة من ناحيـة أو سطحية تناولها بقصد أو بدون قصد من ناحية أخرى ،

ولذلك برزت فى الآونة الأخيرة أفكـاراً حـول مـدى الحاجـة إلى علم الاجتماع يمارس دوره بشكل يسـمح بممارسـة النقـد الاجتمـاعى وترسـيخ دعـائم التخطيـط الاجتمـاعى ، والاهتمـام بضـرورة تطبيـــق نتائجه العلمية ، ودوره المهنى وكيفية تكوين هذا الدور المـهنى ومـا هو مستقبل هذا العلم فى ظل الأزمة الراهنة التى يمر بهـا ، كل هـذه القضايا والتساؤلات هى محور هذا الفصل .

أولاً :- علم الاجتماع والتطبيق الاجتماعى .

إن علـم الاجتمـاع باعتبـاره علـم يــدرس الظواهــر الاجتماعيــة المختلفة والعلاقات الاجتماعية بأشكالها المختلفة فهو علم حيـوى يمـس حياة الإنسان بطرق وصور شتى ، فالباحث فى علم الاجتماع يستفيد مـن الحصيلة المعرفية العلمية والبحثية فى الاجتماع وميادينـه فـى جوانـب

الحياة الاجتماعية والعملية وهنا يهدف علم الاجتماع إلى تحقيق مهمتين أساسيتين لكى يصل إلى مرتبة العلم الاجتماع ، المهمة الأولى علمية وهدفها تفسير المجتمع تفسيراً علمياً وتنظيرياً .

والأخرى عملية وهدفها المشاركة فى صنع السياسة الاجتماعية ، والمهمتان متكاملتان تكمل كل منهما الأخرى ، إذ من الضرورى أن يرتبط علم الاجتماع بالمجتمع ، لأنه ليس علماً مجرداً وإنما هو ينبثق من الواقع الاجتماعى ، ومن أيديولوجية معينة ، يسهم فى تشكيلها وتدعيمها فى الوقت نفسه ويبغى دائماً خدمة غرضها ، هذا الغرض أو الهدف هو فهم وتفسير القضايا الحقيقية والواقعية لا القضايا الخيالية أو الظاهرة أو المقتبسة . (١)

كما أن علم الاجتماع الذى تمثل الظواهر الاجتماعية موضوعه الأساسى إنما يرمى إلى تحقيق الأهداف التالية :-

١- الكشف عن حقيقة كل ظاهرة اجتماعية وعن مقوماتها ، وعناصرها وما يتعلق بها من أفكار ومعتقدات .

٢- الكشف عن نشأة كل ظاهرة اجتماعية وعن وجوه تطورها ، أى الكشف عن أقدم وضع للظاهرة فى المجتمعات الإنسانية وعما نالها

---

(١) محمد سعيد فرح ، دراسات فى المجتمع المصرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٦ ، ص ٣ .

من تطور واختلاف فى صورتها ومقوماتها وعناصرها تبعاً لاختلاف المجتمعات والعصور ، وذلك إن الظواهر الاجتماعية من سنتها التطور والاختلاف ، فهى لا تجمد على حالة واحدة ، بل تختلف باختلاف المجتمعات ، التى تأخذ بها ، وتختلف فى المجتمع الواحد باختلاف عصوره .

٣- الكشف عن الأسباب التى أدت إلى كل وجه من وجوه هذا التطور وهذا الاختلاف .

٤- الكشف عن العلاقة التى تربط كل ظاهرة اجتماعية بالظواهر الاجتماعية الأخرى وبالظواهر غير الاجتماعية ، وذلك أن الظواهر الاجتماعية يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ويؤثر بعضها فى بعض ويتأثر بعضها ببعض . فالأوضاع الاقتصادية مثلاً وهى فرع من الظواهر الاجتماعية تؤثر فى كثر من الفروع الأخرى من سياسة وأسرة وأخلاق وغير ذلك . وقد تتأثر الظواهر الاجتماعية بظواهر غير اجتماعية .

٥- الكشف عن الوظائف التى تؤديها كل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية، وذلك إن كل ظاهرة اجتماعية لا بد أن تكون لها وظيفة تؤديها فى الحياة الاجتماعية ، ولا يمكن أن ينبعث عن اجتماع إنسانى ما ظواهر لا يكون لها أثر فى هذا الاجتماع ،

وكثيراً ما يكون هذا الأثر خفياً يحتاج كشفه إلى بحث وتحليل .

٦- الكشف عن القوانين التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية فى مختلف شئونها وأوضاعها . وذلك أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا وفق ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير حسب قوانين ثابتة مطردة ، تشبه القوانين التى تخضع لها ظواهر الفلك وظواهر الطبيعة ، وهذه القوانين يحتاج الكشف عنها إلى دراسة وتحليل عميقين .

ولكن فى الواقع أن الغرض الأخير وهو الكشف عن القوانين التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية يمثل الغرض الوحيد لعلم الاجتماع .[٢]

وعلى هذا فالباحث فى علم الاجتماع يسعى إلى التعرف على مشكلات المجتمع ، ومواجهتها ، ففى مجال الخدمة الاجتماعية فإن الأخصائى الاجتماعى يستطيع أن يقدم خدماته فى قطاع التأهيل Rehabilitation أو إدارة الحالة ، والعمل مع جماعة الشباب أو المسنين أو الترويح ، كما أن الاجتماعى يستطيع أن يوظف علمه فى خدمة المجتمع المحلى كله من خلال جمع الموارد المحلية للمؤسسات الاجتماعية الخدمية ، ومؤسسات رعاية الأطفال ، وجماعات حماية

---

(٢) على عبد الواحد وافى ، طبيعة علم الاجتماع وطرائق تطبيقه ، فى كتاب علم الاجتماع والاجتماعيون (تجارب وخبرات) ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ص ١٨٤-١٨٥ .

البيئة ومختلف المؤسسات العامة ، ذات النفع العام . كما أنه يسهم إسهاماً فعالاً فى المجال الإعلامى من خلال الكتابة ، والتحرير الصحفى والنشر ، والعلاقات العامة ، كما أنه يستطيع القيام بمهام عملية متنوعة فى مختلف القطاعات الرسمية الحكومية كالمواصلات والإسكان والزراعة والخدمات البلدية فضلاً عن المجال التربوى .

لذا فقد أصبح علم الاجتماع يشغل اليوم مكاناً هاماً فى برامج إعداد الأخصائيين الاجتماعيين ، وأصبح معترفاً به كعنصر مفيد فى إعداد المديرين فى الصناعة ، وموظفى شئون الأفراد ، والمعلمين ، والموظفين الحكوميين المسئولين عن إدارة هيئات الرفاهية الاجتماعية أو المشروعات المملوكة للدولة ، وليست قيمة علم الاجتماع بالنسبة لهذه المهن فى الغالب أنه يمد الفرد بمبادئ سوسيولوجية يستطيع أن يطبقها بشكل مباشر فى حل مشكلات عملية ، وإنما تتمثل قيمته فى أن الفرد الذى اكتسب معلومات عامة واسعة عن مختلف أنماط البناء الاجتماعى والثقافة ، وكما تعلم شيئاً عن المناهج التى يمكن بواسطتها جمع وتقييم معلومات عن المسائل الاجتماعية ، ومن ثم يصبح هذا الفرد قادراً على إصدار أحكام أكثر صواباً ، واتخاذ قرارات أكثر حكمة فيما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية التى يواجهها .

لكن الإقبال المتزايد على استخدام البحوث السوسيولوجية

ورغبة علماء الاجتماع أنفسهم فى تقديم إسهام عملى يثير فى الواقع عديداً من التساؤلات ليس فقط عن إمكانيات استخدام علم الاجتماع فى التطبيق العملى ، وإنما كذلك عن الوجه الأمثل لهذا التطبيق .

وفى الحقيقة أن علماء الاجتماع ملتزمون بالضرورة فى التطبيق العملى بتحسين نوعية الحياة الاجتماعية ، أو كما يقول رواد علم الاجتماع الأول ، تحقيق التقدم الاجتماعى ، ومن شأن هذا الالتزام أن يحدد للباحثين فى علم الاجتماع ميادين معينة للبحث ويحرم عليهم ميادين أخرى .

ولتوضيح هذا نعقد مماثلة بين علم الاجتماع التطبيقى والطب ، حيث ميز آلفن جولدنر Gouldner بين اتجاه هندسى Engineering واتجاه إكلينيكى (علاجى) Clincal فى علم الاجتماع التطبيقى ، ويتميز الاتجاه الهندسى بأن رجل الاجتماع يقبل تحديد العميل أو الحالة للمشكلة بحيث يقتصر دور عالم الاجتماع على اكتشاف الوسائل الناجحة لحل المشكلة .

أما الاتجاه العلاجى أو الإكلينيكى فيتميز بأن عالم الاجتماع شأنه شأن الطبيب لا يلتزم بتحديد الحالة أو العميل للمشكلة أى القيام بفهم المشكلة واقتراح حل لها .

وثم يوضح آلفن جولدنر إلى أنه لا يوجد معيار واضح يمكن أن

يوجه علم الاجتماع التطبيقى نحو دراسة الظواهر الاجتماعية . إلا أن إصرار علماء الاجتماع المعاصرين على الالتزام بمنهج علمى صارم أدى إلى خلق نظرة محافظة ، وتقوم هذه النظرة على قبول الإطار الاجتماعى كشىء معطى أو مسلم به As a given وهنا توظف كل إمكانيات علم الاجتماع العلمى الحقيقى فى دراسة مشكلات محدودة النطاق بصورة معزولة عن البناء الاجتماعى الواسع ، ولذا نجد أنه من الضرورى أن يهتم علم الاجتماع التطبيقى بفهم المشكلة الاجتماعية فى إطارها أو سياقها الاجتماعى الكلى أو تحديد السياسات الاجتماعية البديلة التى تؤثر على حياة المجتمع فى مجموعها . [٣]

فالتطبيق الاجتماعى هو تطبيق المعرفة الاجتماعية والمفاهيم ومناهج البحث والنظريات الاجتماعية والقدرة على التنبؤ والبصيرة فى فهم المشكلات الاجتماعية واقتراح حلها ، فهذا النمط ذو اتجاه يربط بين الباحث والعميل Client أو الحالة أى أن هذا العمل صمم خصيصاً لحل مواقف محددة مرتبطة بمكان العمل ، وهو بالطبع غير ذلك الاتجاه المعرفى الذى يرتبط أساساً بإضافة معلومات مستمدة من مجال علم الاجتماع ، فنجد بعض الاجتماعيين الذين يمكن أن نسميهم "الاكلينيكيين لديهم خبرة جيدة فى مجال إرشاد الفرد والأسرة ، أما

---

(٣) محمد على محمد ، دراسات فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٦ – ٤٠٨

علماء الاجتماع التطبيقى فإنهم يستخدمون المعرفة السوسيولوجية ومناهج البحث وطرائقه فى التأثير على عملية التغير الاجتماعى البعيد المدى ، مثل تقييم التأثير الاجتماعى على البيئة وتقييم مختلف البرامج الاجتماعية ، وتسهيل عمليات المنطقة وحل أو التوسط فى حل الخلافات واقتراح السياسات الاجتماعية وتقويمها والتخطيط لها (٤) فكل هذه الأساليب تهدف إلى تحقيق قضية مشتركة أو عامة والمتمثلة فى معاونة الأفراد والجماعات والمؤسسات والمنظمات والحكومات فى التعرف على المشكلات وتحديد أسبابها الأساسية واقتراح السياسات المختلفة للتغلب عليها ومواجهتها والعمل على حلها ، إذن يمكن القول أن تطبيق المعرفة الاجتماعية هو المفتاح إلى مجالات المهن المختلفة فى وضع السياسات الاجتماعية فقد استطاع علماء الاجتماع تقديم معلومات ساعدت فى رسم السياسة الاجتماعية فى مجالات متنوعة فمثلاً أمكن عن طريق دراسة الحراك الاجتماعى الكشف عن أنماط الحراك ، والتنقل وارتباطه بحجم الأسرة ونوعها وعلاقته بفرص التعليم والبناء المهنى ، مما ترتب عليه توجيه السياسة الاجتماعية فى مجال التربية والتعليم توجيهاً عقلانياً فاعلاً مؤثراً فى الحراك الاجتماعى وفرصة أما فى مجال الدراسات السكانية فلم يقتصر دور علم الاجتماع على رصد النمو

---

(٤) جهينه العيس وكلثم الغانم . علم الاجتماع . مرجع سابق . ص ١٩٨

السكانى وحجم السكان وعلاقته بالخصوبة ، وغير ذلك من البيانات الحيوية فحسب وإنما عنيت الدراسات السكانية بالبحث عن الأسباب المؤثرة فى التغيرات الديموجرافية .

كما يمكن أن يعمل المتخصص فى علم الاجتماع كمخطط فى إحدى الهيئات أو المؤسسات المعنية بالتخطيط ، وذلك لأن هذه الوظيفة تتطلب التعامل بقرب مع القائمين أو المنفذين للبحث والمستفيدين منه بصفة مشرف إدارى أو متخصص ، فكما هو الأمر بالنسبة لأى مهنة فإنه غالباً يتم تعيين صغار السن فى هذه الوظائف ذات المكانة المرتفعة ، فليس بالأمر الغريب أن يعين خريج جديد فى إحدى وظائف المؤسسات الرسمية المرموقة ، ففى مجال العمل الرسمى الحكومى يتولى الاجتماعيون المشروعات البحثية والتقويمية ، وآخرون يديرون البرامج، وفريق ثالث بتحليل السياسات والاستراتيجيات أو حل المشكلات فى المؤسسة التى يعمل بها ، فنجد أن الفرق بين الاجتماعى وغيره أن الاجتماعى مزود بحصيلة كبيرة من المهارات والمعارف والخبرات التى يمكن استغلالها فى كل المستويات الوظيفية فى القطاع الرسمى ، فيعين الاجتماعى على سبيل المثال لا الحصر فى وزارات وقطاعات مثل الصحة ورعاية المسنين ورعاية الأحداث ، ومكافحة المخدرات ، والإحصاء والزراعة والإسكان والتخطيط العمرانى والبشرى

ومراكـز مكافحـة الأمـراض والأوبئـة وفـى إدارات التخطيـط العمرانـى والصحى والجنائى والتربية والتعليم والخدمة الاجتماعية وغيرها .

وفريق آخر يستطيع العمل فى المؤسسـات التـى يقـدم خدمـات للجماهير مثل المكاتب التابعة للأمم المتحدة ، والبنوك ، والجمعيـات الخيرية والتطوعية وجمعيات النفع العام بأنواعها المختلفـة بـل واتجـاه علم الاجتماع نحو الأغراض العسكرية (٥)

ثانياً :- علم الاجتماع والتخطيط الاجتماعى .

ظل علم الاجتماع لا يهتم بعملية التخطيط إلا بقـدر ضئيـل حتـى وقت قريب ، بل لوحظ أن هذا الوضع ظـل قائمـاً حتـى فـى المجتمعـات التى يبّدو فيـها الاهتمـام بـالجوانب السوسـيولوجية للنمـو الاقتصـادى اهتماماً كبيراً ، - كما هو الحال فى الدول النامية - ولكن النـاس بـدأوا يدركـون بسـرعة فائقـة ضـرورة المعرفـة الاجتماعيـة وأهميتـها لعمليـة التخطيط حيث بدأ الاهتمام يتزايد اليـوم بتنـاول الجوانـب الاجتماعيـة للنمـو الاقتصـادى ، وأخـذ الاقتصـاديون يركـزون جـهدهم علـى حـل المشكـلات الاقتصاديـة للتنمية ويعتمدون على البحوث والنتائـج السوسيولوجية .

---

(٥) – Parsons, T., Sociology as a profession, in (Rose, P. 1. (ed) The Study of Society (an Integrated Anthology, Randoom House & Book, N. Y., 1967, P P. 61-64

وقد أكدت برامج البحوث للجنة التخطيط فى الهند بأن رجال الاجتماع يمكنهم أن يقدموا إسهاماً هاماً فى عملية التخطيط الاقتصادى، كما أن الاعتراف بشكل متزايد بقيمة علم الاجتماع سواء فى البحث أو أعداد العاملين فى عدد من الميادين الأخرى المتصلة بالتخطيط الاجتماعى فى الهند ، فنجد أن علم الاجتماع يشغل مكاناً هاماً فى مجال أعداد الأخصائيين الاجتماعيين ، وأصبح يلعب دوراً مهما فى إعداد أخصائى التنمية الريفية وغيرهم من المسئولين عن برامج التنمية الريفية .

غير أن الجوانب الأوسع لاستخدام علم الاجتماع فى التغير الاجتماعى المخطط لم تحظ بعد بمناقشات مستفيضة .

وبوسع علم الاجتماع والمتخصصين فيه أن يقدموا أكثر إسهاماتهم العملية إفادة بدراسة أثر الثقافة التقليدية ، والطائفة والأسرة على الإنتاج الزراعى والصناعى ، ودراسة أنجح الوسائل للوصول إلى الأهداف المنشودة فى بعض مشروعات التخطيط المعينة ، كما أن عليهم أن يبحثوا الآثار الاقتصادية والاجتماعية للنمو السكانى السريع ، ووسائل التحكم فى هذا النمو ، وغنى عن البيان أن علماء الاجتماع سوف يحتاجون فى مثل هذه البحوث إلى التعاون مع علماء اجتماعيين آخرين كرجال الاقتصاد والسكان ، والأنثروبولوجيا ، وعلم النفس ، وإلى ضرورة

الاهتمام بأساليب تحقيق هذا التعاون على الوجه الأكمل . [٦]

ويمكن لعلم الاجتماع أن يساعد المجتمعات على التخطيط السليم لعملية التغير الاجتماعى الاقتصادى المقصود ، وذلك من خلال قدرته على تقديم دراسات وصفية وتحليلية لأهم العوامل والظروف الاجتماعية والثقافية التى تعوق أو تدعم السياسات والبرامج التى يعمد المجتمع إلى تطبيقها فى سعيه لتحقيق النهضة المنشودة ، وإذا كان المنهج التكاملى Interdisciplinary Approach فى دراسة الواقع الاجتماعى يتطلب جهوداً كبيرة لرصيد الثقافة وعناصرها والتنظيمات الاجتماعية ووظائفها ، فإن علم الاجتماع يمكن من تحقيق تطور أساسى فى مجالات التخطيط لتنمية المجتمعات القروية وتوطين البدو ومشكلات الإدارة ، والجماعات الرسمية فى التنظيمات الصناعية ومشكلات الأقليات والتمييز العنصرى . . . . الخ .

وإذا كانت بدايات علم الاجتماع ارتبطت بالدراسات الإحصائية، فإن تطور التقنية البحثية قد ساعد على زيادة الاتجاه نحو تحويل المعطيات الاجتماعية إلى أرقام ومعدلات ونسب مئوية تساعد على رسم

---

(٦) علياء شكرى ، علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعى ، فى كتاب ميادين علم الاجتماع ، تأليف محمد الجوهرى وآخرين ن دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٤، ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

وتحديد شكل الواقع الاجتماعى ، وكذلك بوصفه علماً تطبيقياً يساعد فى فهم الواقع الاجتماعى للشرائح الاجتماعية المختلفة وتطلعه لفهم أفضل، وأن يسهم فى عملية التخطيط الاجتماعى ،وباعتبار أن علم الاجتماع هو العلم الذى يختص بدراسة الحياة الاجتماعية فإن دوره فى توفير المعلومات الدقيقة حول الأوضاع الاجتماعية أصبح أمراً حيوياً ، ولقد ساعد تطور المناهج والطرق البحثية التى تتبعها العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع بشكل خاص الحكومات على صياغة سياستها التخطيطية حتى يمكن القول بأن الحكومات قد أصبحت من خلال مؤسساتها وموظفيها تمارس دور عالم الاجتماع .

وتعتبر المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية من الأساليب الشائعة فى تحليل الواقع الاجتماعى والاقتصادى ، وخصوصاً من قبل الهيئات الرسمية والدولية التى تستخدمها على أوسع نطاق لقياس مستويات التطور الاجتماعى أو التنمية الاقتصادية والاجتماعية ويستخدمها الاجتماعيون فى قياس حجم مشكلات معينة مثل الأمية ، والطلاق والجريمة ، والانتحار ، الأحداث المنحرفين والعاطلين عن العمل . . . الخ . [(٧)]

وهذا ما يؤكد أن هناك صلة وثيقة بين علم الاجتماع والتخطيط

(٧) جهينة العيس وكلثم الغانم ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٩ – ١٩٠ .

الاجتماعى ، ذلك أن نمو علم الاجتماع كان مسئولاً إلى حد ما عن توسيع فكرة التخطيط من مجرد الاقتصاد المخطط إلى فكرة المجتمع المخطط ، ومن هنا فيجب على عالم الاجتماع أن يحدد بوضوح ويصف بدقة الصلات القائمة بين الظواهر الاجتماعية المختلفة ، الأمر الذى يجعل عملية التخطيط أكثر فعالية ، ويساعد على تجنب النتائج غير المتوقعة وغير المرغوبة وعلى الرغم من أن عالم الاجتماع لا يلزمه أن يكون ناقداً بالضرورة إلا أنه يقدم وسائل النقد ، وهو فى كلا الجانبين يخدم هدفاً واحداً يلتزم به علم الاجتماع والتخطيط على حد سواء التزاماً تاريخياً ، وهو نمو الحرية الإنسانية ، وترقية العقل الإنسانى . (٨)

لكن ينبغى على المخطط الاجتماعى النظر إلى عناصر الحياة الاجتماعية باعتبارها كلاً متكاملاً أخذاً بمبدأ التكامل والتساند الوظيفى بين الظواهر الاجتماعية المختلفة وضماناً لوضع خطط متكاملة لا يشوبها نقص أو يعتريها قصور .

ثالثاً :- علم الاجتماع والنقد الاجتماعى .

لقد بدأ علم الاجتماع منذ نشأته الأولى على يد ابن خلدون وأوجست كونت ومروراً بماركس وماكس فيبر وأميل دوركايم وانتهاء برايت ميلز وآلفن جولدينر وأنصار المدرسة النقدية ،.بدور نقدى بارز

---

(٨) علياء شكرى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

وأن اختلفت طبيعة النقد بين هؤلاء الرواد جميعاً ، فالرواد الأول قد تفاعلوا مع التغيرات التى مرّت بها مجتمعاتهم ولاحظوا الظواهر الاجتماعية التى ميزت الحقب الزمنية التى عايشوها وقاموا بنقدها ، إلا أن هدفهم من النقد كان صياغة علم جديد يهتم بدراسة تلك الظواهر للعمل على حلها إما بوسائل الإصلاح التدّريجى أو التغيير الجذرى للوصول إلى مجتمع أفل يتحقق من العدالة والرفاهية والمساواة ويسوده الاستقرار والأمن الاجتماعى .

لكن أنصار حركة اليسار - الجديد النقدية فى علم الاجتماع والتى يمثلها رايت ميلز وآلفن جولدنر وأنصار مدرسة فرانكفورت ، قامت بمراجعة التراث النظرى السوسيولوجى وخصوصاً التراث الماركسى ، وتبنت فهماً واسعاً لحركة تاريخ المجتمعات الإنسانية ، فهى آمنت بمجتمعات دائمة التغيير ، وبالتالى فهم يتصورون أن التفاعل النقدى للأفكار والقيم والتناقضات المادية والصراع الطبقى هى بمثابة المقولات الجوهرية لأية مجتمع ، وبالتالى فهم يرفضون المقولات الأساسية للوضعية المحافظة التى تؤكد على عوامل الاستقرار والتوازن والنظام .

وترى أنه من الضرورى إلقاء نظرة فاحصة ومفصلة على البنية الاجتماعية ، والفعل الاجتماعى لكى يندمجا معاً بطريقة تؤدى إلى

ممارسة النقد العملى المفضى إلى التغيير الاجتماعى أو إلى فهم الوضع الحالى فهماً متكاملاً .[٩]

كما أن الفهم التقليدى للموضوعية العلمية فى مجال العلوم الاجتماعية قد تعرض للنقد الشديد من جانب علماء الاجتماع من ذوى النزعة النقدية من أمثال روبرت ليند ، ورايت ميلز ، وجونارميردال ، حيث أخذوا يوضحون فى أعمالهم كيف أن علم الاجتماع لا يمكن أن يكون متحرراً من القيمة وأن التفرقة بين أحكام الواقع وأحكام القيمة تفرقة سطحية إلى حد بعيد ، وأن القيم تؤثر فى القرارات المعرفية ، ويتدخل فى مراحل البحث العلمى الاجتماعى ، بل ذهب روبرت ميرتون إلى أن الإطار المعيارى يعزز الموضوعية العلمية لأن العلم نفسه كنظام اجتماعى له قيمه الخاصة به ، والتى تتجلى فى مجموعة من المعايير مثل الشك المنظم وبالتالى فإن القيم والمعايير تساعد على إنتاج الموضوعية فى البحث العلمى .[١٠]

ويوضح هنا – عزت حجازى – الدور النقدى لعلم الاجتماع

---

(٩) انظر ، ايان كريب ، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ترجمة محمد حسين غلوم ، مرجع سابق ، ص ٣٣٥ .

(١٠) فتحى أبو العينين ، المشكلات الاجتماعية بين الرأى العام والتشخيص السوسيولوجى، مقدمة كتاب جيروم منيس ، تحليل المشكلات الاجتماعية ترجمة فتحى أبو العينين، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٧ .

قائلاً: أن المقصود بالنقد هـو رفـض المشـتغل بعلـم الاجتمـاع مبـدأ قبـول الظواهر الاجتماعية الموجودة أو النظام الاجتمـاعى القـائم علـى علاقتـها كمعطيـات أو مسـلمات لا تقبـل النقـد أو المناقشـة ، وإن يمتنـــع عـــن التعامل معها على أنـها موجـودة بـالضرورة ، وألا يكـون دوره معـها دوراً تبريرياً أو دفاعياً عنها ، فمهنة المشتغل بعلم الاجتماع – وبخاصة فى حالتنا ونحن فى أزمة حضارية – ألا يتردد فى مناقشة مشروعية مـا هو قائم ، ويترتب على هذا حقه فى أن يحلل أية ظاهرة اجتماعية وأى نسق فرعى ، بدون محاذير ويعنى هذا مـن بـين مـا يعنـى أن يمتنـع أن نكون مجرد مستشارين لمتخذ القرار ، وأن يكون لنا موقـف مسـتقل عـن أجـهزة السلطة بخاصة .[11]

لأن الصورة المثالية للباحث الاجتماعى أو أستاذ الجامعـة حسـب ما قاله جونار ميردال هو أن يكون حراً فى البحث عـن الحقيقـة دون أن يشغله التماس تصفيق الجمهور أو محاولة تجنب غضـب الـرأى العـام ، أما فى الواقع العملى ، كما أوضح جونار ميردال ورايـت ميلـز وغيرهمـا فإن الظروف التى تكفل استقلال مكانـة الأسـتاذ الجـامعى إمـا أن تكـون مقصورة بشكل مخل جداً أو غير متوفرة على الإطلاق .

ويـرى اليكس انكلز أن إقامة الأساتذة لعلاقات وطيدة مـــع

---

(١١) عزت حجازى ، من الذاتى والموضوعى فى وضع علم الاجتماع فى مصر ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .

الأجهزة الحكومية ، تحد من حريتهم فى توجيه النقد إلى تلك الأجهزة ، فإذا كانوا قد شاركوا فى وضع سياسة تلك الأجهزة ، فإنه من غير المحتمل أن يقوموا بانتقاد العمل الذى أنجزوه بأنفسهم ، ولكن حتى إذا لم يكونوا قد شاركوا بشكل مباشر فى وضع السياسة ، فقد يميلون إلى التزام الحذر فى نقدهم ، حتى لا يفقدوا وضعهم الطيب عندما يأتى اليوم الذى قد يستدعون فيه ، للإسهام فى العمل إما إذا كانوا يعتمدون فى تمويل بحوثهم على عقود منح حكومية ، فإن ذلك سوف يضيف بالطبع مزيداً من القيود على عملهم . (١٢)

لكن إذا كان عالم الاجتماع هو بالضرورة إنسان يعيش فى مجتمع معين ويعايش أحداث مجتمعية يتأثر بها ويتفاعل معها ، فإن الأحكام القبلية التى تنم عن أيديولوجية معينة أو ثقافة محددة تكون متوقعة وتلقى بظلال من الشك على النتائج التى تتوصل إليها الدراسات ، الأمر الذى يعنى وجود حاجة ماسة ليس لمراجعة ونقد التراث السوسيولوجى برمته فقط ، وهو ما أكد عليه رايت ميلز وآلفن جولدنر ، الذين يرون بأن المشكلة لا يمكن حلها من خلال الفصل المنهجى بين الباحث والواقع المجتمعى ، لأنها عملية مستحيلة ، ولكن من خلال تخليص البحث

---

(١٢) اليكس انكلز ، مقدمة فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٥- ٢٠٦ .

عن الأغراض السياسية والأيديولوجية التى تحترم أغراض فئة أو فكرة أو جماعة أو مذهب معين .

فضلاً عن ضرورة المطالبة بنقد المنهجية العامة الشائعة فى علم الاجتماع وضرورة تطوير أدوات البحث وجعل الأدوات الكيفية والملاحظة بالمشاركة مدخلاً لمشاركة فعالة وممارسة حقيقية للباحث والمبحوث تتجاوز جمع البيانات نحو تطوير فهم مشترك للواقع الاجتماعى وتفسيره والتحرك الواعى نحو الإسهام فى تغييره . [١٣]

رابعاً :- علم الاجتماع كمهنة .

فى الواقع أن علم الاجتماع باعتباره علماً يقدم منظوراً اجتماعياً نحو تحليل المشكلات العالمية والمحلية ، ورؤى جديدة نقدية للواقع الاجتماعى الذى نعيشه ، كما يقدم تقنيات بحثية متنوعة ومتعددة لدراسة مشكلاتنا الحياتية ، فإنه علم ينمو بسرعة فائقة يمتد إلى أولئك الذين يخططون لوضع السياسات الاجتماعية وصانعى القرار فى المجتمع.

فإن هذا العلم الاجتماعى ليس مجرد ميدان من ميادين المعرفة العلمية فقط ولكنه يمثل مهنة لها أهميتها فى حياتنا اليومية .

---

(١٣) عبد الباسط عبد المعطى ، البحث الاجتماعى (محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده) ، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٠

وعندما نعتبر ذلك العلم كمهنة فإننا لا بد أن نشير إلى موضوعات معينة مثل الاستخدامات أو التطبيقات العلمية لمجموعة المعارف ، كاستخدامها مثلاً للتعليم أو لعلاج بعض المشكلات وحلها أى أن طبيعة أى علم من العلوم وظروف ممارسته هى التى تحدد نوع الأعمال الفكرية التى ينجزها والمهنة التى يصير إليها .

وعلماء الاجتماع أكثر من غيرهم قدرة على دراسة المشكلات الاجتماعية مثل انحراف الأحداث والرعاية الاجتماعية ، وجرائم الشوارع والإصلاح الاجتماعى ، وأيضاً المشكلات التى تظهر أثناء الحرب أو السلم ، كما أنهم أكثر قدرة على فهم قضايا التباين الاجتماعى والصراع الطبقى والتمايزات الاجتماعية وأنماط السلوك والبنية الطبقية وقوى التغير والمقاومة الاجتماعية ، وكيف يعمل النسق الاجتماعى والنظم الاجتماعية وغيرها من العمليات الاجتماعية داخل المجتمع فهذا العلم الاجتماعى الواسع النطاق والشامل لموضوعات حيوية متجددة، لكن كيف يمكن الاستفادة منه وكيف ننظر إليه كمهنة ؟

وقبل أن نوضح ذلك يجب أن نميز أولئك الذين يطلق عليهم علماء الاجتماع أو السوسيولوجيين وهم الفئة التى أكملت برامج الدراسات العليا ، وحصلت على درجة الدكتوراه ، وبين أولئك الحاصلون على الدرجة الجامعية الأولى فى علم الاجتماع (درجة الليسانس أو

البكالوريوس) حيث نجد أن مجالات العمل أمام الفئة الثانية متعددة ومتنوعة وكثيرة ، فيستطيع خريج قسم علم الاجتماع أن يعمل فى قطاع الأعمال الحرة ، والقطاع الصحى والتعليمى أو التربوى أو الرعاية الاجتماعية والنظام الجنائى ومختلف قطاعات ومؤسسات الحكومة .

أما الفئة الأولى (الحاصلون على درجة الدكتوراه أو ما يعادلها) فنجدهم يعملون إما فى التدريس الجامعى فكما يقول انكلز أن التدريس يمتص الجانب الأكبر من جهود علماء الاجتماع فى الولايات المتحدة الأمريكية ونجد أن حوالى ثلاثة أرباع الحاصلين على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع يقومون بالتدريس فى الجامعات أو المعاهد العليا أو العمل فى إجراء البحوث الاجتماعية أو الجمع بين الاثنين معاً (التدريس والعمل البحثى) . [١٤]

والمتخصص فى علم الاجتماع يعد من خلال برنامج دراسى متكامل يؤهل الخريج تأهيلاً ملائما فى الحصول على وظائف فى مجال الأعمال الحرة أو الخدمة الاجتماعية والدوائر الحكومية المختلفة وخاصة فى قطاع العلاقات العامة ، والذى يجعل أرباب العمل يوظفون خريجى الاجتماع أنهم يبحثون عن موظفين بمهارات يسهل إكتسابها من خلال الدراسة التخصصية فى علم الاجتماع ، فمن المعروف أن علم

(١٤) اليكس انكلز ، مرجع سابق ن ص ص ١٩١- ١٩٤ .

الاجتماع يزود الطالب بحصيلة معرفية وخبرات عملية تؤهله للعمل فى المجال الصحفى ، والإعلامى ، والسياسى ، والعلاقات العامة ، والإدارة ، تلك المجالات التى تحتاج إلى مهارات تعتمد بالدرجة الأولى على تقصى الحقائق والتأكد منها والعمل مع الجامعات ، ولذا يختار الطلاب تخصص علم الاجتماع لأنهم يرونه أنه يمثل قاعدة أساسية فى العلوم الاجتماعية والإنسانية تؤهلهم مستقبلاً للعمل ، أو الحصول على درجات علمية أعلى فى تخصصات أخرى كالقانون والتربية والاستشارات ، فالفرد المؤهل فى علم الاجتماع ، والذى يحمل درجة الليسانس فى الاجتماع يستطيع أن يعمل فى مجالات وقطاعات عديدة ومتنوعة ، [(١٥)] لكن يلاحظ اليكس انكلز أن المواد التى تدرس داخل أقسام الاجتماع فى الولايات المتحدة الأمريكية أقل تنوعاً وتكاد تنحصر فى المقررات التالية ، مقرر تمهيدى عام فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ثم مقررات عن الزواج والأسرة وعلم الإجرام والمشكلات الاجتماعية ، والخدمة الاجتماعية والانحراف الاجتماعى ، وعلم النفس الاجتماعى ، والنظرية الاجتماعية وتمثل تلك الموضوعات أو المقررات الرئيسية العشرة حوالى ثلثى مجموع المقررات التى تدرس فى العادة لطلاب مرحلة الليسانس فى علم الاجتماع ، لكن نلاحظ أن برامج

---

(١٥) جهينة العيس وكلثم الغانم ، مرجع سابق ، ص ١٩٦ .

علم الاجتماع فى مرحلة الليسانس فى أمريكا تهمل بشكل خطير كثير من عناصر الحياة الاجتماعية ذات الأهمية الفائقة ، وكذلك النظم الاجتماعية الرئيسية ، والمشكلات الاجتماعية التى أفرد لها مؤسسو علم الاجتماع مكاناً هاماً ، والتى مازالت بارزة على السطح فى علم الاجتماع الأوربى المعاصر ، فنجد مثلاً أن مقرراً فى التدرج الاجتماعى ، أو علم الاجتماع الدينى ، أو علم الاجتماع الاقتصادى ، ليس متاحاً إلا فى قسم واحد فقط من كل عشرة أقسام أما مقرر علم الاجتماع السياسى فلا نجده إلا فى قسم واحد من كل عشرين قسماً .[١٦]

لكن أصبح علم الاجتماع – كما يقول بارسونز – كمهنة يوجد فى كل الجامعات الأمريكية بل أن كل الجامعات الأمريكية الرئيسية يوجد بها مكان رئيسى لعلم الاجتماع ، وأصبح علماء الاجتماع يشتركون فى الوظائف المهنية والعملية بصورة أكثر اتساعاً بل أصبح لعلم الاجتماع مهن تطبيقية معينة Applied Proffissions حتى أصبح علم الاجتماع يحتل اليوم مكانة استراتيجية باستمرار فى مجموعة العلوم الاجتماعية، واكتسب وضعاً علمياً مرموقاً داخل المجتمع الأمريكى ، وأن البناء التقنى لعلم الاجتماع تطور بدرجة هائلة عبر الأجيال الماضية وأصبح لعلم الاجتماع أدواته البحثية وتكنيكاته المتطورة ، كما اتسعت

---

(١٦) – Parsons, T., Socialogy as a proffession, op cit, P. 66.

فـى الوقـت نفسـه نتائجـه البحثيـة واتسـع نطاقـها وتحسـنت بصــورة جوهرية . (١٧)

وأصبـح هنـاك بعـض السوسـيولوجين المتخصصـين فـى مجـال الأسـرة، أو الشـباب أو الرعايـة الاجتماعيـة ، والمجتمـع الحضــرى والريفـى ، والتربيـة والصحـة أو العمــل والصناعــة والتنظيــم والطــب والسياسـة والتغـير الاجتمـاعى وغيرهــا مــن التنظيمــات الاجتماعيــة الأخرى، وبالتالى فإن كل قسم بما يطرحه من مقررات يعكس فـى أغلـب الأحوال تلك الاهتمامات .

إضافة إلى مناهج البحث الاجتماعى ، والنظريــة السوسـيولوجية لكن كيف يمكن تحقيق التكوين المهنى للمشتغلين بعلم الاجتمـاع ؟ هـذا ما سوف تجيب عليه ورقة العمل التالية :-

---

(17)- Parsons, T., Sociology as a proffession, op cit, P. 66.

ورقة عمل فى (*)

التكوين المهنى للمشتغلين

بعلم الاجتماع

يتطلب التكوين المهنى للمشتغلين بعمل الاجتماع ضـرورة الوعـى بالقضايا التالية :-

١) الوعــى بخصوصية علم الاجتماع كنسق معرفى نظرى متمايز عــن العلوم الطبيعية (فى الموضوع ، والمنهج ، والنظرية) .

٢) القدرة على استخدام الخيال السوسيولوجى فى التفسير والتحليل فى علم الاجتمــاع بمعنــى ألا يقتصـر دور المشـتغل بعمـل الاجتمـاع علـى ملاحظـة ذلـك إلى محاولـة معرفـة الأسـباب والعوامـل ، والمعــانى ، والأفكار التى وراء المعلومات السوسيولوجية .

٣) الوعى بــالدور المجتمعـى الدينـامى الرائـد لعلـم الاجتمـاع وبخاصـة التركيز على الدور الثورى الراديكالى وليس الدور الإصلاحى المحافظ

٤) القدرة على القيام بالبحث العلمى الذى يتناول قضايا تنموية هامـة ، ومحاولـة تعويـد الدارسين لعلـم الاجتمـاع الإلـــام بقواعــد البحــث الاجتماعى وكيفية استخدامه وتطبيقــه وذلـك وفـق منطلقـات نظريـة

(*) عرضت هذه الورقة فى سيمنار – قسم الاجتماع ، بكلية العلوم الاجتماعيــة والدراسـات الإنسانية للعام الدراسى ١٩٩٩/٩٨ م بجامعة قطر فى قسم الاجتماع .

موجه للبحث الاجتماعى كى تساهم فى تفسير وتحليل البيانات التى يتم التوصل إليها كما يجرى فى المؤسسات الأكاديمية والجامعات ومراكز البحث العلمى .

٥) القدرة على ممارسة النقد بصورة إبداعية وتحقيق التفكير المستقل ، وأقصد بالنقد أن يرفض المشتغل بعلم الاجتماع مبدأ قبول الظواهر الموجودة أو النظام الاجتماعى القائم على علاتها كمعطيات ، وألا يكون دوره معها دوراً تبريرياً لها أو دفاعياً عنها ، ويترتب على ذلك تحليل الظواهر الاجتماعية دون أية محاذير أو قيود ويعنى هذا أن يمتنع عن أن نكون مجرد مستشارين لمتخذى القرار ، وأن يكون لنا موقف مستقل عن أجهزة السلطة القائمة .

وبالرغم من أهمية هذه القضايا فى التكوين المهنى للمشتغلين بعلم الاجتماع لكن يثور تساؤل أساسى مؤداه :-

- كيف يمكن تطوير أوضاع المشتغلين بعلم الاجتماع ؟

لكن قبل الإجابة على هذا التساؤل نتساءل عن ما هو الدور الفعلى للمشتغلين بعلم الاجتماع ؟

فى الواقع فإن الدور الفعلى ينحصر فى أربعة مجالات أساسية هى :- ١) مجال التدريس . ٢) مجال البحث الاجتماعى .

٣) العمل كمستشارين لمتخذى القرار . ٤) العمل فى الحقل الاجتماعى .

١) أما بالنسبة لمجال التدريس يرى اليكس انكليز أن هذا المجال يأخذ الجانب الأكبر من جهود علماء الاجتماع سواء فى الولايات المتحدة أو غيرها من دول غرب أوربا إذ وجد أن ٤/٣ الحاصلين على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع يقومون بالتدريس فى الجامعات والمعاهد العليا .

٢) فى حين أن مجال البحث الاجتماعى يستغرق الكثير من عمل علماء الاجتماع سواء فى إجراء البحوث الميدانية أو التخطيطية مثل بحوث إعادة تنمية المدن ، وتخطيطها ، وبناء المجتمعات المستخدمة والرعاية التى تقدم للمرض وذلك ضمن فريق عمل يضم الباحث الاجتماعى ، والمهندس ، والطبيب ، ورجل القانون والاقتصادى والإدارى وغيرهم .

٣) أما ميدان العمل كمستشارين لمتخذى القرار فإن هذا الدور يقتصر على تقديم النصح والشورى لمتخذى القرار ، ويرى اليكس انكليز أن هؤلاء الأشخاص لا يشاركون مباشرة فى إرساء أسس السياسة وصنعها وإنما هم يتحفظون فى انتقاداتهم حتى لا يفقدون ما سنح لهم من مكانة رفيعة . وكلما زاد اعتمادهم على عقود حكومية وهبات حكومية

أضاف هذا بالطبع مزيداً من القيود على حرية تفكيرهم .

٤) المجال الاجتماعى وهنـا يقـوم عمـل خريجـو أقسـام الاجتمـاع علـى ممارسـة العمـل الاجتمـاعى وذلـك بتقديـم النصح للمسـئولين دون القيام بصناعة السياسة الاجتماعية والقيام بأعمال هامشية كـإعداد تقارير وأبحاث عن ذوى الاحتياجات والعجزة والمسّنين دون أن يكون لهم دور فعلـى ملمـوس فـى هـذا المجـال كمـا يعمـل خريجـو أقسـام الاجتمـاع فـى مجـالات أخـرى متعـددة مـن العمـل كـالعمل فـى الحكومات، والنقابات ، والمستشفيات وهيئـات الرعايـة الاجتماعيـة والمصانع والصحافة والإذاعة والتليفزيون وهؤلاء يمثلـون فئـة ضئيلـة فى مثل هذه القطاعات .

وبعد أن تم رصد الواقع الفعلى للمشتغلين بعلم الاجتمـاع نحـاول الإجابة على التساؤل الذى تم إثارته فى البداية وهو كيف يمكن تطويـر أوضاع المشتغلين بعلم الاجتماع ؟ على أساس أن علم الاجتماع ليـس علمـاً فكرياً فحسب بل هو مهنة كذلك ولتحقيق ذلـك ينبغـى إنجـاز عـدد مـن المهام التالية :-

١) ربط المخططات الدراسية لعلم الاجتمـاع باحتياجـات التنميـة وسـوق العمل ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تطوير المقـررات الدراسـية بصـورة مستمرة حتى تتلاءم مـع احتياجـات التنميـة واحتياجـات المجتمـع بصورة دائمة فضلاً عن التقديم الجيد للدور الذى يلعبه علم الاجتمـاع

في حل المشكلات التي يعاني منها المجتمع ومحاولة تشخيصها وتفسيرها بشكل ملائم ومتكامل .

٢) العمل على إقامة تنظيم مهني مسئول - يستند إلى ميثاق شرف مهني - يضع معايير وضوابط للاشتغال بعلم الاجتماع ، وينظم التكامل بين المشتغلين بالعلم بعضهم والبعض الآخر ، وبينهم وبين غيرهم في المجتمع .

٣) الحصول على اعتراف بحقنا في ممارسة البحث والتفكير الاجتماعي المسئول ، وبحقنا في تناول مختلف القضايا والهموم المجتمعية بالتحليل المحايد والموضوعي وهذا ما يجعل مهمة البحث للمتخصصين فيه وليس نهباً للأدعياء والمرتزقة .

٤) الاهتمام بالاستفادة من التطورات السوسيولوجية على الصعيد العالمي من أفكار ، وتجارب ، ودروس ، وهذا يتم ليس بمجرد النقل الحرفي لهذا التراث العالمي ولا بالقطعية معه ، وإنما الإفادة منهما بعقل متفتح ومرونة مشوبة بالحذر والقدرة على النقد والاختيار ، ومحاولة استيعاب الأفكار الجديدة والاستفادة منها .

٥) إعادة بناء المؤسسات العلمية القائمة في مجال علم الاجتماع (الجامعات ، ومراكز البحث العلمي) بحيث تسهم في مواجهة القضايا والمشكلات الأكثر إلحاحاً وطرح الحلول الملائمة لها في ظل مناخ ديمقراطي يسمح بالتعبير الحر لمختلف التيارات الاجتماعية بشكل صريح وفعال .

خامساً :- مستقبل علم الاجتماع فى مصر .

وفى الحقيقة يثور هنا تساؤل رئيس ، هل مستقبل علم الاجتماع فى مصر مرهون بتغيير السياق العام للمجتمع المصرى وبالتالى تتغير أوضاع هذا العلم وتتغير مهامه ، أو بمعنى آخر هل حل أزمة المجتمع المصرى بعامة تساعد على حل أزمة علم الاجتماع فى مصر ؟

وبالطبع فإن الإجابة على هذا التساؤل توضح أنه لا جدوى من أن نلقى باللوم على واقعنا وبخاصة مجتمعنا فى تخلف علم الاجتماع وقلة جدواه ، وتدهور أوضاع المشتغلين به ، فنحن فى الواقع لم نستثمر بعض الظروف المواتية بالكفاءة المطلوبة ، كما أننا نستطيع تفادى إهدار جانب كبير مما توافر لنا من إمكانات .

ويرى أحد الباحثين فى هذا الصدد أن حل أزمة علم الاجتماع فى مصر بخلق أو إيجاد ما يسميه المنادون به ، علم الاجتماع العربى لا يقدم كثيراً بل إنه يعتقد أنه يضر بقضية التقدم لأنه يشغلنا بالاسم عن الاهتمام بالمضمون ويرى أنه بدلاً من ذلك فنحن فى حاجة إلى مراجعة قضية انحيازنا الاجتماعى ، فلمن من القوى الاجتماعية ننحاز : هل للطبقات والشرائح والصفوات والفئات التى تستأثر بالجانب الأكبر من الثروة ، والسلطة فى المجتمع ولا تسهم بشىء ذى وزن فى عملية الإنتاج الاجتماعى ، أو الجماهير المنتجين الحقيقيين الذين لا يحصلون

على مقابل عادل لما يبذلونه من جهد .

ويرتبط بتحديد انحيازنا الاجتماعى ضرورة حسم موقفنا من الأوضاع القائمة ، وهذا يعنى أنه سيكون من أولى المسئوليات المطروحة علينا تأكيد حقنا فى أن نناقش ونحلل القضايا الجوهرية ، التخلف ، وما يرتبط به ويكرسه من تسلط وقهر وافتقاد العدالة فى توزيع الناتج الاجتماعى ، والتبعية للقوة الرأسمالية والامبريالية ، التى لا تسمح لنا بتطور مستقبل حقيقى من جهة ، وتهدد وجودنا كحضارة من جهة أخرى ، (١٨) ومن هنا تأتى الأهمية القصوى لمناقشة دور العلم الاجتماعى وسياسات وخطط تطوير أوضاعه من أجل إنجاز المهام المطلوبة منه .

وهنا يسطر – عبد الباسط عبد المعطى – مجموعة من الأفكار القابلة للمناقشة والتطور – نحو السير لمستقبل مرغوب لعلم الاجتماع فى الوطن العربى بشكل عام ومصر بشكل خاص ومن أهم هذه الأفكار ما يلى : (١٩)

١) ضرورة السعى الجاد لتحديد هوية واضحة لعلم الاجتماع العربى ، وإن مقومات هذه الهوية يجب أن تنطلق من طريقة التفكير والمصالح المجتمعية الحالية والمستقبلية ، والخصوصية التاريخية والمعاصرة

---

(١٨) عزت حجازى ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ .

(١٩) عبد الباسط عبد المعطى ، استشراف مستقبل علم الاجتماع فى العالم الغربى ، مجلة المستقبل العربى ، السنة الثامنة ، العدد (٨٢) بيروت ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ص ٣٤-٣٦ .

للمجتمع العربى ، فى علاقتها بأنماط تطور مجتمعات أخرى شاركتنا التاريخ وتشاركنا الواقع المجتمعى المعاصر .

٢) ضرورة وجود تجمعات اجتماعية ينتمى إليها المشتغلون بعلم الاجتماع ، والسعى نحو خلقها إذا لم تكن قائمة بالفعل ، فإن هذه التجمعات التى يلتقى معها المشتغل بعلم الاجتماع ، أيديولوجيا ، واجتماعياً ضرورية للمشاركة فى التخطيط لخلق الظروف الضرورية للتحرر الإنسانى ، فهذا الانتماء يوفر قدراً من الحماية للمشتغل بالعلم ، ويمهد أرضية للعمل الجماعى ، ويساهم فى فهم الشكل الاجتماعى الذى يسعى الباحثون نحو مواجهته .

٣) أهمية التفاعل مع القوى الاجتماعية حاملة إمكانية تغيير المجتمع العربى ، فهذا شرط مهم للحركة وإثراء الوعى ويساعد فى ترتيب الأولويات والمهام المطروحة على العلم .

٤) من الضرورى تدارس أسس وقضايا الصراع مع الطرف المهيمن داخل العلم ، حتى يكون هذا الصراع ملتزماً وإيجابياً فى نتائجه بما يخدم تغير مسيرة العلم .

٥) يجب العمل على إضافة الحوار الخلاق مع التيارات الفكرية العالمية خاصة الصادرة من العالم الثالث ومع التراث الفكرى العربى ، لن يكون إيجابياً إلا إذا وجد سعى حقيقى لملء الفراغ النظرى والمنهجى

الذى تسيطر عليه المدارس الغربية ، وإن منطق الصراع هنـا لا يعنـى العزلـة أو إشاحة الوجـه بعيـداً عن إنجـازات الفكـر العـالمى وعـن إنجازات التراث العربى ، وإنما يعنى الحـوار معـهما وإدخالهمـا من حوار مع التاريخ الاجتماعى ومع الواقـع الاجتمـاعى العربـى ، لضبط المخاطر الحالية التى تهدد كيان الأمة ، والتحديات المسـتقبلية التى ستؤثر فى حركتها .

٦- إن أى محاولة للتصنيـف تستلزم معيـار وظيفـة العلـم وهـى كمـا أن أتصور وظيفـة ذات شقين الأولى علميـة سـعيها تطويـر العلـم نظريـاً ومنهجياً وقيماً وممارسة والثانية مجتمعية هدفها إسـهام العلـم فـى إحداث التغيـير الاجتمـاعى المرغـوب فيـه لصالح غالبيـة الجماهـير العربية المنتجة والمدافعة عن الوجود العربى .

وعلـى هـذا يـهم ضـرورة تـأكيد دراسـة القـوى العالميـة العربيـة المعوقة لهذا التغيير ودراسـة خصـائص وأوضـاع القـوى العربيـة حاملـة إمكانات التغيير ودراسة عوامل وصيغ تعبئتها لكى تقـوم بأدوارهـا فـى هذا التغيـير بفاعليـة أكـبر مـع الحـرص علـى التوسـع مـن الإفـادة مـن التطورات المسـتمرة فـى مجـال العلـم الاجتمـاعى النظريـة ، والمنـهج ، وأساليب البحث وأدواته ، وإجراءات العمل البحثى ، بحيث نحاول أن نخلـص البحـث الاجتمـاعى والخطـاب السوسـيولوجى مـن السـطحية

والضحالة وقلة الأهمية ، ومن المهم أن يتم ذلك لا بنقل التراث العلمى من أفكار وتجارب ودروس ، ولا بالقطيعة معه ، ولا بالانكفاء على ما فى التراث القومى أو التنكر له ، وإنما بالإفادة منها بعقل متفتح ومرونة وقدرة على النقد والاختيار مع الحرص على تجاوزها بمحاولة الإبداع .

كما أن مستقبل علم الاجتماع فى بلادنا مرهون على مدى قدرته على آثار النقد على الأوضاع القائمة لمحاولة تغييرها أو حل مشكلاتها وبخاصة المشكلات التى تمس جوهر المجتمعات وبنيتها كمشكلات الصراع والتلوث البيئى ، ومشكلات البطالة والإدمان وتعاطى الكحوليات ثم الاهتمام بدراسة وفهم الواقع الاقتصادى الاجتماعى ، والبنية الطبقية ، والنظام السياسى ، والديموقراطية والعدالة الاجتماعية ، والتخلف والتبعية والتهديد الأمبريالى والصهيونى وغيرها ، لأن الاهتمام بدراسة هذه القضايا وتلك المشكلات هو الذى يجعل علم الاجتماع له مستقبلاً مشرقاً وأهمية ملموسة على الصعيد العلمى والمجتمعى .

المراجع الأساسية

أولا المراجع العربية :-

١- **أحمد إبراهيم اليوسف** : علاقة التربية بالمجتمع وتحديد ملامحها النوعية، عالم الفكر ،الكويت ، المجلد التاسع والعشرون، العدد الأول ،٢٠٠٠ .

٢- **أحمد أبوزيد**: البناء والبنائية (دراسة في المفهومات) المجلة الاجتماعية القومية ،المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ،القاهرة ،المجلد السابع والعشرون،العدد الثاني ،مايو ١٩٩٠ .

٣- **أحمد زكي بدوي**: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ،بيروت،١٩٨٦ .

٤- **السيد الحسيني**: علم الاجتماع السياسي (المفاهيم والقضايا) دار قطري بن الفجاءة،الدوحة ،قطر،الطبعة الرابعة،١٩٨٦ .

٥- **السيد الحسيني وآخرون**: دراسات في التنمية الاجتماعية ، دار المعارف القاهرة ،١٩٧٩ .

٦- **السيد الحسيني** :نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع (دراسة في مشكلات النظرية والمنهج)في مقدمة كتاب اليكس انكلز، مقدمة في علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهري وآخرين،دار المعارف ، الطبعة السادسة، القاهرة،١٩٨٣ .

٧- **أليكس انكلز** : مقدمة في علم الاجتماع ،ترجمة محمد الجوهري وآخرين ،دار المعارف ، الطبعة السادسة ،القاهرة ،١٩٨٤ .

٨- **أنغام عبد الجواد** : في الوعي بمشكلات التعليم في القرية المصرية ، في مؤتمر القرية المصرية ، الواقع والمستقبل ، الجزء الثاني في الفترة ١٠ : ١٢ إبريل ١٩٩٤، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٩- **إيان كريب** : النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس ، ترجمة محمد حسين غلوم ،مراجعة محمد عصفور ،عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ، عدد٢٤٤ ، إبريل ١٩٩٩ .

١٠- **بوتومور**: تمهيد في علم الاجتماع ،ترجمة محمد الجوهري وآخرين ،دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٨ .

١١- **يرس كوهن** : النظرية الاجتماعية الحديثة،ترجمة :عادل مختار الهواري،دار فينوس للطباعة والنشر ١٩٧٧.

١٢- **جلال امين** : مصرفي مفترق الطرق -دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٩٠ .

١٣- **جلال مدبولي**: علم الاجتماع الثقافي-دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة ١٩٧٩ ،

١٤- **جهنة العيسى** ، **وكلثم الغانم** :علم الاجتماع ،دار الأهالي ، سوريا، ٢٠٠٠ .

١٥- **جوناثان تيرنر** : بناء نظرية علم الاجتماع ،ترجمة: محمد سعيد فرح ، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٩ .

١٦- **حسن الساعاتي** : علم الاجتماع القانوني ،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٧- **حكمت العرابي** : النظريات المعاصرة في علم الاجتماع ، الطبعة الأولي،جامعة الملك سعود،الرياض ١٩٩١ .

١٨- **خضر زكريا** :نظريات سوسيولوجية ،دار الأهالي دمشق ،١٩٩٨ .

١٩- **دينكن ميشيل** : معجم علم الاجتماع ، ترجمة: إحسان محمد الحسن ، دار الطليعة ، بيروت ،١٩٨١

٢٠- **روبرت ردفيلد** : المجتمع القروي وثقافته ، ترجمة فاروق العادلي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٥ .

٢١- **سمير نعيم أحمد** : النظرية في علم الاجتماع ،دار المعارف، القاهرة ،١٩٧٩.

٢٢- **سناء الخولي** : الزواج والعلاقات الأسرية ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٢ .

٢٣- **شادية علي قناوي** : المشكلات الاجتماعية وإشكالية اقتراب علم الاجتماع ،رؤية من العالم الثالث ،كلية الآداب ،جامعة عين شمس ، ١٩٩٨ .

٢٤- **عادل مختار الهواري** : الأصول الاجتماعية التاريخية للظاهرة الدينية (نموذج المسيحية في أوروبا) في كتاب الدين في المجتمع العربي ،مركز دراسات الوحدة العربية ،الجامعية العربية لعلم الاجتماع ،بيروت، ١٩٩٠ .

٢٥- **عاطف أحمد فؤاد** : علم الاجتماع السياسي ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

٢٦- **عبد الباسط عبد المعطي ،عادل مختار الهواري**: علم الاجتماع والتنمية ، دراسات وقضايا ،دار المعرفة الجماعية الإسكندرية ،١٩٨٥ .

٢٧- **عبد الباسط عبد المعطي ،عادل الهواري** في النظرية المعاصرة في علم الاجتماع ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٩٦ .

٢٨- **عبد الباسط عبد المعطي** :الوعى التنموى العربى (ممارسة بحثية) دار الموقف العربي ، القاهرة ١٩٨٣.

٢٩- **عبد الباسط عبد المعطي وآخرون** : أثر البرامج التليفزيونية علي النشئ والشباب ، دراسة إستطلاعية لأراء عينة من المشاهدين بالمجتمع القطري ،مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر ،١٩٩٤ .

٣٠- **عبد الباسط عبد المعطي** : البحث الاجتماعي ،محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده،دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ١٩٨٤ .

٣١- **عبد الباسط عبد المعطي** : استشراق مستقبل علم الاجتماع في العالم الغربي ، المستقبل العربي ، السنة الثامنة ، عدد(٨٢) بيروت ، ديسمبر ١٩٨٥ .

٣٢- **عبد الباسط عبد المعطي** :اتجاهات نظرية في علم الاجتماع دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٩٥ .

٣٣- **عبد الباقى الهرماس** : علم الاجتماع الديني (المجال – المكاسب – التساؤلات) فى كتاب الدين والمجتمع العربي،مركز دراسات الوحدة العربية ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت ١٩٩٠ .

٣٤- **عبد الباسط محمد حسن** : أصول البحث الاجتماعى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٣٥- **عبد الباسط محمد حسن** : علم الاجتماع ، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٣٦- **عبد الحميد مسعود** : دراسات في علم الاجتماع الثقافي ، مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٠ .

٣٧- **عبد الرازق جلالي** :علم الاجتماع بين الالتزام والأداتية ، سلسلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، عدد١٤٦ ، ١٩٩١ .

٣٨- **عبد الرحمن بن خلدون** : مقدمة بن خلدون ،تحقيق وشرح عبد الواحد وافي ،الجزء الأول ،دار نهضة مصر ،القاهرة،١٩٧٩

٣٩- **عبد الكريم بزاز** :علم الاجتماع في كتب التدريس (تحليل نقدي) المستقبل العربي ،مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ، العدد١٤٦ ،الجزر الرابع ،١٩٩١.

٤٠- **عبد الله الرشدان** ،علم اجتماع التربية ،دار الشروق ،عمان، الأردن ،١٩٩٩ .

٤١- **عبد الله محمد عبد الرحمن** ،علم الاجتماع الاقتصادي ،الجزء الأول ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٤ .

٤٢- **عبد المنعم محمد بدر** : المجتمع الريفي ،دراسة مقارنة في علم الاجتماع ،دار المطبوعات الجديدة ، القاهرة ،١٩٨٤ .

٤٣- **عزت حجازي** : من الذاتي والموضوعي في وضع علم الاجتماع في مصر، دار الكتاب ، القاهرة ،١٩٩٢ م .

٤٤- **علياء شكري** : علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعي ، في كتاب ميادين علم الاجتماع ، تأليف محمد الجوهري وآخرين،دار المعارف ،القاهرة،١٩٨٤ .

٤٥- **علي الكاشف**: التنمية الاجتماعية : المفاهيم والقضايا ،عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٤٦- **علي خليفة الكواري** : تنمية للضياع أم ضياع لغرض التنمية ، (محصلة التغيرات المصاحبة للنفط في بلدان مجلس التعاون)، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ،مايو ١٩٩٦ .

٤٧- **علي عبد الرازق جلبي** : الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع ، دار المعرفة الاجتماعية الإسكندرية ١٩٩٦ .

٤٨- **علي عبد الواحد وافي** : طبيعة علم الاجتماع وطرائق تطبيقه ، في كتاب علم الاجتماع والاجتماعيون (تجارب وخبرات) مكتبة غريب ،القاهرة ، ١٩٨٩ .

٤٩- **علي محمد المكاوي** : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٩٧ .

٥٠- **غريب سيد أحمد** : الطبقات الاجتماعية ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٣ .

٥١- **غريب سيد أحمد**: تصميم وتنفيذ البحوث ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

٥٢- **غريب سيد أحمد وآخرون** :المدخل إلي علم الاجتماع المعاصر ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،١٩٩٦ .

٥٣- **فادية الجولاني** : ميادين علم الاجتماع ،مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ،١٩٩٥ .

٥٤- **فاروق إسماعيل** : التغير الاجتماعي والثقافي في المجتمع القطري، عوامله وأبعاده في كتاب قضايا التغيير في المجتمع القطري خلال القرن العشرين ، مركز الوثائق ،جامعة قطر الجزء الأول ، ١٩٩١ .

٥٥- **فتحي أبو العينين** : المشكلات الاجتماعية بين الرأي العام والتشخيص السوسيولوجي مقدمة في كتاب جيروم ميتس ، تحليل المشكلات الاجتماعية ترجمة : فتحي ابو العينين ، مكتبة الحرية الحديثة ،القاهرة ،١٩٩٠ .

٥٦- **فوزية دياب** : القيم والعادات الاجتماعية ،بحث ميداني في العادات الاجتماعية،القاهرة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ،١٩٦٦ .

٥٧- **قبارى إسماعيل** : علم الاجتماع الثقافي منشاة المعارف – الإسكندرية ،١٩٨٢ .

٥٨- **مارسيل موسي** : علم الاجتماع والانثروبولوجيا ،بحث في الهبات والهدايا الملزمة ،ترجمة محمد طلعت عيسي ،الطبعة الأولي، د.ن.١٩٧١ .

٥٩- **محمد أحمد بيومي** :علم الاجتماع الديني ،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،١٩٩٨ .

٦٠- **محمد الجوهري وآخرون**: ميادين علم الاجتماع ،دار المعارف،القاهرة،١٩٨٤ .

٦١- **محمد الجوهري**: الأنثروبولوجيا(أسس نظرية وتطبيقات عملية)، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ١٩٩٦.

٦٢- **محمد الجوهري**: علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ،القاهرة،١٩٨٥ .

٦٣- **محمد الجوهري وآخرون** : التغير الاجتماعي،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٩٥ .

٦٤- **محمد حامد يوسف** : علم الاجتماع النشأة والمجالات ، المكتب العلمي للنشر والتوزيع ، الإسكندرية،١٩٩٥.

٦٥- **محمد حسن غامري** : التنشئة الاجتماعية للطفل في مجتمع الإمارات ، في كتاب دراسات في مجتمع الإمارات الجزء الأول ،سلسلة كتب مجلة شئون اجتماعية ،جمعية الاجتماعية الإمارات ،١٩٩٠.

٦٦- **محمد سعيد فرح**: دراسات في المجتمع المصري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،الإسكندرية ،١٩٧٦ .

٦٧- **محمد سعيد فرح**: البناء الاجتماعي والشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٨٩ .

٦٨- **محمد سعيد فرح**: ما ——— علم الاجتماع ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ،٢٠٠٠ .

٦٩- **محمد عاطف غيث** :التغير الاجتماعي والتخطيط ،دار المعرفة الاجتماعية ،الإسكندرية ،١٩٨٤ .

٧٠- **محمد عاطف غيث** : (محرر) ،قاموس علم الاجتماع ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،١٩٩٥ .

٧١- **محمد عاطف غيث** :دراسات في علم الاجتماع ، نظريات وتطبيقات، دار النهضة العربية ،بيروت ،١٩٨٥ .

٧٢- **محمد عاطف غيث** : المجتمعات المحلية (المجتمع القروى) دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٧٩ .

٧٣- **محمد عبد المنعم نور** : الحضارة والتحضر ،دراسة في علم الاجتماع الحضري ،مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ .

٧٤- **محمد علي محمد** : دراسات في علم الاجتماع ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٨٦ .

٧٥- **محمد علي محمد** : علم الاجتماع والمنهج ،دراسة في طرائق البحث وأساليبه ،دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ،١٩٨٣ .

٧٦- **محمد ياسر الخواجة** : علم الاجتماع الاقتصادي بين النظرية والتطبيق ،دار الأهالي ،دمشق ، ١٩٩٨ .

٧٧- **محمد ياسر الخواجة** : المعوقات الثقافية للتنمية الريفية ، دراسة ميدانية ،رسالة ماجستير غير منشورة مودعة بكلية (الآداب) ،جامعة طنطا ،١٩٨٨ .

٧٨- **محمد ياسر الخواجة** : البحث الاجتماعي (أسس منهجية وتطبيقات عملية) ،دار المصطفي للطباعة والنشر ،طنطا ، ٢٠٠١.

٧٩- **مصطفي الخشاب** :علم الاجتماع ومدارسه الجزء الأول ،نخبة البيان العربي ،القاهرة ،١٩٥٨ .

٨٠- **منير المرسي سرحان** : في اجتماعيات التربية ،دار النهضة العربية القاهرة ،١٩٨١ .

٨١- **ميشيل مان** : موسوعة العلوم الاجتماعية ،ترجمة عادل الهواري، سعيد عبد العزيز مصلوح ،مكتبة الفلاح – العين ، ١٩٩٤ .

٨٢- **نجيب أسكندر وآخرون** : قيمنا الاجتماعية وآثارها في تكوين الشخصية ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

٨٣-**نيقولا تيماشيف** : النظرية الاجتماعية ،طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرون ،دار المعارف القاهرة ،١٩٧٨.

٨٤- **يمني طريف الخولي** : فلسفة العلم في القرن العشرين ، (الأصول– الحصاد–الأفاق المستقبلية)،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ،عدد٢٦٤ ،ديسمبر ٢٠٠٠ .

ثانياً : المراجـع الأجنبيـة :-

1)- Berger , P.l., socialogy as of arm of consciouness . Rase,P.L. (ed) the study of society An integrated An thology, A.R ondom House Book, N.Y.,1967 .

2)- Bertrend , A.alivn, rural sacialogy an ansly sis of contemparoy Rural life, mic Grow. Hill, N.y.1958.

3)-Brown ,c.H., under standing society An introduction to social agical theary ,London 1981 .

4)- Chitomber., B., introductory rural sociology ,new delhi,1972

5)- Coser , L.the functans ofsocial canflict, n.Y.,free press ,1950 .

6)- Denzin, n.Kand lincoln , y.s., callecting and interpreting Qualitalive materials , sage Publications, London ,N. Delhi ,1998 .

7)- Dun can m.; Dictionary of sociology, . England , 1963.

8) – Enkeles , A., what is sociology , prentice Hill of media, N. Delhi,1961 .

9) – fonlona , A., and frey; i., intervewing , the Art of science .inDenZin and lin clon(eds) sage publications,london 1998 .

10)- Hersk o vits ,m., cultural Anthropology, N.y.1964 .

11) Hdler , p., and Adler, p., observational techniques, in denzin and linclon, y.s, collecting and interpreting qualitalvie materials, sage publications, london ,.N. Delhi, 1998 .

12) iandis , p.,intraductory of saciology, N.y,1978 .

13) Jesser,c.,J, social theary Revi sited, the Dryden, press, illionis, 1975.

14) Jewis,H., margan , An cient society , N.y , Henry Hotland co ., 1877 .

15) – Jones ,P., studying saciety society C saciological thearies and research pro.ctices, the dryden press, illianis, 1975.

16)- lenger man , m., Definition of sociology , potrican merrill, 1979 .

17) – li cht man , R.; social reality and consciousness ,in Book . col fax and rooch (eds) Radical socialogy Basic Books , N.y.1971 .

18) lintan , R., the study of man , appletan century, N.y,1936 .

19) lukacs , G.; History and class. Cans ciauness, london , merlin press , 1983 .

20) – max , w ., protestant Ethics and the spirit of capitalism un ar uni – Books , london , 1974

21) mchee , j., an introduction to sociology , u.s. A., 1974.

22) merrill , f.E., society and culture prentice Hill , New Jersy,1962.

23) merrill , f., society and culture, mic grow , Hill N.Y.1965 .

24) mills, w.,c., the sociological imagination, in Rose, R.ed the sdudy of society , N.y., 1967 .

25) nobbs , I,; modern society , social studies for c.s.E, George Auen and Unwin , london ,1978 .

26) parsons , T., sociology as apraf essim ,in (Rose, R.,i (ed) the study of society An integrated Anthology , Rondoom, House Book, N.y.1967.

27) Pieter , weiss , Ibn Khaldan an economic trans formation middle east studies, combridje, uni – press, U.S.A,v. 27,1995 .

28)- Rogrers , E., social change in rural society, N.Y.,1960

29) – Red field the folk culture afiy cntan ,1941 .

30) – shopriro horry , ospects of culture, n.Y., 1970 .

31) – Stake ,R.E., case studies, in Denzin and linklam (eds) stratejies of qualitative in quiry , sage publications, london ,new Delhi , 1998 .

32) – suther land , R., l., et at , introductory sociology,london, 1976

33) – Swedberge , R., economic sociology, currunt sociology , V. 35,n.l., spring,1987.

34) – typ lor ,primitive culture,london ,V.1 ,1871.

35) Unnitham and others , towards: sociology of culture in india , new Delhi,1965

36) – Weber ,m., theary of social and economic , organization trans . by Hender son ,A. and T.parsans ,N.Y.1947.

37) – Young , K.and mack ,R,sociology and social life American Book company , n.y.1965.

38) – young, R.v., sociantific social surveys and Research,n.y.,1966

المحتويـــات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول : علم الاجتماع (المفهوم والمجالات الأساسية)	١٣
الفصل الثانى : علم الاجتماع وقضية النشأة والتطور	٦٣
الفصل الثالث : أهم الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع	١٠٩
الفصل الرابع : المنهج فى علم الاجتماع	١٧٧
الفصل الخامس : المجتمع ونظمه الاجتماعية	٢١٩
الفصل السادس : التفاعل والعمليات الاجتماعية	٢٦٩
الفصل السابع : الثقافة	٣٩١
الفصل الثامن : التغير الثقافى...	٣٧٧
الفصل التاسع : التكوين المهنى للمشتغلين بعلم الاجتماع ...	٤١٥
المراجع العربية	٤٥٣
المراجع الأجنبية	٤٦٦

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠١/١٣٣٧٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5058-34-1